البطل الروائي العربي في مواجهة الحضارة الغربية :
دراسات في الرواية العربية في مصر وبلاد الشام
(١٩٣٥ - ١٩٧٨)

خليل محمد الشيخ خليل

المشرف

الاستاذ الدكتور محمود السمرة

استاذ النقد والبلاغة

نائب رئيس الجامعة الاردنية للشؤون الأكاديمية

تاريخ المناقشة

٠٧٦٣١

(قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير
في اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بالجامعة الاردنية)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" شـــكر وتقديـــر "

هذه الرسالة مدينة للاستاذ الدكتور محمود السمرة بالشيء الكثير فقد فتح لصاحبها آفاقا من المعرفة، وشمله بالكثير من الرعايـــة وظلّ طول فترة البحث يدل الباحث على الطريق، ويحميه من عـــثرة الرأي، وسطحية التناول، ويأخذه بضوابط منهجية دقيقة. دون أن تتحول هذه الضوابط الى قوالب جاهزة، تعيق التفكير والابداع. ولذا سعد الباحث بهذه الصحبة الطويلة، وأفاد منها مبدأ حريـــة التفكير. كما تعلم كيفية قراءة الاعمال الأدبية، واستجلاء العلاقات بين أجزائها ذلك الاستجلاء الذي يتجاوز السطوح الخارجية، ويـــبر الاسرار الكامنة والخافية فيها.

ولـــهذا أرجو أن يتقبل استاذي شكري وتقديري.

كما أن الباحث يتوجه بالشكر الى كل من أسهم في تقديم المعونة ويخص بالذكر:

فريال النسور، فتحية اسعد، انتصار ابو فرحة، كامل نزيـــــه، محمود خريسات، ماهر ياسين، أحمد خليل، حمدان خريســـات، عبد اللطيف القدومي، صلاح ابو دعموس، أحمد خريسات، محمد السباتين، حمدي خريسات، أحمد هيكل، يوسف ضمرة، عدنان علي خالد، صبري أبو ديّة.

s Reserved - Library of Univ

المحتويـــــــات

الصفحـــــة

مقدمة: البحث: أهدافه، منهجه، مصادره . ١ - ١٨

الفصل الاول: رائدان في مواجهة الحضارة الغربية. ١ - ٦٠

أولا :أ - مقدمة: ١ - ٣

ب- مسيرة حياة رفاعة الطهطاوي: ٤ - ٧

جـ - ملامح الشخصية الثقافية لرفاعة الطهطاوي . ٨ - ١٩

١- ثقافته التقليدية. ١١ - ١٦

٢- ثقافته الغربية. ١٦ - ١٩

د - مواجهة الحضارة الغربية بالنسبة للطهطاوي. ١٩ - ٢٨

هـ - الطهطاوي وبعض القيم الغربية: ٢٨ - ٣٤

ثانيا : أحمد فارس الشدياق: ٣٥ - ٦٠

أ- مسيرة حياته. ٣٥ - ٣٩

ب- ملامح الشخصية الثقافية للشدياق. ٤٠ - ٤٦

جـ - مواجهة الحضارة الغربية بالنسبة للشدياق. ٤٧ - ٥٥

د - الشدياق وبعض القيم الغربية. ٥٥ - ٦٠

الفصل الثاني : بواعث الرحلة الى الغرب في الرواية العربية . ٦١ - ٩٨

أ - طلب العلم. ٦٧ - ٨١

ب- السياحة. ٨١ - ٩١

جـ - الهجرة الى الغرب. ٩١ - ٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصفحـــة

الفصل الثالث: الشخصيات الروائية في مواجهة الحضارة الغربية: ٩٩ - ٢١٤

أ ـ مقدمة: ٩٩ - ١٠٠

ب ـ التصور المسبق عن الحضارة الغربية. ١٠١ - ١١٠

جـ ـ لحظة اللقاء مع الحضارة الغربية. ١١٠ - ١٢٢

ـ الحنين الى الوطن. ١١٠ - ١١٥

ـ الانبهار بالحضارة الجديدة ١١٥ - ١١٩

ـ الاقدام على المجهول وحب الاستطلاع. ١١٩ - ١٢٢

د ـ البطل الروائي في مواجهة الحضارة الغربية. ١٢٣ - ٢١٤

أ ـ المنزلة. ١٢٤ - ١٢٩

ب ـ الازدواج. ١٢٩ - ١٣٧

جـ ـ المثالية. ١٣٨ - ١٦١

د ـ التوازن. ١٦٢ - ١٨٢

هـ ـ التحرر والانطلاق. ١٨٣ - ٢٠٣

و ـ فقدان التوازن والاختلال. ٢٠٣ - ٢٠٦

ز ـ القلق والشعور بالغربة. ٢٠٧ - ٢١٤

الفصل الرابع: الشخصيات الروائية والانتماء: ٢١٥ - ٢٥٩

أ ـ الشخصيات اللامنتمية. ٢١٦ - ٢٢١

ب ـ الشخصيات المنتمية. ٢٢٢ - ٢٥٠

جـ ـ الانتماء ومشكلة فلسطين. ٢٥١ - ٢٥٩

الفصل الخامس: المرأة الغربية في الرواية العربية: ٢٦٠ - ٣٢٨

أ ـ صورة البطل الروائي في ذهن المرأة الغربية. ٢١٦ - ٢٦٦

ب ـ أنماط العلاقة بين المرأة الغربية والبطل الروائي العربي. ٢٦٦ - ٣٢٤

أ ـ مرحلة البحث عن مطلق المرأة. ٢٦٦ - ٢٧٤

ب ـ مرحلة الاصطياد. ٢٧٥ - ٢٨٢

جـ ـ علاقة الحب. ٢٨٣ - ٢٩٣

د ـ العلاقات ذات الابعاد الحضارية. ٢٩٤ - ٣٢٤

جـ ـ خاتمة. ٣٢٥ - ٣٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصفحة

الفصل السادس: الشكل الفني في الرواية العربية. ٣٢٨ - ٤٥٠

أ ـ مقدمة: ٣٢٨ - ٣٢٩

٢ـ أنواع الروايات. ٣٣٠ - ٤٣٣

أ ـ رواية التجربة الذاتية. ٣٣٠ - ٣٤٨

ب ـ رواية اليوميات والرسائل. ٣٤٩ - ٣٧٧

جـ ـ الرواية التعبيرية. ٣٧٨ - ٣٩٨

د ـ رواية الشخصيات. ٣٩٩ - ٤١٨

هـ ـ الرواية التقليدية. ٤١٩ - ٤٣٣

٣ـ الأركان الأساسية في الروايات. ٤٣٤ - ٤٥٠

أ ـ الشخصيات. ٤٣٤ - ٤٣٩

ب ـ الحبكة. ٤٣٩ - ٤٤٢

جـ ـ الاسلوب. ٤٤٣ - ٤٥٠

خاتمة: ٤٥١ - ٤٥٤

ثبت المصادر والمراجع: ٤٥٥ - ٤٦٦

خلاصة البحث باللغة الانجليزية:

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البحث: أهدافه ـ منهجه ـ مصادره

أقصد في هذا البحث الى محاولة تحليل قضية تعتبر من أخطر القضايا. وهي علاقة المشرق العربي بالحضارة الغربية. كما تجسدت في الرواية العربية في مصر وبلاد الشام في الفترة الواقعة بين سنة ١٩٣٥ - ١٩٧٨م.

فقد شهدت هذه الفترة تحولات جذرية على شتى الأصعدة، وكان لا بد أن تترك هذه التحولات بصماتها على الأدب العربي بعامة، وعلى الرواية العربية بخاصة، "فلعل الرواية، وربما نتيجة لارتباطها بدرجة أكثر بعالم الواقع، والتزامها بوجه عام بتقديم صورة للحياة، كانت أكثر ارتباطا بالعالم المحيط. وكان الروائي أكثر ارتباطا بمشاكل عصره. أو أن أردنا كلاما أكثر دقة، بصور الحياة الاجتماعية المتغيرة من حوله."(١)، فالروائي شاهد على عصره وقومه "ولكن أخطر ما في شهادته هو ما يستخلص من عطه الفني، دون تعمد منه للمشاركة في الأحداث المحيطة به بوصفه مفكرا سياسيا أو اجتماعيا."(٢)

ولا يعني هذا بطبيعة الحال أن العلاقة بين الابداع وبين التطور الاجتماعي، علاقة ميكانيكية صرفة، اذ أن ارجاع الأثر الأدبي الى العوامل الاجتماعية فقط، هو تناس لخصوصية الفن، واستقلاليته. فاختيار الرواية موضوعا للدرس، جاء لأنها تحفل بهذه المواجهة، ولأنها قادرة على تجسيد صورة المواجه (بكسر الجيم) والمواجه (بفتحها) معا. ولكنّ الباحث وقف عند مصر وبلاد الشام، وهو يعرف أنّ لهذا التوقف تأثيرا على "الصورة ـ النتيجة"، لأنّ صورة البطل الروائي العربي لا تتكامل الا اذا وسعنا رقعة البحث المكانية لتشمل بقية الأقطار العربية الأخرى،

---

١) انجيل بطرس، القهر في الرواية العربية، مجلة الجديد، السنة الاولى، العدد الرابع، ص ٤٦.

٢) شكري عياد، الرواية العربية المعاصرة وأزمة الضمير، عالم الفكر، المجلد الثالث، العدد الثالث، ١٩٧٢، ص ٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبخاصة بلاد المغرب العربي . ولكنّ مثل هذه الدراسة ليست مما يقع في مكنة باحث، لأنّ عدد الروايات التي ستدخل في نطاق الدراسة حينئذ ، سيكون ضخما ، يعجز هذا البحث عن النهوض به ، كما أنّ تباين النماذج الروائية وتنوعها ، يجعل امكانية ايجاد منهج قادر على احتوائها ، والتعامل معها بطريقة نقدية تحليلية أمرا متعذرا.(١) فكان الاقتصار على بلاد الشام ومصر لا يخلو من فائدة ـ لعل البحث قد نهض بها ـ وهي محاولته تحليل هذه الروايات، ودرسها على طريقة المنهج الداخلي . فقد انصبّ اهتمام الباحث بالدرجة الأولى على البطل الروائي وهو يواجه الحضارة الغربية ، ولكنّ هذا لا يعني أنّ الباحث أغفل الاهتمام بالقاص، اذ ليس من الممكن تحليل العمل الأدبي على نحو موضوعي الاّ بالاستفادة من جميع العوامل التي تنير أبعاد هذا العمل . ولكنّ الباحث لم يدرس هذه النماذج الروائية على نحو تجزيئي ، بل أراد أن يدرسها كما تدرس الظاهرة الأدبية . ولذا انصب الاهتمام على الرواية نفسها . وقد حاول الباحث أن يستفيد من المناهج النقدية المختلفة ، فاعتمد في البداية على المنهج

---

(١) استعرضت سعاد محمد خضر في كتابها "الأدب الجزائري المعاصر: دراسة أدبية نقدية"، نماذج روائية لكثير من الروائيين الجزائريين ، أمثال محمد ديب، مولود معمري ، مولود فرعون ، كاتب ياسين ، مالك حداد ، آسيا جبار ، مراد بوربون ، ص ص ١٤٢ ـ ٢٢٠ . والملاحظ أنّ الحديث عن الحضارة الغربية ـ بسبب الصراع الاستعماري العسكري المباشر ـ يتسم بالحدة والكراهية الشديدة ، في حين تخفت مثل هذه الحدة عند الحديث عن الغرب. بشكل عام. في كتابات المشرقيين . انظر على سبيل المثال :

أ ـ محمد كرد علي ، غرائب الغرب، دمشق ، دار المقتبس، ١٩١٠م ، في حديثه عن باريس بعنوان "تحية باريز"، ص ٥٩ وما بعدها .

ب ـ طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، بيروت، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٣ .

جـ ـ زكي نجيب محمود ، شروق من الغرب، القاهرة ، الانجلو مصرية ، بلا . ت. ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التاريخي ، بأن رتب الروايات حسب سنة صدورها ، وذلك من أجل دراستها على نحو زمني متتابع. ولكنّ هذا المنهج لم يف بالغرض، لأنّ هذه الظاهرة ، هي نتاج لمشاركة عدد واسع من الروائيين ، وليست من انتاج أديب واحد . ولهذا اعتمد الباحث بشكل رئيسي على المنهج الداخلي ، فمن المعروف أنّ هذا المنهج " يكتفي بالانطلاق من الوجود الموضوعي للعمل الأدبي ، ومن قيمه الداخلية ." (١) ، وهذا جعل الاهتمام بالقاص ضرورة لتشكيل خلفية الباحث، دون أن يظهر ذلك في البحث على نحو صريح . ثم انّ الاهتمام المتزايد بالقاص، سيشتت وحدة الظاهرة التي حرص الباحث على لمّ شتاتها ، وسيحيل الدراسة الى نوع من التشريح لكل رواية على حدة . الأمر الذي يقطع الوشائج بين أجزاء هذه الظاهرة.

واذا كانت طبيعة البحث قد أملت مثل هذا المنهج ، فالملاحظ أنّ المنهج قد وزّع القضايا الروائية توزيعا قد لا يرضى عنه بعض النقاد . ولكنّ الباحث يشارك من يعتقد أنّ " مهمة الناقد في المطاف الأخير هي أن ينطق العمل الفني بلغة نقدية ، فالعمل الفني أبكم كما يراه الشاعر أرشيبالد ماكليش، وهو يعني بذلك أنه عاجز عن النطق بلغة أخرى غير لغته ." (٢) ، ولهذا كان الكشف عن جوانب الرواية ، وتتبع مسارها ، وتحليلها هو منتهى المطاف.

وأرجو ألا يفهم مما تقدم أنّ أحدا قبلي لم يحاول درس هذه الظاهرة. فالحق أنني استفدت من جل ما كتب في هذا الميدان ، استفادة متفاوتة. فقد بدأت الصلة بهذا الموضوع مذ كنت طالبا في قسم اللغة العربية وآدابها ، وعلى وجه التحديد في السنة الثالثة ، وكانت مطالعاتي في ميدان الدراسات الأدبية ، المتعلقة بالرواية العربية ، هي التي أوحت لي به. فقد وقفت عند ملاحظات رجاء النقاش (٣) ، ووقفت

---

١) خلدون الشمعة ، الشمس والعنقاء ، ص ٥٣

٢) المصدر نفسه ، ص ٥٨

٣) رجاء النقاش، ادباء معاصرون ص ٧٤ وما بعدها ، ص ٩٦ وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عند ما كتبه غالي شكرى في مواطن متعددة [1] ، كما وقفت عند ما كتبه عبد المحسن طه بدر [2] ، وعند ما كتبه احمد هيكل [3] ، وعلي الراعي [4] ، وشاكر مصطفى [5] وحسام الخطيب، [6] ، وجورج سالم [7] ، وجورج طرابيشي [8] ، ومحي الدين صبحي [9] ، وعند كتاب بو علي ياسين ونبيل سليمان [10] ، وفؤاد دوارة [11] ، وعدنان بن ذريل [12] ، والياس خورى [13] ، وخالدة سعيد [14] ، وطه وادى [15] ،

---

(١) غالي شكرى : أزمة الجنس في القصة العربية ، ص ٢٣٧ ، ص ص ١٦٦ - ١٨٢ وانظر: الرواية العربية في رحلة العذاب، ص ص ١٣ - ٢٣ ، وثورة المعتزل ، دراسة في أدب توفيق الحكيم ، ص ص ١٩٩ - ٢٢٠

(٢) عبد المحسن طه بدر ، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ١٨٧٠ - ١٩٣٨ ص ص ٣٩٤ - ٣٩٧ ، ص ص ٣١٣ - ٣١٧

(٣) احمد هيكل الادب القصصي والمسرحي في مصر من أعقاب ثورة ١٩١٩ الى قيام الحرب الكبرى الثانية ، ص ص ١٧٤ - ١٩١ ، ص ص ١٣٩ - ١٤٩

(٤) علي الراعي ، دراسات في الرواية المصرية ، ص ص ١٥٧ - ١٨٨

(٥) شاكر مصطفى ، القصة في سوريا ، ص ص ٤٢٠ - ٤٤٩

(٦) انظر حسام الخطيب، سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية ، ص ص ٤٧ - ٥١ ، وانظر ملامح في الأدب والثقافة واللغة ، ص ص ٨٥ - ٨٩ .

(٧) جورج سالم ، المغامرة الروائية ، دراسات في الرواية العربية ص ص ٣٩ - ٤٥ .

(٨) جورج طرابيشي ، لعبة الحلم والواقع ، دراسة في أدب توفيق الحكيم ، ص ص ٣٩ - ٤٥ ، وانظر ، شرق وغرب ، رجولة وأنوثة ، وانظر الادب من الداخل ، ص ص ٥١ - ٧٩ .

(٩) محي الدين صبحي ، عوالم من التخييل ، ص ص ٣٣ - ٥٨ ، ص ص ٨٢ - ٨٤ .

(١٠) بو علي ياسين ، ونبيل سليمان ، الأدب والايديولوجيا في سورية . ص ص ٦١ - ٦٨ ص ص ٦٩ - ٧٣ .

(١١) فؤاد دوارة ، عشرة أدباء يتحدثون ، ص ص ٢٠ - ٢١ ، ص ص ٣٢ - ٣٤ ، ص ص ١٠٧ - ١١٤ ، وفي الرواية المصرية ص ص ٥٧ - ٦٣ ، ص ص ١٤٥ - ١٥٠ .

(١٢) عدنان بن ذريل ، الرواية العربية السورية ، دراسة نفسية ، ص ص ٤٢ - ٤٨ ، ٣٧ - ٤١

(١٣) الياس خورى ، تجربة البحث عن أفق ص ص ١٥ - ٣٠

(١٤) خالدة سعيد ، حركية الابداع ، ص ص ٢٠٣ - ٢٧٥

(١٥) طه وادى ، مدخل الى تاريخ الرواية المصرية (١٩٠٥ - ١٩٥٢) ، ص ٥٩ و ص ص ٨١ - ٨٣ ، وطه وادى ، صورة المرأة في الرواية المعاصرة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعفيف فراج [1]، وغير ذلك من الدراسات. وأفاد البحث من هذه الدراسات جميعا، تارة باعتبارها مفاتيح تدل على الروايات موضوع الدراسة، وتارة أخرى لاختلاف مناهج أصحابها، وطرائقهم في تناول العمل الأدبي. ولكن هذه الدراسات وقفت عند الروايات الشهيرة في هذا المجال، كرواية توفيق الحكيم، "عصفور من الشرق" ورواية يحي حقي "قنديل ام هاشم"، ورواية طه حسين "أديب"، وثنائية شكيب الجابري "قدر يلهو"، و "قوس قزح". ولكن هذه الوقفات، على ما فيها من عمق ونفاذ في كثير من الأحيان، جاءت في سياق عام، جعل الاستفادة من هذه الدراسات محدودة، لأنها تتم وفقا للطريقة التشريحية، التجزيئية، والبحث يتناول الرواية باعتبارها جزءا من الظاهرة الأدبية.

وقد قام الباحث بمسح شامل لمعظم المجلات الثقافية العربية ذات الاهتمام بالأدب العربي الحديث [2]، ومن الطبيعي أن هذه الدراسات قد أفادت البحث، ولكنها ظلت تقتصر على مشاهير الروائيين في الأغلب.

---

1) عفيف فراج، الحرية في أدب المرأة، ص ص ٣١ - ٣٧، ص ص ١١٥ - ١٢٠

2) انظر على سبيل المثال:

١- مجلة الآداب البيروتية: العدد الثامن، ١٩٥٥م، سهيل ادريس، قصصنا القومي، ص ص ١ - ٤، والعدد الرابع، ١٩٥٤م، ص ص ٥٧ - ٦٢، ص ص ٧٦-٧٨، والعدد الخامس ص ص ٣٥-٣٨، والعدد السادس، ص ص ٤٦ - ٥٠، والعدد الثامن ص ص ٤٥ - ٤٦، والعدد الخامس، ١٩٦٥م، ص ص ٦٤ - ٦٥ ... الخ.

٢- مجلة حوار، صبرى حافظ، أزمة الحرية في الرواية العربية المعاصرة، السنة الثانية، العدد الرابع، ١٩٦٤م، ص ٥٢ وما بعدها.

٣- المثقف العربي، أحمد ابراهيم البهواري، الاغتراب والوعي الثورى في قنديل أم هاشم، العدد الثاني، السنة الثالثة، ١٩٧٧، ص ١٠٨ وما بعدها.

٤- الكاتب، نعيم عطية، عامل الارادة في أدب يحي حقي، مجلة الكاتب، السنة الثالثة عشرة، ص ص ٧٤ - ٩٤.

٥- عالم الفكر، المجلد الثالث، العدد الثالث، ١٩٧٢، شكرى عياد، الرواية العربية وأزمة الضمير العربي، ص ص ٩ - ٣٨.

٦- مواقف، العدد الثامن والعشرون، خالدة سعيد، الرواية العربية بين ١٩٢٠ - ١٩٧٢، انظر ص ٨١، ٨٥، ٨٦.

٧- الهلال، العدد الخامس، السنة الثمانون، فؤاد دوارة، توفيق الحكيم روائيا، ص ٧٤ وما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثمة كتابان تناولا هذا الموضوع هما :

أولا : كتاب محمد كامل الخطيب " المغامرة المعقدة ، مقدمة في تاريخ العلاقة بين المجتمع العربي والغرب، كما يظهرها الفن الروائي في نشوته وتطوره" ، دمشق ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٧٦ .

ثانيا : كتاب جورج طرابيشي ، " شرق وغرب، رجولة وانوثة"، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٧م.

أما بالنسبة لكتاب الخطيب، فقد استمد المؤلف عنوان كتابه الرئيسي ، من رواية الكاتب السنغالي حميدو فان " المغامرة المعقدة"، ففي هذه الرواية ينتقل سامبا ديللو، الشخصية المحورية فيها من كتّاب القبيلة في السنغال الى السوربون في فرنسا (١) . ولكن العنوان التوضيحي يكشف عن مضمون الكتاب، وعن موقف المؤلف فهذا العنوان " مقدمة في تاريخ العلاقة بين المجتمع العربي والغرب كما يظهرها الفن الروائي في نشوته وتطوره"، يوضح أن المؤلف يريد أن يؤرخ للعلاقة بين المشرق العربي والغرب، معتمدا على الفن الروائي . ومثل هذا المفهوم للأدب وللفن عموما ينبئ عن منهج يستمد من ايديولوجية معدة سلفا . فالمفهوم الماركسي " يرى في الأدب معرفة ، ويرى أن مضمونه يحوى أفكارا يقينية "(٢). ينقسم الكتاب الى ثلاثة أقسام رئيسية :

١- " أسلوب الرحلة الى الغرب - مرحلة - والوصف لما رؤى وقد قام الطهطاوى بهذه الخطوة " تخليص الابريز في تلخيص باريز".

٢- أسلوب السيرة الذاتية - مرحلة ثانية - الشخص الذى كان بؤرة لالتقاء الشرق والغرب، ونعتبر كتاب الايام بأجزائه الثلاثة (١٩٢٩ - ١٩٣٩ - ١٩٦٧) أهم أثر أدبي معبر عن هذه المرحلة .

---

١) محمد الخطيب، المغامرة المعقدة، ص ١٤٥ وما بعدها .

٢) نصرت عبد الرحمن ، في النقد الحديث، ص ٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- أسلوب الرواية - مرحلة ثالثة - المتقنة لهذا الحد أو ذلك، وقد قامت بهذه الخطوة، الأجيال التي تلت جيل طه حسين، بدأ من توفيق الحكيم "عصفور من الشرق"، وشكيب الجابري "قدر يلهو" ١٩٣٩، وما تزال الرواية العربية تقدم علامات جديدة على هذا الطريق."(١)

وهذا التقسيم صحيح اذا نظرنا اليه نظرة عامة، غير أن ما فيه من أحكام قاطعة، ولا سيما في ترتيب المراحل، يصبح أمرا مشكوكا في دقته، اذا عرفنا أن هذه المراحل متداخلة، لا يصح اعتبار كل منها مرحلة تسلم الى الأخرى بسهولة ويسر. وخير دليل على ذلك كتاب "الايام" فلقد امتد عبر مرحلة زمنية تقارب الأربعين عاما ولهذا يقع المؤلف في مغالطة واضحة عندما يقول: "وبهذا المنظار نعتبر مغامرة "الأيام" لطه حسين، خطوة متقدمة على مغامرة رفاعة الطهطاوي في رحلته في رحلته الى باريس "تلخيص الابريز"، ونعتبر "قدر يلهو" للجابري خطوة متقدمة على "الأيام"،(٢) فهو يفاضل بين أجناس أدبية، لا تصح المفاضلة بينها لأن كل جنس منها ينتمي الى فن مستقل يتمتع بخصائص وميزات لا تتوفر في الفن الآخر، وتغدو المفاضلة بينهما نوعا من المزاجية، غير المبررة فنيا.

ينقسم حديثه عن رفاعة الطهطاوي الى عدة أقسام:

١- أصول الفكر العربي الحديث ص ص ١٧ - ٢٠
٢- رفاعة الطهطاوي ص ص ٢٠ - ٢٥
٣- تخليص الابريز ص ص ٢٦ - ٣٠

تحت العنونة الأولى يحاول المؤلف أن يجيب عن السؤال التالي:

"ما هي أرضية المغامرة التي انبثت بطلها الأول الطهطاوي؟"، وهذا السؤال أخف بكثير من العنونة الأولى، كما أن الاجابة عنه تبدو أكثر معقولية. غير

---

(١) محمد الخطيب، المغامرة المعقدة، ص ١٢
(٢) المصدر نفسه، ص ص ١٢، ١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن المؤلف لا يذكر في هذه الصفحات مصادره التي اعتمد عليها . وان كان يبدو أنه استفاد مما كتبه لويس عوض في " تاريخ الفكر المصري "[1] ، غير أنه زاد عليه في الأحكام الكثيرة التي يطلقها . ففي حديثه عن الفكر الانتقائي العربي يرى أن الجبرتي كان رائدا لهذا الفكر " الذي يدعو لفصل العلوم عن العقائد ، التكنولوجيا عن الايديولوجيا ، انهم يقبلون السيارة ، ولا يقبلون نظام عملها وتسييرها او الفكر المنظم الذي اخترعها ."[2] ، ولا أظن أن الانتقائية تعني ذلك ، فقد نجح المؤلف في تحديدها ، ولكنه فشل في ضرب المثال عليها .

وفي حديثه عن الشيخ العطار ، يرى أن رؤيته " تحمل بذور نظرة انسانية شاملة الى حضارة كونية ، تساهم فيها جميع المجتمعات والحضارات والثقافات الانسانية ."[3] ، وواضح أن الخطيب حمّل العطار مالا يحتمل ، بدون دليل علمي . والعجيب أنه في حديثه عن الطهطاوي لم يورد الا نصا واحدا من " تخليص الابريز " ، كما فعل في حديثه عن " الأيام " أيضا .

والملاحظ أن تحليله للروايات يتم وفق الأطر التالية :

١- يتم تحليله لهذه الروايات من منطلق أيديولوجي جاهز ، يتسم بالحماسة المفرطة ، والمبالغة المسرفة ، التي تتضح في درجة الاطلاق والتعميم والحسم ، فعندما يتحدث المؤلف عن ثنائية شكيب الجابري " قدر يلهو " و" قوس قزح " ، يرى أن تخلخل ذات الكاتب وعدم قدرته على اتخاذ موقف حاسم عن طريق تقديم رواية ذات وجهة نظر واحدة ، يمثل تخلخل البنية الطبقية الاقطاعية التي ينتمي اليها الكاتب نشأة وفكرا ، فالخطيب يرى أن لجوء الجابري الى التكنيك القصصي المعروف بالثنائية ، يعود الى تخلخل

---

١) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصري ، ٢ / ص ص ٨ - ٣١

٢) محمد الخطيب ، المغامرة المعقدة ، ص ٢٠

٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطبقة الاقطاعية التي ينتمي اليها . وهذا التفسير فضلا عن لا منطقيته، يناقض ما قاله المؤلف عن تقدم تقنية هذه الرواية بالقياس الى " الايام " . كما ان المؤلف يرى أن هدف الجابرى من تأليف الثنائية " هو تقديم دفاع عن قيم المجتمع الشرقي الاقطاعي ، أمام فكر غربي تمثله برجوازية ناشئة في سوريا ."(١)

٢- يتم التفريق بين الأعمال الأدبية ، وفق التصنيف الايديولوجي (الرجعية او التقدمية) ، وهذا المنظار فضلا عن كونه آتيا من خارج العمل الفني فهو غير مقنع، اذا لم يسبقه تحليل وتبيين لماهية هذا العمل ، فهو أشبه بالتحريم والتحليل عند فقهاء المسلمين . فالجابرى رجعي من حيث موقفه الاجتماعي ، تقدمي من حيث دلالة أدبه، وفؤاد الشايب تقدمي " كممثل لبرجوازية محلية ناشئة في وجه الاقطاع ."(٢) ، ورجعي " كممثل لبرجوازية تنشد ضد الطبقات الفقيرة ."(٣) ، وعبد السلام العجيلي ، يلتقي موقفه بموقف كبلنغ " مثلما تلتقي الاقطاعيات والبرجوازيات المسيطرة في الوطن العربي مع الامبريالية ."(٤) ، وفاضل السباعي يمثل " تستر الطبقة الاقطاعية بالاخلاق والغيبيات ."(٥) ، وهو يمثل حالة " تتنقب فيها الرجعية بنقاب الأخلاق الحريرى ."(٦) ، والحكيم تقدمي في " يوميات نائب في الأرياف "، رجعي في " عصفور من الشرق "، وهو في التقويم النهائي " ليس أكثر من متأرجح لاه ، وفي أحسن الأحوال طفل حائر يريد أن يجعل شخصه مركز الأحداث، حتى وان كلفه ذلك ، كسر بعض الأواني ، انه الحكيم التجسيد الأدبي الحي والفكرى كذلك للبرجوازية المحلية ، وهي منذ تكوينها ، تحاول الانفلات من وضعها الوسطي ، لتصل في النهاية الى

---

١) محمد الخطيب، المغامرة المعقدة، ص ٦٠
٢) المصدر نفسه، ص ٦٦
٣) المصدر نفسه، ص ٦٦
٤) المصدر نفسه، ص ٧٩
٥) المصدر نفسه، ص ٨٢
٦) المصدر نفسه، ص ٨٢

٢٦٣٧٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التصالح مع الاقطاع والامبريالية."[1]، ويحي حقي يمثل الليبرالية المتنورة جدا ولذا فروايته"تحاول الوقوف ويتوازن (حتى لا نقول الرقص) على الحد الواصل، لكن الفاصل كذلك، ما بين الليبرالية والديمقراطيةبالمعاني الاجتماعية لهذه الألفاظ."[2]، أما سهيل ادريس، فظاهر روايته يوهم بأنها "رواية قومية"، بينما هي حقيقة رواية برجوازية."[3]، فالمؤلف يتجاوز التحليل الى الادانة، وينتقل منها الى استنتاج البرهان على صدق رؤيته.

٣- تغفل الدراسة الاهتمام بالشكل الفني اغفالا ذريعا، وهذا الاغفال له مبرراته الموضوعية، بالنسبة للمؤلف، وله مبرراته الايديولوجية. فهو يريد أن يؤرخ للعلاقة بين المجتمع العربي والغربي، فانصب جلّ اهتمامه على مضمون الأعمال غير أن الأمر اللافت للنظر، أن الباحث يخلط في دراسته بين الرواية والقصة القصيرة، وهذا الخلط غير مبرر، لأن المؤلف اختار الرواية متعمدا."[4]، فلقد توقف عند قصة فؤاد الشايب القصيرة "الشرق شرق"، وعند قصة مظفر سلطان القصيرة، "سقيته من شرابي"، وعند مجموعة يوسف شرور القصصية."[5]

وهذا التوقف محير للباحث، فلماذا اختار المؤلف هذه القصص القصيرة دون غيرها ؟ انّ السؤال لا يريد أن يقلل من قيمة هذا القصص، ولكنه يود الاشارة الى مثل هذا الخطأ المنهجي.

---

١) محمد الخطيب، المغامرة المعقدة، ص ٩٤

٢) المصدر نفسه، ص ١٠٠

٣) المصدر نفسه، ص ١١٩

٤) المصدر نفسه، ص ١١

٥) المجموعات القصصية هي على الترتيب: "تاريخ جرح"، "ضمير الذئب"، "زورق من دم"، وقد أشار لها المؤلف في الصفحات التالية: ٦٣، ٨٣، ١٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤- ضمن الكاتب دراسته بعض الروايات التي لا يذهب البطل الروائي العربي فيها الى اوروبا ، بل يواجه تأثيرات هذه الحضارة وهو في الوطن العربي . وثمة فرق لا يخفى بين هذين النوعين من المواجهة ، أدركه المؤلف وهو يتحدث عن الفرق بين الجمرتي والطهطاوي (١) . فرواية يوسف ادريس " البيضاء " ، محورها المكاني مدينة القاهرة ، في حين تدور أحداث رواية صنع الله ابراهيم " نجمة اغسطس " ، في أسوان حيث يتم بناء السد العالي . ولعل المؤلف أدخلهما في نطاق دراسته ، لأن شيئا من نزعته الايديولوجية يتحقق في هاتين الروايتين ، وان كان ذلك بنسبة متفاوتة . فهو يرى " أن اتحاد الراوي العربي بالعاطفة الروسية - على الرغم من كل الصعاب التي حاولت منعه - كان تعبيرا ورمزا عن اتحاد انساني منتج وجميل ، فيه يمتزج الشرق بالغرب ، الجمال بالخير . " (٢)

٥- درس المؤلف هذه الظاهرة على الطريقة التشريحية ، فلقد تناول الروايات رواية ، رواية ، مما أفقد كتابه الترابط المنطقي ، وجعله أكواما لا صلة لكل كومة بالأخرى . فقد درس الروايات والقصص تبعا لمكان صدورها ، فبدأ بسورية ، ثم بمصر ، واتبعها بلبنان ، وفلسطين ، والسودان ، والعراق ، والجزائر ، وانتهى بالسينغال ، وهذه الطريقة لا توضح " العلاقة بين المجتمع العربي والغرب . كما يظهرها الفن الروائي في نشوته وتطوره " ، لأنها تشتت أبعاد هذه العلاقة ، وتهدم الجسور بينها .

---

١) محمد كامل الخطيب ، القاهرة المعقدة ، ص ٢٦

٢) المصدر نفسه ، ص ١١١ ، في حديثه عن رواية " نجمة أغسطس "

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما كتاب جورج طرابيشي "شرق وغرب، رجولة وأنوثة"، فهو يتناول كما يبدو من عنوانه العلاقة بين المرأة الغربية، وبين الشخصيات القصصية والروائية العربية، ويرى المؤلف أنّ وقوفه عند هذه الجزئية في ظاهرة العلاقة بين الشرق والغرب، جاء لأن العلاقة بينهما عولجت في الرواية العربية من منظار جنسي، فهو يستخدم العلاقة بين الرجل العربي والمرأة الغربية، مفتاحا يلج به هذه الظاهرة، لاستكناه خباياها، غير أنّ المؤلف يقصر دراسته على الأعمال التالية:

رواية توفيق الحكيم "عصفور من الشرق"، ومجموعة فؤاد الشايب القصصية "تاريخ جرح"، ورواية سهيل ادريس "الحي اللاتيني"، ورواية صباح محي الدين "السنفونية الناقصة"، ورواية عبد السلام العجيلي "رصيف المذراة السوداء"، ورواية الطيب صالح "موسم الهجرة الى الشمال"، ورواية عبد الرحمن منيف "الاشجار واغتيال مرزوق". وتقع دراسته في اثنتين وتسعين ومائة صفحة من القطع المتوسط نسبيا. واقتصار المؤلف على هذه النماذج، يضع القارئ أمام احتمالين؛ فهو قد يعني عدم اطلاعه على بقية الأعمال الروائية الأخرى، لأنه تناول أكثر الأعمال شهرة وبريقا، وهو قد يعني الانتقاء المتعمد، بعد الدراسة والتحليل - لروايات تثبت وجهة نظر المؤلف، وهذا الاحتمال أرجح من سابقه، فقد أشار المؤلف الى ما يمكن أن يعاب على هذه الدراسة "في تناولها لنماذج مسبقة الاختيار من الأعمال الأدبية."(١)، وهذا العيب في نظري من أخطر ما يوجه الى هذه الدراسة. فعلى الرغم مما تتحلى به الدراسة من مستوى نقدي ممتاز، الا أنّ القارئ يشعر وهو يقرأ الكتاب أنّ في ذهن الناقد فكرة جاهزة، يريد أن يثبتها في الكتاب المنقود، ولكن الناقد لا يتعسف في ذلك، ولا يلوي عنق الحقيقة، وقد ساعده على ذلك

---

(١) جورج طرابيشي، شرق وغرب، رجولة وانوثة، ص ١٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمران : مهارة نقدية ، وقدرة نفاذة على تحليل الآثار الأدبية ، واختياره المتعمد للأعمال التي يجد فيها مصداقية ما يعتقد .

ينطلق المؤلف في دراسته للأعمال الأدبية ، من الرؤية الواقعية الاشتراكية ، للأدب. فنزعته الايديولوجية تظهر بشكل واضح في ثنايا الكتاب، ولكنها لا تظهر على نحو مسطح كما رأينا في الكتاب السابق ، بل يستخدمها أداة للتحليل ، لا للجمود ، والادانة . فهو لا يؤمن بلعبة المفاتيح الجاهزة في النقد ، أو على حد تعبيره " لست من النقاد الذين يؤمنون باسطورة المفتاح الذى يفتح الأقفال جميعا . فلكل قفل مفتاح ، والأثر الأدبي قفل . ومحاجة هو الآخر الى مفتاح خاص به . وأردأ نوع من النقاد هو ذاك الذى يصر على فتح الأثر الأدبي الأصيل بمفتاح جاهز أى بمنهج مسبق ، وأيديولوجيا مسبقة . . . والتعددية المنهجية لا بد أن ترتكز في الوقت نفسه الى رؤية شمولية واحدة .

وهذه الرؤية ايديولوجية بالضرورة ، وفي الحق لا يمكن أن يوجد ناقد لا يحمل بين دفتي عقله ايديولوجيا ما . لكن ما لا يجب أن يغيب عن البال أن الأثر الأدبي حامل هو الآخر للايديولوجيا . فلا وجود لعمل أدبي بريء ."(١)

---

(١) جورج طرابيشي ، الأدب من الداخل ، ص ٨ ، ٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وزّع المؤلف دراسته على مصر، وسوريا، ولبنان، والسودان، والعراق [1]، ولم يكن في قصد المؤلف استقصاء هذه الظاهرة من الناحية الكمية، فذلك يتنافق مع القصدية، التي جمع بها رواياته وانتقاها. وهو لم يقصد هذا التوزيع الجغرافي أيضا، لأن هذا التوزيع كما رأيناه لا يمثل شيئا، ولا يقصد الى شيء. غير أنّ الناقد درس هذه الظاهرة على الطريقة التشريحية أيضا، مما أدى الى تفتيت أجزاء هذه الظاهرة. وهذا أمر يؤسف له حقا، فانّ اقتصار الناقد على الجزئية هذه وعلى الأعمال تلك، كان يبشر بدراسة تركيبية - تحليلية، يملك جورج طرابيشي كل أدواتها، ولكنه لم يفعل ذلك.

يعتمد المؤلف على المنهج الداخلي في التعامل مع هذه الأعمال، لأنّ هذا المنهج يقوم على أساس دراسة الآثار الأدبية دراسة داخلية مستفيدا من المناهج كلها، سواء أكانت تاريخية، أم اجتماعية، أم نفسية أم بلاغية أم جمالية. فالمؤلف

---

(١) انّ نسبة عبد الرحمن منيف الى العراق، فيه بعض التجاوز، اذا نظرنا الى هذا الموضوع من زاوية الانتماء الجغرافي، فلقد ولد عبد الرحمن منيف في الأردن، من عائلة ذات أصول تعود الى الجزيرة العربية، وتربى في اوروبا، وأقام فترة طويلة في الشام، ويعيش الآن في العراق، ولقد انعكس ذلك في رواياته، بالنسبة للمكان، فكل الأمكنة بلا أسماء، لاحساس الروائي أنه في رحيل دائم. انظر، مجلة الهلال، السنة الخامسة والثمانون، ١٩٧٧م، "حوار مع الكاتب الروائي عبد الرحمن منيف"، ص ص ١٣٢ - ١٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يدرس رواية الحكيم "عصفور من الشرق"، باعتبارها تمثل "هجاء الغرب بتأنيثه"، ويضيء جوانب هذه الرواية، ويكشف عن علاقاتها عبر هذه الفكرة، كما يدرس "أحلام يولاند"، احدى قصص فؤاد الشايب باعتبارها تمثل "الأمير الشرقي في دور المهرج"، أما "الحي اللاتيني" فهو يدرسها باعتبار أنها تمثل "مشروع المنتقم الكبير"، أما "السنفونية الناقصة" فهي تمثل عنده "الديك الشرقي المحشو بالفيتامينات"، في حين تمثل "رصيف العذراء السوداء"، "الغرب من منظور السائح الشرقي"، أما "موسم الهجرة الى الشمال" فهي عنده "الجغرافية التي قلبت معادلة التاريخ"، وتكون رواية "الأشجار واغتيال مرزوق"، ممثلة عنده "للعالمين اللذين لا يمكن أن يتلاقيا"، ومع أن تناول المؤلف لهذه الأعمال، كان تناولا تحليليا، يتغلغل الى الزوايا البعيدة في العمل الأدبي المنقود، ويلقي الأضواء الساطعة على العلاقات التي تحكم هذه الأعمال، ويبين ما فيها من توازن أو اختلال، فان المؤلف يفصل في بعض الأحيان "الأفكار" التي توجد في هذه الأعمال عن قوالبها الفنية. ويناقشها بمقياس الصحة والخطأ، أو الجودة والرداءة، وهذا لا يصح "لأن أي حديث عن هذه الأفكار ووجهات النظر باعتبارها كائنات مستقلة يشوهها، ذلك أنها بعد رحلتها في شرايين العمل الأدبي، ونموها معه، واكتمالها باكتماله، قد أخذت معنى جديدا وصبغة جديدة، حيث أصبح معناها لا يتضح الا اذا تناولت باعتبارها جزءا من هذا الكيان الخاص الذي هو القالب الأدبي."(١)، ولعل غير مثال على هذا الفصل يظهر في حديث المؤلف عن "ايفان" احدى شخصيات رواية الحكيم "عصفور من الشرق". فالمؤلف لا يكتفي بمناقشة أفكاره، ورفضها، بل يدينها بنبرة نقدية غاضبة.(٢)، فهو يقول عنه: "ان ايفان كاستانه هكسلي، مالتوسي، بأرذل معاني المالتوسية ... ان ايفان كاستانه هاكسلي، داعية

---

١) محمود الربيعي، قراءة الرواية، نماذج من نجيب محفوظ، ص ١١

٢) جورج طرابيشي، شرق وغرب، رجولة وانوثة، ص ص ٢٩ - ٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قروسطي عنيد لسياسة التعمية والتجهيل والظلامية." [1] ، وعندما يعقب على حديث "ايفان" عن الحضارة الغربية، وكيف أنها نتاج لبلاد " هي الوحيدة التي أعدمت في يوم علماءها حرقا واتهمتهم بالسحر والجنون، وخنقت حرية الرأى حتى في شؤون الأدب والفن." [2] ، لا يكتفي المؤلف بتفنيد هذا الكلام بل يناقشه كما يناقش المفكر فكرة تصدر عن مفكر آخر. أى أنه يقف منه موقفا عدائيا، كأنه يصدر عن تيار فكرى آخر مناهض له. واذا كانت مثل هذه المناقشة تثرى الفكرة ، فهي على طريقة المؤلف في هذا الموضع تظلم النص، لأنها تعزله عن الشكل الأدبي الذى وضع فيه. ولأنها تجيء في غير موضعها ، فالاختلاف بين جورج طرابيشي (المفكر) ، وبين توفيق الحكيم (المفكر) ، لا يتجسد في "عصفور من الشرق"، لأنها عمل فني ، لم يكتبه الحكيم الا بصفته الروائية. *

---

١) جورج طرابيشي ، شرق وغرب، ص ٣٣

٢) المصدر نفسه، ص ٣٧

*) يرى الآن روب جرييه في كتابه " نحو رواية جديدة" ، ص ٥٠ "أن الكلام عن مضمون الرواية وكأنه شيء مستقل عن الشكل ، يعني أننا نخرج الرواية من ميدان الفن تماما ، ذلك لأن العمل الفني لا يحوى شيئا بالمعنى الحرفي للكلمة (كأنه صندوق يحوى في داخله، أولا يحوى شيئا ذا طبيعة غريبة) . ليس الفن مظروفا ... أو ورقة مذهبة ... انّ الفن لا يخضع لأى عبودية من هذا النوع، ولا لأى وظيفة حددت مقدما ... ويمكننا أن نقول انه لا يعبر الا عن نفسه، انه يخلق توازنه الخاص بنفسه ومعناه الخاص بنفسه."

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنّ الكتاب، وان تناول هذه الظاهرة، عملا، عملا، لم يهمل الربط بين هذه الأعمال، وان جاء هذا الربط، جزئيا، ومبعثرا. وهذا يعني أنّ الناقد أدرك الصلة بين أجزاء هذه الظاهرة، ولكنه اكتفى بمجرد الاشارة.

واذا كان الناقد يؤمن بالتعددية المنهجية في قراءة النص، ويرى أنها لا تتعارض مع الأيديولوجيا، فانه على صعيد الرؤية الفكرية، يؤمن برؤية شمولية، أحادية في الوقت نفسه.

فقد انطلق من فكرة ملخصها أنّ المثقف الشرقي، يعكس في مواجهته للحضارة الغربية، عنته الثقافية، وينصب نفسه - كردة فعل - ذكرا يمثل فحولة الشرق في مواجهة الغرب الأنثى. ثم قام بقراءة الأعمال الأدبية منطلقا من هذه الفكرة. وقد تكون هذه الفكرة سليمة، وقد لا تكون، ولكنّ طمس الجوانب الأخرى في الظاهرة، أو تصغيرها، حتى تختفي، أساء الى البحث، وحرمه من الصبغة التكاملية.

ولكنّ الكتاب يظل في التقويم النهائي، متميّزا، لما فيه من آراء نقدية مبتكرة، وقدرة موفقة على تحليل الأعمال الروائية والقصصية.

وأخيرا فانّ من الأهمية بمكان أن يعرف القارئ هاتين الحقيقتين:

١ - حاول الباحث أن يكون مستقصيا، في جمع الروايات، ولكنّ التغطية الشاملة متعذرة، لأسباب كثيرة لا تخفى، غير أنّ الباحث وقف عند اثنتين وعشرين رواية، ولا يخفى أنّ هذه الكمية تشكل ظاهرة، تستحق الدراسة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ - لم يكن تأريخ العلاقة بين الغرب والحضارة الشرقية هدفي ، لأن الرواية وان كانت تصور الواقع ، الا أنها ليست الواقع تماما ، فهي حصيلة تفاعل الخاص مع العام ، والحقيقة مع الخيال ، (١) ، ولأن هذه الظاهرة من جهة أخرى حصيلة لمشاركة عدد واسع من الروائيين ، والتأريخ يقتضي الاهتمام بالقاص وظروف حياته ، ومواقفه الفكرية . ولهذا لم يتعرض البحث للمفكرين الذين تحدثوا عن العلاقة بين المشرق العربي ، وبين الحضارة الشرقية ، ولا عن مفهوم هذه العلاقة عند كل منهم . فذلك يقع خارج حدود الدراسة ، مع أن ملامح الظاهرة الروائية تتضح اذا درست متصلة بالاتجاهات التي غذتها أو عارضتها . ولكن مثل هذا النوع من الدراسة يخرج البحث عن طبيعته ، وأهدافه المرسومة ، ويجعله أسير الموقف الفكري من هذه الحضارة على اختلافه وتباينه .

---

(١) انظر مجلة الهلال ، العدد الخاص ، السنة الثامنة ، ١٩٧٢ ، ص ٧٥ ، وانظر كتاب احسان عباس ، فن السيرة ، ص ٨٨ ، وانظر كتاب " نظرية الرواية في الأدب الانجليزي الحديث " ، لمجموعة من الدارسين ، ترجمة وتقديم لنجيل بطرس سمعان ، ص ٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"رائدان في مواجهة الحضارة الغربية"

مقدمة:

يجيء هذا الفصل، تقدمة ضرورية، لتوضيح طبيعة العلاقة بين الشرق العربي والغرب في العصر الحديث، فلم تأت هذه العلاقة، كما تصورها الرواية العربية المعاصرة، لغزة، بل كانت نتيجة حتمية للعلاقة التي أسهم الرواد في بنائها، واستكمال أبعادها: كرفاعة الطهطاوي، في كتابه "تخليص الابريز في تلخيص باريز"، وأحمد فارس الشدياق في "كشف المخبا عن فنون أوروبا"، وعلي مبارك في كتابه "علم الدين"، ومحمد المويلحي في كتابه "حديث عيسى بن هشام"، وفرنسيس مراش في كتابيه "غابة الحق" و"مشهد الاحوال"، وفرح أنطون في روايته "الدين والعلم والمال".

وعلى الرغم من اختلاف اتجاهاتهم، وتنوع مشاربهم، وتباين مواجهتهم وتقبلهم للحضارة الوافدة، فان الحديث عن موقف الانسان العربي ازاءها كما كان، وكما ينبغي ان يكون، شكل جوهرا مهما في بنية انتاجهم الفكري.

واذا استثنينا ما كتبه المؤرخ المصري، عبد الرحمن الجبرتي، في تاريخه المعروف "عجائب الآثار في التراجم والاخبار"[1]، عن احتكاك المقلية الشرقية بالمقلية الغربية وموقف هو وموقف الناس من حوله من غزوة نابليون لمصر، تكون كتابات هؤلاء "الرواد"، ممثلة لبدايات وعي الشرق العربي، وتفتح عينيه على حضارة جديدة، لها مقوّمات وأسس تغاير حضارة الشرق.

---

١) الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٢/١٧١ وما بعدها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورغم القيمة التاريخية الكبرى لما كتبه الجبرتي في تاريخه عن هذه الغزوة، باعتباره شاهدا على عصره، فان كتاباته تمثل صورة العربي المسلم الذي جاءته حضارة متقدمة، على الصعيد العلمي، غازية ومستعمرة على الصعيد العسكري. ففي كتاباته تمتزج صورة الاعجاب بهذه الحضارة الوافدة بصورة العداء ولكن الجبرتي لم يسافر الى أوروبا (وهذا هو محور اختلافه عن أولئك الرواد) بل جاءته حضارة الغرب غازية الى عقر داره، ففتحت عينيه على علم حديث "لهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة يتنج منها نتائج لا تستعبها عقول أمثالنا."(١)

ويجيء هذا الفصل، محاولة لتصوير لبيعة العلاقة، بين العربي وحضارة الغرب، كما يصورها كتابان من أكثر كتب النهضة أهمية في هذا المجال وهما:

"تخليص الابريز في تلخيص باريز" لرفاعة الطهطاوي.

و "كشف المخبا عن فنون أوروبا" لأحمد فارس الشدياق.

وهذان الرائدان، من أقدم من كتب في بداية النهضة الادبية في العصر الحديث عن اللقاء بين العربي، وبين الحضارة الغربية.

فلقد سافر رفاعة الطهطاوي سنة ١٨٢٦م، الى فرنسا في أول بعثة أرسلها محمد علي ومكث رفاعة في باريس خمس سنوات ونصف، فكان كتابه "تخليص الابريز في تلخيص باريز" نتاجا لهذه الرحلة، وصف فيه انطباعاته عن هذه الحضارة الجديدة، وتحدث عن تقدم الفرنسيين في مختلف العلوم، وعن عاداتهم الاجتماعية.

---

(١) الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ص ٢٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما أحمد فارس الشدياق ، فقد سافر الى مالطة سنة ١٨٢٤م ومكث هناك نحو أربع عشرة سنة ، في رعاية المرسلين أو المبشرين الأمريكان ، يفسر النصوص الدينية ، ويدرس اللغة العربية ، ويشرف على مطبعتهم . ثم سافر الى انجلترا ، (مارا بمدن كثيرة في ايطاليا ، وفرنسا) ليترجم التوراة ، وهناك تنقل في كثير من المدن البريطانية ، فأقام في كيمبردج ، ثم انتقل الى لندن وزار اكسفورد ، ثم ذهب الى باريس وأقام فيها سنتين ونصف ، وكان يتنقل في أثناء ذلك ، بين لندن وباريس . ولقد سجل انطباعاته ، عن الحضارة الغربية في مجالات متنوعة .

ولعل الباحث في عصر النهضة يرجح تناول هذين الأديبين لريادتهما ، ومدى انطباعاتهما عن الحضارة الغربية من سبق وجدة ، وللقيمة الفكرية التي يمثلها هذان الرائدان في تاريخ النهضة الادبية الحديثة .

أما على صعيد البحث فهما يمثلان الحلقة الأولى من حلقات المواجهة مع الحضارة الغربية ، تمهيدا لاستجلاء صورة المواجهة للحضارة الغربية في الرواية العربية المعاصرة ، باعتبار أن الاتصال مع الغرب قد ازداد واتسع وأصبح الأديب العربي قادرا على صياغة هذه العلاقة صياغة فنية في قالب روائي ، أي أنه بعبارة أخرى وصل في علاقته بالغرب الى حدّ تمثل حضارته واستيعابها وبالتالي القدرة على التعبير عن ذلك بشكل فني .

ولا نهاية دور هؤلاء الرواد ، المتميز في مواجهة الحضارة الغربية ، كان لا بدّ من وقفة عند مسيرة حياة هذين الرائدين ، وعند ملامح شخصيتهما الثقافية ، بايجاز ودون اخلال ، فالاديب يظلّ ابن عصره ، رغم تطلعاته الريادية وسلوكه ازاء هذه الحضارة الجديدة ، لا يفهم على حقيقته الا اذا فهمنا حياته ، وأدركنا مستواه الثقافي ، في وقت واحد معا .

ولهذا تناول الباحث في هذا الفصل مسيرة حياة هذين الرائدين وملامح الشخصية الثقافية لكل منهما ، وتوقف عند مواجهتهما للحضارة الغربية ، فتعرف الى أسبابها وسبب الكتابة عنها ، ونتاجها ، وطبيعتها . ثم أنهى الفصل بدراسة موقف الطهطاوي والشدياق من بعض القيم الغربية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا :
مسيرة حياتهما :

رفاعة الطهطاوي : (١٨٠١ - ١٨٧٣م)

ولد رفاعة الطهطاوي، في طهطا سنة ١٨٠١م، في فترة من أكثر فترات الحياة المصرية، اضطرابا وتحولا ، فلقد صادف مولده ، جلاء القوات الفرنسية عن مصر، ورجوع حملة نابليون عنها ، تلك الحملة التي كان لها بعض الأثر في تفتيح أعين الناس في مصر، على حضارة جديدة، تغاير ما ألفوه من أنماط الحياة.

تلقى الطهطاوي علومه في الجامع الأزهر في الفترة الواقعة بين (١٨١٧ - ١٨٢٢م) " وأتيح له أن يتتلمذ على عدد من الشيوخ الذين وصل بهم علمهم الى تولي منصب مشيخة الأزهر الشريف." (١)

ولكن حالة الازهر، والحالة الثقافية العامة في هذه الفترة، والفترة التي سبقتها كانت متدهورة، متخلفة " فغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية الا بقدر الحاجة الموصلة الى علم الفرائض والمواريث. . . . وأهل الازهر غالبهم فقراء وأغلبهم مجتمعة من القرى والآفاق." (٢)

ثم جاء نابليون الى مصر سنة ١٧٩٨م، ومعه جمهرة من العلماء الذين حاولوا دراسة مصر، دراسة شاملة، تمهيدا لاستعمارها ، الأمر الذي نبه بعض العلماء المصريين الى ضرورة الاستفادة من هذه العلوم وعلى رأس الذين تأثروا بعلوم الفرنسيين ، أستاذ الطهطاوي الشيخ حسن العطار (١٧٦٦ - ١٨٢٥) فلقد " اتصل بناس من الفرنساوية فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة في بلادهم ويفيدهم اللغة العربية." (٣)

---

١) محمد عمارة، أعمال رفاعة الطهطاوي الكاملة ١/ ٣٣

٢) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الاثار في التراجم والأخبار، ١/ ٢٧٦، ٢٧٧

٣) علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، ٤/ ٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تخرج رفاعة الطهطاوى من الأزهر، ثم عمل مدرسا فيه مدة سنتين، انتقل بعدها الى الجيش، الذى أسسه علي ليعمل واعظا فيه.

ولقد كان عصر محمد علي، عصر اهتمام بالجيش، وبعلومه الحربية، وقاده ذلك الى أن يهتم بالتعليم، فشرع يفتح المدارس، ويستقدم الخبراء الفرنسيين ويرسل البعثات الى فرنسا، ويتابع أخبار هؤلاء المبعوثين ونشاطاتهم.(١)

وكان رفاعة الطهطاوى اماما للبعثة الاولى سنة ١٨٢٦م بترشيح من استاذه الشيخ حسن العطار، ثم أصبح هنالك طالبا بعد أن لاحظ المشرفون اجتهاده.

وتدل المناصب الكثيرة التي شغلها بعد عودته، والكتب التي ترجمها وألفها على نشاط جمّ، فقد قربه محمد علي وأنعم عليه بالمال والرتب، فتولى منصب الترجمة، وتدريس اللغة الفرنسية، في مدرسة الطب بأبي زعبل، وفي سنة ١٨٣٣م، انتقل من مدرسة الطب الى المدفعية بطرة، وعهد اليه ترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية وله فيها رسائل مترجمة في الهندسة، ثم أنشأ دار الألسن وأصبح مفتشا في مدارس الاقليم، وأصبح رئيسا لتحرير "الوقائع المصرية"(٢)

أما في عهد الخديوى عباس، فلقد نفي الى السودان، على أثر حركة اقفال المدارس في مصر، وكلف الطهطاوى بانشاء مدرسة ابتدائية هناك.

وهذا الارسال يتضمن مفارقة، فلقد قام عباس باقفال كثير من المدارس التي أنشأها محمد علي وابنه، فما سرّ حرصه على انشاء مدرسة في السودان؟ اختلف الباحثون في تفسير ذلك(٣) ولكن رفاعة فطن الى أن ارساله الى

---

(١) انظر نموذجا من اهتمام محمد علي بالمبعوثين في كتاب رفاعة الطهطاوى، تخليص الابريز، ص ١٨١

(٢) محمد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى، ١/ص ٤٧ وما بعدها وعبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، ص ٥١٣ وما بعدها، وجرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق، ٢/ص ٣١

(٣) انظر عصر محمد علي، ص ٥١٧ ومحمد عمارة الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى، ١/ص ٥٨ وتاريخ التعليم في مصر ١/ ٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السودان كان لونا من ألوان النفي فقال : (١)

وما قلت العزيز يريد ذلي ولا يصفي لألسنة حداد
لديه سموا بألسنة حداد فكيف صفى لألسنة حداد

وفي السودان ترجم الطهطاوي رواية القسيس فنلون "Fenlon" مغامرات تليماك وسماها " مواقع الأفلاك في وقائع تليماك" ، ولم يكن اختيار الطهطاوي لها عبثا أو مصادفة ، فقد كان في ترجمتها يعبر عن ذاته بشكل مباشر، ففي المقالة الثانية يحكي تليماك لكاليبه الالهة اليونانية التي كانت لها مغامرات مع والده والتي أحبت الابن كما أحبت الأب من قبل ، مغامراته . فيقص عليها أن سفن المصريين قابلته هو ورفيقه تليماك في البحر، وأخذتهم أسارى الى مصر، ويمدح الحكيم اليوناني منظور، عدل حكام مصر. وسعادة أهلها ونظر ملكها ، في شكايات الناس ولا يعيب ملك مصر، الا وثوقه بأحد رعاياه، الذي دس لمنظور عند الملك ، فغضب على منظور وتليماك وأرسل تليماك عبدا الى الواحات ونفى منظور الى السودان . وبعد أن يتحدث تليماك عن بعض المغامرات يتحدث عن ملك جديد ، يتولى الملك بعد الملك السابق ويطلق سراح جميع الأسرى .

" وواضح أن رفاعة كان يجد في مثل هذه المغامرات تعبيرا عن نفسه، فالملك المصري الذي نفى منظورا الى السودان ليس الا عباس الذي نفى رفاعة ومنظور ليس الا رفاعة الذي كان ينتظر والها عادلا ، وليس عجيبا ألا يجد رفاعة مجالا لطبع هذا الكتاب في مصر وأن تصدر الطبعة الأولى منه في بيروت. (٢)

ثم رجع الطهطاوي الى مصر، في عهد الخديوي سعيد ، فعمل مع صديقه ابراهيم أدهم، وكان سعيد قد عهد اليه ، بتفتيش عموم المهمات والمدارس، فعملا على انشاء مكاتب العلة ثم عين مترجما بديوان المحافظة ،

---

(١) رفاعة الطهطاوي ، مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية ، ص ٤٥٥

(٢) عبد المحسن بدر، تطور الرواية العربية ، ص ٥٧ ، ٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم عين ناظرا للمدرسة الحربية وأصبح ناظرا أولا لها بعد استقالة سليمان باشا الفرنساوي.

فأراد أن يحيي فيها مدرسة الألسن " ثم حاول في هذه الفترة إحياء عدة كتب من التراث العربي مثل تفسير الفخر الرازي، و " مصاعد التنصيص"، و " خزانة الأدب"، و " المقامات الحريرية".(١)

ولكنه واجه البطالة من جديد " ففي عام ١٢٧٨هـ (١٨٦١م) الغيت المدرسة بعد خمس سنوات."(٢)

أما في عصر الخديوي اسماعيل، فقد عادت الحيوية الأولى الى الشيخ الطهطاوي وفتحت أمامه مجالات جديدة لأن اسماعيل كان يهدف الى أن تكون " مصر قطعة من أوروبا في ظرف وجيز، فأعاد للبعثات سيرتها الأولى حتى بلغ عدد أعضائها في عصره اثنين وسبعين ومائة . . . وأعيدت المدارس العالية كالهندسة والطب وزيد عليها مدرسة الحقوق."(٣)

فاشتغل في ميادين كثيرة كالتأليف والتعليم والترجمة، فترجم مع تلاميذه مجلدات القانون الفرنسي " وكانت هذه مهمة عسيرة تتطلب الماما واسعا بالقوانين الفرنسية وأحكام الشريعة الاسلامية لاختيار المصطلحات الفقهية المطابقة لمثيلاتها في القانون الفرنسي وهذا كله يحتاج الى صبر طويل."(٤)

ثم أشرف على مجلة " روضة المدارس" التي أنشأها علي مبارك وهذه المجلة كانت توزع مجانا على التلاميذ وقد ساعدت على نشر العلوم والمعارف لأنها عودت الطلبة ملكة المطالعة والبحث"(٥)، ثم توفي سنة ١٨٧٣م وله من العمر خمس وسبعون سنة.

---

(١) علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، ١٣/٥٥

(٢) حسين فوزي النجار، رفاعة الطهطاوي، ص ١١٤

(٣+٤) عمر الدسوقي، في الادب الحديث، ص ٩٠، ٩١

(٥) عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، ص ٥٢٥، ٥٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملامح الشخصية الثقافية لرفاعة الطهطاوي :

يصف الاستاذ يوسف أسعد داغر، الشيخ رفاعة الطهطاوي في كتابه " مصادر الدراسة الادبية"، بأنه عالم مصري من أركان النهضة الأدبية الحديثة، لا بل أمامها الأكبر في مصر: كاتب، شاعر، أديب، مترجم، وصحافي. ولعله أنفع المصريين الذين بعثوا الى اوروبا فقد كان في عمله الزاخر ونشاطه الجم، وانتاجه الواسع تأليفا وترجمة، شيخ علماء مصر. وأبا النهضة الحديثة فيها غير مدافع ولا منازع، كما كان أحد كبار كتاب العربية في القرن التاسع عشر فارتبط اسمه بالنهضة التي ميزت الحركة الأدبية والعلمية الحديثة في مصر." (١)

وهذا الوصف، بكلماته المختصرة، حدد مكونات ثقافة الطهطاوي، ووصف دورها في النهضة الأدبية الحديثة، فلم يكن رفاعة الطهطاوي، مثقفا موسوعيا يختزن هذه الثقافة ويستعرضها ولكنه وظفها لكي يخدم بها بلده عن طريق التأليف والتعليم، وهذه الثقافة الموسوعية تحتاج الى بحث مستقل بذاته، لكي يدرسها، ويتبين ملامحها وخصائصها.

ولعل نظرة الى ما كتبه رفاعة الطهطاوي، تبين لنا ما نذهب اليه، فلقد كتب في الفقه، بحثا في المذاهب الأربعة، ورسالة أخرى سماها " القول السديد في الاجتهاد والتقليد "، وأخرى " في البدع المتقررة في الشيع المتبررة" .

وفي النحو وضع خاتمة لقطر الندى، ومنظومة سماها " جمال الأجرومية" وكتابا دعاه " التحفة المكتبية"، ونظم أرجوزة في علم الكلام، كما نظم مصطلحات علم الحديث.

---

(١) يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة الأدبية ٢/٥٦٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي البلاغة والأدب، اختصر "معاهد التنصيص" وشرح لامية العرب.
وفي التاريخ كتب "أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني اسماعيل".
وفي السيرة النبوية كتب "غاية المرام في سيرة سلطان الحجاز".
وفي الجغرافيا وضع رسالة في "جغرافية بلاد الشام"، وفي الاجتماع ألف كتاب "تخليص الابريز في تلخيص باريز" وكتاب "مناهج الالباب المصرية في مباهج الاداب العصرية"، وفي التربية ألف كتاب "المرشد الأمين للبنات والبنين"، ومنظومة في تأديب الاطفال ووضع مقاومة في علم الهندسة.

أما ما ترجمه من كتب، فلقد ترجم في الجغرافية، وعلم الفلك، نبذة في علم الهيئة ومقدمة جغرافية طبيعية، وجغرافية عمومي في كيفية الأرض، وجغرافية صغيرة، وكتاب "التعريبات الشافية لمريد الجغرافية"، و "الجغرافية العمومية" للصابرون. وفي التاريخ ترجم نبذة في المثيولوجيا، وأخرى في تاريخ الاسكندر الاكبر، وفي الاجتماع ترجم كتاب "قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر"، ودستور فرنسا، وأصل الحقوق الطبيعية، وترجم في الهندسة، مبادئ الهندسة وهرّب القانون الفرنساوي المدني وقانون التجارة، وترجم في الطب رسالة، وفي المعادن رسالة وفي الفنون الحربية، ترجم قطعة من عمليات الضبابل، وفي الأدب ترجم قصة "مواقع الأفلاك في وقائع تلماك"، و "الأمثال في تأديب الاطفال" وقصيدة بعنوان "نظم العقود في كسر العود".(١)

وهذه المكتبة، على صعيد التأليف والترجمة، تمثل ضخامة الجهد الذي كان يبذله الطهطاوي، وتمكن ثقافته الواسعة، وقدرته على اختيار الموضوعات للتأليف أو للترجمة على حدّ سواء.

---

(١) أحمد أحمد بدوي، رافع رفاعة الطهطاوي، ص ص ١٠٠ - ١٠٢، ومحمد عمارة، الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي ١/ ص ص ٨٠ - ٨٤، ويوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة الادبية، ٢/ ص ص ٥٦٩ - ٥٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما عن ميدان الترجمة، فلقد كان الطهطاوي، رائدا في هذا المجال، وفي بداية عصر النهضة، فقد حاول تخطي المشكلات الكثيرة التي تواجه المترجم في هذا المجال، وهي مشكلة المصطلحات، فلقد كان أصحاب اللغة العربية آنذاك، في بداية وعيهم وتفتحهم على علوم وفنون جديدة، فكان نقلها الى العربية من أصعب الأمور.

ولم تكن للترجمة العلمية في عهد الحملة الفرنسية تشكل خلفية يتكئ عليها المترجم "لأن القلاقل السياسية التي انتهت باخراج الحملة من مصر لم تمكنهم من الاستقرار."(١)، أما الترجمة الرسمية فقد كانت ركيكة ولهذا انتقدها الجبرتي "لطولها وركاكة تركيبها لقصورهم في اللغة."(٢)، فالطهطاوي في ما ترجم، كان يبدأ من فراغ نسبي كان يستشعره فيتوقف أمام كثير من المشكلات محاولا تخطيها بمنهج اصطنعه لنفسه.(٣)

ولقد مرّت حياة الشيخ الطهطاوي بفترتين بارزتين:

١- فترة الدراسة الأزهرية (١٨١٧ - ١٨٢٢م)

٢- فترة الدراسة في باريس (١٨٢٦ - ١٨٣١م)

وهاتان الفترتان تمثلان أكثر الفترات أهمية، وخصوبة في رفد ثقافة الشيخ الطهطاوي، وتمثلان أيضا تنوع المصادر الثقافية، وتضادها في بعض الأحيان، ولعلّ نقطة التقاء هاتين الثقافتين أن يكون كتابه "تخليص الابريز في تلخيص باريز"، الصادر سنة ١٨٣٤م، ولذا فان الباحث يقف عند هذا الكتاب، لأنه يمثل مواجهة رفاعة الطهطاوي، للحضارة الغربية على شتى الأصعدة، ولأن "تخليص الابريز" يقدم لنا ملخصا ممتازا لجميع أعمال رفاعة المقبلة، كما راودته مشروعاتها في باريس.(٤)

---

(١) جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية، ص ٦٥

(٢) الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ٢/٣٥٩

(٣) انظر الفصل الجيد الذي عقده أحمد أحمد بدوي في كتابه عن رفاعة الطهطاوي ص ص ٢٦٧ - ٢٦٨

(٤) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز، تحقيق أحمد بدوي ورفاعة المقدمة، ص ٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثقافة التقليدية :

درس الشيخ الطهطاوي في الجامع الأزهر وتلقى دروسه على أعلام شيوخ عصره " كالشيخ الفضالي ، المتوفى سنة ١٢٣٦هـ، فقد لازمه مدة ، وقرأ عليه " صحيح البخاري " ، وكالشيخ حسن القويسني المتوفى سنة ١٢٥٦هـ، وقد تولى مشيخة الجامع الأزهر برغم كفاف بصره ، قرأ عليه كتاب " جمع الجوامع " في أصول الفقه ، وكتاب " مشارق الأنوار " في الحديث ، وكالشيخ الدسوقي شيخ الأزهر ، درس عليه " شرح الأشموني " ، على ألفية بن مالك ، ودرس " كتاب الحكم " لابن عطاء السكندري ، على الشيخ البخاري المتوفي سنة ١٢٥٦هـ ، " وتفسير الجلالين " على عبد الغني الدمياطي ، المتوفي بمكة المشرفة ، كما لازم الشيخ ابراهيم الباجوري الذي تولى فيما بعد مشيخة الجامع الأزهر ، وتوفي سنة ١٢٧٧هـ، وأخذ عنه " شرح الأشموني " و " تفسير الجلالين " . ودرس " مغني اللبيب " وجمع الجوامع " في الأصول مرة أخرى على شيخ المالكية الشيخ محمد عليش المتوفي سنة ١٢٦٩هـ، وحضر " شرح ابن عقيل " على الشيخ الدمنهوري المتوفي سنة ١٢٦٨هـ. (١)

ولكن هذه الدراسة الأزهرية ، أتاحت له أن يتتلمذ على شيخ من مشاهير عصره ، هو الشيخ حسن العطار (١٧٦٦ - ١٨٣٥م) . (٢) ، وهذه التلمذة ، أثرت في تكوين الشيخ رفاعة الثقافي وفي مسيرة حياته ، فلقد كان العطار منفتحا على علوم عصره ومعارفه ، ولا سيما بعد غزو نابليون لمصر " فلما كان هيجان الفتن ، بدخول الفرنساوية مصر ، داخله الخوف ، ففر الى الصعيد ، كجماعة من العلماء ، ثم عاد بعد أن حصل الأمن ، واتصل بناس من الفرنساوية فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة في بلادهم ، ويفيدهم

---

(١) أحمد أحمد بدوي ، رفاعة الطهطاوي ، ص ١١٥ ، ١١٦

(٢) انظر ترجمته في كتاب علي مبارك " الخطط الجديدة التوفيقية ، ٤ / ص ٣٨ وما بعدها . وكتاب محمد عبد الغني حسن " حسن العطار " ، القاهرة ، دار المعارف ، بلاتاريخ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللغة العربية، ويقول ان بلادنا لا بد أن يتغير أحوالها، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها، ويتعجب مما وصلت اليه تلك الأمة من المعارف والعلوم، وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة."(١)، وهذا الاعجاب بعلوم الغرب هو الذي دفعه الى" أن يطلع دائما على الكتب المعرّبة من تواريخ وغيرها. وكان له ولوع شديد، بسائر المعارف البشرية، مع غاية الديانة والصيانة."(٢)، واحتل الطهطاوي مكانة رفيعة في قلب استاذه، فرشحه ليكون مبعوثا الى باريس في "صحبة الافندية المبعوثين لتعلم العلوم والفنون الموجودة بهذه المدينة البهية."(٣)

ويكشف عنوان الكتاب تخليص الابريز في تلخيص باريز أو "الديوان النفيس بايوان باريس"، بادئ ذي بدء عن عصر الطهطاوي في تعلقه بالسجع والجناس" فقد كانت الصناعة اللفظية، واجادة الألعاب الانشائية، هي خير صفات الكاتب في نهاية عصر الانحلال، بعد أن انعدم الاهتمام بالفكرة."(٤)، ولكن هذا العنوان، على ما فيه من جناس متكلف، وسجع مرقوم، يكشف عن طبيعة الكتاب بشكل دقيق. فهو تخليص للابريز، بمعنى أن المؤلف في شرحه، وتبيينه لماهية باريس ينتقي منها النافع، والمفيد، عن خبرة ودراية وليس كما طلب لبل.

ورفاعة الطهطاوي معتز بثقافته التي حصلها من دراسته في الأزهر، يفتخر بها ويحرص على ابرازها، "لما منّ الله سبحانه وتعالى عليّ بالطلب العلم بالجامع الأزهر والمحل الانور، الذي هو جنة علم دانية الثمار وروضة فهم يانعة الأزهار."(٥)

---

(١) علي مبارك، الخطط الجديدة، ٣٨/٤

(٢) رفاعة الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية، ص ٥٣٦

(٣) رفاعة الطهطاوي تخليص الابريز في تلخيص باريز، ص ١٠

(٤) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز في تلخيص باريز، تحقيق بدوي وآخرين ص ٩

(٥) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز، ص ١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويكشف الطهطاوي، بعض ملامح ثقافته التقليدية، على الصعيد الأدبي، عند حديثه عن مدينة مسينة، واقامته في الحجر الصحي، في ميناءها خمس أيام " وقد سمعنا بها أصوات النواقيس، مدة اقامتنا، حتى أن ضرب النواقيس يطرب جدا. وقد جلست في ليلة من الليالي في المحادثة مع بعض الظرفاء، مقامة ظريفة، مضمونها ثلاثة معان، الأول :

في أنه لا مانع من أن الطبيعة السليمة تميل الى استحسان الذات الجميلة مع العفاف، وأنشأت في ذلك جملة شواهد لطيفة ..."(١)

فهذا الضرب من التأليف، يعكس قدرة الطهطاوي على تقليد بديع الزمان، والحريري، فيما ألفاه من مقامات، وما فيها من محسنات بديعية، وألفاظ شعرية، فهو ينهي المقامة" ببعض أبيات مجنسة، والبحث في معناها ونوع تجانيسها، وبالجواب من بعض ألغاز نحوية، الى آخره."(٢)

ومما يكشفه الكتاب على الصعيد الأدبي أيضا، الاطلاع على الشعر العربي، ويكشف ذلك الاستشهاد بالشعر، فلا تكاد صفحة من صفحات الكتاب، تخلو من أبيات شعرية سواء أذكر صاحبها أم لا، وهذا يدلل على سعة اطلاعه من جهة، وسعة محفوظه الشعري من جهة أخرى.

فترد أسماء كثير من الشعراء، وشعرهم، من عصور أدبية مختلفة كعنترة، وجرير، وأبي تمام، والمتنبي، ومسلمة بن الوليد، وابن سهيل، والحريري، والصاحب بن عبّاد، والخوارزمي، والفارابي

---

(١) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز، ص ٤٩

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحسن العطار، وحسين العاملي، (١) وغيرهم. (×)

ولقد شكل التراث العربي بالنسبة للطهطاوي، هويّة، ونقطة انطلاق اتخذها لكي يقارن بين الحضارتين،

فعندما يتحدث عن كرم الفرنسيين يقول: " ليس عندهم المواساة الا بأقوالهم وأفعالهم، لا بأموالهم، وفي الحقيقة أصل السبب، هو أن الكرم في العرب" (٢) ويبين أنه " ليس عندهم حاتم طي، ولا ابنه عدي، ولم يخرج من بلادهم معن بن زائدة، الشهير بالحلم والندى..." (٣)

وهو عندما يتحدث عن البارون سلوستري دي ساسي، يعجب من معرفته باللغات ومنها اللغة العربية، وهذا يذكر الطهطاوي بالفارابي " فاتساع دائرة هذا الحبر في معرفة لغات أهل المشرق، والمغرب القديمة، والحديثة بها يسهل تصديق ما قيل في حق الفارابي، فيلسوف الاسلام من أنه كان يحسن سبعين لسانا." (٤)

فالطهطاوي حريص على توكيد انتمائه للتراث العربي، لكي يتلافى عقدة النقص التي تنجم عن هذه المواجهة الحضارية.

أما عن ثقافته الدينية، فالشيخ رفاعة طالب من طلاب الأزهر وهو رشح للذهاب الى فرنسا ليكون اماما للبعثة المصرية، الذاهبة الى هناك، ولذلك تتبدى ملامح هذه الثقافة الدينية في مظهرين:

---

١) انظر تخليص الابريز، ص ١٦٢، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٣٢، ٥٦، ٧٧، ٨٨، ١٠، ٨٢، ١٩٠

×) تختلف طبعات تخليص الابريز، فيما يبدو فلقد زاد المؤلف في طبعة الكتاب الثانية، كثيرا من أبيات الشعر.
لاحظ ذلك محققو الكتاب (انظر تخليص الابريز، تحقيق بدوي وآخرين ص ٤٢) ولكن هذا لا يغير من الحكم الذي نعتقده، وان كان يدل على أن مشاعر الطهطاوي، وآراءه قد خضعت بعد عودته الى اعادة فحص وأن ما في مشاعره من عفوية وتلقائية قد خضع الى شيء من الانتخاب.

٢) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز، ص ٧٦

٣) المصدر نفسه، ص ١٤٠

٤) المصدر نفسه، ص ٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في سلوكه، وفي كتاباته.

وسنرجئ الحديث عن الجزء الاول، ونتوقف عند ثقافته الدينية، فهو يتحدث عن الحجر الصحي، أو كما يسميها (الكرنتينة) ويتحدث عن اختلاف الحكم في حلتها أو حرمتها عند علماء المغرب العربي. فقال " وقعت بين العلامة الشيخ محمد الصغاعي، التونسي، المالكي، المدرس بجامع الزيتونة، ومفتي الحنفية العلامة الشيخ محمد بيرم، المؤلف عدة كتب في المنقول والمعقول... محاورة في اباحة الكرنتينة وحظرها، فقال الأول بتحريمها، والثاني باباحتها بل بوجوبها. وألف في ذلك رسالة، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة وأقام الثاني الأدلة في التحريم وألف في ذلك رسالة جعل اعتماده فيها على الاستدلال على أن الكرنتينة من جملة الفرار من القضاء."(١)

فالحجر الصحي، جرّه الى استطراد فقهي يتعلق بالحظر والاباحة، أبان فيه عن ثقافته، وسعة اطلاعه في هذا المجال، وتلح الثقافة عليه في كثير من المجالات، ففي مجال التشريع، يرى أن القانون الفرنسي" فيه أمور لا ينكر ذووا العقول أنها من باب العدل... وان كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم"(٢)، أي أنه حريص على الاحتكام الى الثقافة الدينية دائما، حتى مع اعجابه بهذه القوانين، ولذلك يكون الكفر، والايمان مفتاحين، يلج بهما الطهطاوي الى فهم الأشياء من حوله واصدار الحكم عليها. " فأمريكة بلاد كفر"(٣)، والعالم يتميز بعضه عن بعض " بحسب مزية الاسلام وتعلقاته، فحينئذ تكون أسيا أفضل الجميع ثم افريقية لعمارها بالاسلام والأولياء والصلحاء، خصوصا باشتمالها على مصر القاهرة، ثم تليها بلاد أوروبا، لقوة الاسلام ووجود الامام الاعظم امام الحرمين الشريفين، سلطان الاسلام فيها... فأدنى الاقسام بلاد

---

١) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز، ص ٥٠٣

٢) المصدر نفسه، ص ٩٥

٣) المصدر نفسه، ص ٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمريكة حيث لا وجود للاسلام بها أبدا ."[١]

وهو يورد منظومة في مصالح الحديث، ليخبرنا أن ما قاله في هذه المناوبة، "لا يمكن أن ينقل الى لغتهم."[٢]، أي أنه يكشف عن ثقافته الدينية وعلمه باللغة الفرنسية في آن، وعن دراسته، وخبرته بالترجمة، والنقل من لغة الى أخرى.

وهذا يطرح الشق الآخر من ثقافة الطهطاوي وهذا الشق هو:

ثقافته الغربية:

من الواضح أن اقامة الطهطاوي في باريس، كانت نقطة تحول على صعيد حياته الفردية، وعلى صعيد الحياة الثقافية في مصر.

فلقد كانت حياته في فرنسا، فترة جادة من فترات تثقيفه لنفسه، واطلاعه على علوم الغرب، وفنونهم، ويروى لنا الطهطاوي في "تخليص الابريز" المحاولة التي قام بها، لكي يتزود بالثقافة الغربية، فهو يتحدث عن الخطوة الأولى لاكتساب هذه الثقافة، وذلك عن طريق تعلم اللغة الفرنسية، ويتحدث عن طريقة الفرنسيين في تعليم لغتهم للأجانب، عن طريق الحروف البارزة ثم عن طريق الجمل المفيدة.

ولقد أمضى رفاعة الطهطاوي ثلاث سنوات[٣]، أي الفترة الواقعة ما بين (١٨٢٦ - ١٨٢٩م)، وهو يدرس اللغة الفرنسية، يستعين بالدروس المنهجية تارة، وبالمدرسين الخصوصيين تارة أخرى.

وليس هذا غريبا، فالطهطاوي لم يذهب كما ذهب أعضاء البعثة الى فرنسا ليتخصصوا في أحد العلوم، فلقد رشح الطهطاوي ليكون مترجما

---

١) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز، ص ٣٣

٢) المصدر نفسه، ص ٨١

٣) المصدر نفسه، ص ١٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نظرا لمعرفته باللغة العربية، فلزم أن يكون اطلاعه على الفرنسية، ومعرفتـــه بها، وبتراكيبها وبنائها اللغوي، يوازي معرفته بالعربية.

ولهذا كان اطلاعه على الثقافة الفرنسية، اطلاعا متشعبا، يتناسب مع طموحه، في أن يصبح مترجما لهذه الثقافة، ولقد كفانا رفاعة الطهطاوي مهمةالبحث عن ثقافته، فسجل لنا قراءاته في فرنسا في مختلف المجالات. في التاريخ والفلسفة، والآداب، والعلوم، والجغرافية وغير ذلك فما قرأه فـــي التاريخ " تاريخ عام، مختصر، مشتمل على سير قدماء المصريين والعراقيين، وأهل الشام، واليونان، وقدماء العجم، والرومانيين والهنود وفي آخر نبذة مختصرة في علم " الميثولوجيا" يعني علم جاهلية اليونان وخرافاتهم." (١)، وفي الحساب قرأ كتاب " بزوت" وفي الهندسة الأربع مقالات الأول من كتاب " لوجندرة" (٢)، ولكن العلم الذي شغف به وأحبه هو علم الجغرافيـــا ولذلك جمع قراءاته بين القراءة المنهجية والحرة " وقرأت وحدي مؤلفات عديدة في هذا الفن." (٣)، أما عن الادب فيقول " وقرأت كثيرا من كتب الأدب، فمنها (مجموع نويل) ومنها عدة مواضع من ديوان " ولتير"، وديوان "رسين" وديوان " روسو"، خصوصا مراسلاته الفارسية التي يعرف بها الفرق بين آداب الافرنج والعجم... وقرأت أيضا وحدي مراسلات انكليزية صنفها " القونـــت شسترفيلد" لتربية ولده وتعليمه، وكثيرا من المقامات الفرنساوية، وبالجملـــة فلقد اطلعت في آداب الفرنساوية على كثير من مؤلفاتها الشهيرة." (٤)

أما عن ثقافته في الدراسات الاجتماعية والقانون فيقول" وقرأت فـــي الحقوق الطبيعية مع معلمها كتاب " برلماكي" وترجمته، وفهمته جيدا، وهذا الفن عبارة عن التحسين والتقبيح العقليين، يجعله الافرنج أساسا لأحكامهم السياسية،

---

١) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز، ١٩٠
٢) المصدر نفسه، ص ١٩٠
٣) المصدر نفسه، ص ١٩٠
٤) المصدر نفسه، ص ١٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المسماة عندهم شرعية، وقرأت أيضا مع مسيو شواليه جزئين من كتاب يسمى (روح الشرائع) مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له " (منتسكيو) وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية، ومبني على التحسين والتقبيح العقليين، ويلقب عندهم بابن خلدون الافرنجي، كما أن ابن خلدون يقال له منتسكيو الشرق، أي منتسكيو الاسلام، وقرأت أيضا في هذا المعنى كتابا يسمى (عقد التأنس والاجتماع الانساني) مؤلفه يقال له " روسو" وهو عظيم في معناه"[١]، ثم يستفيض في الحديث عن أنواع أخرى من ألوان ثقافته[٢]، والملاحظ أن رفاعة الطهطاوي، لم يحصل هذه الثقافة من خلال معالمات مباشرة، ولكنه حصلها من خلال دراسة منهجية منظمة مع أساتذته، وامتحن فيها، وهو يصف لنا أحد امتحاناته التي " كان القصد بها معرفة قوة الفقير في صناعة الترجمة، التي اشتغلت بها مدة مكثي في فرنسا."[٣] ويتحدث عن الجوائز التي نالها[٤]، ويستفيض في حديثه عن المكتبات بأنواعها كالخزانة السلطانية، وخزانة الارستال، وخزانة مزارينة، وخزانة الانسطيتوت، وخزانة المدينة، وخزانة بستان النباتات، وخزانة الرصد السلطاني، وخزانة أكدمة الفرنسيس[٥]. ويتحدث عن المتاحف، والمراصد الفلكية، والمعاهد الموسيقية " الكسروتوار"[٦]. ولعل تقرير " المسيو جومار" عنه، يبين حرص الشيخ الطهطاوي على التزود بأسباب هذه الثقافة وعلى ضرورة اكتسابها، والتعرف عليها.

يقول " وما ينبغي التنبيه عليه أن غيرة مسيو الشيخ رفاعة تناهت به الى أن أدته الى أن شغله مدة طويلة في الليل تسبب عنه ضعف في

---

١) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز، ص ١٩١
٢) المصدر نفسه، ١٩٢، وانظر ص ص ٢٢٧ - ٢٤٧
٣) المصدر نفسه، ص ١٩٦
٤) المصدر نفسه، ص ١٩٥، ١٩٦
٥) المصدر نفسه، ص ص ١٦٢ - ١٦٣
٦) المصدر نفسه، ص ص ١٦٣ - ١٧٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عينه اليسار، حتى احتاج الى الحكيم الذى نهاه عن مطالعة الليل، ولكن لم يمتثل لخوف تعويق تقدمه ؟؟ (١)

مواجهة الحضارة الغربية بالنسبة للطهطاوى :

أسبابها :

تميزت فترة حكم محمد علي، بأنها فترة من فترات الاتصال بالغرب في سبيل انشاء دولة عصرية، ولقد سلك محمد علي في سبيل تحقيق غايته طريقين :

الاستعانة بذوى الاختصاص من الغربيين ولا سيما الفرنسيين،

وارسال البعثات العلمية الى أوروبا .

وكان رفاعة الطهطاوى من الذين رافقوا البعثة الاولى، التي أرسلها محمد علي سنة ١٨٢٦م، بصفته اماما لها، بعد أن رشحه استاذه الشيخ حسن العطار لشغل هذا المنصب، ويحاول رفاعة الطهطاوى أن يبرر الذهاب الى أوروبا، تلك البلاد التي كان الناس يصفونها بالكفر، بوجود التقدم العلمي فيها، فانه " لا ينكر منصف أن بلاد الافرنج الان في غاية البراعة، في العلوم الحكمية وأعلاها في التبحر من ذلك بلاد الانكليز والفرنسيس والنمسا، فان حكماءها فاقوا حكماء المتقدمين" (٢)، أما عن تخصص فرنسا بالذات، لتكون مكانا يدرس فيه البعثة المصريون، فيعلل بعدة أسباب منها أن " باريس تفضل لوندرة بصحة هوائها كما قيل وطبيعة الأهل

---

١) رفاعة الطهطاوى، تخليص الابريز، ص ١٢٨

٢) المصدر نفسه، ص ٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبقلة الغلاء التام."[١]، ومنها أيضا وجود الحرية الدينية لسائر الأديان ففي "بلاد الفرنسيين يباح التعبد بسائر الأديان، فلا يمنع مسلم في بنائه مسجدا، ولا يهودي في بنائه بيعة الى آخره"[٢]

سبب تأليفه للكتاب:
==========

أبان رفاعة الطهطاوي، السبب المباشر لتأليفه هذا الكتاب. "وهي رغبة الشيخ حسن العطار، في معرفة اخبار أوروبا، وفي الاطلاع على علومها وأحوالها" فانه مولع بسماع عجائب الأخبار، والاطلاع على غرائب الآثار."[٣] ولهذا طلب منه أن يدون هذه المشاهدات كما قال الطهطاوي "أن أنبه على ما يقع في هذه السفرة، وعلى ما أراه، وما أصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة، وأن أقيده ليكون نافعا في كشف القناع عن محيا هذه البقاع"[٤]، فرغبة أستاذه، كانت الدافع الأول الى تأليف هذا السفر. ولكن هناك رغبة أخرى كانت في ضميره، وهي رغبته أن يكون كتابه دليلا للذاهبين الى باريس، "وليبقى دليلا يهتدي به الى السفر اليها، لطلاب الأسفار. خصوصا وأنه من أول الزمن الى الآن لم يظهر باللغة العربية، على حساب طبعي، شيء في تاريخ مدينة باريس كرسي مملكة الفرنسيس ولا في تعريف أحوالها وأحوال أهلها."[٥]، ويمتزج مع هاتين الرغبتين هدف آخر، هو خلاصة للرحلة التي ذهب الطهطاوي ورفاقه من أجلها

---

١) رفاعة الطهطاوي، تلخيص الابريز، ص ٣٢
٢) المصدر نفسه، ص ٣٢
٣) المصدر نفسه، ص ١٠
٤) المصدر نفسه، ص ١٠
٥) المصدر نفسه، ص ١٠، ١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" ورشحتها بعض استطرادات نافعة، واستظهارات سالمة، وأنطلقتهـــا بحث ديار الاسلام، على البحث عن العلوم المرانية، والفنون، والصنائع، فان كمال ذلك ببلاد الافرنج أمر ثابت، والحق أحق أن يتبع." (١)

فسبب تأليف الكتاب كما يبدو، يتصل فيه الخاص بالعام، فهو يهدف الى ارضاء نزعة أستاذه في الحديث عن عجائب الأخبار، ويهدف أيضا الـــى حمل أبناء وطنه على الاستفادة من علوم الافرنج وآدابها، أي أنه يحاول " أن يحصل من ديوانه النفيس ثلاثة أشياء في آن واحد : رحلة علمية، وتحفة فنية، ودرسا وانذارا." (٢)

ولقد كان هذا الكتاب، من ثمرات اقامته في باريس، فلقد ألـــف هذا الكتاب (أو على الأقل وضع النقاط الرئيسية فيه)، وهو هناك، وأطلع عليها أساتذته من أمثال : مسيو دي ساسي، ومسيو جومار، وكوســـين دي برسوال.

وقد علق أساتذته على مخطوطة الكتاب تعليقات متباينة، بعضهم يقترح الحذف، وبعضهم يقترح الاضافة والتوسع.

ويمتدح بعضهم ترتيب الكتاب، وموضوعيته، ويأخذ عليه أن كتابـــــه يشتمل على بعض أوهام اسلامية" (٣)، ويأخذ عليه أيضا تعميمه لأحكامـــه فهو " ربما حكم على سائر أهل فرانسا، بما لا يحكم الا على أهل باريـــس والمدن الكبيرة." (٤)، ولكنهم أجمعوا على رفعة ثقافته، ونبل مقصده.

---

(١) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز، ص ١١

(٢) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز، تحقيق بدوي وآخرين، المقدمة، ص ٤٥

(٣) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز، ص ١٨٤، وانظر ص ص ١٨٣ - ١٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أهمية مواجهته للحضارة الغربية :

نعني بهذا العنوان ، الكيفية التي واجه بها رفاعة الطهطاوي الحضارة الغربية ، وأهمية سلوكه ازاءها واقعها الاجتماعي ، وردة فعله ازاء منجزاتها على شتّى المستويات ، ومن البديهي أن يقال ، ان الغرب عموما في تلك الفترة ، (وفرنسا منه) ، كان قد قطع شوطا في مضمار التقدم في كثير من المستويات ، بالقياس الى العالم العربي ، ولم تكن علاقة الطهطاوي بالحضارة الغربية ، وهو في مصر ، تسمح له بأن يكون عنها انطباعات أو أن تؤثر في تفكيره ، تأثيرا ملموسا ، أما رؤية أستاذه الشيخ حسن العطار ، فهي على سبقها ، لا تعدو أن تكون نوعا من التوجيه ولفت النظر ، الى هذه الحضارة الوافدة ، وضرورة الاستفادة منها ، دون اقتراب من التفاصيل .

فرحلة الطهطاوي الى فرنسا ، تصفي في ذهنه ما شاب علاقة مصر والعالم العربي ، بالغرب من آثار الغزو العسكري ، في القديم والحديث وما يتركه هذا الغزو على أفكار الناس ، من انطباعات عدائية .
فالتماس الحقيقي في تلك الرحلة ، عن طريق اللقاء المباشر مع هذه الحضارة ، في أرضها ، يجعل الكتابة خالية من التحامل ، وأكثر صدقا وموضوعية في آن ، ولهذا كانت فكرة الطهطاوي المسبقة عن هذه الحضارة ، ترادفا للمقولات الشائعة عن أوروبا ×، من أنها بلاد كفر ، وأن أسعار الحاجيات فيها غالية ، وأنها بعيدة عن مصر ، ولهذا افتتح الباب الأول بقوله " في

×) لم ينج رفاعة الطهطاوي من آثار نظرة الناس الى أوروبا ، والى من يسافر اليها ، فلقد نسب الى الارتداد عن الاسلام ، وشرب الخمرة ، والزنا ، وأكل لحم الخنزير بسبب رحلته ، انظر رفاعة الطهطاوي ، أحمد أحمد بدوي ، ص ١٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذكر ما يظهر لي من سبب ارتحالنا الى هذه البلاد ، التي هي ديـــار كفر وعناد ، وبعيدة عنا غاية الابتعاد ، وكثيرة المصاريف لشدة غلـــوّ الأسعار فيها غاية الاشتداد ."(١)

ثم أخذت عملية الاحتكاك بالحضارة الغربية ، تقلل من حدة أحكامه. وأول ما يبدو في هذه المواجهة ، هو شعور رفاعة الطهطاوي بأنه مقدم على أمـــر جديد عليه كل الجدّة ، في كل جزئية من جزئياته ، وهذه الجدّة ممزوجـــة بالعجب والغرابة ، فهو يحدثنا عن فترة اقامته في مرسيليا ، وهي فترة انتقالية ممهدة للدخول في عالم جديد ، متعجبا :

" ولم نشعر في أول يوم الا وقد أحضر لنا أمور غريبة في غالبها ، وذلـــك أنهم أحضروا لنا عدة خدم فرنساوية لا نعرف لغتهم ، ونحو مائة كرســـي للجلوس عليها . لأن هذه البلاد يستغربون جلوس الانسان على نحـــو سجادة مفروشة على الأرض ، ثم مدوا السفرة للفطور ، ثم جاؤوا بطبلمات عالية ، ثم رصّوها من الصحون البيضاء الشبيهة بالمجمية ، وجعلوا قدّام كل صحن قدحا من القزاز ، وسكينة ، وشوكة ، وملعقة ، وفي كل طبلية نحو قزازتيـــن من الماء ، واناء فيه ملح وآخر فيه فلفل ، ثم رصوا حوالي الطبلية كراســـي ، لكل واحد كرسي ، ثم جاؤوا بالطبيخ فوضعوا في كل طبلية صحنا كبـــيرا أو صحنين ليغرف أحد أهل الطبلية ويقسم على الجميع ، فيملي لكـــل انسان في صحنه شيئا يقلعه بالسكينة التي قدامه ثم يوصلها الى فمـــه بالشوكة لا بيده ، فلا يأكل الانسان بيده أصلا ولا بشوكة غيره أو سكينتـــه أو يشرب من قدحه ، ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة ."(٢) ، فمظاهر

---

١) رفاعة الطهطاوي ، تخليص الابريز ، ص ١٤٠

٢) المصدر نفسه ، ص ٥٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العجب والجدّة واضحة في طريقة سرده لهذه التفصيلات وفي وقوفه عندها، وهو يرويها غير مقتنع بها في بداية الأمر، ولهذا وصفها " بالأمور الغريبة" وقال " ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم" أي أنه يتشكك في سلامة هذه المقولة ولكنّ هذا العجب الممزوج بالسخرية، يحلّ محله فيما بعد اقتناع واعجاب بآداب المائدة عندهم " وبالجملة فآداب سفرتهم وترتيبها عظيم جدا."(١) ويعجب خلال اقامته بمرسيليا أيضا من طريقة النوم عندهم " فلا بد أن ينام الانسان على شيء مرتفع نحو سرير، فأحضروا لنا ذلك."(٢)، ويعجب أيضا من مقاهي الفرنسيين، وترتيبها الغريب " وكان أول ما وقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة، دخلنا فرأيناها عجيبة الشكل والترتيب."(٣)، ولم يتوقف رفاعة طويلا في مرسيليا، غير أنّ ملاحظاته انصبّت على جوانب مادية من الحضارة الأوروبية، عبّر من خلال هذه الملاحظات عن دهشته، مستشعرا الفرق الحضاري بين مجتمعه وهذا المجتمع الجديد.

ثم مضى بعد ذلك الى باريس، وأقام فيها خمس سنوات ونصف لم يرتحل الى غيرها من المدن الفرنسية، ولهذا كان وصفه لهذه المدينة واسعا متشعبا ينمّ عن خبرة وتعرف الى أبعادها.

ولقد خشي الطهطاوي نظرا للهوّة الحضارية بين مجتمعه وفرنسا الا يصدقه الناس في مصر، فاحتاط في تقديمه للحديث عن باريس، بأنه وان أذنب في ذلك فان هذا " لا يفي بحق هذه المدينة، بل هو تقريبي بالنظر لما اشتملت عليه، وان استغرب هذا من لم يشاهد غرائب السياحة." قال بعضهم:

---

(١) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز، ص ١١٤

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٤

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٥، ٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من لم ير الروم ولا أهلها ما عرف الدنيا ولا الناس
فمن أولى بسلاد افرنجستان" (١)

يعجب رفاعة الطهطاوي من مزاج أهل باريس، لأنه مزاج متقلب ويربط بين ذلك وبين مناخها القلب " وتغير مناخ الهواء والزمن في باريس أمر عجيب . . . فمزاجها كمزاج أهلها ." (٢)

ولكنه لا يأخذ عليهم الا القليل، بالقياس الى شدة اعجابه بهم، وبمنتجاتهم الحضارية سواء أكانت مادية أم ثقافية. فلقد أعجب بنظافة الفرنسيس في معظم شؤون حياتهم، ويسمي نظافتهم (النظافة الظاهرية)، ويعجب كيف يكون ذلك، " مع أن النظافة من الايمان وليس عندهم منه مثقال ذرة." (٣)

فنظافة الفرنسيس، في السفينة وفي البيت، وفي الزي، جعلته يعجب بهذا الجانب من حياتهم.

ولقد وقف الطهطاوي معجبا متعجبا من فن كان جديدا في تلك الفترة على الأدب العربي، وهو فن المسرح، وهو كعادته فيما يتعجب منه، يروي تفاصيله، ولهذا وقف عند شكل المسرح، وتجهيزاته اللازمة للتمثيل، وفحوى الأعمال المسرحية، والاعلانات المسرحية، مفصلا، وناقدا في بعض الأحيان. (٤)

يقول " فمن مجالس الملاهي عندهم محال تسمى " التياتر" و " السبكتاكل " وهي يلعب فيها تقليد سائر ما وقع، وفي الحقيقة ان هذه الألعاب هي جد في صورة هزل، فان الانسان يأخذ منها عبرا عجيبة . . . حتى أن الفرنساوية يقولون انها تؤدب أخلاق الانسان وتهذبها، فهي وان كانت مشتملة على

---

١) رفاعة الطهطاوي، ص ٦١
٢) المصدر نفسه، ص ٧٦
٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٦ وانظر ص ١١١، ص ١١٧
٤) المصدر نفسه، ص ص ١١٩ - ١٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المضحكات، فكم فيها كثير من المبكيات.

ومن المكتوب على الستارة التي ترخى بعد فراغ اللعب باللغة اللاتينية ما معناه باللغة العربية " قد تنصلح العوائد باللعب. "(١)

ولكن اندفاعه الحماسي في وصف هذه الظاهرة، لم يلغ حسه النقدي (المحافظ) فوقف من تفصيلات ما شاهد من الأعمال المسرحية، موقف المنتقد، " ولم لم تشتمل " التياتر" في فرانسا على كثير من النزعات الشيطانية لكانت تعدّ من الفضائل العظيمة الفائدة، فانظر الى اللاعبين بها فانهم يحترزون ما أمكن عن الامور التي يفتتن بها، المخلّة بالحياء، ففرق بعيد بينهم وبين عوالم مصر وأهل السماع ونحوها. "(٢)

ولقد وقف الطهطاوي عند كثير من المظاهر الجديدة عليه كل الجدة، معجبا، فالدستور الفرنسي " وان كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله، ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة البلاد. "(٣)، فهو غير غافل عن مخالفة القانون الفرنسي للشريعة الاسلامية، ولكنه لا ينكر أن هذا القانون يتوخى العدالة، ولهذا فهو قد أعجب ببعض مظاهر هذا القانون، ووقف رفاعة موقف المعجب من اعتناء باريس بالعلوم الطبية فتحدث عن أنواع المعالجة الحكمية، والبيمة المستشفيات، وأنواع الأطباء، والكليات الطبية، وترجم نبذة من فن قانون الصحة وتدبير البدن.(٤)

وتحدث عن البريد في فرنسا، وبين " أن الفرنساوية يحترمون أمور المراسلات غاية الامكان فلا يمكن لانسان أن يفتح مكتوبا معنونا باسم آخر. "(٥)، وهو

---

١) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز، ص ١١٩

٢) المصدر نفسه، ص ١٢١

٣) المصدر نفسه، ص ٩٥

٤) المصدر نفسه، ص ص ١٢٩ - ١٤٧

٥) المصدر نفسه، ص ١٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معجب بحرية الصحافة عندهم وقدرتها على الانتقاد دون خوف " وهذه الجرنالات مأذون فيها لسائر أهل فرانسا أن تقول ما يخطر لها، وأن تستحسن وتستقبح ما تراه حسنا أو قبيحا وأن تقول رأيها في تدبير الدولة فلها حرية تامة ما لم تضر في ذلك فانه يحكم عليها وتطلب قدام القاضي ."(١)، وهو معجب أيضا بالمكتبات فيها، " ومما يبهر العقول في باريس دكاكين الكتبية وخاناتهم وتجارات الكتب. . . واعتناؤهم بالمعارف هو أحسن ما ينبغي أن يمدحوا به".(٢)

ولكن هذه المواجهة لم تكن في كل معالمها انبهارا فقط، فقد كان الطهطاوي متدينا، يرفض أن تذوب شخصيته "الحضارية" في لجّ الحضارة الغربية ولهذا فهو يحرص على توكيد سبق المسلمين لأوروبا في العلوم، كما يقول بعض منصفي الغربيين " فهم يعترفون لنا بأنا كنّا أساتيذهم في سائر العلوم، ويقدمنا عليهم، ومن المقرر في الأذهان، وفي خارج الاعيان أن الفضل للمتقدم."(٣) ويحرص على توكيد انتمائه الى مصر آنذاك، ولغتها، وعقيدتها، فهو يروى عدة حوادث عن شخصيات مصرية مسلمة ذهبت الى فرنسا على أثر هزوة نابليون لمصر، وتنصرت قائلا " والعياذ بالله" ثم يقول :

الحمد لله الحنيفة ملّتي والله ربي وابن آمنة نبيّ (٤)

فهو اذن حريص على الامساك بطرفي المعادلة التي يحرص كل من يحاول بناء مجتمع عربي حديث، على الامساك بها وهذه المعادلة هي الأصالة والمعاصرة. فهو يرفض من حيث المبدأ الذوبان في اطار المجتمع الفرنسي، رغم اعترافه بتقدمه العلمي ودعوته للمسلمين الى اللحوق به. ولذلك حدد موقفه بأنه " لا استحسن الا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية"(٥)، من هنا وقف عند

---

١) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز، ص ١٧١

٢) المصدر نفسه، ص ١٧٢

٣) المصدر نفسه، ص ١٧٢

٤) المصدر نفسه، ص ٥٦، ٥٧

٥) المصدر نفسه، ص ١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كثير من القضايا الاجتماعية، فانتقد موقف الفرنسيين من الدين، فاهتمامهم به شكلي ، وليس لهم " من دين النصرانية غير الاسم "(١)

أما عن المرأة فقد وقف عند لباسها ، وما فيه من خلاعة (٢) ، ووقف عند " قلة عفاف كثير من نسائهم كما تقدم وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الاسلام من الغيرة . "(٣)

وما يكشف عن هذا الذي ذهب اليه أن الطهطاوي رغم شدة اعجابه بفرنسا وبباريس، ويتقدم فرنسا العلمي يرى أنها على ما فيها من تقدم علمي تظل " كباقي مدن فرانسا وبلاد الافرنج مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وان كانت من أحكم سائر بلاد الدنيا ، ودار العلوم البرانية . "(٤)

ولعل هذا الرأي يمثل بحق وجهة نظر الطهطاوي في الحضارة الغربية بشكل متكامل .

الطهطاوي وبعض القيم الغربية الجديدة :

توقف الطهطاوي عند كثير من القيم التي واجهته في أثناء رحلته . فلقد وقف أمام عادات أهل باريس، وتقاليدهم، وغذائهم، ومشربهم وملبسهم، ومتنزهاتهم ونظامهم الصحي ، وتجارتهم، ودينهم. وكان يجب أن يتوقف عند تقدمهم العلمي ، بحكم كونه مبعوثا من أجل الدراسة ، فتحدث عن لغاتهم وكتابتهم، وعن بلاغة اللغة الفرنسية ، وعن أنواع متعددة

---

(١) رفاعة الطهطاوي ، تخليص الابريز، ص ١٥٥

(٢) المصدر نفسه، ١١٧

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٨، ٧٩

(٤) المصدر نفسه، ٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من العلوم، وحكى عن بعض علمائهم، وعن ثقافته التي اكتسبها. ولقد تحدثنا عن شيء من ذلك في الحديث عن ثقافته الغربية. وتدل ملاحظات الطهطاوي الاجتماعية، على احتكاكه بالأسر الفرنسية، احتكاكا مباشرا ومتعدد الجوانب.

كما تكشف عن قدرته على الملاحظة الذكية، والتنبه الى دقائق الامور والاهتمام بها، في سبيل فهم نفسية أهل باريس.

ولكن الطهطاوي وقف عند قضية أخرى، وقفة فاحصة، ناقدة، مستوعبة، أطلق عليها " تدبير الدولة الفرنسية"، وهو يعني الدستور الفرنسي وما فيه من مواد تنظم شؤون المجتمع.

ونحن نقف عند هذه القضية، دون غيرها من القضايا، لجملة أسباب فلقد ذهب رفاعة الطهطاوي الى فرنسا، لكي يكون اماما للبعثة العلمية وواعظا لها، ثم تحول الى أحد طلابها، وتخصص في ميدان الترجمة. فاهتمام رفاعة بهذا الميدان، يدل على أنه لم يكن طالب علم بالمفهوم الأكاديمي الضيق، ولكنه كان متصلا بمختلف جوانب الحضارة الغربية، عارفا بأبعاد المجتمع الفرنسي، على المستوى السياسي وهذا يمثل وعيا متقدما، بالقياس الى الفترة الزمنية التي عاش فيها، فهو " فيما نعلم أول من كتب من المصريين في المباحث الدستورية."(١)

وقف الطهطاوي عند الدستور الفرنسي (١٨١٤ - ١٨٣٠م)، متحدثا بشكل دقيق عن نظام الحكم في فرنسا، وتركيبته، فهو وراثي مصور في " عيلته المسماة" البربون"(٢)، وعلى رأس هذا النظام ملك فرنسا، ثم

---

١) عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، ص ٥٠٧

٢) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز، ص ٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مجلس الشيوخ ، أو كما يسميهم أهل " شمبر دوبير" ، ثم مجلس النواب ويسميهم " ديوان رسل العمالات" ، ويتحدث عن الديوان الخصوصي ، وديوان سر الملك ، وديوان الدولة للمشورة ، ثم يتحدث عن الوزراء ومناصبهم المختلفة ، كوزير الداخلية ، وزير الحرب ثم وزير الخارجية ، وغيرهم .

ثم يحدد الطهطاوي بدقة طبيعة النظام الفرنسي بأن " ملك فرانسا ليس مطلق التصرف ، وان السياسة الفرنسية هي قانون مقيد ، بحيث أن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يرضى بها أهل الدواوين ، وان ديوان البير يمانع عن الملك ، وديوان رسل العمالات يحامي عن الرعية ." (١)

وهو يعرف أن القانون الفرنسي قانون وضعي ، وضع في زمن لويس الثامن عشر وأن " غالب ما فيه ليس في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ." (٢) ، ولكنه مع ذلك معجب به لما يحققه للناس من العدالة في شتى مرافق الحياة ، " لتعرف كيف حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك ، وراحة البلاد وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم وكثرت مصارفهم ، وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم فلا تسمع فيهم من يشكو ألما أبدا ، والعدل أساس العمران ." (٣)

ثم يقوم بترجمة لسبعة أبواب من الدستور الفرنسي ، يبدأ بالحق العام للفرنساوية ثم كيفية تدبير المملكة ، وفي منصب ديوان البير ، وفي منصب ديوان رسل العمالات الذين هم أمناء الرعايا ونوابهم ، وفي منصب الوزراء ، وفي ابقات القضاة وحكمهم ، وفي حقوق الرعية . (٤)

---

(١) رفاعة الطهطاوي ، تخليص الابريز ، ص ٩٥

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٥

(٣) المصدر نفسه ، ص ٩٥

(٤) المصدر نفسه ، ص ٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم علّق على هذا الدستور تعليقات ووقف عند الباب الأول وهو حقوق الفرنسيين معجبا بهذا القانون لما يحققه من المساواة بين الناس " ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية وهي من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم الى درجة عالية . . . وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف" (١)

ثم وقف عند المادة الثانية من الباب نفسه وهي أنهم يعدلون من أموالهم بغير امتياز شيئا معينا لبيت المال ، كل انسان حسب ثروته" (٢)

فتمنى أن تكون هذه المادة سابقة في بلاد الاسلام ، لأنه " لو كانت مرتبة في بلاد الاسلام كما هو في تلك البلاد لطابت النفس ، خصوصا اذا كان الزكوات والفيء والغنيمة لا تفي بحاجة بيت المال أو كانت ممنوعة بالكلية . " (٣)

فهو يستشعر الحاجة الى تطبيق مثل هذا القانون في مصر ، ويحاول أن يجد له سندا من الشريعة " على بعض أقوال مذهب الامام الاعظم . " (٤) ، وسندا من الواقع فهو اطيلة اقامته في باريس " لم أسمع أحدا يشكو من المكوس والفرد والجبايات أبدا . " (٥)

وهو في تعليقاته على هذا الدستور لا ينتقد ، وانما هو معجب دائما ولذلك رأى في مواده أنها نافعة ، ومفيدة ، وعادلة .

وفي فصل آخر (٦) ، يتحدث الطهطاوي ، عن الثورة التي حصلت سنة ١٨٣٠م والتي شهدها رفاعة أثناء اقامته هناك ، يتحدث في البداية عن " علة خروج الفرنساوية عن طاعة ملكهم " ، حديثا يكشف عن معرفة الطهطاوي بالنظم الدستورية الغربية ، ويكشف عن عمق صلاته بالمجتمع الفرنسي .

---

١) رفاعة الطهطاوي ، تخليص الابريز ص ١٠٢

٢) المصدر نفسه ، ص ٩٦

٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٣

٤) المصدر نفسه ، ص ١٠٣

٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٣

٦) المصدر نفسه ، ص ص ٢٠١ - ٢٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبدأ بالحديث عن تركيب المجتمع الفرنسي ، وانقسامه الى قسمين :
الملكية والحرية وهو يعني بالملكية ، الذين يحملون الحاكم حقا مالقـــا في الحكم وبالحرية الذين ينادون بتقييد سلطة الحاكم .
ثم يبيّن أن " الملكية أكثرهم من القسوس وأتباعهم ، وأكثر الحريين مـــن الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية ." (١)

ثم يتحدث عن التدابير التي اتخذها شارل العاشر ، الـــتي أجبرت الفرنسيين على القيام بالثورة ، فلقد وضع الرقابة على الصحف ونهى " عن أن يظهر الانسان رأيه وأن يكتبه أو يطبعه بشروط معينة خصوصـــا " الكازيطات" اليومية ، فانه لا بدّ في طبعها من أن يطلع عليها واحـــد من طرف الدولة فلا يظهر منها الا ما يريد اظهاره ، مع أن ذلك ليس حـــق الملك وحده ، فكان لا يمكنه عمله الا بقانون والقانون لا يوضع الا باجتمـــاع : رأي الملك ، ورأي أهل المشورة ." (٢) ، وأعطى المناصب العسكرية لعـــدة رؤساء مشهورين بأنهم أعداء للحرية التي هي مقصد الفرنسيين . فاحتجبت الصحف احتجاجا على هذا الوضع ، وحصل اضراب " فأغلقت الورشـــات والمعامل والفبريقات والمدارس ، فظهر بعض كازيطات الحرية آمـــرة بعصيان الملك والخروج على طاعته ، ومعدة لمساويه ، وفرقت على النـــاس من غير مقابل ." (٣) ، وزاد في غضب الفرنسيين ، مداهمة " ولاة الحسبة" للصحف ، ومحاصرتهم لمطابعها فأمر رؤساء هذه الصحف الناس بالقتـــال ، " وكان الميعاد في درب سرابة " بالبروايال" ، فازدحم فيه كثير من الامـــم

---

(١) رفاعة الطهطاوي ، تلخيص الابريز ، ص ٢٠١
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٥
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفيما حوله من الحارات، فكانت المساكر السلطانية تحاول تفريق هذه الزحامات فتضرم دوي الرعية وكثرت أصواتهم وظهر غضبهم في سائر الدروب والحارات فهجم العسكر على الرعية والتحم القتال بين الفريقين، فكانت الرعية تقاتل أولا بالأحجار والمساكر بالسيوف والالات الحرب، فكثر القتال وعظمت المطاردة من الجانبين، ثم بحث الرعية عن الالات الحرب، وظهر صوت البارود من الجانبين في مدينة باريس فكأنما لسان حال لسان الفرنساوية، الذي هو أصدق من لسان مقالهم، جعل يقول:

" ان بني عمك فيهم رماح" فعظم القتال، وكان أكثر المقتول من الرعية فاشتد غضبهم، وعرضوا القتلى في المحال العامة لتحريض الناس على القتال ... فما مرت بهذا الوقت بحارة الا وسمعت فيها: السلاح! السلاح! أدام الله الشرطة وأهلك شدة الملك." (١)

ويستمر الطهطاوي في وصف أحداث الثورة، بمنتهى الدقة، فيصف ردة فعل الملك الذي أمر بحصار المدينة، فازدادت علامات الاضطراب، واستولى الشعب على الأسلحة، واحتل معظم المدينة.

عندما حاول الملك أن يتراجع، ولكنهم "أجابوه بأنه لم يبق للصلح محلا وأن أوان الصلح قد فات، وانه لم يتبصر في العواقب، ومن لم يتبصر في العواقب لقي النوائب." (٢)

ثم يتحدث عن انتصار الثورة، وخلع الملك، ونتائج ذلك على الصعيد السياسي والقانوني بالنسبة لفرنسا. فعلى الصعيد القانوني مثلا لقب الملك الجديد ملك فرنسا لا ملك الفرنسيين ويعلل الطهطاوي ذلك بأنه

---

١) رفاعة الطهطاوي، تخليص الابريز، ص ٢٠٦

٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" الفرق بينهما أن ملك الفرنساوية معناه كبير على نفس الأشخاص بجعلهم له ملكا ، بخلاف ملك فرانسا فان معناه أن أرض فرنسا ما دامت باقية فهو سيد ها وملكها . "(١)

وعلى الصعيد السياسي يتحدث الطهطاوى عن العلاقات بين فرنسا وبين دول أوروبا وتأثير الثورة على ذلك " والذا هر أن أكثر الملوك التي أقرت ملك الفرنساوية الجديد انما أقرته على ذلك ورضيت بما وقع رضاء وقتيا ، حتى أن الفرنساوية تحس بذلك وتجهر به كأنها لا تثق بذلك الصلح الذى تراه ، كأنه هدنة وتعليق . "(٢) ، وخطورة هذه الآراء تتضح ، اذا عرفنا طابع الحكم السائد في مصر آنذاك ، فهو حكم مطلق وراثي ، لا يحترم دستورا ولا قانونا ، فتعريف الطهطاوى للناس بهذه الأفكار يعدّ بمثابة تبشير بالثورة على هذا الواقع ، واستبداله بواقع آخر .

وأعتقد أن اهتمام الطهطاوى بمثل هذه القضايا ، يدلّ على قلقه وأمومه لكي يكون في مصر ، حكم دستورى عادل . وهذا كان من تأثير حضارة الغرب على واقعه الفكرى وتفكيره السياسي .

---

١) رفاعة الطهطاوى ، تخليص الابريز ، ص ٢١٤

٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيـــا :

أحمد فارس الشـــدياق :-

مسيرة حياتـه :-

كانت حياة الشدياق في مطابعها العام، قلقة، مضطربة، علـى صعيد الحياة والفكر، فلقد ولد فارس الشدياق في عشقوت، احدى قـرى كسروان سنة ١٨٠٥، وسافر من لبنان الى مصر، ومنها الى مالطة، ثم الى انكلترا، وفرنسا وتونس. حتى انتهى به المطاف الى الآستانة. وتعددت انتماءاته العقائدية خلال ذلك، فانتقل من المارونية، الى البروتستانتيـة، ثم الى الاسلام، ولقد أسهمت عوامل عديدة في صياغة حياة الشـــدياق على هذه الشاكلة، كشف لنا بعضها في كتابه " الساق على الساق فيمـــا هو الفارياق " في حديثه عن سيرته الذاتية، في صدر حياته. فلقـــد كان الفقر سببا من أسباب اضطراب حياته، وقلقها ولهذا لم يثبت على مهنة من المهن التي حاول احترافها. " كان والداه من ذوى الوجاهة والنباهـة والصلاح (مرحى مرحى)، الا أن دينهما كان أوسع من دنياهما، وميتهما أكبر من كيسهما (برحى برحى) ... ولتكرير الصفاة عليهمـا، واعتشا الوفود لديهما، تعطلت سبل دخلهما، ونزحت بئر فضلهما، فلـــم يبق فيها الا نزّازات يلقى فيها المخفق المحروم سدادا من عوز، فكانـــا يجودان به أيضا من عوز السداد (وهّ وهّ)، فلذلك لم يعد في طاقتهمـا أن يبعثاه الى الكوفة أو البصرة ليتعلم العربية وانما جعلاه عند معلم كتـاب القرية التي سكنا فيها (وبح وبح)"[1]، ولم يشك الشدياق من الفقـــر فحسب، بل شكى من انحدار مستوى التعليم في الكتاتيب، وسيطرة رجـــال الدين والاقطاع عليها، لتجهيل الناس " والظاهر أن ساداتنا رجال الدنيا

---

(١) أحمد فارس الشدياق، الساق على الساق فيما هو الفارياق، ص ٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والدين ، لا يريدون لرعيتهم المساكين أن يتفقهوا ، أو يتفتحوا ، بل يحاولون ما أمكن أن يبقاد روهم متسكعين في مهامه الجهل والغباوة." (١) ، ولهذا أعلن عداءه للقائمين على التعليم ، لركاكة أساليبهم ، ولما يشوب ألفاظهم من عجمة ، ويعلن ساخرا ، أنه لم يتعلم في الكتّاب الا كتاب " الزبور وهو كتاب حشوه اللحن والخطأ لأن معربه لم يكن يعرف العربية." (٢)

فاشتغل بنسخ الكتب هواية لأن المعلم " أوجس منه خيفة أن يربكه في مسائل تصعب عليه فينفضح بها." (٣) ، ثم احترف هذه المهنة ، مع أنه لم يكن راضيا عنها " اذ كان يعتقد أن الرزق الذي يأتي من شق كشّ القلم لا يكون الا ضيقا." (٤) ، فتركها ، ثم حاول بيع البضائع على حمار ، ثم استأجر خانا ثم حاول كسب المال عن طريق تعليمه لأميرة من الأميرات ، الا أنه لم يستقر في مهنة منها ، وهذا لم يوفر له دخلا يكفيه مؤونة العيش. (٥)

ثم كان مقتل أخيه أسعد الشدياق (الأخ الأوسط ١٧٩٨ - ١٨٣٠) على أيدي الموارنة ، لأنه ترك نحلتهم ، وانضم الى المذهب الانجيلي ، أقوى سبب من أسباب قلقه ، واضطرابه ، فجاهر بسوء فعلتهم ، وأخذ يندد بهم ، فخافوا غضبة لسانه ، فاقتفوا أثره طلبا للنكال به ، فالتجأ الى المرسلين الأمريكان فأجاروه وبعثوا به الى مصر. (٦) ، وهذه الحادثة هي التي صبغت حياة الشدياق ، بكثير من المرارة ، على المستوى الحياتي والفكري ، وفجرت في نفسه حقدا على رجال الدين لا ينتهي . ولقد كانت سخريته من الاكليروس ، واعتناقه للمذهب الانجيلي ، ردة فعل لمقتل أخيه ، لما رآه من اضطهادهم

---

١) أحمد فارس الشدياق ، الساق على الساق فيما هو الفارياق ، ص ٨٤
٢) المصدر نفسه ، ص ٨٤
٣) المصدر نفسه ، ص ٨٦
٤) المصدر نفسه ، ص ٨٦
٥) المصدر نفسه ، ص ص ٨٣ - ٩٩ ، ص ص ١١٠ - ١١٢ ، ص ص ١١٣ - ١١٦ ، وانظر مارون عبود في "سقراط لبنان" ، ص ص ٨٧-٨٩ ، محمد أحمد خلف الله ، أحمد فارس الشدياق ، ص ص ٢١-٢٤ ، وكمال اليازجي في "رواد النهضة الادبية" ص ٩٧
٦) انظر جرجي زيدان ، "تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر" ، ص ١٠٢-١٠٣ ، وحسن السندوبي في "أعيان البيان" ص ١١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذى يتنافى مع تعاليم الدين المسيحي ، من جهة ، ولتعلقه الشديد بأخيه أسعد من جهة أخرى ، " فكره الاقامة في بلاد الشام جملة ، فغادرها ناقما عليها وعلى الذين كانوا سببا في موت أخيه أسعد ."(١) ، ولقد تغاضى بطرس الشدياق (أخوه الأكبر) ، عن مقتل أخيه أسعد ، تغاضيا تاما وأشار الى أن فارسا سافر الى مصر سنة ١٨٢٥م " وخدم عند محمد علي في القلعة لأجل اعراب الوقايع اليومية ."(٢)

وفي مصر تخلص الشدياق من كثير من مظاهر قلقه النفسي ، والمادى ، " فقد وجد نفسه في مناخ جديد ، تهيأت له فيه راحة الفكر ، وسعة الرزق ، وانفتحت في وجهه امكانات العمل ، واتسع وقته مع ذلك للتحصيل والاستزادة ، اذ تيسر له الاتصال بكبار علمائها وأدبائها . . . نخص بالذكر منهم ، الشيخ محمد شهاب الديني ، وقد أتقن عليه أصول اللغة ، ونصر الله الطرابلسي الذى درّبه في التحرير والانشاء ، ورفاعة الطهطاوى الذى ضمه الى أسرة تحرير الوقائع المصرية ، ومهّد له تولي تحريرها من بعده ."(٣)

ثم سافر الى مالطة ، سنة ١٨٣٤م بدعوة من المبشرين الأمريكان لأنهم أنشأوا هناك مطبعة عربية ، واحتاجوه للاشراف عليها وعلى منشوراتها " وقد تولى تصحيح ما يطبع في مطبعتهم هناك ، وأخذ في التأليف والتصنيف ولا يكاد يوجد كتاب مطبوع في مطبعة مالطة الا كان هو مؤلفه أو مترجمه أو مصححه ."(٤) ، ولقد مكث الشدياق هناك أربع عشرة سنة ، وهي فترة

---

١) جرجي زيدان ، تراجم مشاهير الشرق ، ص ١٠٢

٢) طنوس الشدياق ، كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان ١/ ١٢٠ ، وقد ردّ عليه الشدياق وبيّن ثغرات هذا الكتاب برسالة بعثها لأخيه طنوس من لبنان ، أنظر مقدمة الساق على الساق ، ص ص ٥٦ - ٥٧

٣) كمال اليازجي ، أعلام النهضة الأدبية الحديثة ، ص ٩٧ ، وجرجي زيدان تراجم مشاهير العرب ، ص ١٠٣

٤) جورجي زيدان ، تراجم مشاهير الشرق ، ص ١٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لويلة اذا عرفنا نفسية الشدياق ، وما فيها من قلق واضطراب، ينزع به الى التجوال وعدم الاستقرار، وهناك اشتغل بالاضافة الى الاشراف على المطبعة ، بتعليم اللغة العربية لأهل مالطة ، أو اصلاح لسان البحر كما كان يقول ، " فمن خصائصهم أنهم يتكلمون بلغة قذرة نفسة ، متتنة بحيث أن المتكلم يشم منه رائحة البحر أول ما يفوه والرجال والنساء في ذلك سواء." (١)

ويقول في وصفها شعرا :

تيت لها لغة بغير قراءة وكتابة عين بلا انسان

تتبلبل الألباب في تركيبها ويكل عنها كل حد لسان

أذنابها ورؤوسها عربية فسدت وأوسالها من الطليان (٢)

ثم يسافر بعدها الى انجلترا ، غير آسف على فراقها " لم أقل كما قال الشريف الرضي :

" وتلفت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب" (٣)

وسبب ذهابه الى انجلترا ، هو متابعة ترجمته للتوراة ، فيتوجه الى قرية بارلي ، ليكون تحت اشراف الدكتور لي ، وتتميز هذه الفترة بأنها من أكثر فترات حياة الشدياق تنقلا في كثير من البلاد ، فلقد عاد الى مالطة ، فترة من الوقت، وفي الصيف ذهب الى تونس ومدح حاكمها بقصيدة ، كافأه الباي عليها بهدية من الماس، (٤) ، ثم عاد الى لندن مع زوجته وأولاده ، وتوجه الى القرية نفسها ، وهناك توفي ابنه فايز فانتقل الى كيمبردج ، وغيرها من مدن بريطانيا . أنهى الترجمة في حوالي عشرين شهرا ، ثم سافر

---

١) الشدياق ، الساق على الساق ، ص ٢٣١

٢) الشدياق ، الواسطة في معرفة أحوال مالطة ، ص ٥٧

٣) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ٦٧

٤) كمال اليازجي ، رواد النهضة الادبية الحديثة ، ص ٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى باريس، وأقام فيها نحوا من ثلاثين شهرا، كان يتنقل في هذه الأثناء بينها وبين لندن، وألف في هذه الفترة كتابيه "الساق على الساق" و "كشف المخبا". مدح السلطان العثماني بمناسبة الحرب التي كانت دائرة بين الخلافة العثمانية، وروسيا، ومدح باى تونس، فدعاه الباى الى تونس وأحسن وفادته واعتنق الاسلام، ثم سافر الى الآستانة بأمر من السلطان، فعين في ديوان الترجمة وعهد اليه بالاشراف على المطبوعات الحكومية. وهناك أنشأ الشدياق "الجوائب" سنة ١٨٦٢م، ثم أنشأ لها مطبعة خاصة بها، "ولم تنحصر منزلة الجوائب في الشرق، لكنها دخلت الغرب، حتى كانت جرائد باريس ولندرا تأتي بذكرها، وذكر محررها في الكلام عن سياسة الشرق مستشهدة بأقواله، وكانت تلقبه بالسياسي الشهير والاخبارى الماهر الحصيف."(١)، ولقد توثقت عرى الصداقة بينه وبين كثير من الحكام(٢) مثل محمد الصادق باشا باى تونس، واسماعيل باشا خديوى مصر.

وظل رغم شيخوخته فتانا "لم يفقد شيئا من الانتباه أو الذكاء وكان الى آخر أيامه حلو الحديث الي العبارة رقيق الجانب مع ميل الى المجون."(٣)

وتوفي في الآستانة سنة ١٨٨٧م.

---

١) جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق، ص ١٠٨

٢) محمد أحمد خلف الله، أحمد فارس الشدياق، ص ٤٩، ٥٠

٣) جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق، ص ١٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملامح الشخصية الثقافية للشدياق :-

كان الشدياق من أصحاب الثقافات الموسوعية ، فلقد تفاعلت في كتاباته ثقافتان ، الثقافة العربية ، والثقافة الغربية ، ولقد أبان لنا الشدياق في " الساق على الساق " ، مصدرا من مصادر ثقافته الأولى ، وهو احترافه للنسخ هذا الاحتراف الذي أسهم في تعريفه بكتب كثيرة ، وغرس فيه حب الاطلاع " فكان فيه ميل غريزي لقراءة الكلام الفصيح ، والتبحر في معاني الألفاظ الغريبة التي يعثر عليها . في ما يقرأه من الكتب التي في مكتبة والده لأن والده قد أحرز كتبا عديدة في فنون مختلفة . "(١) ، ومن مصادر ثقافته أيضا ، دراسته في مدرسة عين ورقة في لبنان ، تلك المدرسة التي " أمدت النهضة الأدبية في القرن التاسع عشر بحفنة أدبية من الرجال الذين كانوا من دعائم الحركة الأدبية واللغوية ، وقد نبغ منها وتخرج فيها أحمد فارس الشدياق ، وبارس البستاني ، ورشيد الدحداح ، من رجال العلم والأدب ، كما تخرج فيها المبارکة يوسف حبيش ، ويوسف الخازن ، وبولس مسعد ، ويوحنا الحاج . "(٢) ، ويعتبر أخوه أسعد الشدياق مصدرا مهما من مصادر ثقافته ، فهو أحد أساتذته الذين كان لهم الفضل في توسيع مداركه الثقافية من جهة ، وتحويل حياته كلها الى شعلة من التجديد ، لأن مقتله كان نقلة تحول في تاريخ حياة الشدياق ، على المستوى الشخصي والثقافي ، فلقد كان أسعد " يكبر أخاه فارسا بسبع سنوات ، وهو من تلاميذ مدرسة عين ورقة أيضا ، وكان يجيد السريانية والعربية واللاتينية والايطالية ، والمنطق واللاهوت والرياضيات والفلسفة . "(٣)

---

١) جرجي زيدان ، تراجم مشاهير الشرق ، ص ١٠١

٢) محمد عبد الغني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٣٦

٣) المصدر نفسه ، ص ٣٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويمكن اعتبار رحلته الى مصر، مصدرا مهما من مصادر ثقافته العربيـــــة، فلقد أقام فيها تسع سنوات " بين تعليم وتعلم حتى أتم دروسه في العلـوم العربية وغيرها، وقد قرأ بعضها على الفاضلين، نصر الله أفندي الطرابلسي الحلبي، والشيخ محمد شهاب الدين، وطالع كتاب صحاح الجوهري، وديوان المتنبي، وغيرهما من كتب اللغة والأدب . . . وتمكن من سائر علوم اللغة كالنحو والصرف والاشتقاق والمنطق، وتقرب من خيرة علماء المصريين."(١)

كما أن رحلات الشدياق، الى أوروبا، واقامته الطويلة فيها، تعتبر مـــن مصادر ثقافته، لما أضافته الأسفار الى حصيلة اطلاعه، على صعيد المعرفة الثقافية، والتجارب العملية.

من هنا تعددت مجالات ابداعه، وتنوعت، فهو شاعر، وقـــاص ولغوي وصحفي، ومترجم. وتعتبر ثقافته اللغوية، عمدة الثقافة العربيـــة. فلقد وقف عند اللغة العربية، ناقدا، محللا، مبرزا خصائص اللغة العربية مبينا حبه وتعلقه بها، في أكثر ما كتب.

فكتابه " الساق على الساق" وان " دل على أنّ عقليته القصصية ناضجة جدا الى حـدّ كبير . . . فهو ترجمة لحياته، كتب بأسلوب قصصي فني طريف وفي بعض الفصول يرتفع النبض القصصي الى منزلة الآثار العالمية."(٢) فان الشدياق يبين أنّ اللغة، هي هدف رئيسي من أهداف تأليفه لهـــذا الكتاب " فان جميع ما أودعته في هذا الكتاب مبني على أمرين أحدهما ابراز غرائب اللغة، ونوادرها، فيندرج تحت جنس الغريب نوع المترادف والمتجانس وقد ضمنت منهما هنا أشهر ما تلزم معرفته، وأهم ما تمس الحاجة اليه عـــن

---

١) جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق، ص ١٠٣

٢) محمد يوسف نجم، القصة في الادب العربي الحديث، ص ٢٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نصل بديع، ولو ذكر على أسلوب كتب اللغة مقتضبا على الحقائق لجاء مملا وقد راعيت سرده مرة على ترتيب حروف المعجم، ومرة نسقته بفقرة مسجعة وعبارة مرسعة." (١)، ولقد نجح الشدياق في اقامة جسر بين الواقع اللغوي هذا، وبين هدفه الثاني وهو ذكر محامد النساء ومذامهن، مشيرا الى ربط اللغة بواقع المجتمع: وكتابه " الجاسوس على القاموس" ، نقد لمعجم الفيروزآبادي " القاموس المحيط"، وفي مقدمة الكتاب " يتحدث الشدياق عن كتب اللغة ويؤرخ لأصحابها ويبيّن في اختصار بعض العيوب التي تلحق هذه الكتب، وبعض المحاسن أو الفضائل التي تميز بعضها عن البعض الآخر وبخاصة تلك التي تخصّ الترتيب." (٢)، وتشتمل بقية الكتاب " على انتقاده لعبارات القاموس وخطئه وتحريفاته ومعاني ألفاظه واشتقاقها، وأوهامه في تعريف المسميات." (٣)، وكتابه " سر الليالي في القلب والابدال" مبني على ثلاثة مقاصد:

الأول سرد الأفعال والأسماء التي هي أكثر تداولا وأشهر استعمالا ونسقها بالنظر الى التلفظ بها لا يضاح تناسبها، وابداء تجانسها، وكشف أسرار معانيها وأصل مدلولاتها، والثاني: ايراد الالفاظ المقلوبة والمبدلة، ويندرج في ذلك الألفاظ المترادفة. والثالث: استدراك ما فات صاحب القاموس، من لفظ أو مثل أو ايضاح عبارة أو نسق مادة، وقد أضفت الى هذا المقصد الأخير في آخر المؤلف نقدين من كتابي الجاسوس على القاموس، أحدهما فيما ذكره صاحب القاموس في غير محله المخصوص به، والثاني فيما لم يذكره مطلقا.

---

(١) أحمد فارس الشدياق، الساق على الساق، ص ٦٥

(٢) محمد أحمد خلف الله، أحمد فارس الشدياق، ص ٩

(٣) محمد عبد الغني حسن، أحمد فارس الشدياق، ص ١٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ففي هذا الكتاب " يحقق الفكرة القاموسية التي نادى بها ، ويحقق مع هذه الفكرة تطبيقا دقيقا للنظرية الصوتية في نشأة اللغة . "(١)

أما كتابه " منتهى المجب في خصائص لغة العرب"، الذى احترق ، فيقول عنه جرجي زيدان " قضى في تأليفه سنين عديدة ، نحا فيه نحوا حديثا لم يسبقه اليه غيره على أسلوبه ، وقد أسهب فيه حتى بلغ مجلدات كثيرة ، وموضوعه البحث في خصائص الحروف الهجائية العربية . "(٢)

ولم يقف الشدياق عند اللغة العربية فحسب، ولكنه اهتمّ أيضا بنحو اللغتين الانجليزية والفرنسية ، فألف " الباكورة الشهية في نحو اللغة الانجليزية"، و " المحاورة الانسية في اللغتين الانجليزية والعربيـــــة"، و " سند الراوى في الصرف الفرنساوى"، بالاشتراك مع جوستاف دوجـــا المستشرق الفرنسي .(٣) ، فالشدياق اللغوى ، يشكل عنصرا هاما فـــي تكوين شخصية الشدياق الثقافية ولعلّ اسهامات الشدياق الأخرى فـــي مجالات الثقافة ، تكمل شخصيته الثقافية ، ولكن هذه الاسهامات لا توازى دوره اللغـــوى .

فلقد كتب الشدياق في أدب الرحلات، في " الواسطة في معرفة أحـــوال مالطة" و " كشف المخبا عن فنون أوروبا" ، وألف ديوان شعر " يشتمل علـــى اثنين وعشرين ألف بيت"(٤) ، وكان له دور كبير في النهضة الصحفية ، من خلال جريدة الجوائب التي أنشأها سنة ١٢٧٧هـ، " فبلغت الهند وفارس والعراق وسائر بلاد العرب ومصر والشام والمغرب، وأجاد في اتقانهـــا حتى لم يغادر أسلوبا من أساليب الكتابة لم يطرقه بين لغة وسياسة ، وصدح

---

١) محمد أحمد خلف الله ، أحمد فارس الشدياق ، ص ١٠ ، ١١

٢) جرجي زيدان ، تاريخ مشاهير الشرق ، ص ١١٤

٣) محمد عبد الغني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ١٩٧

٤) جرجي زيدان ، تراجم مشاهير الشرق ، ص ١١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورثاء، وجد، وهزل، ولوم وعتاب وحزن وطرب وسائر فنون الأدب، فنقلا من القصائد الرنانة، والمقالات المديدة في العلم والأخلاق كما تراه محفوظا في في " منتخبات الجوائب."(١)

ولم يقف الشدياق عند الثقافة العربية، فتعلم الانجليزية، وحذقها وترجم عنها، وتعلّم الفرنسية، في مدة اقامته في فرنسا، وأسهم في الترجمة والتعريب عن هاتين اللغتين، فلقد شارك في ترجمة التوراة عن الانجليزية باشراف الدكتور لي، يترجم عن الانجليزية " شرح طبائع الحيوان"، وطبع جزؤه الأول في مالطة سنة ١٨٤١م.(٢)

وتكشف كتبه عن تمثله واستيعابه، للأدب الغربي، وللفنون الغربية، وعن معرفته بالتاريخ الأوروبي المعاصر، ففي " كشف المخبا عن فنون اوروبا"، يتحدث عن كثير من تواريخ المدن الغربية، فيقف عند صقلية، وليفورنو، ومرسيلية، ودون بولون، ويتحدث عن تاريخ بلاد الانجليز، وتاريخ فرنسا، وتاريخ البروتستانت.(٣)

ويقف عند مشاهير الاوروبيين، مثل دانتي، يقول " وأول من أتقن الساعة المائية حتى صارت من الأدوات العلمية الدون كرلوس نالي أحد الرهبان الباندكتيين وذلك سنة ١٦٩٠م وزعم بعض أنها من مخترعات مرتينلي الطلياني. قيل وأول مؤلف ذكر اسم آلة تدل على الساعات هو دانتي الشهير، ولد في سنة ١٢٥٦م ومات في سنة ١٣٢١م."(٤)، ثم وقف وقفة طويلة عند جان دارك(٥)، وينقل قصتها نقلا تفصيليا، يقول " وقد وجدت هذه

---

١) جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق، ص ١٠٧، ١٠٨

٢) محمد عبد الغني حسن، أحمد فارس الشدياق، ص ١٩٧

٣) الشدياق، كشف المخبا عن فنون اوروبا، ص ص ٦٧ - ٧٥، ص ١٩٣، ص ٢٢٢

٤) المصدر نفسه، ص ٢١٩

٥) المصدر نفسه، ص ص ٢٦٢ - ٢٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القصة المحزنة في تاريخ بلاد الانجليز، فنقلتها بتمامها لغرابتها ثم وجدتها في كتاب آخر مروية بعبارات مخالفة لما تقدم بعض الخلاف ولا غرو فانه لا يكاد راويان يتفقان على رواية واحدة أو على رأى واحد، وكيفما كان فان ما جرى على هذه الفتاة التي تفردت بهذه المزايا الحسنة يبقى عبرة وخزيا على أسماء جميع الذين تسببوا في اهلاكها."(١)

وهو لا يقف عند جان دارك، وانما يتحدث عن مشاهير الغربيين في مختلف العصور، كشارل لمان، ولويس الرابع عشر، وفينلون مؤلف تليماك، وبوسوا الشهير في التاريخ والفصاحة، ومولير الشاعر البارع وبوالوا وهو من الشعراء الخلقين، وراسين، وشكسبير، والأمير كوندى وفولتير، وفلني في التاريخ والأدب، وبوفون في الطبيعيات، ودكرا في الفلسفة، ودلامبير في الهندسة، ومونتسكيو في الفلسفة والأدب وعموم المعارف، ونابليون الأول.(٢)، ويقف عند بعض مشاهير الفرنسيين، معرّفا بهم، مما يكشف عن اطلاعه على آثارهم، كالمارون دى ساسي، الذى لم يقم في بلاد الافرنج كلها من برع في اللغتين العربية والفارسية مثله، وجورج ساند، التي لم تقم امرأة تؤلف الكتب النفيسة مثلها(٣)، وشاعر أوروبا دولا مرتين، والكسندر دوماس المؤلف المشهور.

ويتحدث الشدياق عن بعض الاختراعات العلمية كالتلغراف، ويشرح عمله قائلا: "وأخذت أفكر تفكيرا مضطربا وكيف أن هذا العلم الحرى بأن يدعى من العلوم الالهية لكونه غير متناه، لم يكشف سره من قبل الآن حين كان النحويون يجيزون ستة عشر وجها في الصفة المشبهة ويمنعون وجهين ويختلفون في وجه، وحين كان العمر يضاع في التعليل والاعتراضات والتجويز والترجيح، كما أشار

---

(١) الشدياق، كشف المخبا عن فنون اوروبا، ص ٢٧٠، ٢٧١

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٨، ٢٥٩

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأديب الشيخ أحمد المسيري بقوله يمدح خديوي مصر على انشاء مدارس للعلوم الرياضية :

فهذا الفخر في وجه المعالي : وليس بضرب زيد وجه عمرو (١)

فالشدياق يقف ضد وجه من وجوه المعرفة اللغوية، أو ضد الاسراف فيها نظرا لانبهاره بهذا العلم التطبيقي الجديد .

ويتحدث الشدياق حديثا شاملا عن اوروبا ، يكشف عن سعة اطلاعه، فيقف عند النظام البرلماني في اوروبا (٢) ، حديثا يشفعه بالاحصائيات الدقيقة، ويمزجه بالحديث عن تاريخ نشأة هذا النظام، وتحدث عن مصادر التشريع عندهم (٣) ، وعن تقسيمها الى أربعة أقسام ما تناقلوه من أحكام الرومانيين، والغرمانديين، و "الساكسونيين"، ويتحدث عن المسرح، وما فيه من تمثيل ورقص، وعن المتاحف، وفن الكاريكاتور (٤).

---

(١) الشدياق، كشف المخبا، ص ٢٠٧، ٢٠٨

(٢) المصدر نفسه، ص ٣١٤ وما بعد هـــا

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٨ وما بعد هـــا

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٧، وانظر ص ٣٠٦ - ٣١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طبيعة مواجهة الشدياق للحضارة الغربية :-

أســـــــبابها :

احتضن المبشرون الأمريكان ، فارس الشدياق ، وحموه من بطش الموارنة ، بعد مقتل أخيه أسعد ، وبعثوا به الى مصر فمكث تسع سنوات هناك ومن ثم بعثه المبشرون الى مالطة ، لكي يشرف على نتاج المطبعة التي أنشؤوها هناك ، ومكث في مالطة أربع عشرة سنة ، يؤلف ويترجم ويصحح .

وفي سنة ١٨٤٨م سافر الى بريطانية ، عندما بعثت جمعية ترجمة التوراة في لندن ، تطلب من حاكم مالطة عن طريق وزير خارجيته أن يبعث الشـــدياق الى هناك للمساعدة في ترجمة التوراة الى العربية . وكانت هذه الجمعيـــة قد عهدت بترجمتها الى الدكتور لي ، وبعثت للشدياق لكي يشرف علـــى ضبط وسلامة هـــذه الترجمة ، يقول الشدياق " والدكتور لي هذا كـان يدرس العربية في كمبريج ، ولم يكن يحسن التكلم بها ولو بجملة واحـــدة ، وكان ذا اجتهاد لا مثل معه ، فكان يقعد على الكرسي للمطالعة أربـــع ساعات ، ولا يتحلحل عنه وما أخال أحدا غيره اشتهر بما اشتهر هو بـــه في علم اللغات المشرقية ، وتوظفه في كمبريج هو السبب الذي دعاني الـى الحضور الى هذه البلاد ، لان الجمعية لما استأذنت حاكم مالطة بواســـطة وزير الأمور الخارجية ، في احضاري لأجاور الموما اليه ظننت ان مكثي فـــي تلك المدينة . . . " (١) ، وهذا يعني أن الشدياق مكلف بأداء مهمـــة معينة وهي ترجمة التوراة ونقلها الى العربية ، وهي مهمة محددة لا بـــد من انجازها في وقت معين ، وهي في الوقت نفسه مهمة لا تخلو من مشـــكلات . وقد أرجع الشدياق شيئا غير قليل من هذه المشكلات الى طبيعة الترجمـــة ،

---

(١) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ١٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما فيها من مشاق نظرا للعقلية التي يتحلى بها الدكتور لي ، وأرجع بعضها الآخر الى اقامته في تلك القرية التي سماها " منفى "[١] ، بعيدا عن المدينة وما فيها من حياة ، وأرجع بعضها الى مشكلات عائلية كموت ولده فايز.[٢]

والشدياق يتخذ المشكلة الأولى مدخلا للتعبير عن مشكلة عامة وهي مشكلة تدريس اللغة العربية في انكلترا ، وبالذات في اكسفورد ، فيتحدث عما وقع له مع الدكتور لي أثناء ترجمة التوراة ، فمثلا كان الدكتور لي يقف عند " قولنا وضرب لهم مثلا ، كان يبدل ضرب بقال لأنه كان يترجم في عقله لفظ ضرب الى لغته فلا يجد له معنى سوى ايصال الألم."[٣]

ورغم هذه المشكلات التي كانت تجعل عملية الترجمة ، صعبة وعسيرة الا أنه أنهى عملية الترجمة " في أقل من عشرين شهرا . . . وفاوضت كاتب الجمعية في ذلك ، فقال ان كنت تقيم في هذه البلاد ، فان الجمعية تعين لك شيئا في مقابلة تصحيح الطبع ، فقلت على شرط أن أقيم في باريس ، ويبعث اليّ بالمطبوع الى هناك ، فأصححه ، فاني لما هممت بأن أتعلم اللغة الفرنساوية ، لما أني أرى في كتب الانجليز جملا وعبارات منها مما يحرض على تعلمها ، فقال لك ذلك."[٤] ، وهنا يكشف الشدياق عن ذهابه الى باريس ، واقامته فيها نحوا من ثلاثين شهرا تعلم خلالها اللغة الفرنسية ، وأصبح بامكانه أن يقارن بين الانجليز والفرنسيين ، مقارنة مصدرها الخبرة والاكتشاف الفردي .

---

١) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ٧٣

٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٨

٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٣ وانظر ص ص ١٢١ - ١٢٧

٤) المصدر نفسه ، ص ٢١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سـبب الكتابة عن الرحلـة :-

أما سبب الكتابة عن الرحلة، فيعود الى حب الشدياق لحيـاة السفر والتنقل التي ألفها منذ صغره، وحبّـه الى تخليد رحلته هـذه، ورغم اعترافه بأنّ السفر قضية جدلية، مدحها بعض الناس وذمها بعضهم " فمدحها من علت مروءته، وسمت همته، وذمّـها من قصر عنها ولم يجـن منها، فمنهم من شبه صاحبها بدرّة ان لم ينقل لم يكن في التيجان منضودا وبهلال ان لم يسر لم يصر بدرا مشهودا، ومنهم من زعم أنها الحاملة علـى الذل، المضيعة لحسب المرء والموقعة له في الخمل." (١)، الا أن الشدياق يضرب صفحا عن كل ذلك لأن هذا يخلق أمام الانسان باب التجربـة، باعتماده على ما قاله هؤلاء الأدباء أو كما يقول الشدياق " غير هاد وحده سبيلا قويما، ولا كليما، الا اذا امتحن الناقد اللبيب بنفسه أي الفريقين أصدقه قيلا وأهدى سبيلا." (٢)

فالسفر يضيف الى الانسان، معلومات جديدة، وعلما جديدا، وهذا لا يكون الا بالكتابة عنها.

وهناك سبب آخر من أسباب حرصه على الكتابة وهو انتماؤه الى بـلاد الاسلام وهذا الانتماء هو محصلة رحلته، فهو يهدف الى أن يأخـذ المسلمون بأسباب الحضارة الغربية، ويعرفوا مضارها، ومحاسنهـا. ولذلك لم يكتف بكتابه " الواسطة في معرفة أحوال مالطة"، لأنه لم يسـر في مالطة فائدة، " فألفيتها لا كما أملت، وكابدت منها ما لا يفي بما عنه ترحلت." (٣)، ولهذا أحب تلك السفرة الى اوروبا، لتمدنها، ولرقي

---

١) الشدياق، كشف المخبا، ص ٢

٢) المصدر نفسه، ص ٣

٣) المصدر نفسه، ص ٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حضارتها ومع هذا " كنت أبدا منغص العيش مكدره، كمن فقد والده، ولزمته محسرة، لا يروقني نضار ولا نضرة، ولا نعمة ولا مسرة، ولا طرب ولا لهو، ولا حسن ولا زهو، لما أني كنت دائم التفكير في خلو بلادنا عما عند هم من التمدن، والبراعة والتفنن." (١)

وكان نتاج هذه الرحلة الى انجلترا وفرنسا كتاب " كشف المخبا عن فنون أوروبا"، الذى طبع أول مرة سنة ١٨٥٤م " وقام بطبع الكتاب أحد وزراء تونس وقد أشار الشدياق الى ذلك في سر الليالي." (٢)

ويشكل هذا الكتاب مع كتاب الطهطاوى السابق الذكر الكتب الأولى التي نجد فيها مواجهة للحضارة الغربية، وموقفا منها.

طبيعة مواجهة الحضارة الغربية عند الشدياق :-

كانت رحلة الشدياق تالية لرحلة الطهطاوى، بفترة زمنية تزيد على العشرين عاما، فقد سافر الطهطاوى الى فرنسا سنة ١٨٢٦م، في حين سافر الشدياق الى انجلترا سنة ١٨٤٨م.

وهذا يعني أن الشدياق، كان يمتلك نوعا من المعرفة بأوروبا وبحضارتها، عن طريق الاحتكاك بالمبشرين، وقراءة ما كانوا يكتبون وما كانوا يترجمون، وكان تراث رفاعة الطهطاوى في هذا المجال، بين يديه، ويبدو أنه قرأه وتأثر به، ولقد أشار الى هذا في موضعين :

---

١) فارس الشدياق، كشف المخبا، ص ٤

٢) محمد أحمد خلف الله، أحمد فارس الشدياق، ص ١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الموضع الأول فهو حديثه عن الملاكمة يقول " ومن عادة العامة الملاكمة، ويقال لها البوكس، وفي محفوظي أن رفاعة بك رحمه الله، * ، ذكرها في قلائد المفاخر بلفظة الهوكسة، وذلك اذا تخاصم اثنان أو تكاذبا، فينزع كل منهما رداءه ويشمر عن ذراعه، ويصوب الى وجه قرنه جمع كفه، ثم يأخذان في اللكام حتى يغلب أحدهما، وحينئذ ينهض الغالب المغلوب، ويأخذ بيده ويشربان الشراب." (١)، وهذا الموضع يدل على اللاعه على ما ترجمه الطهطاوي أيضا، من عادات الفرنسيين وتمثله الى حدّ الحفظ. أما الموضوع الثاني ففي خلال حديثه عن باريس يقول " وخشبها في الغالب من النوع الذي سماه الشيخ رفاعة بك الكابلي." (٢)

فالشدياق يشير الى الفصل الذي عقده الطهطاوي في " تخليص الابريز في تلخيص باريز" بعنوان (في عادة سكبى أهل باريس وما يتبع ذلك)). (٣)

والنتيجة التي تترتب على هذا الكلام، هي أن الشدياق كان في مرحلة زالت فيها الدهشة والانبهار نسبيا، لتحلّ محلها طبيعة التفحص على المستوى البسيط. ولقد أعطاه التنقل في المكان، داخل انكلترا، حيث أقام في كيمبردج ثم تنقل بين لندن واكسفورد، وباريس، أعطاه مميزات السائح مع شيء من التحفظ، فهناك هدف يسعى الى تحقيقه، وهو ترجمة التوراة، ولكن هذا الهدف يسمح له بشيء واسع من التنقل والتحرك، مما يعطي الرحلة لا بعدا متحركا من جهة، ويسلب عنها التنظيم في الوقت نفسه.

---

*) يعتمد الباحث على الطبعة الجوائب التي طبعت سنة ١٢٩٩هـ، وليس على الطبعة الأولى لعدم توفرها، من هنا فان الطهطاوي في زمن هذه الطبعة كان قد توفي، فهو مات سنة ١٢٩٠هـ.

١) الشدياق، كشف المخبا، ص ١٢٠

٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٥

٣) الطهطاوي، تخليص الابريز، ص ص ١٠٧ - ١١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ هذا التنقل ، والاقامة الطويلة في فرنسا وانكلترا أدخلتا عنصرا جديدا على طبيعة المواجهة للحضارة الغربية ، وهو مقارنة الشدياق ، المستمرة بين الانجليز وبين الفرنسيين . فهو يقارن بين الانجليز والفرنسيين في مجالات شتى كالزراعة ، وطبيعة القرى ، وكيفية السفر ، والجمال عند الرجال والنساء ، وعفاف النساء واحترامهن للرجال . "(١) ، ويتحدث في مواطن أخرى عن الفرق بين لندن وباريس ، "(٢) ، من حيث بناء كل منهما ، وتوفر الخدمات العامة ، كالمطاعم والفنادق والأسعار ، ثم يشير الى تفرّد باريس بعدة " مواضع لا نظير لها في الدنيا بأسرها ، فان ابتدرتني لتقاطع عليّ كلامي بأن تقول وهل رأيت الدنيا كلها حتى تحكم بذلك ، وقلت اني لم أر الدنيا ، بل رأيت محاريث عقول أهل الدنيا أعني أقلام المؤلفين ممن لوفوا وساحوا في مناكبها فكلهم حكم لهذه المواضع بالأحسنية والأفضلية . "(٣) ، وتنتهي به المقارنة الى تفضيل باريس حطة على لندن جملة لبضعة عشر سببا ، لقلة حرائقها ، ولأنه لا يعرف في باريس تداول نقود زائفة ، ولقلة جرائم القتل فيها ، ولقلة سرقاتها ، ولقلة عمليات السلب فيها ، وللاشراف الدقيق فيها على المأكولات ولوضعهم الرجل المناسب في المكان المناسب ، ولهيمنة النظام فيها ، ولتوفر المكتبات ، ولأن العلم واكتساب المهن ميسوران ، ولأن رواتب الموظفين مكفولة . "(٤) ، والعجيب أن الشدياق يمدّ من أسباب تفضيل باريس على لندن ، الاشراف على الموسمات طبيا ، ومنع المومس المريضة من تعاطي مهنتها ويقول " ولا جرم أنه حيث كانت هذه المفسدة في المدن الجامعة مما لا يستغنى عنه وكانت هؤلاء المتهالكات على الدينار ،

---

١) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ٨١ ، ص ٧٣ ، ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ ، ص ١٠٥ ، ص ١٠٦ ، ص ١١٠ ، ص ١٠٥

٢) المصدر نفسه ، ص ص ٢٣٣ - ٢٣٨

٣) المصدر نفسه ، ص ٢٣٨

٤) المصدر نفسه ، ص ص ٢٧٢ - ٢٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقاية لعرض الجزائر كان النظر في أحوالهن يمدّ من الصالح ."(١)

وهو بالتالي يردد حكما نقديا قاله الآمدي في أبي تمام والبحتري حين يقول : " ان الجيد من الانكليز خير من الجيد من الفرنسيين ، والردئ من هؤلاء خير من الردئ من أولئك ، ومآل الكلام أن عامة الفرنسيس أفضل وأن خاصة الانكليز أجلّ وأمثل ."(٢)

والشدياق لا يظلم الانجليز ، فهو معجب بخصالهم الاجتماعية كقلة فضولهم ، وقلة حسدهم ، وجدهم في مساعيهم ، وعدم بخسهم الناس حقهم ، وعدم حبهم للنميمة والغيبة خلافا للفرنسيس ، وابتعادهم عن الرشوة ، ووفائهم بالوعد ."(٣)

ولكن الشدياق في مواجهته للحضارة الغربية ، لا يقف عند مظاهر المقارنة ، التي يدعمها في كثير من الأحيان بالاحصائيات الدقيقة(٤) ، وانما ينتقد كثيرا من مظاهر الحياة المختلفة وشؤونها في مختلف المجالات ، وهو يمزج الخاص بالعام في ذلك كله . أي أن الشدياق يعمّم تجربته الشخصية على كثير من المظاهر التي لا تعجبه . ولقد وقف الشدياق عند فقر الريف الانجليزي معلقا " ان أهل القرى هنا ، كأهل القرى في الشام ، بل هم أشد قشفا ، وكثيرا ما تقرأ حكايات تدل على بؤسهم ، وقشف معيشتهم بما لا يقع في بلاد أخرى ."(٥)

فالشدياق مرّ بتجربة سيئة في الريف الانجليزي ، لقلة موارد هذا الريف ، ومرّ من أجل ذلك في معدته ، ولهذا لاحظ ما يقاسيه الفلاحون

---

(١) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ٢٧٣

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ ، ٢٧٥

(٣) المصدر نفسه ، ص ص ١٤٣ - ١٦٣

(٤) المصدر نفسه ، ص ص ٩٣ - ١٠٢

(٥) المصدر نفسه ، ص ٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من ضيق وفقر، ولم يقتصر في ملاحظته على الفلاحين الانكليز بل ذكر أهل الشام، وكأنه يتذكر طفولته الأولى في لبنان وحالة فلاحي بلاده. ووقف عند تحالف رجال الكنيسة مع الاقطاع في بريطانيا، وهذا التحالف في لبنان هو الذي أسهم بتشريده، بعد مقتل أخيه أسعد. ويعلق الشدياق "وسبب فرط فقر الفلاحين هو كون الأرض قد دحاها الله تعالى لأن تكون ملك الأمراء والأشراف فقط فيستأجرها منهم أناس مأمونون ويستخدمون بعض الفلاحين في حرثها واستغلالها فلهذا لن تجد في القرية أحدا ذا رواء ورياش الا مستأجر الارض وقسيس القرية، على أنه لا يلي شيئا من أمور أولاده الروحيين سوى الخلبة فيها يوم الاحد."(١)

ولقد وقف الشدياق عند مظاهر أخرى من مظاهر الحياة الغربية. فوقف عند المسرح المسمى "دروري لان ثياتر"، محللا ببسالة بعض مضامين هذه المسرحيات" واعلم أن التمثيل في الملهى يتجاذبه نوعان من التاريخ والأدب وفيه تمثل الحوادث والوقائع الماضية، فتصير كأنها مشاهدة بالعيان وفيه تنشد الأشعار الرائعة، والقصائد البليغة، ويقع من المحاورات الأدبية جدا وهزلا ما يسرى به عن الثكلى حزنها، وكل ما يقال فيه فهو من الكلام الفصيح."(٢)، وبالاضافة الى هذا الوصف، فان الشدياق يضرب مثالا، لكي يجسد هذا الوصف المجرّد، وينتقي الشدياق "ما جرى بين السموأل وبين الحارث بن ظالم حين طلب منه أن يسلمه الدروع التي كان أودعها عنده امرؤ القيس."(٣)

---

(١) الشدياق، كشف المخبا، ص ٧٦

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٦

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقف الشدياق عند المتاحف والمكتبات، والصحافة، والرقص (١)، وقفة وصفية، تعطي للقارئ فكرة شاملة.

وخلاصة القول في مواجهة الشدياق للحضارة الغربية، أن مواجهته تمتاز بمقومات شاملة، في مختلف مجالات الحياة، ولكن هذه المواجهة مبعثرة، يظل الشدياق فيها أسير قلقه واضطرابه، فلا يستطيع القارئ لكشف الضبا أن يلمح منظومة فكرية مترابطة، وانما يجد خطرات ناقدة، دقيقة، ولكنها تظل جزئيات مبعثرة لا تشكل - كما نجد عند الطهطاوي - رأيا شاملا متكاملا.

الشدياق وبعض القيم الغربية :-

وقفة الشدياق ازاء معطيات الحضارة الغربية، متنوعة، تتجلى في جوانبها كثيرا من جوانب الحياة الجديدة. ولكن الشدياق وقف عند كثير من الظواهر الاجتماعية في الغرب، ناقدا، ومستعرضا، ومقارنا بين هذه الظاهرة ومثيلاتها في انجلترا وفي فرنسا.

ففي معرض حديثه عن أخلاق الانجليز، يقدم حديثا سريعا عن طبقات المجتمع الانجليزي، حتى يكون حديثه خاليا من التعميم والتسرع. فيقسم مجتمعهم الى خمس طبقات، لكي يربط بين أخلاق هذه الطبقات وبين ابقتها " الطبقة الأولى : الأمراء، والوزراء والنبلاء وذوو المناصب السامية ويلحق بهم الأساقفة والثانية : الأعيان والعلية وهم الذين يعيشون من أرزاقهم وأملاكهم لا من صناعة شغل أو حرفة وليس لهم جلاء أي لقب تعظيم. والثالثة : العلماء

---

(١) الشدياق، كشف المخبا، ص ٣١٢ - ٣١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقضاة والفقهاء ويلحق بهم القسيسون والتجار وأهل المراسلات والطبقة الرابعة : التجار أصحاب الدكاكين والكتاب وهم الذين يحتاجون الى تحصيل معاشهم بالاحتراف والاصطراف ولكن من دون ابتذال ماء الوجه والخامسة : أهل الحرف والصنائع والعملة ويلحق بهم الفلاحون وهم الجمهور الأكبر.

فعادات أهل الطبقة الأولى مباينة بعض المباينة للثانية، ولكن ليس بينها وبين الأخيرة من مناسبة أصلا كما سيأتي، وعادات أهل الطبقتين الثالثة والرابعة متساوية لا اختلاف فيها الا ما ندر من أهل الطبقة الثانية، فان لهم من وجه نزوعا الى الأولى بالنظر الى العز والاستبداد ومن وجه ينزعون الى الباقي بالنظر الى الجنسية والألفة والغالب على جميع هذه الطبقات حب الوطن."(١)

ولكنه يتحدث حديثا عاما عن طبائع الانجليز، ويقف عند ظاهرة اجتماعية وهي انهيار العلاقات الاجتماعية عندهم، نظرا للانحلال الأخلاقي "ومن طبعهم أيضا الا يحترموا الشيخوخة من حيث هي شيخوخة، ولا يهاب الأولاد والديهم، كما تهاب الاولاد عندنا، ولا يحن الوالدون أيضا على أولادهم كما عندنا، ولذلك يقع كثيرا أن الأب يقتل ولده، والولد يقتل أباه كما يأتي بيان ذلك وقد يحدث عندهم مضاجعة الأب ابنته، وهو عند الفرنسيس أكثر، ولكن لم يبلغني أن ولدا ضاجع أمه، وفي المدن الجامعة قد تتواطأ الأم وابنتها على الفحش والفساد أو الأخت وأختها."(٢)، ومن الظواهر الاجتماعية عندهم، قلّة العلاقات الاجتماعية والشدياق يتحدث عن هذه الظاهرة ساخرا فيقول : "ومن طبعهم أنهم لا يتزاورون ولا يسهر

---

١) الشدياق، كشف المخبا، ص ٣١٢ - ٣١٣

٢) المصدر نفسه، ص ١١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعضهم عند بعض. وكيف يسهرون وهم انما يرقدون في الساعة التاسعة ويقومون صباحا في الساعة الرابعة كل ذلك حتى يأكلوا الفقع أعني البالس ويشربوا الفقاع وربما بقي الرجل سنين ولا يعرف جاره، وكذا أهل المدن وغاية محاوراتهم اذا تلاقوا في الطريق أن يقول أحدهم طيب بارس، فيقول الآخر طيب يوحنا." (١)

ولقد وقف الشدياق عند ظاهرة اجتماعية أخرى، وهي ظاهرة الانتحار وأورد قصصا يدلل بها على صدق ما يقول ويبدو أنه اطلع عليها من كتاب فيقول "حكى صاحب أخبار العالم"، "فأما ما يحدث في بلاد الانجليز من تسميم الأزواج بعولتهن، والوالدين أولادهم وقتلهم، وبالعكس، ومن الانتحار أعني قتل الانسان نفسه فأمر يهول وشرحه يطول.

نعم ان الانتحار يحدث أيضا في غيرها وأعظم أسبابه العشق والحرمان الا أنه بالنسبة لهذه البلاد لا يذكر." (٢)

ولكن الشدياق لم يقتصر على رصد النواحي السلبية في الظاهرة الاجتماعية وانما تحدث عن ايجابيات كثيرة في حياة الانجليز كعدم فضولهم، وجدهم في المسعى وعدم الشماتة وكراهية العبث الموجب للتنافر، وعدم التهافت على الحسد، وأنهم يرضون بحالتهم فلا يتظلمون ولا يجدفون أي يستقلون عطاء الله." (٣)، ووقف الشدياق وقفة طويلة عند المرأة، وتمتاز هذه الوقفة بأن فيها من التنوع الشيء الكثير، ولكنها مبعثرة في ثنايا الكتاب. فلقد وقف عند شكل المرأة الغربية، مبينا مفاتنها الجمالية، فتحدث عن لون البشرة ولون العيون ولون الشعر، ولبيعة الأسنان عندهن، "أما نساء

---

١) الشدياق، كشف المخبا، ص ١١٧

٢) المصدر نفسه، ص ١٣٥، ١٣٦

٣) المصدر نفسه، ص ص ١٤٤ - ١٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الانجليز فلونهن البياض المشرب بحمرة وعيونهن شهل أو زرق في الغالب وشعرهن أسود غالبا وان اشتهر خلافه الا في حواجبهن فقل أن تكون حالكة وأسنانهن أحسن مما يظن في أمثالهن ممن ربي في البلاد الباردة."(١) ولذلك كان لون البشرة الأسمر محببا الى الرجال والنساء في اوروبا "هذا ولما كان لون البياض عاما في الرجال والنساء في هذه البلاد كانت المرأة السمراء محببة الى الرجال جدا والرجل الأسمر محببا أيضا الى النساء جدا وهذه الطائفة المعروفة عندهم باسم جبسس وهم صنف من نور بلادنا وغجر مصر لولا دناءتهم لكانت علية الانجليز تصاهرهم وذلك لسمرة لونهم وكحل عيونهم."(٢)

ثم يتحدث بعد ذلك عن الأخلاق الاجتماعية لنساء الغرب، فيقف عند العفاف كظاهرة اجتماعية، ويقارن بين النساء الانجليزيات والفرنسيات "والذي أتحققه أن أعيش المتزوجين من الانكليز وان لم يكونوا يعتفون بأزواجهم ويكرمونهن أمام الناس كما تفعل الفرنسيس الا أنهم أكثر حصانة منهم لفروجهم وأوفر مودة ووفاء لهن في الحضرة والغيبة."(٣)، ثم يشير الى علاقة الرجال بالنساء في كل من بريطانيا وفرنسا، فيوضح أن الرجل الفرنسي "أرفق وأحفى فان أحدهم ليؤثر راحة المرأة أيا كانت على راحة نفسه... أما الانكليز فلا مبالاة لهم بذلك وكثيرا ما أرى رجالا منهم يضطرون النساء والأولاد حتى يسبقوهن الى موضع يتبوأونه فاذا دخلت النساء ظللن قائمات."(٤)، ثم يقف عند الزواج في بريطانيا، والبيعة العلاقة الزوجية، ومنع الطلاق وهو ينتقد كل ذلك.

---

١) الشدياق، كشف المخبا، ص ١٠٥

٢) المصدر نفسه، ص ١٠٨، ١٠٩

٣) المصدر نفسه، ص ١١١

٤) المصدر نفسه، ص ١١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابطا بين منع الطلاق وكثرة الاتهام بالزنا لأن الطلاق محظور في شرعهم الا لأجل الزنا " ومن الغريب هنا أنه قد جرت العادة عند العامة بأن يبيعوا نساءهم بيعا لعدم امكان طلاقهن وصورته أنه اذا شعر الرجل بأن زوجته تحب آخر عرض عليها الانتقال الى محبوبها فاذا تراضيا أخذها وباعها له بمحضر شهود وقبض منه ما يؤذن بصحة البيع وتخلص بعد ذلك من تبعتها ."(١) ، ويشير الشدياق الى تفشي الأمية بين نساء الانجليز ويورد احصائيات يدلل بها صدق ما يقول ويعلل ذلك " بأن الرجال في هذه الأماكن لا يريدون اقبال نسائهن على القراءة والكتابة مخافة أن يشمخن عليهم كدأب نساء الفرنسيس."(٢) ، ويقف الشدياق وقفة عند النظافة فيقول : " ولنساء الفرنسيس نظافة زائدة على الملبوس والمفروش، فكل ما كان لونه البياض يبقى كذلك الى أن يبلى ، ولكن لهن من الطهارة نصيب ولهن أيضا عناية بليغة بتنضيد أثاث البيت، وبهن تليق جميع الأعمال وفي الواقع فانهن أزكن وألقن من سائر نساء الافرنج ، وما من امرأة في باريس الا وتعرف شيئا من المداواة ومن لهمهن التبكير في القيام وتنظيف مراقدهن بخلاف نساء لندرة . فان الغالب عليهن الكسل والتواني والاضحاء في النوم، ولهن أيضا حرص على تربية أولادهن ."(٣) ، ويستمر الشدياق في جلاء الصورة الاجتماعية، فيصل الى الحديث عن نفسية المرأة الفرنسية فهي رغم تعاطيها الأعمال الخسيسة مما تأنف منه نساء الانجليز كتكنيس الطرق وحمل الأحمال وتنظيف الأحذية، " لا بد أن تخالط كل واحدة من هؤلاء الخسيسات المبتذلات بلفظة ما دام فأما الستات المترفات من هذا الجيل فالمزة للواحد القهار . . . فهن نساء صورة وشكلا ورجال أمرا ونهيا."(٤)

---

١) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ١٧١ ، ١٧٢

٢) المصدر نفسه ، ص ١١١

٣) المصدر نفسه ، ص ٢٥١ ، ٢٥٢

٤) المصدر نفسه ، ص ٢٥٦ ، ٢٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتستمر المقارنات بين لندن وباريس في مختلف المجالات ولا سيما في المجالات الاجتماعية." (١) ، مدعمة بالاحصائيات، وهذه المقارنات على خلوها من التنظيم المنهجي ، وبعثرتها ، الا أنها تدل دلالة واضحة تكشف عن وعي الشدياق العميق بحضارة الغرب الحديثة ، وتحليله لهذه الحضارة ، وقدرته على فرز عناصر الخير والشر فيها .

---

١) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ص ١٠٤ - ١١٢ ، ص ١٤٥ ، ص ص ٢٧٢ - ٢٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم تكن علاقتنا بالغرب في العصر الحديث علاقة اختيارية، فلقد فرضت الحضارة الغربية علينا أن نتعامل معها حين جاءتنا غازية، غالبة، متسلطة. ولكنها حاولت أن تخفي أهدافها وتلبس رداء اسلاميا كما فعل نابليون[×].

ولقد اختلف الباحثون في تاريخ النهضة الأدبية العربية الحديثة في تحديد العوامل التي أسهمت في هذه النهضة، وانقسم الباحثون في الأغلب - الى فريقين : فريق يرى أن حملة نابليون كان لها الدور الأول في النهضة العربية بما حملته من أفكار الثورة الفرنسية، وفريق آخر يرى أن حملة نابليون لا قيمة لها على الاطلاق من الناحية الايجابية[(١)]. ولكن كلا الطرفين كان متسرعا في تضخيم الدور أو نفيه على الاطلاق، فليست الحضارة طفرة ولكنها تحول جذري عميق في شتى أمور الحياة وأصعدتها، ولهذا فنحن نعتقد أن الحملة "كان لها بعض الأثر في تلك النهضة المصرية الحديثة، ولا نقول انها كانت الأساس الوحيد لهذه النهضة، كما أنها برغم ازدرائها للتقاليد وامتهانها لعادات المصريين، قد ربطت الى حد كبير بين الشرق والغرب أو بين مصر وبين التيارات السياسية العالمية"[(٢)]. فغزو نابليون لمصر كان أول تماس عسكري - حضاري حاول فيه نابليون ايهام سكان مصر بأنه مسلم مثلهم على الصعيد العقائدي، موال للعثمانيين على الصعيد السياسي، وأن صراعه مع المماليك يرجع الى كونهم غرباء عن المصريين، وأنه يهدف الى جعل الحرية والمساواة، أساس حكمه، ولكن هذه الجوانب زالت من نفوس الناس لأن نابليون ونوابه من بعده قد خالفوها جملة وتفصيلا، ولذلك جوبه الفرنسيون بالنفرة والمقاومة، ولعل مبادئهم النظرية كانت سلاحا من أسلحة المقاومة ضدهم[(٣)].

× انظر: الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ٢/ ص ص ١٨٢-١٨٣

(١) انظر مثالا على الفريق الأول ما كتبه رئيف خوري، "الفكر العربي الحديث" بيروت، دار المكشوف، ١٩٤٣. وما كتبه لويس عوض في "تاريخ الفكر المصري"، ج ٢، دار الهلال، ١٩٦٩، وعلى الفريق الثاني ما كتبه محمد جلال كشك في "ودخلت الخيل الأزهر"، بيروت، الدار العلمية، ١٩٧٢.

(٢) محمد عبد الرحمن البرج، دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر، ص ٣٢

(٣) يروى الجبرتي في تاريخه كثيرا من وقائع مقاومة الشعب المصري للفرنسيين : عجائب الآثار في التراجم والاخبار، ٢/ ص ص ٢١٨-٢٢٤، ص ص ١٨٦-١٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن غزو نابليون لمصر لم يكن غزوا عسكريا فقط، وانما كان غزوا حضاريا "فلقد رافقت الحملة نخبة من علماء فرنسا مزودين بكل ما يحتاجه البحث العلمي من كتب، وآلات علمية، وأدوات. وحرص نابليون، وكبير من بعده، على أن تستمر بعوث علماء الحملة ودراستهم لكشف النقاب عن تاريخ آثار هذه البلاد"(١). وأغلب الظن أن هاتين الصورتين (الصورة العسكرية والتفوق العلمي)، قد تداخلتا مع بعضهما بعضا فشكل تداخلهما صورة متكاملة للفرنسيين. فالفرنسيون (أو الغرب) أعداء، ومستعمرون، ويشكلون خطرا سياسيا وعسكريا. ويتضح ذلك في مقاومة المصريين لهم وقتل كليبر على يد سليمان الحلبي(٢). والفرنسيون (أو الغرب) متقدمون في مناحي العلم، والفن، وتنظيم شؤون الدولة. والجبرتي، وهو من كبار مثقفي عصره، لا يخفي اعجابه بهذا التقدم الذي رآه وشاهده، ولم يسمع به سماعا(٣).

ولقد حاول محمد علي عندما جاء وتسلّم حكم مصر، أن يستفيد من العلوم الأوروبية، ولا سيما في النواحي العسكرية، فبدأ سياسة ارسال البعثات العلمية الى أوروبا "وبلغ عدد الطلبة جميعا الذين أوفدهم محمد علي الى اوروبا من ١٨١٣-١٨٤٧م (٣١٩) تلميذا"(٤). أي أن الاقتباس عن الغرب، ومحاولة نقل العلوم عنه كانت سببا رئيسيا من أسباب الذهاب اليه.

---

١) محمد عبد الرحمن برج، دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر، ص٣٣
وانظر دراسة تفصيلية شاملة عن أثر غزوة نابليون في كتاب الدكتور محمد فؤاد شكرى "الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وعلميا"، ص ص ٥٤٨-٦٧٥.

٢) الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٢/ ص ص ٣٦١-٣٩١
يصف الجبرتي سنة الحملة الفرنسية بأنها "هي أول سنّي الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلاف الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الاحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الاسباب وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون"

٣) المصدر نفسه ٢/ ص ص ٢٣٣-٢٣٥. وانظر جاك بيرك - "العرب تاريخ ومستقبل" ص ١٤

٤) عبد الرحمن الرافعي، مصر محمد علي، ص ص ٤٧٩-٥٦٨،
حيث يفصل الرافعي في الحديث عن المبعوثين تفصيلا شاملا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويختلف الوضع بالنسبة لبلاد الشام، ولا سيما في سوريا عنه في لبنان.

ففي سوريا التي كانت قريبة من مركز الخلافة العثمانية، هاجر كثير من الأدباء والمفكرين اما الى الغرب، واما الى مصر، لأنهم ضاقوا بالقيود الكثيرة التي كانت تقيد حياتهم وهذا يعني أن تأثيرات الحضارة الغربية على الناس فيها بشكل عام كانت قليلة ومتأخرة نسبيا بالقياس الى لبنان ومصر.

فلقد هرب رزق الله حسون من حلب لاجئا الى روسيا، ثم سافر الى لندن وأصدر جريدته "مرآة الأحوال"(١). وهاجر جبرائيل الدلال الحلبي من حلب الى فرنسا ثم انضم الى خير الدين باشا عندما أصبح صدرا أعظم، ثم رحل الى فيينا بعد استقالة خير الدين باشا، ثم عاد الى حلب، ومنها الى بيروت والآستانة، وسجن بسبب قصيدة تدور حول ثلاثة موضوعات: مقاومة سلطة الكهنوت، ومقاومة استبداد الملوك، والدعوة الى الحكم الجمهوري(٢). وهاجر عبد الرحمن الكواكبي سرا الى القاهرة، ويقال انه مات مسموما بعد شربه فنجان قهوة(٣).

وهاجر ابو خليل القباني الى مصر عندما صدرت الارادة السنية الى حمدي باشا والي الشام بمنع أبي خليل من التمثيل واغلاق مسرحه(٤).

ونحن اذا استعرضنا حياة هؤلاء الأدباء والمفكرين نجد أن طلب الحرية هو السبب الرئيسي في هجرتهم. فعلى مستوى الحرية الفكرية نجد أن بعضهم وقع تحت تأثير الافكار الغربية وحاول نشرها ثم هرب أو سجن لأن الدولة لاحقته من أجل ذلك واضطهدته(٥).

أما على مستوى الحرية الفنية فيبدو لي أن قرب الشام من دولة الخلافة لم يكن يسمح بالتجديد. من هنا استعدى الشيخ سعيد الغبراء السلطة العثمانية على مسرح القباني، واصفا اياه بأنه "بدعة جهنمية، تهدد عقيدة المسلمين، وتحدث الفتن، وكان مما قاله مستغيثا: أدركنا يا أمير المؤمنين فان الفسق، والفجور، قد

---

١) سامي الكيالي، الحركة الأدبية في حلب، ص ص ٢٣-٥١

٢) المصدر نفسه، ص ص ٥٤-٨٥

٣) المصدر نفسه، ص ص ٨٧-١١٢

٤) محمد يوسف نجم، المسرحية في الأدب العربي الحديث، ص ٦٨

٥) انظر مقالة محمود السمرة بعنوان "بين الكواكبي والفيروز"، مجلة كلية الآداب، الجامعة الاردنية، العدد الأول، المجلد الأول، ١٩٦٩، ص ص ٢٣-٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تفشيا في الشام، فهتكت الأعراض، وماتت الفضيلة، ووئد الشرف، واختلطت النساء بالرجال."(١)

أما لبنان فانّ وضعا خاصا نشأ فيه بسبب مدارس التبشير وحملاتها الكثيرة، وما كان بين هذه الارساليات من صراع، يتمثل في اختلاف البرامج الثقافية، والتنافس بينها. فقد كان الانجيليون واليسوعيون فرسي رهان في حلبة السباق التعليمي على حد قول أحد رؤسائهم في خطاب له ألقاه في لندن سنة ١٨٩٠م جاء فيه "أن اليسوعيين في سورية لا يفعلون شيئا سوى تقليدنا فقد أنشأنا مدارس للمعلمين والمعلمات وأنشأنا مدارس ابتدائية للذكور والاناث فأنشأ اليسوعيون ما يماثلها، وقد أنشأنا جامعة بروتستنتية فحصلوا من روما على اذن بانشاء جامعة عربية في بيروت وأنشأنا مدرسة للطب فأنشأوا مثلها، وأنشأنا مطبعة باللغة العربية فأنشأوا بدورهم أخرى . . ."(٢)

ولقد كان لهذه الجهود فضل في ايقاظ الحركة الفكرية وتفتحها، ونقل الثقافة الغربية الى الأدباء والمفكرين في لبنان.

فاذا أضفنا الى ذلك حركة الهجرة الواسعة الى الغرب، التي عرفها لبنان(٣)، عرفنا كيفية انتقال تأثير الحضارة الغربية الى لبنان.

ولقد كان من ثمرة هذا الانفتاح الواسع على الحضارة الغربية نشوء هذه الروايات التي تتخذ من الغرب اطارا مكانيا تدور فيه حوادثها. ولم توجد هذه الظاهرة في الرواية العربية الا بعد أن أصبحت علاقتنا بالغرب تمرّ في طور الاستيعاب والفحص والقدرة على المحاكمة.

فلقد أمضى جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١م) معظم حياته في نيويورك وعاما ونصف في باريس(٤) وكتب "عرائس المروج" (١٩٠٦م) و "الأرواح المتمردة" (١٩٠٨) و "العواصف" (١٩١٠) و "الأجنحة المتكسرة" (١٩١٢) ولكنّ هذه الأعمال القصصية تتخذ الوطن محورا مكانيا تدور فيه.

---

١) محمد يوسف نجم، المسرحية في الأدب العربي الحديث، ص ٦٨

٢) احسان عباس ومحمد يوسف نجم، الشعر العربي في المهجر، ص ١٠

٣) جورج طعمه، المغتربون العرب في امريكا الشمالية، دمشق وزارة الثقافة، ١٩٦٥م.

٤) عدنان يوسف سكيك، النزعة الانسانية عند جبران، ص ١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يظهر لميخائيل نعيمة بطل روائي في الغرب الا بطل قصة قصيرة له في مجموعته القصصية "كان ما كان" سنة ١٩٣٧م بعنوان "ساعة الكوكو"(١) ويمكن أن يقال ذلك عمّا كتبه أمين الريحاني ، فباستثناء جزء من روايته "زنبقة الغور" ١٩١٧، الذي تذهب فيه بطلة الرواية الى باريس، لا نجد له انتاجا آخر في هذا المجال . ويرى سهيل ادريس أن الريحاني قد "اقتبس وصف باريس والقاهرة مما قرأه من روايات لا من تعرفه الحقيقي الى هاتين المدينتين"(٢) وهذا يعني أنّ البعد المكاني لم يوظف في البناء الروائي وظل بعدا اسميا لا فاعلية له .

وكتب محمد حسين هيكل رواية زينب سنة ١٩١٤ في أوروبا ولكنّ الرواية تدور في الريف المصري ، وينعزل كاتبها عن الحياة الأوروبية قسرا ليتذكر الريف المصري ، وليكون الحنين دافعا الى الكتابة "وكنت اذا بدأت أكتب أسدلت أستار نوافذي فحجبت ضوء النهار وأضأت مصابيح الكهرباء كأنما أريد أن أنقطع عن حياة باريس لأرى في وحدتي وانقطاعي حياة مصر مرسومة في ذاكرتي وخيالي . أما حين كنت في سويسرا فكثيرا ما كنت اذا بهرني منظر من مناظرها الساحرة أسرع الى كراسة زينب فأنسى الى جانبها منظر الجبل والبحيرة والأشجار . . . وأستعيد مناظر ريفنا المصري وجمال خضرته الناضرة فاذا بهرني بهذا الريف المرتسم في خيالي لا يقلّ عن بهرني بمناظر سويسرا ."(٣)

---

١) ميخائيل نعيمة، الاعمال الكاملة ٢/ص ص ٢٢١-٢٢٢

٢) سهيل ادريس، القصة في لبنان، ص ١١، ١٢

٣) محمد حسين هيكل ، زينب، ص ١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأسباب كتابة الرواية عند هيكل تعود الى الحنين من جهة والى عقدة النقص في مواجهته للغرب، وعدم القدرة على تمثل عالمه فنيا ، ليعبّر عنه في عمل فني ناضج . ولذا بدت صورة الريف المصري على غير ما هي ، ولا يتناقض مع وجهة النظر هذه ما نجده في مجلة " المشرق "[1] من روايات تتحدث عن الهجرة من الوطن وعن مبرر هذه الهجرة وعن متاعب الغربة والتنفير منها . فانّه لا يتحقق في هذه الروايات شروط الرواية الفنية، فهي أشبه بأسلوب المقامات، وما فيها من وصف واستطراد يخرجها من دائرة الرواية الناضجة فنيا .

وفضلا عن ذلك فانّ مؤلفي هذه الروايات وهما الأب هنري لامانس والأب اميل ريفو المسيحي ، غير عربيين ، ولكن نجيب حبيقة ورشيد الشرتوني المعربيّن اختارا لها ولأبطالها أسماء عربية ، وأبعادا عربية لتتحدث عن همّ من هموم تلك الفترة عانته لبنان وهو الهجرة .

---

(١) أ) رواية "خريدة لبنان" ، تأليف الأب هنري لامانس وتعريب نجيب أفندي حبيقة ، مجلة المشرق : المجلد الأول ، العدد الأول : ص ص ٣٩ - ٤٢ ، العدد الثاني ص ص ٨٧ - ٩١ ، العدد الثالث: ٣٣ - ١٣٧ ، العدد الرابع، ١٨٥ - ١٨٩ ، العدد الخامس ص ص ٢٣٠ - ٢٣٥ ، العدد السادس: ص ص ٢٧٩-٢٨٤ ، العدد السابع: ص ص ٣٢٦- ٣٣٢

ب) رواية السفر العجيب الى بلاد الذهب، تأليف الأب اميل ريفو تعريب رشيد أفندي الشرتوني ، مجلة المشرق : المجلد الأول ، نشرت الحلقة الأولى في العدد السابع عشر، ص ص ٦ : ٨ ، واستمرت تنشر على حلقات.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما على الصعيد الروائي فانّ بواعث الرحلة الى الغرب كما تمثلت في الرواية العربية موضوع البحث هي :

١) طلب العلم

٢) السياحة

٣) الهجرة الى الغرب

١) طلب العلم :

وضعت الرواية العربية اطارا للعلاقة مع الغرب يتمثل في الصيغة التالية :-

" الطالب عربي يذهب الى أوروبا لطلب العلم "×

" ومن خلال هذا الاطار تجرى العلاقات الاجتماعية ويرتسم التضاد الثقافي في الأفق . "(١)

يقول أحد الباحثين في تحليل هذه الظاهرة :-

" قد يقال انّ توفيق الحكيم قد فرض هذا الاطار فرضا على الرواية العربية عبر نزوع الآخرين الى تقليده . لكنّ هذا الرأى لا يؤدى الا الى اجابة تقريبية لأنّ باقي الروائيين الذين عالجوا الموضوع أعطوه مبدأ يختلف من زاويتي التشكيل والمضمون عن رواية الحكيم ، انّ النتيجة المنطقية لهذا التحليل تقود الى تفسير الظاهرة الأدبية بسابقاتها وهو اذن يرفض أثر الصراعات الاجتماعية على العمل الأدبي . "(٢)

×) يقول نجيب محفوظ ردا على تعليق لصديقه الدكتور أدهم رجب أستاذ قسم الفيليات بكلية الطب في مجلة الهلال العدد الثاني السنة ٧٨ ، سنة ١٩٧٠ ، وهو يكشف في هذا التعليق عن العلاقة الوثيقة بين التجربة الذاتية وبين كتابة الرواية ، ولهذا فهو يتمنى لو أتيحت له الفرصة للسفر الى فرنسا للدراسة :
" كنت أتمنى لو أنني ذهبت الى فرنسا في بعثة اللغة الفرنسية ، كنت سأتجه بكليتي الى ما اتجه اليه توفيق الحكيم في " زهرة العمر " و " عصفور من الشرق " ولكن الأقدار شاءت شيئا آخر . "

١) الياس خورى ، تجربة البحث عن أفق ، ص ٢٨

٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا الرأي يحتاج الى مناقشة، فاذا كان صحيحا أنّ الأعمال الأدبية لا تفسّر بسابقاتها من الأعمال، فليس صحيحا أن يقال انّ توفيق الحكيم هو الذي فرض هذا الاطار على الرواية العربية. فلقد صدرت رواية توفيق الحكيم "عصفور من الشرق" سنة ١٩٣٨م، في حين سبقتها رواية "أديب" للدكتور له حسين التي صدرت سنة ١٩٣٥م زمنا وتحديدا للهدف من الذهاب الى فرنسا. أما رواية توفيق الحكيم "عصفور من الشرق" فهي تخلو خلوّا تاما من تحديد هدف بطلها الآمن اشارة واحدة الى كون محسن بطل الرواية يدرس الحقوق والآداب. (١)

وأعتقد أنّ هذه الصيغة تُحلّ كثيرا من الاشكالات في علاقة الشرق بالغرب فهي على الصعيد التعليمي تمثل واقعنا المعاصر الذي ظلّ يرسل البعثات العلمية الى اوروبا لكي تنقل عن الغربيين مناهجهم وطرائقهم في البحث العلمي.

وهي على الصعيد الحضاري مواجهة للحضارة الغربية بشكل سلمي تنتفي معه العلاقة الاستعمارية أو تتضاءل "فالعلاقة مع الغرب تتحول من كونها علاقة احتلال ونهب وقمع لتصبح علاقة ثقافية وهذا يسمح للكاتب بحرية حركة شكلية." (٢)

وهي على الصعيد الروائي حيلة فنية، لتحويل حياة الطالب الى بناء روائي لما تتمتع به حياة الطالب في الغرب من مزايا عديدة، كطول فترة التلمذة التي تجعله يتعرف الى الحضارة الغربية تعرّفا دقيقا لا تعرّف السائح المجلان، ومعنى هذا أنه يتمتع بحريّة نسبية في علاقته بالزمان والمكان، وهذا يخضعه لتجارب كثيرة على المستوى الاجتماعي لأنّ الروائي يقوم "بعزل الطالب عن محيطه وثقافته وتقاليده ليكون عرضة بشكل مباشر للتفاعل مع الثقافة الأجنبية." (٣)

كما أنّ كونه طالبا يجعله مهما بالنسبة لوطنه على الصعيدين الخاص والعام.

ولقد كانت هذه الصيغة من أكثر الصيغ ورودا في تشكيل مضمون الروايات العربية مع الاختلاف في تفصيلات هذا المضمون، وطريقة التعبير عنه، ونحن نلاحظ أنّ شخصيات الرواية العربية التي هي محور بحثنا، اما شخصيات فاشلة، واما شخصيات ناجحة، ولكل من الفشل والنجاح أسباب.

---

١) توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص ٧٢

٢) الياس خوري، تجربة البحث عن أفق، ص ٢٨

٣) المصدر نفسه، ص ٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ) الفاشـــــلون :-

رواية طه حسين "أديب" الصادرة سنة ١٩٣٥م (١) تتحدث عن شخصيـــة روائية يسميها طه حسين "أديب"، وهي قصة صاحب له " ذهب مبعوثا من الجامعة المصرية الى فرنسا وعاد مجنون أولا وما زال به مرضه حتى انتهى الى شلل عام ثـــم الوفاة. " (٢)

ولقد وصف طه حسين شخصيته في الرواية وصفا خارجيا وداخليا فبيّن ملامحـــه وكيف كان قبيح الشكل نابي الصورة تقتحمه العين ولا تكاد تثبت فيه وكان الى القصر أقرب منه الى الطول وكان على قصره عريضا ضخم الأطراف مرتبكها كأنما سوّي على عجل (٣) وبيّن تناقضه واضطرابه في جميع شؤون حياته فهو طلّق زوجته لأنـــه فضل الظلم على أن يكذب على الجامعة وتارة حبها بها وضنا على ما يكره، بـــل هو حائر في أسباب ذهابه الى فرنسا. فالظاهر أنه ذاهب لاكمال دراستـــه على نفقة الجامعة الا أنه يتساءل " أكنت ملّحا في الب البعثة رغبة في العلم الذي كنت أزينه لنفسي أم رغبة في هذه الأبواب من الفتنة التي لم أكن أستطيع أن استفتحها في مصر. " (٤)

وعندما يصل الى فرنسا تضطرب حياته، بين حدّ تارة، واعتدال تارة أخرى، ومزاج يفضي به الى العزلة عن الناس، ثم تضطرب أعصابه ويجّن، ويمـــوت.

وسبب جنونه وفشله كما يقول يعود الى " أنني لم أنشأ نشأة منظمة ولم تسيطر علـــى تربيتي وتعليمي أصول مقررة وانما كانت حياتي مضطربة أشد الاضطراب. " (٥)

ان تهوره واندفاعه، وفقدانه للضوابط في تنظيم علاقته بالحضارة الغربية، ومزاجيته الحادة، كل ذلك أدى به الى الفشل فالجنون.

أما توفيق الحكيم فهو يوضح لنا في روايته " عصفور من الشرق" الصادرة سنـــة ١٩٣٨م سبب قدوم بطله الى فرنسا لكي يدرس الحقوق والآداب، ولكن حركـــة الرواية لا توضح أن محسنا طالب، لأنه لم يذكر حياته الدراسية الا عبر اشـــارة واحدة، لم تتوحد ببناء الرواية ومضمونها، وقد أشار بعض الباحثين الى أن عصفور من الشرق هي " حكاية محسن الشاب المصري الذي ذهب الى فرنسا ليتـــم

---

١) حمدي السكوت، وماريتن جونز، اعلام الأدب العربي المعاصر، طه حسين، ص ٧٩

٢) فؤاد دوارة : عشرة أدباء يتحدثون، ص ٢١

٣) طه حسين، أديب، ص ١١

٤) المصدر نفسه، ص ١٤٣

٥) المصدر نفسه، ص ١٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دراسته." (١)

والحق أنّ الرواية لا تبين عن مثل هذا الهدف، بشكل مباشر وصريح، صحيح أن ثمة اشارات الى كونه يتعامل بالكتب والمطالعة (٢) ولكن الرواية تقف عند هذه الاشارات.

أما الكتاب الذي يكشف عن هدف ذهاب محسن بطل الرواية الى فرنسا فهو "زهرة العمر" الصادر سنة ١٩٤٣م والكتاب عبارة عن رسائل متبادلة بين توفيق الحكيم وبين أندريه أحد شخصيات روايته السابقة، وفيه يبيّن الهدف من قدوم محسن الى باريس ففي احدى رسائله يقول: "أنا محبوس في حجرتي استعد لامتحان الدكتوراه في أول مارس القادم." (٣)

لكن الحكيم يرسب في الامتحان لتقصيره في ثلاث علامات (٤) ويعلل فشله بأنه حين يقرأ يهضم ما يقرأ ويحلل مواد قراءته الى عناصر تنساب في كيانه الواعي وغير الواعي "أما الامتحان فيريد مني أن أحتفظ بهذه المواد صلبة مفروزة." (٥) ويبين الكتاب أن الحكيم يعود بثقافة انسانية رفيعة في مجال الآداب والفنون (٦)

ومهما يكن من أمر، فان هذا الاستدلال على صحته، يظلّ ناقصا، لأنّ الرواية "عصفور من الشرق" لا يشير مضمونها لما تتعرض له حياة محسن الطالب ولا تدخل هذه الحياة ضمن بنائها الروائي، ولأنّ هذا الاستدلال من جهة أخرى استنطاق للعمل الأدبي من خارجه، وفهم لدلالته من خارج ذاته.

---

١) أحمد هيكل، الأدب القصصي والمسرحي في مصر من أعقاب ثورة ١٩١٩، ص ١٧٥ وجورج طرابيشي في شرق وغرب، ص ١٨، ص ٧٢

٢) توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص ٣٩، ص ٤٢

٣) توفيق الحكيم، زهرة العمر، ص ٣٦

٤) المصدر نفسه، ص ٤٨

٥) المصدر نفسه، ص ٥٠

٦) المصدر نفسه، ص ٣٠، ٤٢، ٤٨، ٤٩، ٧٠، ٩٦

× يكشف "زهرة العمر" عن أشياء كثيرة في حياة الحكيم الأدبية فيما يتعلق بحياته في باريس، ولا سيما على مستوى بناء الشخصيات واستلهامها من الواقع فنرى أن "سوزي دبيون" بطلة رواية عصفور من الشرق هي فتاة فرنسية عرفها الحكيم اسمها "ايما دوران" انظر زهرة العمر، ص ٨٠، ٨١، وأندريه صاحبه في الرواية نتعرف اليه والى زوجته تعرّفا حقيقيا في الرسائل، كما

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما رواية القاص السوري عبد السلام العجيلي " رصيف العذراء السوداء "(١) وقصة صباح محي الدين " السمفونية الناقصة "(٢) فهما تكتفيان بالاشارة الى واقع الطالب الفاشل في دراسته دون أن تتوسعا في تبيان شرح هذا الفشل ، وان كانتا قد اتخذتا من حياة التلمذة وطلب العلم ، عقدة لبناء الروايتين ، يقول صباح محي الدين على لسان بطله " وكنت في ذلك العهد البعيد أدرس في جامعة السوربون أو هكذا كان يظن والدي الذي أرسلني لأتم دراستي في باريس ، وفاته رحمه الله أن ارسال شاب في العشرين الى باريس كمن يطلق ديكا كثير الفيتامينات في مزرعة تعج بالدجاجات الجميلة ثم يطلب اليه أن يتعلم الكيمياء العلم الذي كان مفترضا أني أدرسه . "(٣)

فبطل الرواية يشير الى هامشية واقعه الدراسي ازاء مغريات الواقع الاروبي وبالذات فيما يتعلق بالمرأة ويكتفي بذلك ، أما رواية العجيلي فتحكي عن عباس الطالب العراقي المقيم في باريس والذي لا يحسب حسابا للمسروقات المادية " فهو عباس الطالب ... الذي حسب الذي تنتقل في الدراسة من الهندسة الى طب الأسنان الى الحقوق وفشل في كل منها "(٤) ، فهذا النموذج فاشل في تحقيق اهدافه ... وأصبحت بسيطة وهو يستعيض عن هذا الفشل في العلم " بمعرفة المشاكل التي تقلق الناس في أوروبا عن طريق أحاديث مارلينا ويعرف لباع أهل أوروبا عن طريق صديقاته الكثيرات في الحي اللاتيني . "(٥) والروائي يتخذ من هذا الفشل عقدة روائية ناجحة لابراز مشاغل في علاقته بالمرأة الغربية ولصراعه معها حول الروح والمادة ، كما اتخذ صباح محي الدين اهمال بطله للعلم عقدة لابراز علاقته بالمرأة الغربية وتصوير العلاقة بينهما بأنها علاقة الصياد بالفريسة .

واذا كان فشلهما بسبب ترفهما ، ووفرة المال معهما ، وتحللهما من قيود الدراسة ، ففي رواية القاص اللبناني خضر نبوة " الجوع "(٦) نرى فشلا يرجع الى تضاد تلك الاسباب .

---

١) عبد السلام العجيلي ، رصيف العذراء السوداء ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٠م

٢) صباح محي الدين ، السمفونية الناقصة ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، بدون ت .

٣) المصدر نفسه ، ص ٨

٤) عبد السلام العجيلي ، رصيف العذراء السوداء ، ص ١٢

٥) المصدر نفسه ، ص ١٤

٦) خضر نبوة ، الجوع ، بيروت ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ...

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلقد سافر "كريم" من لبنان الى فرنسا بسبب أوضاعه الاقتصادية السيئة، ولذا فقد كان هدفه من رحلته مزدوجا فهو يريد "أن يدرس الهندسة الزراعية في مونبيليه"(١) "وأن يجد عملا"(٢). والهدفان مرتبطان ببعضهما بعضا، ففشله في تحقيق واحد يعني بالضرورة فشله في تحقيق الآخر، ولقد تصور كريم أنّ فرص العمل في فرنسا سهلة ومؤمنة وبنى على هذا الأساس تصوره في امكانية جمعه بين الدراسة والعمل بل انه من "شدة أمله بالعثور على عمل - عمل ذا أهمية أيضا - وعد والديه بأن يخصص لهما راتبا شهريا"(٣)، ولكن التجربة أثبتت خطأ هذه التصورات المسبقة، فلقد حاول البحث عن عمل في المقاهي والفنادق والبارات والشركات "حتى أصبحت هذه الكلمات أريد عملا وأنا أبحث عن عمل يتحرك بها لسانه في صمت بدون ارادة منه وكانت لا تنفك تتردد في ذهنه ساخرة مهينة الى أبعد الحدود"(٤)، ولقد أسهمت عوامل كثيرة في مصيره الذي وصل اليه، فقد وصل فرنسا في فصل الشتاء ونزل في غرفة شديدة البرودة، وأصيب بانفلونزا حادة وحاول أن يستعين بأبناء بلده اللبنانيين ولكنهم خذلوه فانقطع عن الدراسة ثم مرض وأصيب بالتفوئيد واعتزل الناس وبقي اثني عشر يوما بدون طعام لأنّ مطعم الجامعة أغلق بسبب عطلة الربيع"(٥)، وذهاب زملائه اللبنانيين الى باريس. ويموت كريم بعد صبر وطول معاناة في الشارع "وتجمهر حوله عدد كبير من الطلاب والمارة وقام بعض الذين يدرسون الطب بمعاينته فوجدوه قد فارق الحياة."(٦)

وأعتقد أنّ أسباب فشل هذه النماذج تعود الى سببين:

١- الواقع الذاتي لهذه الشخصيات، فأديب تشكل ذاته بالنسبة له محورا هاما يغرق فيه، ويحجب عنه رؤية واقعه، "فيلقي بنفسه في لجّ الحضارة الغربية فلا يستطيع العودة بل يهلك في المغامرة والى جانب موقف البطل هناك موقف الكاتب نفسه تستشعره من ثنايا الرواية دون أن يصرّح به وهو موقف المغامر الحريص، الذي لا يبتلعه التيار بل يعود الى وطنه محملا بالنفائس كسلفه سندباد"(٧) وهذا الكلام لا يقلل من حجم موهبته، بل العكس من ذلك

---

١) خضر نبوة، الجوع، ص ١٣

٢) المصدر نفسه، ص ٤٢

٣) المصدر نفسه، ص ١٣٣

٤) المصدر نفسه، ص ٤٢

٥) المصدر نفسه، ص ١٤٦

٦) المصدر نفسه، ص ١٧١

٧) شكري عياد، الرواية العربية المعاصرة وأزمة الضمير العربي، عالم الفكر، المجلد الثالث، العدد الثالث، ١٩٧٢، ص ١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد تكون هذه الموهبة هي التي بعثت في نفسه هذا الغرور وتضخم الذات، وينطبق مثل هذا الكلام على بطلي العجيلي ومحي الدين ولكن بصورة أخرى، فانّ اهتمامهما الشديد بذاتهما صرفهما عن الدراسة وأدى بهما الى الاهمال فالرسوب.

٢- قساوة الظروف الموضوعية التي واجهتها شخصية مثل شخصية كريم وهي غير مؤهلة وغير قادرة على المواجهة، بالاضافة الى ما تحمله هذه الشخصية من غرور وتضخيم لمستواها يفوق واقعها.

ب) الناجحـــــون :-

ويقع ضمن اولئك الذين ذهبوا الى أوروبا للدراسة ونجحوا في تحقيق هـــذا الهدف اسماعيل بطل رواية " قنديل أم هاشم" (١) ليحي حقي.

ورغم انتماء هذا الرواية زمنا الى الفترة الواقعة بين (١٩٣٩ - ١٩٤٠م) فـــان اسماعيل يشكل نموذجا ايجابيا على الصعيد الموضوعي، فهو ينتمي الى وسط شعبي يعيش في حي السيدة زينب في القاهرة. أنهى دراسته الثانوية وفكر والده الشيخ رجب بارساله الى اوروبا ليتخصص في طب العيون " وجمع الأب كل ما استطاع مـــن مال وباعت الأم حليها واشتريت تذاكر السفر والملابس الثقيلة التي تقي من بـــرد أوروبا واقترب موعد السفر وحل الوداع" (٢)

يمكث اسماعيل في اوروبا سبع سنوات يعود بعدها الى مصر وهو " الدكتور اسماعيل المتخصص في طب العيون والذي شهدت له جامعات انجلترا بالتفوق النادر والبراعة الفذة" (٣)، ولكن الروائي لا يقف عند هذا النجاح، فاسماعيل ليس انجليزيا، وانما هو مصري، وليس عبثا أن يكون تخصصه في طب العيون، فمقياس نجاحه يكمن فـــي مدى تسخير علمه لفائدة مجتمعه فاستاذه يقول له :-

" انّ بلادك في حاجة اليك فهي بلد العميان" (٤)

ويصطدم في مصر بمرض أصاب ابنة عمه فاطمة النبوية في عينيها، ويجد أنّ أمّـــه تعالجها بزيت من قنديل أم هاشم، فيرفض هذا العلاج، ويتعالى عليه ثم يقـــوم بمحاولة لتحطيم القنديل، ويكب الزيت ويعالجها فتصاب بالعمى. ثم تعود لنفسه رباطة جأشها، ويعود له الايمان ويعالجها مشفوعا بعلمه وطبه فتشـــفى.

---

١) يحي حقي، قنديل أم هاشم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م

٢) المصدر نفسه، ص ٧٧

٣) المصدر نفسه، ص ٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا أردنا أن ننحى منحى رمزيا في تفسير هذه الظاهرة قلنا ان فاطمة النبوية تمثل مصر، وأنّ زيت القنديل يمثل روحها الديني وأنّ علم اسماعيل يمثل حضارة اوروبا. أي أنّ مصر لا يمكن أن تشفى الا بالجمع بين الحضارتين أو بين الأصالة والمعاصرة، وقد نجح يحي حقي في "عقد زواج مثالي بينهما."(١)

ويتحدث شكيب الجابري في ثنائيته "قدر يلهو" و "قوس قزح" عن علاء، فهو في روايته "قدر يلهو"(٢) الصادرة سنة ١٩٣٩م يتحدث عنه من وجهة نظره، أما في "قوس قزح"(٣) الصادرة سنة ١٩٤٦م، فيتحدث عنه من وجهة نظر امرأة المانية. فبعد أن أنهى الدراسة الثانوية ذهب الى ألمانيا لدراسة الطب.(٤) ولكنّ الحياة الغربية تشغله وتبهره بعالمها الذي "يزخر بجميع ما تهوى حسّه وحنّ اليه خياله، من حوله بعمر لحّي من المدنية يترشف الحياة من رحيقه ويغرق الروح في عبابه. وكلما ارتشف رشفة ازدادت روحه ظمأ وما ناحية يلقى اليها الطرف الا تستهوى لبه وتستميل قلبه"(٥)، ولكنه يظلّ محافظا على الحدّ الأدنى من الاحساس بمسؤولياته ازاء نفسه كطالب فعندما دنت الفصول انصرف الى تحضيرها وودع حياة اللهو، ربما ينتهي من مرحلة الفصل الوعرة الصعبة مسلما نفسه بالتهام مسرّات الحياة التهاما بعد نجاحه، وينجح ثم يحلم بالعودة الى الوطن ويصبح هذا الحلم هاجسا يوميا فيعود، ولكن هذه العودة وان بدت للوهلة الأولى ايجابية الا أنها تكشف عن رومانسية، يغذيها حنين مرضي ولذلك يفشل في وطنه ويصبح طريد المدنيتين فقد "كان ينقم على الغرب فنقم على الشرق أضعافا وعاد من الغربة بشيء من الايمان فأضاع في الوطن الايمان كله"(٦)، فهو قد نجح في التحصيل العلمي ولكنه أضاع ذاته بين الحضارتين وكانت مشكلته أنه يحاول أن يستعيد أصالته من جهة وأن يربط هذه الأصالة بحداثة الغرب وتقدمه من جهة أخرى.

وتكشف رواية سهيل ادريس "الحي اللاتيني"(٧)، الصادرة سنة ١٩٥٤م عن

---

١) شكري عياد، الرواية العربية المعاصرة وأزمة الضمير العربي، عالم الفكر، المجلد الثالث، العدد الثالث، سنة ١٩٧٢، ص ١٢

٢) شكيب الجابري، قدر يلهو، دمشق، المطبعة الهاشمية، الطبعة الثانية، بلا ت.

٣) شكيب الجابري، قوس قزح، دمشق، دار اليقظة العربية، ١٩٤٦م

٤) شكيب الجابري، قدر يلهو، ص ٥٤

٥) المصدر نفسه، ص ٥١

٦) المصدر نفسه، ص ٨٧

٧) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، [illegible] الطبعة الرابعة، ١٩٧٣م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هدف رئيسي لبلالها وهو تحضير دكتوراه في الآداب[١]. ورغم أنّ بطل الرواية متشعب على صعيد الحياة الا أنّ الرواية تكشف عن كيفية نيله لرسالته ففي البداية قرر أن يقصد السوربون ليسجّل اسمه وأن يسعى الى مقابلة الاساتذة المختصين ليشاورهم في أمر الرسالة التي سيعدها لنيل الدكتوراه وعليه قبل ذلك كله أن يضع حدا لهذا الاضطراب الذي يستولي على حياته ويعود الى تنظيم برامجه وأوقاته.[٢]، ولقد مرّ عليه بفترات من الاهمال، وبفترات من النشاط، شأن أي باحث، ويصف لنا حياة البحث بأنها "عمل مرهق ومطالعة مستمرة واستغراق في المراجع ومناقشة للأساتذة في تفصيل موضوعات الأطروحة"[٣]، ثم يقابل المشرف ويريه فصول رسالته مجتمعة ويحاول اقناعه بمناقشة الرسالة في دورة حزيران ويحصل على استمجال رسمي من وزارة المعارف في بلده، ثم يتقدم للمناقشة ويصف لنا المناقشة "التي استمرت زهاء ثلاث ساعات دافع فيها وردّ ما وسعه اجتهاده ولكنّ أثلج صدره أنّ رئيس اللجنة نوّه بما أولته الرسالة من عناية خاصة لوضع كل أثر شعري مدروس في موضعه من مجتمعه وزمانه وأقبل عليه أعضاؤه يهنئونه باللقب الذي أحرزه والدرجة التي شفعت لذلك اللقب."[٤]

انّ الروائي هنا يتعامل مع أحداث روايته على الصعيدين الفني والمضموني بشكل حازم، فهو ينطلق من موقف محدّد ليصل الى موقف محدّد يعتبر ذروة الأحداث ونهاية لها.

وثمة هدف آخر لبلال الرواية يشكّل أثرا غير قليل على هدفه الرئيسي بل وعلى ملامح بلال الرواية نفسه، وهذا الهدف هو البحث عن المرأة. يقول "تبحث عنها، عن المرأة، تلك هي الحقيقة التي تناسها بل تتجاهلها لقد أتيت الى باريس من أجلها"[٥] وهذا الهدف يأتي على شكل مونولوج داخلي، لا يعلنه بلال الرواية للناس ولكنه يظهر على شكل مناجاة حارة بينه وبين نفسه، فالمرأة بالنسبة له تمثل حريته التي يسعى الى ممارستها وذاته التي يسعى الى تحقيقها. ولذلك جاء الى باريس لأنه "تدفعه رغبة في التحرر من ذلك الجو الضيق وسعى الى سوق حياة خاصة يشعر أنها له انها حياة حميمة لا تعني أحدا سواه"[٦]

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ١٥
٢) المصدر نفسه، ص ٤٥
٣) المصدر نفسه، ص ١٥٨
٤) المصدر نفسه، ص ٢٦٤
٥) المصدر نفسه، ص ٢٦
٦) المصدر نفسه، ص ١٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صحيح أنّ هذه العلاقة تؤثر على خط سيره، وتشغله ولكن هذا الانشغال يمثّل لحظات قليلة اذا قيس بمدى القلق العام الذى يربك كيانه لو لم يحقق علاقة حب يرضى عنها.

فهذه العلاقة لم تستغرقه بحيث تمنعه من تحقيق غايته الرئيسية، فاستطاع أن يحقق أهدافه وأن يعود الى وطنه، وهو يلمّح الى معلم متزوج جاء الى باريس ولم يحقق أهدافه، أما صاحبه صبحي فهو يأسف على اليوم الذى سيربح فيه الدكتوراه ويخسر الحي اللاتيني، ونصرى اللبناني كذلك يعجب لعودته الى الوطن حيث التأخر والعبودية ويصفه بالجنون.

وتلمّح الرواية بشكل ذكي الى ايجابيته بالنسبة لوطنه عندما أجاب على تساؤل أمه، "لقد انتهينا يا ولدى أليس كذلك، فقال بل الان نبدأ يا أمي."(١)

فهذا الوعي على عموم الوطن هو الذى عاد به اليه، محققا لأهدافه في حين فشل أصحابه الذين شدتهم مفاتن الغرب وموائد اللهو فيه.

أما رواية حسن جمال الحسيني "الاصدقاء"(٢) فتتحدث عن "جمال" وهو طالب من طلاب المعهد الموسيقي الفرنسي في سنته الأخيرة. فكان عليه أن يعمل قصارى جهده ليحصل على شهادته بامتياز.(٣)

وجمال من أسرة ثرية، ولذلك عارضوه في اختياره للموسيقى موضوعا لدراسته "وأرادوه أن يختار موضوعا يؤهله لاستلام أعمال والده التجارية الضخمة."(٤)، فكان اختياره تحديا لأهله، من جهة، ومؤشرا على ثراء أسرته من جهة أخرى.

ويصوّر الروائي بطل روايته مواظبا، مجتهدا، فرغم ضعفه في الناحية التكنيكية بالنسبة لزملائه الا أنّ اجتهاده المتواصل كان عاملا حاسما في تقدمه، وتحفل صفحات الرواية بتتبع تمريناته الموسيقية المتواصلة. من هنا فانّ جمالا يعرف أبعاد مستقبله الفردى الذى "خطط له طريقا عرف حدوده ومجالها ومشى عليها بخطى أكيدة"(٥)، ولذلك يرى زملاؤه بأنه لن يواجه العقبات "لأن عنده امكانيات مادية يستطيع بواسطتها أن يستقل عن الوسطاء الى حدّ كبير."(٦)، والجانب الآخر

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٢٨٥

٢) حسن جمال الحسيني، الاصدقاء، بيروت، المؤسسة الاهلية للطباعة والنشر، بلا. ت.

٣) المصدر نفسه، ص ٧

٤) المصدر نفسه، ص ٧

٥) المصدر نفسه، ص ١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الرواية هو علاقته بزميلته الفرنسية كلود ، ولكن هذه العلاقة لا تؤثر على نشاطه الا عندما تموت كلود في حادثة اصطدام، فيفقد جمال ذاكرته ثم يتماثل للشفاء رويدا رويدا ويستعد لمسابقة الكونسرفتوار للبيانو ويفوز بالجائزة الأولى باجماع المحكمين .

والرواية تتحدث أيضا عن نماذج طلابية أخرى؛ فعلي على العكس من جمال يدرس الحقوق في باريس" وكان دائما من بين الطلبة المبرزين فلم يتهاون قط في دراسته لأنه كان من الفقراء المبعوثين من قبل الحكومة لا لعلتهم بشخصية كبيرة ولا لانتمائهم لعائلة عظيمة ولكن لأنه كان من أوائل طلبة بلده وكان عليه أن يحافظ على ذلك المستوى اذا كان يرغب تكملة دراسته الجامعية."(١) ، وفؤاد(٢) هو الآخر موفد من الحكومة الا أنه لم يكن من الطلبة المبرزين ، وكان يظن أنه أذكى الطلبة العرب وأجملهم شكلا ، وهو يكثر من استعمال الاصطلاحات اللاتينية ، ويلبس نظارتين رغم سلامة عينيه ، ويشرب القهوة على الطريقة الفرنسية لأنه لا يحب قهوة بلادنا ، ولم يكن فؤاد فاشلا تماما فهو محافظ على الحد الأدنى ، أما وديد(٣) طالب الأدب الفرنسي ، فهو يحاول أن يكون أديبا لا طالب أدب ولذلك يفتعل الحياة البوهيمية اعتقادا منه بأن الأديب لا بدّ أن يكون شاذا في تصرفاته ويبدو ذلك على مظهره وسلوكه معا ، فهو غريب الأطوار، فاشل في دراسته .

أما روايته الأخرى " ذكريات صبا سياسي محترف"(٤) فهي تتحدث عن طالب يدعى رزق الله زرتوت انتخب لبعثة سنة ١٩٤٣ وكانت الحرب العالمية الثانية في أوجها ثم سافر الى لندن بعد انتهاء الحرب بحرا مع عشرين من الطلاب المبعوثين . وهو يصف عملية التسجيل وشراء للكتب الضرورية ومتابعته للمحاضرات بل تراه ينقل نقلا حرفيا ما حكاه استاذ له في احدى المحاضرات بعنوان "أوروبا ما بين ١٨١٥ و ١٨٧٥ "(٥) ويذكر بالتفصيل أيضا مناقشته لذلك الاستاذ . ثم يتحدث عن علاقته بزميلته الانجليزية وتطوّر هذه العلاقة ، واذا به يخبرنا أن عليه

---

١) حسن الحسيني ، الاصدقاء، ص ١٢

٢) المصدر نفسه، ص ١٠٢

٣) المصدر نفسه، ص ١١٤، ١١٥

٤) حسن جمال الحسيني ، ذكريات صبا سياسي محترف، بيروت، مطبعة سليم، بلا . ت.

٥) المصدر نفسه، ص ص ٣٠٥ - ٣٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن يحافظ على مستواه لكي ينال شهادته بامتياز وشرف وأن يغادر لندن بعد أسبوع من استلامه الشهادة.(١)

وتتحدث الرواية عن موقفه من الوطن، فهو ينضم الى خدمة أحد كبار الزعماء، الذي يمدحه ويرى أن الخدمة معه شرف عظيم، ولكنه في ذاته يراه حمارا سيستعمله للوصول الى ما يريد ومن هنا تكون نهاية الرواية" أنا جالس الان خلف منضدة من مناضيد الحكومة الفخمة وقد وصلت الى مركز قلما يحلم شاب في عمري أن يصله."(٢)

أما فاضل السباعي في روايته "الظمأ والينبوع"(٣)، فرغم أنه وصف بواعث رحلة الطالب ومشكلاته الا أن هذا الوصف كان سريعا، وبمثابة طرف الخيط لابراز الصدام بين الفضيلة والرذيلة. فالطالب سامي ذهب الى ألمانيا بتشجيع من الألماني الرحالة اوتوميلر الذي استضافه في حلب، فهذا التشجيع هو الذي جعله يحزم أمره ويصمم على الذهاب. بالاضافة الى " أن كلية الهندسة في بلدي ذياك المعهد تشتمل على فروع مختلفات دون أن يكون بينها الفرع الذي أرغب فيه."(٤)

ولقد وقف والده في طريقه وحاول منعه من الذهاب لأنه لا يملك فضلا من ماله يغذه براتب شهري منتظم خلال سنوات أربع أو خمس ولأنه خائف أن يعود وقد صحبته شمالية زرقاء العينين وعبر عن مخاوفه قائلا " عرض عملك عزيز عليّ يا سامي"(٥) ولهذا كان يغادر شتوتغارت حيث يدرس في أيام العطل الى برونشفيك لكي يعمل ويساعد بأجره على تغطية مصروفات الدراسة.

وكل هذا التقديم والتمهيد كان اعدادا وتهيئة ليوم لقائه مع زوجة صاحبه أوتوميلر السيدة هيلغا التي تحاول اغراءه فتفشل. ويبقى محافظا على قيمه الأخلاقية أما نجاحه فلا يأتي حدثا من خلال الرواية ولكنه يأتي في الخاتمة كأمر مقرر فيقول " مضى على ذلك اليوم خمس سنوات كوامل تخرجت خلالها من الجامعة وعدت أدراجي الى حلب لأعمل مهندسا ميكانيكيا في الاختصاص ذاته الذي يسر لي الصديق أوتوميلر فرصة الاعداد له."(٦)

---

١) حسن الحسيني، ذكريات صبا سياسي محترف، ص ٤٨٤، ٤٥٦

٢) المصدر نفسه، ص ٤٧٤

٣) فاضل السباعي، الظمأ والينبوع، بيروت، دار الاداب، ط ٢، ١٩٦٤

٤) المصدر نفسه، ص ١٣، ١٤

٥) المصدر نفسه، ص ١٥، ١٦

٦) المصدر نفسه، ص ١٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما رواية صباح محي الدين " خمر الشباب" ، فهي تتحدث عن فؤاد ووليد وهما أبناء عمومة من حلب قدما الى لندن في بعثة عمل تدريبية في أحد مصانع الصابون .

أرسلهما أبو فؤاد " صاحب مصانع الصابون الضخمة في حلب كي يتدربا على صناعة الصابون عند عملاء هنا ." (١) ، وهذا جعلهما في حلّ من تبعات الدراسة وهمومها ، وأتاح لهما أن يتعرفا الى حياة اللهو بشكل واسع. ولكن فؤاد ووليدا نموذجان مختلفان ، فوليد بوهيمي في حياته وفؤاد عالم مثالي . كما تتيح لهما هذه الفترة أن يرضيا نزعتاهما فيتعرف وليد الى حيّ سوهو (٢) ، حي القتلة والساقطات، والليالي الحمراء، ويقيم فؤاد علاقة حب قوية مع مادى تنتهي برسالة من والده ، يعلمه فيها أنّه خطب له ابنة عمه دربة ، ولا يستطيع فؤاد أن يرفض، بل يرجع الى حلب مكرها راضخا لأمر ابيه. فهو يعود ناجحا في دراسته ـ التطبيقية هذه ، فلقد كان تدريبه يسير سيرا حسنا تعلم خلاله صناعة المنظّفات والصابون المعطر وصابون الحلاقة ، فاشلا في محاولته لتحقيق استقلال شخصيته .

وينبغي أن نذكر الى أن ارتباطه بأبيه وبالشرق من خلال أبيه لم يكن ارتباطا عقيدة ولكنه كان ارتباطا ماديا ، "فهو لا يستطيع أن يتخلى عن اختيار والده ولو كان ضدّ رغبته لأنه يعرف أثر ذلك عليه لأن أقل ما سيفعله والده أنه سيحرمه من الارث." (٣)

وتتحدث رواية سلمى الحفّار الكزبرى" البرتقال المرّ" (٤) عن عصام الولد البكر لأسرة دمشقية ، كان أبوه موظفا في وزارة الزراعة ، أما أمه فقد ورثت مخزنين في سوق الحميدية عن أبيها . أنهى عصام دراسة الطب في جامعة دمشق ثم جاء للتخصص بالجراحة الى أمريكا في ولاية كليفلاند . والرواية في حديثها عن عصام تبدأ من النهاية ، أى بعد مرور ست سنوات ونصف على اقامة عصام في الولايات المتحدة ، تخصص في الجراحة العامة ثم في جراحة القلب.

---

١) صباح محي الدين ، خمر الشباب، ص ٢٤

٢) المصدر نفسه، ص ص ١٥ - ٢٧ ، ص ص ٥٨ - ٨١

٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٥

٤) سلمى الكزبرى، البرتقال المر، بيروت، دار النهار، ١٩٧٤م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولأنّ هذه الرواية كتبت بطريقة تجمع بين أسلوب الرسائل والمذكرات فانها تخلو على عادة هذه الروايات من حدث ينمو ويتطور وتستعيض عنه بالسرد المباشر الصريح الذى يعبّر عن الموقف، مترددا في الزمان بين صيغه الثلاثة متنقلا في المكان بحرية مطلقة.

فالرسائل المتبادلة بين عصام وسالم هي محور رئيسي من محاور الرواية فهي تكشف عن الشخصيات في الرواية وعن الافكار وان " كانت تضحي بالصورة والايماءة والرمز وكل المعادلات الشعورية والفنية لصالح المعنى الصريح الذى تخشى على ضياعه أكثر مما يجب. "(١)، بمثل هذه الروح تكشف الرواية الستار عن عصام " ست سنوات ونصف انقضت عليّ وأنا مقيم في الولايات المتحدة دون أن أشعر بوطأتها، انقضت حقا بلا ضجر ولا تثاؤب تخصصت في الجراحة العامة أولا ثم في جراحة القلب واستعذبت التعب والسهر لأني نلت امنيتي بهذا الاختصاص. "(٢)، بمثل هذه المباشرة وهذه الروح الاخبارية، تختزل الرواية حياة عصام وتحيلها الى سرد مكثف فهي تحدثنا عن علاقته بالدكتور جاكسون استاذه وكيف نشأت بينهما علاقة احترام متبادل واعجاب وعلق " لاهتمام عصام بمحاضراته ومؤلفاته وتجاربه. "(٣) وتحدثنا عن لؤم استاذ آخر له هو الدكتور فيشر، ويروى تعصبه للصهيونية وشماتته بهزيمة العرب في حرب حزيران وكيف أيّده الحميد وان كان أقل حدة وأكثر تهذيبا منه، ثم يتحدث عصام عن اشتراكه في احدى العمليات الجراحية التي أجراها استاذه جاكسون واستغرقت ست ساعات وكيف كتب تقريرا عن العملية وعن المريض الذى وجد حالته تدعو للتفاؤل.(٤)، وكذلك تصور الرواية الاعلام الصهيوني في أمريكا وتأثير ذلك على الطالب العربي(٥) ولكن قليلا من الحياة يسرى في الرواية عندما تصور علاقته بالممرضة السويدية هيلدا والتي غيرت في أخلاقياته كثيرا، ثم يعود الى الوطن رغم حبه لها، ورغم اغراءات أمريكا. ثم تحدث حرب تشرين، وينخرط عصام

---

١) عفيف فراج، الحرية في أدب المرأة، ص ١١٥

٢) سلمى الكزبرى، البرتقال المر، ص ٩

٣) المصدر نفسه، ص ٢٤

٤) المصدر نفسه، ص ٢٩، ٣٩

٥) المصدر نفسه، ص ٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الجيش ويعمل لبيبا في الجبهة، كل ذلك بعد عودته من أمريكا بستة أشهر تقريبا .

٢) السياحة :

لم تقف الرواية العربية عند الموضوع الأول ، وهو الدراسة رغم أهميته ، بل تجاوزته الى تصوير علاقة أخرى بالحضارة الغربية تقوم على أساس العلاقة السياحية× والعلاقات السياحية ، علاقات سريعة ، قائمة على أساس التعرّف على الأبعاد المكانية في فترة زمنية قصيرة ، ولذلك تغلب اللهفة والعجلة على أصحابها . ومن هذه الروايات رواية " ليلة في قطار" (١) لعيسى الناعوري" والرواية كلّها تدور ضمن جدران حجرة صغيرة في القطار الليلي وفي أقلّ من عشر ساعات فقط." (٢) ، وهذا يعني تكثيفا في الوقت واختصارا لعدد الشخصيات وتحديدا لعلاقتهم ببعضهم بعضا وما تستلزمه هذه العلاقة من أبعاد زمانية على مستوى البناء الروائي .
ولقد حاول القاص أن يستعين عن كل ذلك بالحوار في زمن الرواية الحاضر وبالذكريات على مستوى زمن الرواية الماضي . فلقد أمضى سعيد خمسة أشهر (٣) في ايطاليا بادئا رحلته هناك من مسينا الى ميلانو مرورا بنابولي . وتتحدد الطبيعة السياحية للبطلة في شكله الخارجي ، وفي ملامحه الداخلية فهو دائب الحركة ، كثير الالتفات، ولهذا يقول عن نفسه " وأنا منذ ساعة أتجوّل هنا وهناك ، حقيبتي في مستودع المفش الكبير في بناء المحطة ، وآلة التصوير تتدلى من كتفي الى جانبي ، وتارة أقف أمام كشك الصحف والكتب أتفرس فيها وأقرأ العناوين ومرّة أمضي الى الميناء القريبة انظر الى البحر والسفن والقوارب." (٤) ، ومشاهداته وانطباعاته تشبه الى حدّ كبير انطباعات السائح الذي يهتم في كثير من الأحيان بسرد تفاصيل ما رأى " وانظر الى الناس من حولي هناك امرأة تجلس على مقعد بجانب الجدار

× أخرج الباحث أدب الرحلات من هذا المجال لكثرته التي تتطلب دراسته دراسة مستقلة ولعدم تحقق شروط الرواية الفنية في هذه الأعمال .

١) عيسى الناعوري ، ليلة في قطار ، عمان ، دار فيلادلفيا ، ١٩٧٤م
٢) المصدر نفسه ، ص ٨
٣) المصدر نفسه ، ص ٥٥
٤) المصدر نفسه ، ص ١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى حضنها طفل ترضعه، والى جانبها طفل آخر لا يهدأ ولا يستقر بل يظل يطوف في أرجاء المطعم كله وهي تدعوه وتؤنبه فيصغي اليها حينا ويعود الى جانبها وحينا لا يجيب بل يظل ينتقل من مائدة الى أخرى ومن حوله أشعته وحقائب ذوات أشكال شتى وهي تنظر الى الباب كثيرا لعلها تترقب دخول زوجها ليعفي بالغلها الآخر الذي يطوف في أرجاء المطعم أو ليحمل اليها شيئا ما من المدينة."(١)

فهذه التفصيلات التي يكاد الانسان العادي يغفل عنها تستوقفه وتستدعيه لكي يلاحظها ولكي يجهد نفسه في تعليلها او في محاولة ايجاد ترابط منطقي يرضي فضوله. وهو ينقل لنا مشاهداته عن دخول القطار في قلب الباخرة(٢) مستمتعا ويتحدث عن مهرجان الكرنفال في سيّنا عندما كان قادما من "أغريجنتو وسارا بكالتا فسيتا ثم كاتانيا ثم تارومينا ومتخلفلا في قلب بيارات البرتقال والليمون المتوهجة بالثمار الذهبية والمستحمة بالمطر على طول الساحل الصقلي المتعرّج من الجنوب الى الشمال."(٣)

ويصف مشهد الكرنفال وصفا تفصيليا(٤)، ويلتقط له صورا لتظل صور المهرجان بين ذكرياته الجميلة فيما بعد. وفي طريقه الى نابولي يتذكر أول رحلة بحرية في ايطاليا، ويتذكر جولاته القصيرة في شمال سردينيا وجنوبها. ويدافع عن آثار الغرب في صقلية ضد كل من يرى أن العرب كانوا يخربون الآثار الجميلة التي تركتها الشعوب. وتنتهي الرواية لنرى أنه متوجه الى نابولي لقضاء يومين أو أكثر في سياحة على الأكثر وعمل قليل(٥)، ومنها زيارة خرائب بومبي الشهيرة فيها.

انّ هذه الذكريات تتدافع عليه وهو في حجرة قطار مع امرأة ايطالية، يحاول الا يسقط في تجربة جنسية معها وينجح في ذلك ويستشعر سعيد غربة عنها وعن مفاهيمها للزواج وللحرية. وما ينبغي ملاحظته أنّ سعيدا عارف بمعدين يشكلان حجر الأساس في علاقة السائح بالبلد الذي يذهب اليه. وهما معرفة اللغة، والدراية بالمكان، فالكل من الايطالي والمرأة الايطالية شهدا له بمعرفة اللغة الايطالية معرفة جيدة(٦)، وهو يقول عن نفسه "تجولت في ايطاليا

---

١) عيسى الناعوري، ليلة في قطار، ص ١٣

٢) المصدر نفسه، ص ١٤، ١٥

٣) المصدر نفسه، ص ٢١

٤) المصدر نفسه، ص ٢٢، ٢٣

٥) المصدر نفسه، ص ١٣١، ١٣٢

٦) المصدر نفسه، ص ٢٨، ٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كلّها وزرت أكثر المدن الكبرى فيها والريفيرا ، وأخيرا سردينيا وصقلية والآن مدينة نابولي وبعد يومين أو ثلاثة سأعود الى روما ومن هناك سأحمل مشاهداتي وذكرياتي وتجاربي الكثيرة بالطائرة التي ستعيدني الى الشرق ."(١)

ويمكن أن تندرج رواية "بدوي في أوروبا"(٢) لجمعة حماد في اطار الروايات التي تتحدث عن علاقة العربي بالحضارة الغربية من خلال رحلة سياحية يقوم بها "سويلم" الى ألمانيا. ولكن هذه الرواية تخضع لمفارقة أساسية تشكل منطلقا تفارق فيه هذه الرواية جلّ الروايات العربية في هذا الموضوع. وهو أنّ سويلم ليس مثقفا وأنّ ذهابه الى ألمانيا للسياحة ليس في مكنته لأسباب مادية وحضارية في ذات الوقت فهو بدوي ولاجئ من عرب بئر السبع كان يكتسب بعض عيشه من عمله دليلا سياحيا بحكم خبرته بالمنطقة لكونه أحد أبنائها . ومن ثمّ نشأت بينه وبين أحد الباحثة الألمان صداقة ، واطلق عليه سويلم اسم عبدالله" اما اسمه الحقيقي فلم يستطع سويلم أن يكرر لفظه فضلا عن أن يتذكره ."(٣) ، ثم أخذه هذا الشاب الى ألمانيا لكي يعرفه الى بلاده ، وهذا يعني أنّ سويلم ما زال في طور الوصاية عندما يتعلق الأمر بمواجهته لاوروبا . ولذلك استعان بسعيد (أحد أصدقائه وأحد أدلاء السياحة في القدس) ليكون مرشدا له في ارتداء الزي الافرنجي وعقد الرباط حول عنقه وكيفية الأكل بالشوكة والسكين وكيفية ترتيب ملابسه واستعمال أدوات الحلاقة ومعجون الأسنان والفرشاة وكان يتعامل مع هذه الأشياء ويريد اتقانها ، وكأنه يحاول أن يتقن طقوسا خاصة تسمح له بالاقتراب من عالم سحري(٤)

واذا كان سعيد في رواية عيسى الناعوري عارفا بأبعاد رحلته من حيث المكان واللغة فانّ سويلم يكاد يجهل هذين البعدين المهمين والضروريين في علاقة السائح بالبلاد التي هو ذاهب اليها . فجهله باللغة يقيم حاجزا صفيقا بينه وبين الناس من جهة وبين منجزات الحضارة من جهة أخرى فحديث ركاب الطائرة بالنسبة له "رطن"(٥) "وكلمة النهر الألمانية تثير في نفسه سخرية ويستعملها اذا أحب أن يسخر في أعماق نفسه من صاحب الاسم"(٦)

---

١) عيسى الناعوري ، ليلة في قطار ، ص ١٣٦

٢) جمعة حماد ، بدوي في اوروبا ، عمان ، المؤسسة الصحفية الاردنية ، ١٩٧٧

٣) المصدر نفسه ، ص ١٨٣

٤) انظر محاولته التدريبية في الرواية ص ص ٢٦-٣٢

٥) المصدر نفسه ، ص ٣٧

٦) المصدر نفسه ، ص ٦٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو يتألم لجهله باللغة " لقد كانت غصّة كم تمنى سويلم أن يفهم ما يقولون ولقد نذر في نفسه أن يعلّم اولاده السبعة ألسن حتى لا يقعوا في مثل ما هو عليه الآن."(١) ولا شك أنّ هذه الغصة تعبير حزين عن غربة ، يعيشها العربي في المجتمعات الغربية حين يقوم حجاب اللغة بينه وبين الناس والأشياء من حوله. أما عن علاقته بالمكان فانّ سويلم يفغر فاه تعجبا من البلاد الجديدة التي رآها واذا علّق بشيء ما فان تعليقه (أو صمته) يتناسب ومستواه الحضاري والثقافي ، فعندما ترجم عبد الله له ما قالته المضيفة اننا فوق قبرص " تنهد وهو يقول قبرص وتذكر الحمير القبرصية ذات الصيت في بلاده."(٢) ، أما عن استنبول التي لم يتبين من ملامحها شيئا فقد ردد اسمها "اسطنبول" عدة مرات، وتذكر أنه يعرف عنها كثيرا من كباره وأنها كانت آخر الدنيا ونهاية المطاف في سالف الزمان."(٣) وهو في جميع المدن الألمانية التي لا يعرف عنها شيئا يبدو مشدوها من عظمة مبانيها ، حتى أنّ (عبد الله) يضطر الى أن يشرح لسويلم درسا في جغرافية ألمانيا فهذه هي ميونيخ وهذه هي مقاطعة بافاريا وهذه هي العاصمة وهذه هامبورغ.

ولعلّ خير موقف يكشف عن جهله بالمكان ، وعدم اهتمامه به أنه عند نزوله في مدينة بون العاصمة لم يطلب معرفة اسمها وانما سأل اذا كانت كبيرة أم لا فقال له عبد الله وأكبر من القدس" فتخيلها سويلم بلدة هائلة لأنه لا يعرف بلدا أكبر من القدس."(٤) وهذا الجهل جعل رحلته خاضعة لوصاية ، ولا سيما اذا عرفنا غربته أمام التقدم الآلي ، وغربته عن عاداتهم وتقاليدهم ولا سيما فيما يتعلق بالمرأة ويعجب من اجتماع النقائض عندهم كما يظن يقول " يا سبحان الله يكررها سويلم مرة أخرى في نفسه، هؤلاء الناس الذين يحطون كل هذه العمارات، ويصنعون كل هذه السيارات، ويقبنوا الفار من ذيله، يشربون الخمر ولا يعرفون العيب بين

---

١) جمعة حماد ، بدوي في اوروبا ، ص ١١٠

٢) المصدر نفسه، ص ٤٥

٣) المصدر نفسه، ص ٤٧

٤) المصدر نفسه، ص ١٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذكر والأنثى ."[١] ، ولأنهم لا يعرفون العيب عاد سويلم، حتى لا يكون مثلهم، ولم تكن هذه العودة قناعة بدون تجربة، فلقد شاهد ما جعله يستاء ويعلق على الحضارة الغربية التي لا تعرف الفرق بين الحلال والحرام "الحضارة يا حضرة البين ."[٢] ، فلقد حضر سويلم حفلة رقص اقيمت في بيت صاحبه، وأجبر فيها على الرقص مع "سونيا" وكانت تجربة مؤلمة جعلته يفكر بالعودة سريعا.[٣] وعندما يعود تأتيه برقية من صاحبه عبد الله تنبئه بأنه تزوج من مريم الألمانية المسلمة على سنة الله ورسوله.

"ووقف سويلم يهرول لا يسعه المكان من الفرح وكأنه قائد هزم عدوه هزيمة ساحقة".[٤] وفي هذه الأسطر - نهاية الرواية - ايحاء ذكي بأنّ الحضارة الغربية اذا أرادت البقاء - من وجهة نظر سويلم - فلا بدّ لها أن تعود الى الدين، وتوحي كذلك بأنّ بساطة الشرق وروحانيته قد تغلبت على مادية الغرب وتعقيده.

أما رواية عبد الحميد جودة السحار "جسر الشيطان"[٥] ، فانّ مكانها ألمانيا وبالذات مدينة هامبورغ، والرواية في محورها العام تقابل أو على الأدق تضاد بين نموذجين مهندس مصري شاب يدعى علي ، وفتاة ألمانية شابة تعرض جسدها في ملاهي هامبورغ تدعى آني .

واذا كان علي قد جاء ليتسلم سفينة تبنى في هامبورغ لحساب مصر فان هذا السبب هو المدخل الى اقامة علاقة اكتشاف بالمكان في فترة زمنية قصيرة. ولكن طبيعة هذا الاكتشاف تقود عليا الى الايمان بوجهة نظره وتزيده قناعة بها . بل انّ معرفة المكان تصبح ضرورة تساعده على عرض أفكاره، فمنذ نزوله في هامبورغ "طفق يدير عينيه في المكان برهة وقد أنعم بتلك النشوة التي يحسها كلّما هبط مدينة لاول مرة ثم دار على عقبيه وهو يصفّر."[٦]

وهو يطلب من السائق باللغة الانجليزية أن يوصله الى حي من أحياء اللهو في مدينة هامبورغ يدعى "ريبربان"، ويبدأ بوصف استعراضي لمشاهداته

---

١) جمعة حماد ، بدوي في اوروبا ، ص ١٦٩

٢) المصدر نفسه، ص ٢١٠

٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٨ - ٢٢٩

٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٤

٥) عبد الحميد جودة السحار، جسر الشيطان، القاهرة، مكتبة مصر، بلا ت

٦) المصدر نفسه، ص ٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في هذا الحي ، فهو يتأمل ألعاب التسلية الكهربائية (١) ويصف صناديق في واجهاتها عدسات تعرض صور نساء عاريات في أوضاع مختلفة ويتحدث عن نقد على هيئة كملعب كرة قدم (٢) ، ثم ينتقل من طور التأمل الى طور التجربة فيراقص فتاة ثم يتركها غاضبا لأنها تعتقد أن الغرب شاذون (٣) ، ثم يتفرّج على نساء عاريات يعرضن أجسامهن في صور مبتذلة (٤) ، ويتحدث عن سهرته في كازينو دي باري (٥) وتعرفه بآني الذي سيشكل محور العمل الروائي .

وهنا يبدأ رحلة في نفس هذه المرأة الفقيرة التي تعرّضت لمشكلات اجتماعية في نشأتها الأولى ، والتي لا تؤمن بالله وتعتبر الايمان به وهما (٦) ، ويريد هو أن ينقلها من واقعها المادي الى واقعه الروحي ، وبعد صراع طويل بين أفكاره ورغباته ينجح ، ثم يسافر وتتغيب عن وداعه عامدة حتى لا تدع للشيطان أن يقيم الجسور بينهما ولأنها قد وطدت العزم على أن تتطهر من دنسها وتتلي وتبتهل الى الله أن يقف بجوارها ويحميها ويأخذ بيدها .

فالسحار يريد أن يشير الى أن الشرق يستطيع أن يقدّم للغرب أشياء كثيرة فرغم أن الغرب يعطيه السفن " اشارة الى أنّ الصناعة والتكنلوجيا من ميزات الحضارة الغربية فان الشرق يعطيه الايمان بالروح والاديان .

فرواية السحار وحماد تتشابهان في الهدف لكنهما تختلفان في التفصيلات، ولم يكن مصادفة أن يسيطر على علاقتهما بالحضارة الغربية الطابع السياحي ، فانّ هذا الطابع لا يجعل بطل الرواية في موقف المتلقي والتلميذ من حضارة الغرب، مع الاختلاف في طبيعة بناء الشخصيات، فعليّ بطل السحار مهندس أي أنه ليس منبهرا بحضارة الغرب من الناحية العلمية ، و سويلم بدوي ، تحتل الفطرة والبساطة في نفسه مركزا لا تستطيع حضارة الغرب زعزعته فكلاهما صالح لدور المبشر بالثقافة أو بالسلوك .

---

١) عبد الحميد السحار، عسر الشيطان ، ص ٩، ١٠

٢) المصدر نفسه، ص ١٠

٣) المصدر نفسه، ص ١٥

٤) المصدر نفسه، ص ١٦

٥) المصدر نفسه، ص ٤٦

٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تدور أحداث رواية كوليت خوري "ليلة واحدة"[١] في القطار الذاهب من مرسيليا الى باريس، في فترة زمنية مكثفة تبدأ من الساعة الثالثة بعد الظهر، وتنتهي في الساعة الحادية عشرة ليلا. وتجعل الرواية أن امرأة ذهبت مع زوجها الى فرنسا، لكي تتعالج لاعتقادها بأنها عاقر، ولكي تروح عن نفسها، وأقامت مع زوجها في مرسيليا، ثم سافرت الى باريس وحدها لانشغال زوجها بأعماله التجارية. وفي القطار تتعرف الى كميل (وهو شاب فرنسي من أصل سوري) وتقيم معه علاقة حب، تنتهي بلقاء جنسي. وتكون الرواية بالتالي عبارة عن رسالة لزوجها في مائتين وخمس وثلاثين صفحة تشرح له كيف تمت هذه الحوادث. ولهذا يترافق أو يتصارع في القصة زمنان، الزمن الماضي، والزمن الحاضر. فالزمن الماضي لا سيما ذكريات الزواج تشكل بالنسبة لها عبئا ثقيلا، وذكريات لا تثير فيها الا الشعور بالحزن، فلم يكن زوجها مطابقا لأحلامها وتخيلاتها الرومانسية عن فتى الأحلام "صدمت وأنا أراك لأول وهلة فقد كنت ككل الفتيات أحلم بأمير ألف ليلة وليلة هذا الأمير الشاب الذي سيحملني ويطير، واذا بي أرى رجلا مسنا، في ذلك الوقت كان أحسن الثلاثين كهلا في نظري - قصير القامة، يميل الى السمنة."[٢]، ان حياة الزوجية كانت سببا من أسباب تعاستها، فقد كانت تعيش في غربة عن زوجها لأن كل واحد منهما كان له عالم مختلف عن الآخر، فهي أصغر منه بثمانية عشر عاما، تحب القراءة، وسماع الموسيقى، وهو تاجر منشغل بتجارته، وهي تريد أطفالا، وتلح عليه كي يتعالجا وهو لا يريد أطفالا "لا تذهبي الى الطبيب، نحن سعيدان هكذا، أنا لا يهمني أن يكون لنا أطفال."[٣]، ولذا كان الزواج محطما لنفسيتها "دمر الزواج أحلام طفولتي المريئة، وحاولت أن أقنع نفسي، بأن زواجي هو طموح حياتي وهدفها وحلمها، لذلك كنت لا أسمح لنفسي باضياع في الأحلام، كنت أخنق أحلامي بأهدابي."[٤]، وهذا يعني أن صفات زوجها كانت تشكل

---

١) كوليت خوري، ليلة واحدة، بيروت، منشورات زهير بعلبكي، ١٩٧٠م

٢) المصدر نفسه، ص ٢٩

٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٨

٤) المصدر نفسه، ص ١١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالنسبة لها عبئا ثقيلا ، حاولت التخلص منه في اللحظة المناسبة فهي تتذكر كيف كانت تتقلب في فراش الزوجية تبحث " في مخيلتها عبثا عن ذكرى حلوة مفقودة وعن أمل مشع مجهول . "(١) ، وكان هذا الرجل السوري ـ الفرنسي تجسيدا لهذا الأمل . فكميل كان بمثابة منظار استخدمته لكي ترى من خلاله ماضيها من موقع الحاضر المتفتح ، ولكي تحاسب هذا الماضي . ولذا فانّ كميل على النقيض من زوجها تماما فهو منطلق ، ومتجدد ، وعاطفي ، وحزين ، استطاع أن يجعلها تحبه وتقيم معه علاقة حب متكاملة في الفترة الواقعة بين الساعة الثالثة بعد الظهر حتى الساعة العاشرة وخمسين دقيقة ليلا . وثمة عامل مهم كان من أسباب نجاح العلاقة هو كون عروس أحلامه تشبهها شبها غريبا ، فهي بالتالي ليست غريبة عنه فقد قابلها " مرارا في الأحلام ومع أن مخيلتي عجزت عن تصويرك على الوجه الأحسن الا أنني أعرفك جيدا . "(٢) ، باختصار يشكل كميل أو كمال صورة مناقضة لزوجها تماما في جموده ورتابته ، وحالة رومانسية تناسب طبيعة تكوين رشا . فكان اللقاء مع الحضارة الغربية ، تمردا على طبيعة العلاقات الجنسية في الشرق ، ولعلّ التكثيف المكاني والزماني جعلا العلاقة بين رشا وكميل تشبه طابع العلاقة في ألف ليلة وليلة . فهي علاقة حلمية ، أو شبيهة بالحلم ، تتم في ليل باريس الجميل ، ثم تموت صاحبته في الصباح .

أما عن الهدف الذي جاءت من أجله رشا فقد تبيّن لها أنها لم تكن عاقرا وأنّ زوجها هو العقيم ، وهي خطيئة جديدة تنضاف الى خطاياه الأخرى . وهذا يعني أنّ لقاءها بكميل (الحضارة الغربية) بالرغم من قصره رد لها توازنها النفسي ، وثقتها بنفسها كأنثى . واذا كانت الرواية تنتهي بموت رشا في حادث سيارة فلأن رشا " نسيت أن كمال ليس الى جانبها ليشدها من ذراعها ويهتف : رشا انتبهي . "(٣)

---

١) كوليت خوري ، ليلة واحدة ، ص ٥١

٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٨

٣) المصدر نفسه ، ص ٢٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما رواية كوليت خوري الثانية " ومرّ صيف "[١] ، فانّ فيها صوتين يتداخلان ويشكلان مستويين في مواجهة الحضارة الغربية ، ولكنهما لا يخرجان عن الاطار السياحي .

فالمستوى الأول يتمثل في صوت الروائية التي تذهب الى باريس ولندن لسببين :-

الأول : الهم الوطني فهي تتحمل هموم الوطن وتأرق لحملها ، ولذا تودّ الذهاب الى الغرب لانّ الغرب يمثّل مكانا بعيدا عن هذه الهموم ، فالرحلة تهدف لا راحة الأعصاب " تعبت من الوطن يتساقط على كتفيّ هموما وفي قلبي حكايات تشرّد وضياع وموت وفي عينيّ مسرحية رهيبة جعلتني أفقد الثقة في مقدرتي على كتابة المسرحيات. "[٢]

الثاني : بما أنّ الذاهبة الى الغرب كاتبة روائية فهي تطمح في كتابة رواية بعيدة عن أجواء الوطن العربي " لا يحمل كلّ بطل من أبطالها مشاكل المائة مليون ، قصة عاطفية من الممكن أن تحدث في أي زمان وفي أي مكان في العالم. "[٣]

انّ رحلة الروائية تمثل علاقة البرجوازية العربية بالغرب وبالوطن ، فهي تعتبر الغرب خلاصا وتقف من قضايا الوطن محتجة ولكنّ هذا الاحتجاج سلبي لأنه ينتهي بالهروب من المواجهة .

أما المستوى الثاني فيتمثل في أبطال الرواية العرب الذين ذهبوا الى لندن ، وهم الدكتور يوسف الأسواني مدير أحد البنوك في مصر ، والصحفية المصرية سهير . والدكتور متزوّج ولكنّ علاقة حب تربطه بسهير الصحفية الناجحة ، ولقد جاء يوسف الى لندن لاجراء عملية في الكبد بناء على استشارة الطبيب بريطاني ، من هنا فانّ علاقته بلندن هي علاقة المريض بالمستشفى فأوجاعه ، وحرارته المرتفعة ، وشحوب وجهه ، واقتراب موعد العملية الجراحية ، وسماء لندن الكئيبة ، وطقسها البارد ، وغرفته العارية ، كل هذا يشعره بوحدة وعزلة . ورغم وصول سهير من القاهرة لتكون

---

١) كوليت خوري ، ومرّ صيف ، دمشق ، اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٧٥م

٢) المصدر نفسه ، ص ٨ وانظر ص ١٠ ، ١١

٣) المصدر نفسه ، ص ١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى جانبه عند العطلة وما أضفاه على نفسيته من سعادة الا أن كدره ظل ملازما له.

أما سهير فهي تشعر بغربة في لندن لأن " وعي يوسف هو صلتها بكل أقربائه وسبب وجودها في هذه البلاد بل وأساس علاقتها به أنها ما دام تحت تأثير المخدر فهي تحس بأن كل فرد من أفراد الأسرة أقرب اليه منها. "(١)، ولذلك فان مرض يوسف يشكل أساس وطبيعة علاقتها مع الناس والأشياء " مر أسبوع على وجود سهير في لندن، أسبوع أحست خلاله وكأنها في مستشفى كبير لا يهمنا منه سوى غرفة رقمها ١٩. "(٢)

ورغم أنها تجولت في الأسواق والمطاعم والمقاهي وأحياء لندن الا أنها ظلت تعيش " في غيبوبة نسجها قلقها على يوسف وشعورها الشخصي بالغربة "(٣)، ولكن يوسف تماثل للشفاء وزال عنه الخطر، فاستيقظت فيها طبيعتها الصحفية فقررت أن تكتب تحقيقا واسعا عن حركة الهيبيين في لندن، وتتحدث الرواية من خلال لقطات سريعة عن واقع بعض الشباب الغربي وما فيه من ولع بالمخدرات وبالجنس(٤) وتتصرف الى شاب ايطالي ينزل معها في الفندق الذي تنزل فيه، وتنمو بينهما علاقة حب من طرف الشاب الايطالي فقط، لأنه يرى فيها نموذجا جديدا يتميز عن واقع الفتاة الغربية التي تستسلم له بسهولة فهو يريد أن يركض وراء انسانة وأن يتعب ويشقى في سبيل الحصول عليها، وقد تمثل ذلك له في سهير، في النهاية يتلاشى الجميع، يعود يوسف الى زوجته، وتبقى سهير بعده لمدة قصيرة في لندن ويظل ايتالو في نفسها ذكرى كانسان أحبها في الصيف ومحا غربتها. "(٥)

---

١) الكوليت خوري، ومر صيف، ص ٧٢

٢) المصدر نفسه، ص ١٤٩

٣) المصدر نفسه، ص ١٤٩

٤) المصدر نفسه، ص ص ١٧٩ - ١٨٥

٥) المصدر نفسه، ص ٢٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثمة ملاحظة تنطبق على هاتين الروايتين وهي فقدان علاقة أبطالها بالمكان ، بمعنى أنّ شخصيات الرواية لا تتحرك في الابعاد المكانية الا حركة اسمية لا تشترك في صياغة الحبكة الروائية ولكنها تذكر ذكرا فقط مما يوقع الرواية بالتجريد .

٣) الهجرة الى الغرب:

وقف الروائيون العرب عند لون من ألوان علاقتنا بالغرب. وهو الهجرة اليه نتيجة لظروف سياسية أو اجتماعية في الوطن ، ألحت على أبطالها وحملتهم قسرا على الذهاب الى الغرب.

فالذهاب هنا ليس اختيارا ولكنه لون من الجبر، ولهذا فالاقامة في الغرب تعتبر اقامة في منفى .

ولقد عرفت بلاد الشام وبخاصة لبنان ظاهرة الهجرة الى الغرب ولا سيما الى أمريكا . وكانت الأسباب الاقتصادية كالضيق والعسر أول أسباب الهجرة وان تداخلت معها عوامل أخرى كشعور بعض الأقليات بالاضطهاد ، ويرى فيليب حتي أن " طلب المال بالدرجة الأولى لا طلب الحرية السياسية ولا الدينية هو الباعث الأكبر على المهاجرة." (١) ، وأظن أنّ هذه العوامل مجتمعة هي التي تفسر هذه الظاهرة، لأنّ الظواهر الاجتماعية لا تفسّر بعامل واحد ، وانما تتشابك فيها العوامل المختلفة ليكون من اجتماع هذه العوامل ، تفسير وتعليل .

تتناول رواية سامي الجندي (٢) ، " أحداث في المنفى " حياة شخصية روائية تتخذ من تركيا مكانا يهرب اليه بطلها الروائي . والرواية لا تبيّن لنا بلد بطل الرواية الذي يهرب منه ولا عن سبب الهروب ولكن يبدو أنّ جماعة غامضة تلاحق البطل لتغتاله ولذلك يتنكر البطل " بدلت اسمي ، خلعت جلدي

---

١) جورج طعمة ، المغتربون العرب في أمريكا الشمالية ، ص ٤٤ ، نقلا عن لفليب حتّي "The Syrian In America"

٢) سامي الجندي ، أحداث في المنفى ، بيروت، ١٩٧١م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تقمصت شخصية لا أعرفها ."[١] ، أي أنه غير اسمه وتسمى باسم مستعار " بدلت اسمي مرات كثيرة. لو ناداني أحد في الطريق بأحد أسمائي العشرة لاستجبت ولو ناداني باسمي الحقيقي لتغافلت وبدلت الطريق ، أنكرته لأنه يعني عندي الموت تركته هناك ."[٢] ، وعلاقته بالمكان هي علاقة سياحة اجبارية ، هروبا من القتل " كنت سائحا من نوع آخر يتلفت يمنة ويسرة لا ليستمتع بغروب الشمس وألوانه العجيبة في تلك الأرض ولا بشروقها وانما خشية أن يفاجئني على أحد منعطفات الأزقة أحد القتلة الذين يجوبون النواحي بحثا عني ."[٣]

وهذان العاملان التنكر والخوف يشكلان ملامح بطل الرواية في منفاه فهو قلق يضفي على الأشياء من حوله جوا من التنكر والحدّة ، فلا عجب أن تكون الألمانية العجوز التي تعرّف اليها تصرّ على أن يدعوها هيلين وهو يدعوها باسمها الرسمي مدام لاى ، وهي باصرارها المطلق على ذلك لا تخاف مثله من الموت ولكنها تخاف مما يحمل هذا الاسم في ثناياه من ذكريات مؤلمة تريد أن تتخلص منها ، وهو يستشعر غربته ومنفاه ، فهو بلا أهل ولا وطن ويكتب كي يسلو أحزانه وما يكتبه " حرام علي وطني كأنه الأفيون ."[٤] ، وهذا يجعل ذكرياته تحمل طابعا حادّا فهو يتذكر قطة لهم ومعركتها مع العقرب[٥] وكأنه يسقط الحكاية على واقعه في وطنه ، ويتذكر السجن والمحقق والسوط الذي بيده وعبارته المتكررة " هاتوا الآخر"[٦] ، وأحلامه تمثّل له نفسه مقيدا " لا أقدر على الحراك وأريد أن أشترك في النشيد فيظل صوتي مخنوقا ."[٧] ، ثم تأتيه رسالة من مجهول تهدّده بأن الخطر أصبح حوله

---

١) سامي الجندي ، أحداث في المنفى ، ص ١١

٢) المصدر نفسه ، ص ١٢

٣) المصدر نفسه ، ص ١١

٤) المصدر نفسه ، ص ٢٥ ، ٣١

٥) المصدر نفسه ، ص ٣٠

٦) المصدر نفسه ، ٣٩

٧) المصدر نفسه ، ص ٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شديدا وتنصحه بالرحيل " يريدون قتلك أعدّوا كل شيء ."[١] ، وتقترح المرأة الألمانية على أحمد اسم بطل الرواية المستعار، أن تقوم بحراسته، ولكنه يرفض ثم يخبره رجال الأمن بأن حياته في خطر فيسافر الى باريس. ويلتقي في فرنسا بأصحاب فرنسيين عرفهم في تركيا وكان التصوف وشخصية الصوفي مولانا جلال الدين محور لقاءاتهم، ولكنه لا يطيل الاقامة ويعود ليكتشف أن من يريد قتله قد وقع في حب الألمانية العجوز، يطلب منه البوليس أن يبيت بالمنزل حتى يكتشف العصابة، فيفعل، ثم يدخل عليه القاتل حاملا المسدس ولكن أحمد يفاجئه ويهدده بالسكين فيضع المسدس ويخبره بأنه لم يدخل ليقتله ولكنه ظنّ أن هيلين تخونه معه، ثم تقبض الشرطة عليه، وتجنّ هيلين .

انّ الأبعاد المكانية لم تكن تعني عنده الا مهربا ومكانا للتنقل والتستر، ولذلك أكثر من التنقل فهو ينتقل بين - كوش أداسي -[٢] و قونية[٣] وكارشياكا[٤] وشيشمة[٥] وباريس[٦] ، التي كانت أماكن اختفاء يبتعد فيها عن عيون قتلته .

ومن هذه الروايات التي تحدثت عن شخصيات هاجرت من الوطن قسرا رواية سليم اللوزى " المهاجرون ".[٧]

وهذه الرواية لا تصف حياة بطل روائي واحد ، بل تتداخل فيها عدة شخصيات من عدة بلاد عربية. علي الشيخ وابنته سلمى وخليل الأزرق وسامي الشريف من سوريا وفاروق الشوربجي ومحمد أحمد من مصر وراشد أبو المنى من فلسطين ومفتاح هذه الشخصيات الصحفي اللبناني سعيد الدرابلسي الذى أراد أن يقول ان الهجرة لا تقتصر على بلد عربي دون آخر وأن المشكلة ليست اقليمية بل هي قضية قومية .

---

١) سامي الجندى ، أحداث في المنفى ، ص ٤٨

٢) المصدر نفسه ، ص ١٢

٣) المصدر نفسه ، ص ٢١

٤) المصدر نفسه ، ص ٣٧

٥) المصدر نفسه ، ص ٤٨

٦) المصدر نفسه ، ص ٥٤ ، ٥٥

٧) سليم اللوزى ، المهاجرون ، بيروت ، دار الشروق ، بلا . ت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما سعيد الطرابلسي فقد جاء الى اوروبا للنزهة، ولكن هذه الشخصيات التي التقى بها مصادفة في مونت كارلو صيف ١٩٧٢م أخرجته من نزعته وأدخلته في عالم جديد، وظل هو طيلة الرواية أسير علاقات هذا العالم الجديد الذى اكتشفه بالمصادفة.

يمثّل سامي الشريف شريحة من شرائح البورجوازية السورية فهو ابن عائلة مشهورة تعمل بالتجارة (١)، انتمى لحزب البعث دون قناعة فكرية فلقد "اهتم بالسياسة من زاوية تأثيرها على اهتماماته الاقتصادية وآماله في بناء مجتمع عربي قوى" (٢)، ولم يكن الحزب بالنسبة له مجرد مبادئ وشعارات بل مجموعة من الأصدقاء تعود الحديث معهم والسهر برفقتهم، وسامي الشريف يمثّل الشخصية الأولى في الرواية التي جذبت سعيد الطرابلسي الى عالم هؤلاء الشخصيات.

اختار سامي الهجرة الى اوروبا "هربا من النظام القائم في بلاده بل ومن التجربة الثورية في العالم العربي." (٣)، وسبب هذا الهرب أن سامي قد اعتقل وسجن في سجن المزّة ستة أشهر وحقق معه علي الشيخ بتهمة التآمر على الدولة، ثم خرج من السجن وقرر الهجرة الى اوروبا، فالخوف على حياته وعلى حريته، وفقدان الانتماء حمله على الهجرة فيتساءل "وطن من هذا؟ هل هو وطني أنا العاجز الذى لا يعرف ما هي تهمته انتزعت من بيتي ومن أهلي ومن كل الملكية التي بناها أجدادى أم هو وطن ذلك الذى يقف على الجانب الآخر من الزنزانة." (٤)

ويشبهه في ذلك فاروق الشوربجي رغم الفرق بين الشخصيتين في تركيبة الرواية. ففاروق كما يقول عن نفسه "بورجوازى مصرى سابقا امتلكنا في مصر وها نحن نعيش في اوروبا." (٥)، ولذلك ينتقد الثورات والانقلابات التي تحدث في العالم العربي مشيرا الى انعدام الديمقراطية، وتنتهي حياته بالقتل على أيدى عصابات المافيا.

---

١) سليم اللوزى، المهاجرون، ص ٤٨

٢) المصدر نفسه، ص ٣٣، ٣٤

٣) المصدر نفسه، ص ٨

٤) المصدر نفسه، ص ٥٥

٥) المصدر نفسه، ص ١٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الشخصية الثالثة فهي شخصية مصري يدعى "محمد أحمد" ، ولكنّه ليس بورجوازيا بل طالب من طلاب كلية الحقوق ، ومن جيل الثورة ، ولذلك فهو لا يوجد له مصلحة في بقاء النظام الملكي . في الجامعة انضم الى منظمات الشباب، مؤيدا للثورة لا عن قناعة ولكن عن مصلحة ، فبعد أن حلّت الثورة المصرية الأحزاب "أصبح الأمل الوحيد لحامل شهادة الحقوق هو أن يعيّن في احدى المؤسسات أو أن يدخل في التشكيلات السياسية الحكومية ليصل الى المراكز القيادية ولأنّه لم يكن منتميا عن قناعة فقد نجح نجاحا باهرا ."(١) ، ووصل الى منصب أمين المعهد الاشتراكي وأصبح عضوا في التنظيم السري فكان هو الذي يفحص الطلبات العضوية في الاتحاد الاشتراكي ويقرر من الموالي ومن غير الموالي . ولكنّ محمد أحمد يعتقل لأنّ أحد معتقلي الاخوان قال انه كان معهم في التشكيل ، شخص اسمه محمد أحمد يعمل في وزارة الشباب أو منظمة الشباب "وتحولوا وحتى لا يفلت العدو قامت المخابرات باعتقال كل من اسمه محمد أحمد ."(٢) ، وهذا الاعتقال الذي دام ثمانية شهور كاملة أفقده الانتماء للنظام وللوطن "عندما أمرني الشاويش بخلع ملابسي في القسم خلعت معها كل انتماء للنظام بل وحتى للوطن ."(٣)

أما راشد أبو المنى فهو فلسطيني درس الهندسة الميكانيكية في ألمانيا ، جرفه التيار الناصري ، واشتغل بالكويت، ثم عاد الى وطنه. ثم حدثت نكسة حزيران واحتلال اليهود لفلسطين ، ومحاولتهم تهويد ما واجبار أهلها على الخضوع للقوانين الاسرائيلية ودفع الضرائب باعتبارهم مواطنين في دولة اسرائيل (٤) ، هذه الأسباب يضاف اليها شعوره الداخلي المتسم بالحدة والمرارة والخيبة ، دفعه الى أن يبيع كراجه ويعطي أمه المال ثم يهاجرا الى ألمانيا والذي سهّل له الهجرة " كان أحد المكاتب المتخصصة بتهجير الشباب الفلسطيني في اسرائيل (٥).

---

١) سليم اللوزي ، المهاجرون ، ص ٢٠٣

٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٦

٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠٧

٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢٤

٥) المصدر نفسه ، ص ٢٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما علي الشيخ وخليل الازرق فيشكلان نموذجين يختلفان عن تلك النماذج السابقة فلم يكن علي الشيخ مضطهدا في سوريا ، ولكنه كان من طبقة العسكر التي شاركت في الانقلابات. وعلي الشيخ فلاح من أسرة فقيرة كانت اخته تعمل خادمة في بيت سامي الشريف، ولكنه دخل الجيش، وأصبح يمتلك بيتا في حي "أبو رمانة" ثم أدرك بعد انقلاب حسني الزعيم جديد أن عليه حماية رأسه بالخروج من سوريا."(١) ، ساعد خليل الأزرق في تمرير صفقات السلاح وعندما جاء الى اوروبا أصبح شريكا له ونجحا نجاحا ماليا عظيما ، وكذلك خليل الأزرق الذي أصبح عميلا لمصرة السلاح الفرنسي واشتهر في هذا الميدان بذكائه، لم يغادر سوريا خوفا ، بل انّ اشتغاله بتهريب السلاح كان محض صدفة.

ويبلغ فقدان الانتماء ذروته عند خليل الأزرق فهو يساعد في عقد صفقة سلاح لمصلحة اسرائيل(٢) ، وعندما يخبر راشد أبو المنى علي الشيخ بذلك يقتله(٣) ولا تستطيع المحكمة ادانته. لأنها تفتقد الى الدليل. ويلاقي علي الشيخ مصير صديقه "في دورة مياه عامة في سان ريمو"(٤)

وتهرب ابنته سلمى وتختفي ، بعد أن تحاول تدمير ذاتها على المستوى الأخلاقي . . .

في نهاية الرواية يتلاشى عالم هؤلاء الشخصيات، ويتطاير "وعندما ينهار كل شيء يحدث دوي عظيم ويملأ غبار الكون ، ثم ينقشع وينبعث الصمت من حطام الدوي ومن أعماق الأرض المهجورة، يبعث صوت الحنين."(٥)

أما رواية "المتميز"(٦) لمحمد عيد فهي تطرح قضية طالب فشل في الدراسة في ألمانيا ثم عاد الى الوطن. ولكنها لا تطرح الذهاب الى المانيا طرحا يتشابه مع الروايات التي وضعت هذا الاطار، فذهابه الى الغرب لم يكن اختيارا ولكنه

---

١) سليم اللوزي ، المهاجرون ، ص ١٤٤

٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤٧

٣) المصدر نفسه ، ص ص ٣١٨ - ٣٢٢

٤) المصدر نفسه ، ص ٣٢٤

٥) المصدر نفسه، ص ٣٢٤

٦) محمد عيد ، المتميز، عمان ، مطبعة الشرق ، ١٩٧٨م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالظروف التي تعيشها البلاد والتي جعلت " الناس يقتلون هنا كل يوم لا لأسباب لا تعرفها "[١] ، جعلت السفر أشبه بالنفي ولكنه نفي يشكل بديلا عن الموت المجاني في الوطن. يحاول في ألمانيا أن يعمل ولكنه يترك هذا العمل الرتيب الذي يقتصر على تركيز بصره على القماش الذي يخرج من الآلة وإذا رأى مكانا ممزقا أو بقعة غريبة عليه أن يضغط بأصبعه زرا كهربائيا.[٢]

فهذا العالم يدمّر نفسيته ويتناقض مع حيويته الدافقة، ولهذا تكون الدراسة أمرا اجباريا لأنّ الحصول على اقامة أصبح مرتبطا بها " فالالتحاق بالجامعة هو الخيار المطروح أمامي."[٣] ، ويبدأ في تعلّم اللغة ذلك الحاجز الكثيف الذي يقوم بينه وبين الناس، وتشكل هذه العلاقة اللغوية مفتاحا لفهمه ولفهم انتمائه ولفهم غربته أيضا " أريد أن أتكلم بلغتي تلك، التي أستطيع بها قذف نفسي في وجه العالم، أريد أن أتكلم عن شيء محدد - أنا - هذا ما أفتقده."[٤] ، من هنا يصبح تعلمه للغة الألمانية كسرا للحاجز بينه وبين الفكر والثقافة الغربية " أثيرت في ذهني شهوة قديمة قراءة بريخت وكافكا وشبنجلر وهد يجر بلغتهم الأم."[٥] ، انّ اللغة الألمانية، والوطن الأم الذي ظلّ دائب الحضور في صورة امرأة كانت معه في الحزب اسمها نوال، هما عنصران من عناصر اغترابه، ولكنّ فشله العميق وانسحاب المرأة الفرنسية (أندريه) من حياته، تلك المرأة التي أحبها وأحبته ودامت علاقتهما مدة طويلة، وحملت منه من أهم أسباب رجوعه بعد أن قررت أندريه التخلص من ذلك المخلوق الذي سيأتي مشوها تقول " انك لن تتنازل وكذلك أنا ولو أني أقول هذا للمرة الأولى." (٦)

---

١) محمد عيد، المتميز، ص ٦

٢) المصدر نفسه، ص ١٣

٣) المصدر نفسه، ص ١٤

٤) المصدر نفسه، ص ١٤

٥) المصدر نفسه، ص ١٨

٦) المصدر نفسه، ص ٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

« واذا أردنا تفسير ذلك قلنا ان اندريه تشكل رمزا للحضارة الغربية وهذا يعني من وجهة نظر البطل أن اللقاء بيننا وبين هذه الحضارة على شكل تصالح أمر مستحيل ولذلك صمم على العودة " واذا كان يجب أن أبدأ فلن يكون ذلك هنا "(١) ، وردّا على تساؤل زوجة صديق له عن الدراسة والدكتوراه يقول " لتذهب الى الجحيم. "(٢)

فبطل الرواية مغترب عن المجتمع الألماني ، وان توافق معه من خلال حب أندريه ، وانتهاء علاقة الحب كان ايذانا بانتهاء علاقته بالمجتمع الغربي وعودته الى الوطن ...

---

١) محمد عيد ، المتميّز، ص ٧٧

٢) المصدر نفسه ، ص ٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدمة :

يواجه الباحث في هذا المجال معضلة تعيق امكانية الدراسة الشاملة المستقصية ، لهذه الشخصيات الروائية وهي تواجه الحضارة الغربية . وتتلخص هذه المشكلة في كثرة النماذج الروائية ، هذه الكثرة التي تستتبع ردود فعل لا حصر لها تجاه الحضارة الغربية على شتى مستويات المواجهة .

فالشخصيات الروائية الناضجة ليست نماذج مسطحة يمكن اختصار الحديث عنها بكلمتين لأنها " تتكشف لنا تدريجيا خلال القصة وتتطور بتطور حوادثها ، ويكون تطورها عادة نتيجة لتفاعلها المستمر مع الحوادث "(١) وهذا يعني أن دراسة الانتاج الروائي لعدد كبير من الروائيين ، يتطلب دراسة لكثير من الشخصيات الروائية الناضجة التي قد تكون نسيج وحدها من هنا تكمن صعوبة ايجاد منهج لدراسة الانتاج روائي واسع متشعب ، وتفقد دراسة هذه المجموعة رواية ، رواية ، غير مجدية .

ولكن الذي يعطي هذه الروايات التي يتعرض لها البحث بالدراسة بعض السمات المشتركة ، وشيئا من التشابه في المضمون ، هو انطلاق هذه الروايات من نقطة واحدة هي :

كيف يتصرف العربي تجاه الحضارة الغربية وهو يواجهها في عقر دارها ؟ أي أنها تشترك في اخضاع البطل الروائي الى مؤثرات متشابهة وتضعه في اطار مكاني له سمات حضارية متشابهة الى حد كبير .

من هنا فان هذه الروايات " مهما اختلفت مواقف الكتاب ، تشير الى لحظة حضارية معينة ، أي الى مرحلة معينة في تطور أنماط التفكير والسلوك عند الجماعة . "(٢)

---

١) محمد يوسف نجم ، فن القصة ، ص ١٠٤

٢) شكري عياد ، الرواية العربية وأزمة الضمير العربي ، عالم الفكر ، المجلد الثالث ، العدد الثالث ، ١٩٧٢ ، ص ١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الجدير بالذكر أن المواجهة مع الحضارة الغربية بالنسبة للبدل الروائي تمتاز بالشمول والتنوع، ويصعب الوقوف عند تفصيلاتها الكثيرة.

ولعلّ ملاحقة التفصيلات الكثيرة، داخل الحقل الروائي، تحيل البحث الى نوع من السرد القصصي غير المنضبط. ولهذا فان الباحث وقف في بداية الفصل عند أمرين:

أولهما التصور المسبق عن الحضارة الغربية في ذهن البدل الروائي العربي؛ وثانيهما لحظة اللقاء مع الحضارة الغربية ومشاعر هذه اللحظة:

أما محور هذا الفصل فهو: كيف كان سلوك البدل الروائي في مواجهة الحضارة الغربية؟

وقد تناولت تحت هذا العنوان ابرز مظاهر هذا السلوك التي تجلت في:

١. العزلة.
٢. الازدواج.
٣. المثالية.
٤. التوازن.
٥. التمرد والانطلاق.
٦. فقدان التوازن والاضطلال.
٧. القلق والشعور بالغربة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتوضيحا للأمرين الأول والثاني أقول : تنفرد بعض الروايات التي تحدثت عن البطل الروائي العربي في مواجهة الحضارة الغربية بالحديث عن التصور المسبق ، في حين أغفلت الروايات الأخرى الحديث عن مثل هذا التصور. فمن الروايات التي تحدثت عن موقف البطل الروائي العربي المسبق من أوروبا وحضارتها رواية " أديب" لطه حسين ، " و" قنديل أم هاشم" ليحي حقي ، و " الحي اللاتيني" لسهيل ادريس، و " الجوع" لغضر نبوة و " بدوى في أوروبا" لجمعة حماد ، و " الخاطأ والينبوع" لفاضل السباعي .

ومن الطبيعي أن لحظة اللقاء مع الحضارة الغربية تحتوى على مشاعر عديدة ، متنوعة ، متناقضة في كثير من الأحيان ، لأن هذه اللحظة موقف حضارى يؤثر في صياغته عوامل كثيرة .

ومن أهم العوامل التي تضطلع بتشكيل طبيعة اللحظة الحضارية تلك ، التصور المسبق عن طبيعة هذه الحضارة ، وعن طبيعة التوقعات التي ينتظرها البطل الروائي بعد المواجهة . فهذا التصور يشكل جزءا غير قليل من طريقة مواجهة الحضارة الغربية وكيفية التعامل معها .

وقد تضاربت هذه التصورات ، وتناقضت ، وكان مرّد ذلك الى طبيعة تكوين البطل الروائي نفسه ، وطبيعة علاقته بوطنه : فلقد كان الغرب يمثل بالنسبة لأديب ، بطل رواية طه حسين التي تحمل الاسم نفسه ، خلاصا مما هو فيه من واقع سيء ، وتحقيقا له من طبيعة الحياة التي يحياها ، وحلما جميلا ، ولهذا كان حريصا على تحقيق هذا الحلم ، والتماس كافة الوسائل التي تساعد على الاسراع فيه : فهو يطلب من الراوية في الرواية أن يتحدث الى أصحاب الجاه وأعضاء الجامعة ليستعجلهم في بعثته (١) .

---

(١) طه حسين ، أديب ، ص ٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد بيد و أن الالحاح على نيل هذه البعثة أمر طبيعي مشروع، من حق أديب أن يسعى اليه طالما أنه كفء. ولكن الدراسة لم تكن غايته، أو على الأدق، لقد كانت الدراسة اطارا وضع فيه أهدافه ونواياه الأخرى.

وهنا يترافق صوت أديب مع صوت الراوية " كان يريد أن ينفق حياته موظفا يثقف نفسه ثقافة جديدة في كل يوم، ويلتمس لذته في القراءة والكتابة والحديث، فأصبح أشد الناس بغضا لديوانه، وزهدا في عمله، ورغبة في أن يهجر مصر ويعبر البحر، الى بلد من هذه البلاد التي يطلب فيها العلم الواسع والأدب وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه.

وأصبحت وأنا أشد انصرافا عن الأزهر ونفورا من دروسه وشيوخه، وحرصا على أن أهجر مصر وأعبر البحر، الى بلد من هذه البلاد التي يطلب فيها العلم الواسع والأدب الراقي، وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه.

ولم يكن لصاحبي ولا لي اذا التقينا حديث الا هذه الهجرة وأسبابها والا هذه الا علام العريضة البعيدة التي لا حدّ لها." (١)

وهذا التصور المسبق لطبيعة العلاقة مع الغرب، يوضح لونا من تحديد العلاقة بالوطن والغرب على حد سواء. فالذهاب الى الغرب يعني الخلاص على شتى المستويات، فهو خلاص على الصعيد الثقافي والفكري حيث العلم الواسع والأدب الراقي، ومن المهم أن نتنبه الى وصف العلم بالاتساع والأدب بالرقي فهذا يعني أن ما في مصر من علم وأدب ليس واسعا ولا راقيا. وهو خلاص حياتي لأن الحياة هناك (في الغرب) تتغير من جميع الوجوه.

من هنا كان الحديث عن الذهاب الى فرنسا يستنفد أحاديثهما، ويحتل جانبا عريضا من أحلامهما.

---

(١) طه حسين، أديب، ص ٤١، ٤٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس من قبيل المصادفة أن يردد أديب والراوي معـــا جملا متشابهة مثل " يهجر مصر"، و " يعبر البحر". فهي جمل تعبر عن ضيق بحياة الوطن، وبرم بها، وتحلم بالأنفراج؛ هذا الانفراج الذي تمثله جملة " يعبر البحر"، والتي تحتاي مدلولا واسعا عميقا، فان عبور البحر على المستوى التاريخي يعني النجاة والخلاص مـــن الدمار والهلاك..

ويمثل الغرب خلاصا وتطهيرا أيضا بالنسبة لبطـــل " الحي اللاتيني". فلقد كان الذهاب الى باريس يمثّل بالنسبة له حلما وأمنية ووعدا بحياة جديدة مليئة بالانطلاق والتجدد، وكانت صورة الحي اللاتيني " المتخيلة تملأ أفكاره ومشاعره، فتضرب دون كل ما سواها غشاوة كثيفة... عما قليل سيكون في الحي اللاتـــيني، سيتحقق الحلم المستحيل، بعد روح قصير ستبدأ الحياة التي ما انفك يعيشها في الخيال منذ أن تهيأت له أسباب السفر الـــى باريس." (١)

فصورة الغرب في ملامح الرواية نقيض لصورة الوطن، فلقد كان يعيش في الوطن حياة مليئة بالرتابة والجمود، ويشعر أنّـه يمثل " شيئـا فارغا يعوزه الامتلاء والكثافة، صدفة جوفاء ملقاة على رمل الشاطئ"، عودا فارغا من القش تتقاذفه بلا عناد مياه نهر صاخب وكان اذا حاول في فترة وعيه تلك أن يضع نفسه في موضعها من حياة مجتمعه، تفاقم شعوره بالتفاهة والفراغ، شيء لا قيمة له، بل لا شيء." (٢)

---

(١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ١١

(٢) المصدر نفسه، ص ٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذا الاحساس بفقدان الهوية، وفقدان التميز الفردي، وتفاقم شعوره بالفراغ وتفاهة الحياة في الوطن، هو الذي جعل رحلته الى فرنسا تمثل بالنسبة له " أن تمتلئ" الصدفة بمعنى من معاني الحياة، أن يقاوم عود القش تيار المياه الصاخب، شيء من هذا القبيل يريد أن ... بل هو لا يدري ما يريد ."[١]، فالذهاب الى الغرب يمثل بالنسبة لهذا البطل الروائي محاولة لاكتشاف ذاته الضائعة، ويجهد هو في سبيل أن يرد الى نفسه تميزها وذاتيتها المسلوبة.

أما كريم بطل رواية خضر نبوة " الجوع" فان السفر يشكل بالنسبة له حلما به تتغير حياته الى الأفضل، وخلاصا من حالة الفقر التي يعيشها فهو فقير " لا يحمل الا خمسة آلاف فرنك ومع ذلك يريد أن يسافر الى فرنسا."[٢] ولهذا غادر الوطن بشكل غاضب يكشف عن طبيعة نظرته الى الحياة فيه فلقد " كان من الغضب بحيث يخشى على نفسه أن يفقد وعيه."[٣]، بل ان فكرة الانتحار راودته في اللحظة الأخيرة، فكان ذهابه بديلا عن الانتحار السريع " كانت شفرة الحلاقة تلتمع فوق حافة المغسلة في عيني كريم بريق خاطف، وامتدت اليها يده بصورة لا شعورية، وكان يعتقد بأن حركة سريعة كافية لقطع عروق القلب، ولكنه حينما فكر ثانيا بالأمر عدل عن تحقيقه، فأعاد الشفرة الى المغسلة، وقد صمم أن يتسلح بالصمت."[٤]، ولقد كان يحلم بالحصول على عمل في فرنسا، يؤهله للدراسة هناك، ويستطيع أن يخصص لأهله راتبا شهريا منه، فغادر لبنان وهو يحمل خمسة آلاف فرنك، مما يدل على أنه مطمئن الى صدق تحقق هذا الحلم.

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٦، ٧

٢) خضر نبوة، الجوع، ص ٨

٣) المصدر نفسه، ص ٧

٤) المصدر نفسه، ص ١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأفكار المسبقة التي تردد ت عند أبطال بعض الروايات أن مواجهة الغرب تحتاج الى استعداد وتهيؤ . ويختلف هذا الاستعداد من بطل روائي لآخر : ففي "أديب" يستعد البطل لمواجهة الحضارة الغربية ، بتطليق زوجته ، استعدادا لاقتناص متع الحياة الأوروبية ، د و ن أن يؤنبه ضميره على فعلته . ويبرر ذلك بمنطق أخلاقي ، فهو لا يريد أن يكذب على زوجته ، وأن يزعم أنه وفي لها ، بينما هو يخونها . ولهذا يعلن أنه لن يقاوم الحياة الأوروبية وآثارها في نفسه كما ينبغي للرجل الوفي لزوجه أن يقاومها " فأنا واثق يا سيدى أني سآثم وسأنغمس في الخطايا وأنا أريد أن أحتمل وحدى شرّ هذه الخطايا وأنا أبيح لنفسي أن أكذب على الحامعة ولكني لا أبيح لنفسي أن أكذب على امرأتي كذبا متصلا فأزعم أني وفي أمين على حين أني غرقت في الخيانة الى أذني "(١)

فأديب يريد أن يكون متحررا من كل القيود التي تربطه ، في مواجهة الحضارة الغربية ليغترف منها بالطريقة التي يشاء .

أما سويلم بطل رواية جمعة حماد " بدوى في أوروبا " ، فيأخذ الاستعداد عنده لمواجهة الحضارة الغربية طابعا آخر ، يتمثل في اتقان واستيعاب وسائل التعامل مع الحياة الغربية . ومن الجدير بالذكر أن هذه الرواية تنفرد بالحديث عن مثل هذا الاستعداد ، من بين جميع الروايات التي تحدثت عن فكرة أبطال الروايات المسبقة عن الغرب وطبيعة العلاقة معه . وسبب ذلك يرجع الى كون بطل الرواية غير متعلم ، فهو بدوى لاجئ من بئر السبع ، لم ينل قسطا من التعليم ، ولهذا يجرى مراسيم استعداد شكلي

---

(١) طه حسين ، أديب ، ص ٨٣ وانظر ص ١١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أشبه بالدروس السحرية التي يتعلمها الانسان في سبيل الاقدام على عمل له من الخطورة قدر كبير: فسويلم يذهب الى سعيد - أحد أدلاء السياحة في القدس - فيعلمه هذا كيف يلبس (البدلة) وربطة العنق، وكيف يجلس على الكرسي لتناول الطعام، وكيف يستعمل الشوكة والسكين، وكيف يستحم ويستخدم المنشفة، ثم كيف يستخدم أدوات الحلاقة، ومعجون الأسنان، والفرشاة والصابون، وكيف يلبس الجرابات." (١)

ومما يكشف عن الطبيعة النظرية التي أشرنا اليها، أن سويلم كان يعتبر هذا التعلم ضربا من الواجبات التي لا بدّ منها في سبيل الارتفاع الى مستوى مواجهة الغرب.

" وكان يعود بين الحين والحين الى صديقه سعيد ليعلمه أشياء جديدة، من عادات القوم وتصرفاتهم في المأكل، والمشرب، والملبس، أو ليشحنه من جديد بالتشجيع والجرأة.

وكان كلما أراد أن في مجلسه في بيت سعيد أحضر له هذا الصندوق الجلدي وأخرج منه البدلة المعهودة، وأجرى سويلم التمرينات اللازمة للبسها وخلعها وتعليقها دون خطأ او ارتباك، وكأنه خلق لها أو خلقت له، وكان بين الحين والحين يتناول الشوكة والسكين يقطع رغيف الخبز بهما اربا الى أن تعودت يداه على استعمالهما دون أن ترتجفا أو تضطربا." (٢)

أما اسماعيل بطل رواية يحيى حقي " قنديل أم هاشم" فقد كان " يحمل في أمتعته قبقابا، فقد سمع الشيخ رجب أن الوضوء في أوروبا متعذر لاعتياد الناس لبس الأحذية في البيوت." (٣)، ولكن هذا الاستعداد يكشف

---

(١) جمعة حماد، بدوي في اوروبا، ص ص ٢٦ - ٣٠

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٩ - ٣٠

(٣) طه حسين، أديب، ص ٨٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن البيئة الوسط الديني الذي كان اسماعيل يعيش فيه، أكثر مما يكشف عن طبيعة اسماعيل الفكرية نفسها. فظلّ هذا الاستعداد الديني شكليا كعلاقة القبقاب بالوضوء نفسه.

ومن الأفكار التي تتردد في الحديث عن مواجهة الحضارة الغربية اعتقاد بعض أبطال الروايات أن هذه المواجهة تشبه الاقدام على المجهول. وهذا يعني أن مشاعر غامضة تسيطر على نفسية الشخصية الروائية يخلقها الخوف من مواجهة حياة جديدة ذات مقاييس جديدة، والبائع يختلف عن البائع الحياة في الوان كل الاختلاف:

فأديب يخشى هذا السفر ويرى فيه نوعا من الموت، ولهذا نراه يقول: "وأنا أكره الوداع، وأرى في السفر كما يقول بعض شعراء الافرنج نوعا من الموت ولا أحب أن أتلقى الموت مهما يكن يسيرا على علم به وانتظار له واشفاق منه وانما أوثر أن يفاجئني مفاجأة، وأن يختلفني اختلافا."(١)

أما اسماعيل بطل رواية "قنديل أم هاشم"، فتتحرك في نفسه مشاعر حزينة لأن "لحظة الانتزاع من الأسرة والوطن لمواجهة الغربة والوحدة والمجهول تغشى أعصابه وتهصر قلبه."(٢)

ويشترك سامي بطل رواية محمد عبد "المتميّز" مع اسماعيل في سيادة الحزن على نفسه، فلقد حرك السفر مشاعره الدفينة "لا أنكر أني حزين أيضا، فأنا لا أعرف ما الذي ستأتي به الأيام. هل سيطول سفري سنين أم سيستمر الى الأبد."(٣)، ويستشعر سويلم نوعا من الرهبة في قرارة نفسه "من المغامرة بالذهاب الى بلاد غريبة."(٤)

---

١) طه حسين، أديب، ص ٨٤

٢) يحي حقي، قنديل أم هاشم، ص ٨٠، ٨١

٣) محمد عبد، المتميز، ص ٢٦

٤) جمعة حماد، بدوي في اوروبا، ص ١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن هذه الرهبة تمتزج بقليل من الطمأنينة عند سويلم، نظرا لعناية صديقه الألماني (عبد الله) به ورعايته له.

" شيء فيه من الرهبة مثلما فيه من الطمأنينة، انه مشوار الى المجهول الذى لا يعرف ما وراءه الا الله." (١)

ومن الأفكار المسبقة عن الحضارة الغربية انشغال البطل الروائي وتمنيه النفس بالحصول على المرأة الغربية هناك. ولعلّ هذا الانشغال يدفع البطل الروائي الى أن يسارع الى تحقيق هذا الحلم.

ولقد أشار سعيد بطل رواية عيسى الناعورى " ليلة في قطار" الى هذه القضية قائلا " والذين يجيئون من بلادى الى الغرب، ألا يجيئون وأول برامجهم هو المرأة، الحرية الجنسية، الهرب من الكبت ومن الرقابة الاجتماعية الصارمة، الا يخفي الكثير منهم عن الغربيات حقيقة زواجهم وأبوتهم ليكونوا أكثر حرية معهن ؟" (٢)

ولهذا كان الحصول على المرأة هاجسا دفع أديبا الى أن يطلق زوجته، لأنه يتوقع أن تغريه المرأة الاوروبية بجمالها، وأن تفتنه، فاستعد لذلك " اني سأتعرض للفتنة اذا عبرت البحر، وأن بعض الجمال سيمس قلبي وأن بعض الجمال سيستهويني وأن بعض الشر سيدفعني الى شيء من الغي." (٣)

أما اسماعيل فهو يعلن عن رغبته في الحصول على المرأة، من موقع الانسان الجائع الى جسد ما فهو " حتى اليوم لم يزل طاهرا عفيفا، لم يقترب من امرأة، وانه لكاذب ـ واسماعيل لا يكذب ـ اذا أنكر أنه جوعان الى فتاته السمراء، الى النساء جميعا، ولا سيما أخيرا الى نساء اوروبا." (٤)

---

١) جمعة حماد، بدوى في اوروبا، ص ٢١

٢) عيسى الناعورى، ليلة في قطار، ص ١٤٥

٣) اله حسين، أديب، ص ١١٣

٤) يحي حقي، قنديل ام هاشم، ص ٧٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعلن بطل رواية " الحي اللاتيني " عن رغبته في الحصول على المرأة الغربية، وعن حلمه في الوصول اليها . بل هو يعلن أن مجيئه الى فرنسا لم يكن الا من أجل الحصول عليها ، وفرارا من واقعه نحو المرأة في الشرق " أجل شرقك لم يخرك بالهرب منه سوى خيال المرأة الغربية، سوى اختفاء المرأة الشرقية في حياتك الا أن تأمل في بسمة لا تزيد الحرمان الا حرمانا . "(١)

ولهذا كانت أحلامه تخيل له أنه يستطيع الحصول على المرأة الغربية بسهولة ويسر، ويستطيع التقاطها وقت يشاء . فكان عدم تحقيق هذا الحلم صدمة عنيفة " تبحث عنها ، عن المرأة ، تلك هي الحقيقة التي تنساها بل تتحاشاها .

لقد أتيت الى باريس من أجلها ، والآن رأيت انك كنت مخدوعا عن نفسك ساعة كنت تتصور أنهن كثيرات هنا ، وأنه يكفيك أن تسير في الطريق ليتهافتن عليك ويحدثنك حديث الهوى . "(٢)

* * *

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني ، ص ٢٨

٢) المصدر نفسه، ص ٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انّ هذه التصورات للغرب تؤثر على لحظة مواجهة البطل الروائي للحضارة الغربية، لأنّ هذه اللحظة جماع لمشاعر متنوعة، متباينة، وهي مليئة بالعفوية في كثير من الأحيان.

ومن الطبيعي أن هذه اللحظة قابلة للتغير بالنسبة للبطل الروائي، ولكن أهميتها تكمن في أنها ترينا الفرق بين العفوي من السلوك، والمقلية غير الخاضعة لتأثير الحضارة الغربية بعد، وتنبه الى طبيعة التغير الذي حصل في الشخصية الروائية بعد الاحتكاك بحضارة جديدة، ومقدار التغير في سلوكها من جراء ذلك.

من هنا فان المواجهة مع الحضارة الغربية تفرز مشاعر جديدة، هي محصلة للقاء هذا التصور المسبق مع عالم جديد. فمن المعروف أن التقاء العربي بهذه الحضارة يجسّد على المستوى الحضاري، التقاء حضارتين لهما ظروفهما التاريخية والاجتماعية والنفسية المتباينة، وينتج عن هذا اللقاء في كثير من الأحيان اعادة نظر في بعض جوانب الشخصية الروائية كقيمها وسلوكها. وتتولد مشاعر مختلفة ازاء الصدمة الحضارية التي تواجهها الشخصية الروائية، ومن هذه المشاعر:

أ. الحنين الى الوطن: فلقد حملت بداية الاحتكاك بالحضارة الغربية بعض أبطال الروايات على الالتفات للوطن وتذكره، والحنين اليه سواء أكان هذا الحنين يتمثل في اثارة قضايا جماعية عامة أم في الحديث عن ذكريات شخصية خاصة. والروايتان اللتان تحدثتا عن هذا الانشداد الى الوطن والماضي في لحظة المواجهة الحضارية تشتركان في أن بطليهما يشعران بضيق شديد من العيش في الوطن: هما "أديب" و "الحي اللاتيني"

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأديب ، وبلل " الحي اللاتيني " يشعران بكراهية الحياة في الوطن وينتظران بفارغ الصبر لحظة اللقاء مع الحضارة الجديدة .

وهذه هي المفارقة في هذا الحنين ، فالمفروض أن تكون هذه اللحظة نقطة تحول يبتر فيها البطل الروائي علاقته بالماضي لأنه سعى سعيا حثيثا الى التخلص منه . ولهذا فانّ الحنين الى الوطن قد يكون نوعا من اتقاء الصدمة الحضارية ، باللجوء الى الماضي والاعتصام به ، بسبب شعور الشخصية الروائية بالخوف والرهبة من الحياة الجديدة . ومما يؤكد هذه الحقيقة أن اندماج الشخصية الروائية بنجاح في الحياة الجديدة يقلّل من هذا الحنين وربما يجعله يتلاشى .

فأديب في بداية الرحلة يسيطر عليه الماضي في جميع مناحي حياته " أحاول أن أتمثل السربون فلا أرى الا جامعتكم المصرية وأحاول أن أتمثل رفاقي من الفرنسيين ، فلا أرى غيرك وغير أصحابك الشيوخ ، ثم أحاول أن أتمثل جمال باريس فلا أرى الا القاهرة ، وأحاول آخر الأمر أن أضلل نفسي وأعللها وأمنّيها الأماني الآثمة ، أحاول أن أتمثل المرأة الباريسية فلا أرى الا حميدة قائمة أمامي كهيئتها يوم كانت تستعد للرحيل في بكاء متواصل وسمت عميق سهما أفعل لأنظر الى الأمام فأنا مكره على أن أنظر الى الوراء . " (١)

انّ هذا العجز عن مواجهة الحاضر سبب انكفاء نحو الماضي جعله يؤنب نفسه ويلومها على السفر حتى كاد يهمّ بالرجوع " ليتني سمعت لك وليتني قنعت بما كنت أنعم به في مصر ، فما أظن الا أني مقدم على

---

(١) طه حسين ، أديب ، ص ١٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سراب أحسبه ماء حتى اذا بلغته لم أجده شيئا ."(١)

ثم يحاول أديب أن يأخذ في بداية الرحلة ببعض التقاليد الغربية بغية الخروج من أسر الماضي ولكن محاولته تفشل فشلا ذريعا ، ولكن هذه المشاعر بدأت تتلاشى قليلا قليلا ، بعد فترة قصيرة من المواجهة بسبب اندماجه في هذا الترف الحضاري الذي لقيه في مرسيليا ، تلك المدينة التي اعتبرها منطقة انتقالية بين الجو الافريقي الخالص والجو الاوروبي الخالص، واعتبر النزول فيها ضرورة لتفادي الصدمة الحضارية " فالانتقال الفجائي من جو الى جو خطر على صحة الجسم وقد يكون فيه خطر على صحة النفس."(٢)

من هنا تتضح طبيعة هذه المشاعر وتبين على حقيقتها ، فهي ليست أكثر من ذكريات حزينة انتابت أديبا ، لأن هناك ما يثقل ضميره ولكنها لا تلبث أن تزول سريعا كما أتت سريعا . ولذا تراه يقول : " ولست حمارا يا سيدي ، مهما يكن رأيك فيّ وفي ذلك الشيخ ، أو قل كنت حمارا قبل أن أعبر البحر فلما دخلت هذا الفندق ، وصعدت الى هذه الغرفة وأويت الى هذا السرير، نظرت فاذا أنا لم أبق حمارا واذا أنا قد مسخت انسانا أو قل صورت انسانا . . . يحسّ ويشعر ويعقل ويذوق لذة الجمال ."(٣)

لقد ذهبت تلك المشاعر الحزينة ، وذلك الحنين ، وتحول أديب حتى قبل أن تتغير أفكاره ، وكان سبب تحوله الفراش الوثير ، والفتاة ذات الوجه المشرق ، وهذا يعني أن شعوره بالحنين ازاء لحظة المواجهة لم يكن الا قشرة زالت سريعا .

أما الحنين عند بطل رواية " الحي اللاتيني " ، فلم يكن الا نوعا من تغيؤ ظلال الماضي ، ذلك الماضي الذي كان يبغضه ويتوق الى لحظة الخلاص منه ، فلقد كان يشعر في مجتمعه بالغربة وبفقدان الهوية والتميز الفردي ، وكان يرى في

---

١) طه حسين ، أديب، ص ١٢٥ ، وانظر، خليل محمد الشيخ خليل ، محاولة لقراءة جديدة لكتاب "اديب" ، الموقف الادبي ، العدد السادس، تشرين اول ، ١٩٧٥ ، ص ص ٩١ - ٩٤

٢) طه حسين ، أديب، ص ١٣٦

٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوصول الى باريس حلما ، وكان شعوره وهو يخطط لذهابه الى فرنسا شعور من يريد الذهاب لأداء فريضة الحج ، فهو يريد ان يتطهر "ليبدأ انسانا جديدا يستلهم الحياة شخصية جديدة ."(١) ، وهو يرى أن الحضارة الغربية قادرة على صياغته من جديد مثل هذه الصياغة. واذا أضفنا الى ذلك أن مجتمعه كان يحرمه من الحياة مع المرأة أى يمنعه من تحقيق ذاته الفردية، كما يعتقد ، أدركنا أن لحظة المواجهة ينبغي أن تكون كلها سعادة لا تشوبها شائبة.

ولكن بطل الرواية في بداية اللقاء يفزع الى أسرته يتفيأ في ظل علاقاتها الحياة الهانئة الوادعة. وسبب ذلك يعود الى فشله في اقامة علاقة مع المرأة الغربية التي تصور أنها موجودة على قارعة الطريق.

في هذه الفترة تصله رسالة من والدته فيقول :

" بأى ثمن قد ارتضى أن يهجر ذلك العالم الذى كانت كل أمانيه فيه تحت متناول يده ؟ وأى عالم جاف شديد القسوة يقذف نفسه فيه هنا فيشعر بأنه تائه لا يعرف دربه ولا يستشرف له غاية.

ووهنت نفسه حين قرأ في رسالة أمه وصف اجتماع للأسرة كان هو فيه مدار الحديث. أى مكان له في قلوب ذويه وما أحوجه الى أن يستشعر هنا مثل هذا الحب والتعلق والاخلاص.

لقد كان هناك يشرف على حدود عالمه فيعي قيمته فيه، أما هنا فعالم ضائع المسافات، يحس أنه لا يعدو أن يكون فيه أكثر من ورقة جافة من هذه الأوراق الكثيرة التي تسقطها ريح الخريف عن الشجر."(٢) ، انّ احساسه بالفشل في اقامة علاقة حب مع المرأة (وهذا يعني فشله في التكيف مع المجتمع الجديد ، باعتبار أنّ

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني ، ص ٦

٢) المصدر نفسه، ص ٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المرأة هدف من أهداف السفر)، نول ان هذا الفشل قلب الموازين عنده، وغير مقاييس الأشياء تغييرا جذريا بلغ فيه حد التناقض دون أن يدري.

فلقد شهد أنه كان عديم القيمة في وطنه وقومه ومجتمعه ويملأ حياته "ذلك الجمود الذي ملأ حياته بالروتين وغشّى فكره بغشاوة مايني الغبار يتكاثف عليها." (١)

فأصبح في لحظة الضيق يحن الى تلك الأيام، ويرفض الحياة الجديدة التي جاء اليها يسعى. ولكن مشاعره بعد الاستقرار العاطفي عادت الى طبيعتها فهو ينسى أن يرسل الى أهله رسالة، وينشغل عنهم ويرى أنه كان يعيش معهم في جو خانق "أكان يستطيع أن يخفي على ذويه وعلى أمه خاصة أي سرّ صغير ألم تكن حياته نهبا مشاعا لهم، أكان بوسعه أن يشعر بالاستقلال في حياته وبالحرية في مسلكه." (٢)

ولكن الحنين عند محسن بطل رواية توفيق الحكيم "عصفور من الشرق" يمتاز بخصيصة تختلف عن النموذجين اللذين تحدثنا عنهما. فالحنين يمثل حرص "محسن" على توكيد شرقيته ومثاليته في آن.

يفتتح الحكيم روايته بتصوير محسن يأكل بلحا في شوارع باريس،

"فصاح به أندريه

- تأكل بلحا

- نعم وفي شوارع باريس

- آه أيها العصفور القادم من الشرق.

- في مصر نسميه عجوة، هذا النوع من البلح، اني أتخيل نفسي الآن في ميدان المسجد بحي السيدة زينب وأتخيل هذه النافورة، ذلك السبيل بنوافذه ذات القضبان النحاسية." (٣)

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٦

٢) المصدر نفسه، ص ١٢٨

٣) توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص ١٥، ١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمحسن كما يبدو حريص على أن يؤكد فكرتين من خلال هذه الذكرى التي يتخيلها وتنساب في خاطره على شكل دفقة وجدانية حارة : الأولى هي انتماء محسن الشرقي وهو يتحدث عن هذا الانتماء بزهو، فهو يأكل بلحها (نعم وفي شوارع باريس) ليعني بذلك أنه قادر على تحدي الحضارة الجديدة، وعلى الجمع بين المتضادات على مستوى الحاضر ثم يقفز به الخيال الى ميدان المسجد بحي السيدة زينب ليكون حريصا على توكيد نزعته الروحية (أي أنه يؤكد ارتباطه بالشرق، باعتبار أن الشرق يمثل الروح والغرب يمثل المادة) بالفكر بعد أن جسدها من خلال هبات البلح .

ولا تخفى العلاقة الوثيقة بين التمر وبين المسجد ، فالتمر غذاء الجسد وهو ثمرة شرقية، والمسجد غذاء الروح .

أما الفكرة الثانية فهي تأكيد مثالية محسن فهو عصفور من الشرق وهذا اللقب الذي أطلقه عليه صديقه الفرنسي أندريه، يمثل فيما يمثل مثالية محسن، فهو عصفور والعصفور قد يرمز الى التحليق فوق الواقع والتعالي عليه، وقد يرمز الى الفن الذي يحمله، والفن في نظر الحكيم يحمل قدرا غير قليل من الخيال والمثال وهو أيضا من الشرق مصدر الروح والمثال والخيال معا .

فالحنين عند محسن هو شعوره القوي بذاته، ونزوعه الى توكيد تلك الذات أمام طغيان الحضارة الجديدة .

ب) الانبهار بالحضارة الجديدة :

تستثير المواجهة الحضارية في بدايتها أكثر ما تستثير شعورا بالمقارنة، وهذا الشعور يمثل نوعا من المحاكمة للماضي أمام الحاضر.

فمن البدهي أن يقال ان الغرب يمثل حالة حضارية أكثر تقدما على الصعيد التكنولوجي من الوطن العربي .

وهذا يعني أن المقارنة بين تقدم العرب والغرب في هذا المجال تنتهي لصالح الغرب، ولهذا رأينا بطل " الحي اللاتيني" يقارن، أول ما يصل، بين بلاده وبين باريس

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبخاصة الحي اللاتيني " شوارع فسيحة ليس في بلاده ولا في الشرق كله مثلها جمالا ونظافة وانتظاما ، وأبنية فخمة مرتفعة كأحدث الأبنية الكبرى التي بدأت منذ حين تنتصب في الشوارع الرئيسية من عاصمة وطنه ، ينبغي أن تكون هذه بلادا اسطورية العظمة حتى يستحق الطلاب فيها حيا كالحي اللاتيني ."(١)

فهذه المقارنة تنتهي كما لاحظنا لصالح الحضارة الغربية ، فيقف البطل الروائي منبهرا بهذا الذى وجده ويتحول الانبهار الى شعور لحظي بالسعادة " صحيح أنه استشعر الوحشة من هذه الجدران المسودة التي تطل على الشوارع.

ولكن شعور السعادة كان أقوى من أن تثبت له هذه الأحاسيس الغامضة الحزينة ."(٢)

فبطل " الحي اللاتيني" يقف موقفا مشابها لبطل رواية طه حسين " أديب " فما أن يصل الى الفندق في مرسيليا ويرى هذا التقدم في التنظيم والخدمات حتى يبدأ بالمقارنة بين حياته و في مصر وحياته الجديدة هنا " ونظرت فاذا الغرفة قد هيئت لاستقبالي ، واذا السرير هيء لا يوائي ، واذا دورق من الما ء وكوب قد وضعا على هذه المائدة الصغيرة التي تلي السرير. ما شاء الله ، ما تعودت مثل هذه العناية ولقد كان الظمأ يوقظني في الريف ، ولقد كان الظمأ يوقظني في القاهرة ، فما كنت أجد الى اتقائه سبيلا ، الا أن أتكلف النهوض والسعي الى حيث وضعت هذه الجرار الصغيرة التي كانت تبرد لنا الما ء."(٣)

فهو يقارن بين هذه الحياة الجديدة وما فيها من راحة ودعة وتنظيم بحياته الأولى في مصر وتنتهي به هذه المقارنة الى أن يعلن أنه كان حمارا قبل أن يعبر البحر ، فلما دخل الفندق الوثير وآوى الى ذلك السرير وانغمس في فراشه الوثير تحول من حمار الى انسان .

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني ، ص ١٢

٢) المصدر نفسه ، ص ١٣

٣) طه حسين ، أديب، ص ١٣٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذه الحضارة الجديدة بوسائلها التكنولوجية ردت اليه انسانيته التي سلبها الشرق، على الرغم من قلة خبرته بالحضارة الجديدة.

ويقف سويلم مصدوما من تقدم الغرب التكنولوجي الهائل، نظرا للبون الشاسع بين تكوين سويلم الثقافي والحياتي البدائي وبين معطيات هذه الحضارة الجديدة. انّ العلاقة بالغرب هنا تشبه علاقة سندباد بالأقطار التي كان يزورها، فهي تصل حد الخرافة التي لا تكاد تصدق. فسويلم في بداية الرحلة يلجأ الى مخزونه الثقافي، يحاول من خلاله أن يقرّب الواقع الجديد الى نفسه بغية التفاعل معه، والاقتراب منه. فلقد كان مقعد الطائرة بالنسبة له "لينا ككثيب الرمل فدفن نفسه فيه ليختبئ من الكارثة."(١)، وكانت انطلاقة الطائرة "كما تضبح الفرس في بداية الشوط وكما يصهل الحصان."(٢)، والطائرة نفسها كالفرس الأصيلة "كانت مبروكة وجرّبها وهي لا شك راكوبة أصيلة."(٣)

ولكنه في مواجهة التعقيد الحضاري لا يقوى الا أن يقف أمامه موقف المنبهر فلقد شعر "بعظمة هذه الآلة التي تحمله عبر السموات، ويحس أنه يتفرّج على أناس لا يستطيعون أن يتفرجوا عليه ويراهم من حيث لا يرونه، لقد أصبح ينافس النسور في ميادينها."(٤)

ولكنّ هذا الانبهار حلّ محله عجب لا يقلّ عنه قوة من عادات القوم الاجتماعية ومن سلوكهم، فهو مقرّ بتفوقهم الساحق في ميدان التكنولوجيا "لقد فاجأته الطائرة بعظمتها تجوب السماوات، وفاجأته الفخامة في المطارات، وأحس بذهول عندما رأى العمارات غير أن هذه الفخامة والعظمة ... لم يستقر أثرها طويلا في نفس سويلم، لقد أذهلته ثم نسي أمرها.

---

١) جمعة حماد، بدوي في اوروبا، ص ٣٧

٢) المصدر نفسه، ص ٣٧

٣) المصدر نفسه، ص ٤١

٤) المصدر نفسه، ص ٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان شيئا واحدا هو الذى ظل يثير دهشة مزمنة لا أول لها ولا آخر لقد كان هذا الشيء يتعلق بتصرفات القوم، بعلاقاتهم مع بعضهم البعض ذكورا واناثا ." (١)

ومن الضرورى أن نشير أن انبهار سويلم يخالطه جهل شديد بطبيعة هذا التقدم فهذه البلاد " مملوءة بأشياء غامضة لا يستطيع لها فهما ولا يجد لها سويلم تفسيرا." (٢)

من هنا فانّ هذا الجهل، جعل سويلم ينظر الى ما حوله نظرة سحرية لعدم مقدرته على التحصيل العلمي لطبيعة هذا التقدم، فعندما أخطأ في رقم غرفته في الفندق ودخل غرفة أخرى لم يخطر بباله أن هذا خطأ ولكنه أعاد ذلك الى أن الناس في اوروبا " يصنعون أبنيتهم على أساس متحرك فيكفي أن يهمز صاحبها زرا فتتحرك البناية لتشكل غرفا كما يشاء." (٣)

أما سعيد بطل " ليلة في قطار" وسهير بطلة رواية كوليت خوري " ومرصيف" فهما معجبان بالتقدم التكنولوجي في الغرب، ويجسدان هذا الاعجاب من خلال لقطتين فنيتين، دون أن يمثل هذا الاعجاب أكثر من دهشة عابرة.

فسعيد يصف لنا كيف ستقوم باخرة خاصة بنقل القطار من البحر الى البر " وتلك تجربة جديدة طريفة لم أعرفها من قبل، أن أكون في القطار، ويكون القطار داخل سفينة تتهادى به وبراكبيه فوق اليم من الشاطيء الصقلي الايطالي، تجربة لا شك ممتعة." (٤)، ويتخيل سعيد كيف ستشق الباخرة عباب البحر، والقطار بمن فيه فوقها " وهي تتهادى على ظهور الأمواج، كما تتهادى الهوادج على ظهور الجمال." (٥)

فسعيد يستعين لكي يتمثل هذه الصورة بنبش مخزونه الثقافي فأتت الصورة موغلة في البداوة.

أما سهير فتتحدث عن النفق المتحرك في المطار بعدة كلمات تعبر فيها عن اعجابها دون أن يمثل هذا الاعجاب قيمة كبرى بالنسبة لها لأنها مشغولة بالدكتور يوسف

---

١) جمعة حماد، بدوى في اوروبا، ص ٨١، ٨٢

٢) المصدر نفسه، ص ٦٢

٣) المصدر نفسه، ص ٦٢

٤) عيسى الناعورى، ص ١١

٥) المصدر نفسه، ص ١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استاذ الاقتصاد الذى تجرى له عملية في لندن " هذا النفق المتحرك في المطار بديع، لم تره سهير في القاهرة، قرأت عنه فقط، وهذه هي أول مرة تسير فيه."(١)

جـ - الاقدام على المجهول وحب الاستطلاع:

وهذا الشعور يتولد بعد المواجهة بفترة زمنية قصيرة، ليكون تعبيرا عن الضيق الذى يعيشه بطل الرواية.

وقد يتولد هذا الشعور من الاحساس بالرهبة وقد يتولد بعد الصطدام بطل الرواية ببعض المشكلات، وقد ينتج من شعور بطل الرواية بغموض ما يدور حوله. فعلي بطل رواية عبد الحميد جودة السحار " جسر الشيطان"، يحس بحاجته الى استكشاف هذا العالم الجديد الذى ينزل فيه لفترة قصيرة ويحرص على أن يطلّ على هذا العالم متسلحا بوعيه " ولمح على البعد الأنوار الكهربية الناصعة البياض، والخضراء والزرقاء والحمراء، تكاد تبهر بصره، فأحس نشوة. انه على حافة عالم مجهول مسحور لا يدرى عنه شيئا وبعد لحظات سيوغل فيه بحواس متفتحة ويصيخ السمع حتى يصغي لنبضات قلبه."(٢)

ولقد دفعه احساسه بغموض العالم من حوله، الى أن يقوم باستكشاف ما حوله فركب السيارة الى حي ريبريان وأخذ يتجول فيه تجولا سياحيا عاما، فدخل مطعما، ومحلا زاخرا بالعاب التسلية، وملهى ليليا، واستعرض ملهى آخر اسمه " كازينو دى باري" ثم ذهب الى شارع سان باولي حيث البغايا والساقطات، ثم عاد الى ريبريان ووصف ما رآه بالتفصيل.(٣)

أما بطل "الحي اللاتيني"، فهو يشعر بتهيب مما هو مقدم عليه ولهذا يفضّل في البداية أن يعتزل الناس ويجلس في غرفته يقرأ فيها، " صحيح انك

---

(١) كوليت خورى، ومرّ صيف، ص ٣٥

(٢) عبد الحميد السحار، جسر الشيطان، ص ٧

(٣) المصدر نفسه، ص ص ١ - ٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ستلقى في وسط غريب لم تألفه ولكنك لن تلبث طويلا حتى تنصهر في بوتقته، على أن أمامك شرطا واحدا لن يكلفك كبير جهد، هو أن تخنق ذلك التهيب البليد الذى تتعثر به قدماك." (١)، فهو يستشعر في بداية قدومه الخوف ورغم أنه يحاول الانتصار في المظهر الخارجي الا أنه يظل يعاني صراعا داخليا عميقا.

وينبثق عن هذا الاحساس بغموض العالم، من حول البطل الروائي شعور آخر يدفعه الى أن يقوم باستكشاف ما حوله، بدافع حب الاستطلاع فعلي في "جسر الشيطان" استعراض المنطقة من حوله لكي ينقل لنا المؤلف عبر آرائه صورة مجسدة عن انحلال الغرب الخلقي وليكشف لنا بالمقابل نوعية سلوكه وليعطي المبرر الفني لتعرفه الى آني لينتقل بعدها من استعراض مكاني الى استطلاع نفسي عميق.

أما الاستعراض عند سعيد الطرابلسي بطل رواية "المهاجرون" فهو استعراض يختلف في نوعيته عن استعراض علي، فاذا كان علي يهدف الى التبشير بعقيدة يحملها ويتحمل في ذلك كافة الاغراءات، ويتخطى الصعوبات والعقبات، فالاستعراض عند سعيد الطرابلسي يمثل شيئا يتناسب مع طبيعة مهنته الصحفية، ومع طبيعة رحلته الى الغرب. وهذا الاستعراض كان مبررا فنيا أعطى سعيد الطرابلسي الفرصة ليدخل في عالم هؤلاء المهاجرين العرب. "الفضول وحده هو الذى دفع الصحفي اللبناني سعيد الطرابلسي الى كازينو "مونت كارلو" فلم يكن من المعقول أن يصل سائح الى مونت كارلو دون أن يزور الكازينو." (٢)

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٢٠

٢) سليم اللوزى، المهاجرون، ص ١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وطلب الراحة هو العامل الثاني وراء هذا الاستعراض " في برنامجي أن أقضي خمسة عشر يوما على الشاطئ الفرنسي ، يوما في نيس، وآخر في " كان"، وثالثا في " جوان لوبان" ورابعا في " سان تروبيز" وخامسا وسادسا وسابعا ، الى أن أشعر بالملل فأعود عن طريق روما ." (١)

أما رشا بطلة رواية كوليت خورى " ليلة واحدة"، فان شعورها بالوحدة والعزلة ، دفعها الى اتخاذ موقف اللامبالاة من الأشياء ظاهريا ، في حين تأخذ باستعراض ما يدور حولها باهتمام " كنت أنظر الى الجميع بعين ناقدة ومجرّدة ، فقد كنت وحيدة بين الجميع وغريبة ، وهذان العاملان اعطياني شعورا باللامبالاة واللامبالاة برأيي قوة ، قوة كبيرة ." (٢) ، فموقف اللامبالاة هذا طعم فني - جمالي لاجتذاب كميل ، الشاب الفرنسي السورى .

ولهذا أخذت تستعرض ما يدور حولها " لوحات حية تمر أمامي فتصبغها لامبالاتي بالسخرية وتسليني ." (٣) ، فتقف عند شاب أشقر يحوّم منذ لحظات حول فتاة ذات نظرات بريئة ملتصقة بأمها ، وتتأمل سيدة شقراء ترجح أنها سائحة أمريكية ثرية ، وتتعلق نظراتها بشابة ذات شعر أحمر في ربيع عمرها تتأبط ذراعي رجلين ، وتتساءل عن سرّ حزن شاب غارق في الويسكي ، وتتأمل جارها وتمعن في تحليل نفسيته ، فتعتقد أنه رجل سخيف ، لأنه متهالك على المال ، ثم تقف عند رجل أسمر يتحدث الى فتاة شقراء وتتأمله طويلا .

وتنتقل من طور التأمل بعد هذا الاستعراض الذى كشف لها الرقعة المكانية الى طور التجربة ، فلقد تعرفت الى ذلك الشاب الأسمر ، واعجبت بشخصيته

---

١) سليم اللوزى ، المهاجرون ، ص ١٣

٢) كوليت خورى ، ليلة واحدة ، ص ٤٦

٣) المصدر نفسه ، ص ٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القوية ، وأحبت اهتمامه الرصين .

انّ هذا الاستعراض يكشف عن رغبته في الانطلاق ، والتحرر من سلطان الماضي ، وما فيه من عزلة ووحدة .

فهي تريد أن تشعر أنها حرة متحررة من كل سلطان عليها ، ولا سيما سلطان الحياة الزوجية الثقيل . (١)

---

(١) كوليت خوري ، ليلة واحدة ، ص ص ٤٦ - ٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البطل الروائي في مواجهة الحضارة الغربية

هذا هو الموضوع الذى شغل كتاب الرواية العربية، وهو أمر منتظـــر اذ من الطبيعي أن تحظى تجربة الكاتب في البلد الغريب، بعد اقامته فيه زمنا ، بعناية خاصة. وقد تنوعت ردود فعل أبطال الروايات، تنوّع الكتاب في نظرتهـم لهذه الحضارة التي خبروها وجربوها .

ونحن نلاحظ أن البطل الروائي بعد فترة طويلة من المواجهة ينتقـل من طور الى آخر. فسلوك الشخصية الروائية، اثر صدمة المواجهة الأولى هـــو ردّ فعل عفوى مباشر، لأثر هذه الحضارة عليه، وهذه المرحلةالتي تحدثنا عنها - تمثل الطور الأول .

أما الطور الثاني فهو سلوك البطل الروائي بعد أن أخذ يستقر، وتتضح معالـم الحضارة من حوله بتعرفه الى نواحيها المختلفة. وتتدخل عوامل كثيرة مختلفـــة في صياغة هذا السلوك وتوجيهه، ولكنّ أكثر العوامل أهمية في هذا المجال هـو ثقافة الشخصية الروائية لأنّ " الثقافة هي المسئولة عن الشكل الرئيسي للشخصية في أى مجتمع وباختلاف الثقافات تختلف أشكال الشخصية ."(١)

ولقد تباين سلوك هذه الشخصيات الروائية، بعد المواجهة الحضارية ونستطيع أن نصنّفه في عدة نماذج :

---

١) عاطف وصفي ، الثقافة والشخصية ، ص ٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ- العزلة ب- الازدواج جـ- المثالية د- التوازن هـ- التحرر والانطلاق و- فقدان التوازن والاختلال ز- القلق والشعور بالغربة.

أ- العزلة:

نعني بالعزلة أن يقف البطل الروائي من الأشياء التي حوله سواء أكانت مادية أم معنوية - لأسباب كثيرة - موقفا سلبيا. وبتفاقم هذه السلبية وتزايدها، تكون النتيجة مفضية الى العزلة، ومن البد هي أن يكون لهذه العزلة ما يبررها على الصعيدين الفني، والموضوعي في الرواية.

وهذا يعني أنّ البطل الروائي يصل اليها بعد احتكاك وتجربة، دون أن تكون عزوفا يمثّل موقفا مسبّقا يقرر البطل الروائي اتخاذه قبل المواجهة. ولذلك فان العزلة قد لا تعني رفض الحضارة الغربية أو كراهيتها بل هي تمثل حالة من حالات الفشل في التعامل مع الواقع الجديد. فلقد كان الغرب يمثل بالنسبة لأديب وكريم بطلي رواية "أديب" و "الجوع" خلاصا حياتيا، فهما ذاهبان الى فرنسا بروح من يطمع في تغيير حياته وقلبها رأسا على عقب. "أديب" كان يطمع أن يغيّر حياته بالعلم الواسع والأدب الراقي، وكريم يأمل أن يتخلّص من حياة البؤس والشقاء في لبنان فيعمل في مونبيلية، ويدرس الهندسة الزراعية.

ولكن كلا من البطلين الروائيين، انتهى الى مصير واحد وهو المرض، فالجنون، (هو عند أديب واقع، وعند كريم تهمة الصقت به) فالموت. واذا كان البطلان الروائيان يتشابهان في طبيعة الهدف من الذهاب الى فرنسا، وفي طبيعة المصير المشترك، فهما يختلفان في كيفية الوصول الى النتيجة، وفي أسباب الوصول اليها. فلقد كانت تجربة أديب تفصح عن شخصية تمتاز بالمزاجية الحادة، وهذه المزاجية حالت بينه وبين الرؤية الموضوعية للأشياء.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو مضطرب في أحكامه وفي علاقاته وفي فهمه للأشياء.

وهو شخصية متناقضة لا تعرف شيئا يمكن أن تقف عنده دون أن تتشكك به في اللحظة التي تؤمن به أشد الايمان ولهذا فهو " مضطرب حين **أفكر**، ومضطرب حين أعمل وأنا مضطرب حين أقول، والغريب اني أستطيع مع هذا الاضطراب كله، أن أتبيّن لحياتي وحدة، وأن أتبيّن لها طريقا." (١)، وتتمثل هذه المزاجية في نواح كثيرة من حياته، ففي الوقت الذى يكون فيه مقبلا على الحياة الغريبة بفرح عميق، ويعلن عن رغبته في البقاء مع فرنند في مرسيلية عدة أيام، تراه ينتقد نفسه بمرارة قائلا: "اني لا أرى نفسي انسانا ولا أعرف أى نوع أنا بين الأنواع الخسيسة الدنيئة من الحيوان." (٢)

ولقد قادته هذه المزاجية الى لونين متناقضين من السلوك هما:

واللهو والافراط فيه، والجد والافراط فيه.

ولهذا يفرط في اللهو مع فرنند في "كان" فيعود الى باريس "مريضا مشرفا على أعظم الخطر وأشده نكرا." (٣)

ويفرط في اجتهاده واقباله على التحصيل ويجد "في الدرس جدا غير مألوف، ويظهر من التفوق ما لم يألفه الأساتذة الفرنسيون من الطلاب المصريين." (٤)

وظل يتنقل بين هذين اللونين من السلوك مقسّما جهده موزعا وقته "فللعلم شطر منهما، وللهو شطر آخر." (٥)

ولقد تفاقمت هذه الحالة بعد قيام الحرب العالمية الثانية، فازدادت حياته اضطرابا، نظرا للاضطراب العام في الحياة من حوله. ثم بقي في باريس بعد أن

---

١) طه حسين، أديب، ص ١١١

٢) المصدر نفسه، ص ١٤٤

٣) المصدر نفسه، ص ١٤٨

٤) المصدر نفسه، ص ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢

٥) المصدر نفسه، ص ١٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هجرها أهلها ، وتبدلت أطوار حياته تبدلا عنيفا . وتوزع بين حالتين نفسيتين شبيهة بحالة الفصام " فصاحبي محزون مغرق في الحزن حتى ليفسد عليك رأيك في الحياة ان لقيته في هذا الطور ، وصاحبي مسرور مغرق في السرور حتى ليثير في نفسك الاشفاق عليه من الاغراق في السرور . . . وصاحبي يتنقل من الحزن الى السرور ، ومن السرور الى الحزن ، فجأة في غير تهيؤ ، ولا تدرج ، ولا انتظار لهذا الانتقال ، وانما أنت مع رجل بائس يائس سيء الرأى في الحياة والأحياء . . . واذا أنت ترى هذا الرجل قد وثب فجأة من نقيض وأصبح فرحا فرحا منطلق اللسان بالثناء على كل أحد وعلى كل شيء ممتلىء الفم بهذا الضحك المزعج المريض "(١)

فهذا التنقل بين حالات نفسية متباينة قادة الى الاضطراب العام في مناحي شخصيته المختلفة ، وفي علاقاته مع الناس. وهذا الاضطراب أسلمه الى العزلة . . . وهذه العزلة قادته الى الجنون . فقد سيطر عليه وهم كبير ملأعليه ذاته وهو أنّ الصحف الفرنسية مجمعة على كراهيته لأنه ألماني ، وما تذكره الصحف من نقد لألمانيا موجه لشخصه ، وأنّ الفرنسيين مجمعون على نفيه الى المغرب الأقصى وتنتهي الرواية بموت أديب.

فهذا المصير الذى آلت اليه تلك الشخصية الروائية يعود بعضه الى تكوينها المتميّز ، فانّ ما فيها من ذكاء حاد ، وطاقات مبدعة " وتعال على الآخرين ونفرة من الجماعة "(٢) ، وما تتميّز بها من اضطراب ومزاجية حادة ، جعلت اقبالها على الحضارة الغربية يمتاز بعدم التنظيم ، وانعدام التوازن ، فأديب يريد أن يعبّ من بحر الحضارة الغربية ، دون أن يحاول فرز عناصر الخير والشر ، فاقدا القدرة على التوفيق بين عصريته وبين الحضارة الجديدة .

---

١) طه حسين ، أديب ، ص ١٧٦

٢) أحمد هيكل ، الادب القصصي والمسرحي في مصر ، ص ١٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" فهو يمثل الرجل المنبهر بالحضارة الاوروبية والذى تلهفه للانغماس فيها يتخلّى عن كل قيمة السابقة ويصبح سابحا واهيا في محيطها اللامتناهي . ولهذا يكون الغرق الغرق مصيره ان عاجلا أو آجلا لأنه لا يسترشد بمبادئ راسخة ليسير عليها ." (١)

فهو يحمل في شخصه كثيرا من الفوضى والاضطراب، ويمتاز بذكاء حاد ولكنه يقول " لم أنشأ نشأة منظمة ولم تسيطر على تربيتي أصول مقررة، وانما كانت حياتي مضطربة أشد الاضطراب." (٢)

أما كريم فلم تكن النهاية التي وصل اليها ، الا محصلة للظروف التي واجهته في فرنسا ، فلقد كان يحلم بالحصول على عمل يستطيع به أن يدرس في المعهد الزراعي بمونبليه . وأن يبعث لأهله ببعض المال .

ولقد كان مطمئنا الى صدق تحقق تلك النبوءة ، ولهذا سافر الى فرنسا وهو لا يحمل الا مبلغا ضئيلا .

ولقد حشد الروائي كل العوامل التي أدت بالبطل الروائي الى هذا المصير. فلقد وصل الى مونبيليه شتاء ، ونزل في غرفة صديقه محمد ، وهي غرفة تخلو من التدفئة ." وكان كريم يرتجف متخرج كلماته بصعوبة وقد أزعجه ذلك بشكل غريب." (٣)

فأصيب صاحبه محمد بانفلونزا حادة ، وأصيب هو بالمرض نفسه ، فكانت مشكلة المرض هي المشكلة الأولى ، أما المشكلة الثانية فكانت مشكلة السكن ، ولقد استطاع كريم أن يجد لها حلا مؤقتا ، فلقد نزل ضيفا على صديقه ، ثم انتقل الى بيت سليمان (أحد الطلبة اللبنانيين) الذى غادره وكان قد دفع أجرة شهرين مقدما ، ولقد وافق كريم ، بالرغم من بشاعة الغرفة وبرودتها ، ثم يفشل كريم في الحصول على عمل ، ويبعث لأهله يطلب منهم مالا فيعتذرون ، ثم يطلب

---

1) HIlary K ilpartrick, The modern Egyption novel, P. 37

٢) طه حسين ، أديب، ص ١٦٩ ، وانظر مقالة انجيل فانييه ، طه حسين واسرار الليل ، ترجمة وليد فستق ، مجلة المعرفة السورية ، العدد ١٥٣ ، ص ١٦٢

٣) خضر نبوة ، الجوع، ص ١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من أصدقائه أن يقرضوه، فيقرضه محمد قرضا ضئيلا ثم يمتنع الجميع عن ذلك، فلقد رفض محمد أن يقرضه "عشرة آلاف فرنك"[١]، ورفض فارس محتجا أنه أعطى كلود قرضا بخمسين ألف فرنك قبل أيام[٢]، ورفض شهاب الدين رئيس جمعية الطلبة اللبنانيين لأن "قوانين الجمعية لا تبيح الاقتراض من الصندوق."[٣]، وهنا تتفاقم مشكلته مع مدام كارل صاحبة المنزل، التي بدأت تعامله بشراسة ولؤم، كل هذه المشكلات أدت به الى العزلة، ولم تكن عزلته حبّا في التأمل والانفراد، ولكنها كانت عزلة فرضتها عليه ظروفه الاقتصادية فلقد انقطع عن الذهاب الى المعهد، ومن ثم اعتزل زملاءه، واعتزل الحفل الذي أقاموه لأنه لا يملك نفقات ولا يملك الثياب اللائقة لها."[٤]، وهذا الوضع الاقتصادي أدى به الى أن يكون في وضع نفسي حرج أمام زملائه وأمام نفسه، فهو متهم "بأنه فتى منعزل."[٥]، ويقال عنه بأنه "مسكين ذلك الفتى فهو يعاني جنونا"[٦]، أو لعلّ الاغتراب أثر على عقله فتحول الى شخص شارد مهمل لأصحابه ولنفسه.

فهذا الوضع الاقتصادي أدى به الى اعتزال الناس وصار يشعر بأنه يعيش غريبا في مدينة غريبة."[٧]، وتبرز مشكلة جديدة وهي عطلة الجامعة الربيعية، لمدة اثني عشر يوما، وهذا يعني اغلاق مطعم الجامعة.

ولهذا عانى الجوع طيلة هذه الفترة، واعتزل الناس وبدأت علاقته بالعالم تهتز، فأصيب بحمى التفوئيد، واستمرت الحمى والهذيان تتابع عليه.

يصله بعد فوات الأوان مبلغ من المال من أهله، ولكنه قبل أن يأتي به صاحبه من

---

١) خضر نبوة، الجوع، ص ١٢٢

٢) المصدر نفسه، ص ١٢٤

٣) المصدر نفسه، ص ١٤١

٤) المصدر نفسه، ص ١٢٧، ١٢٨

٥) المصدر نفسه، ص ١٣٤

٦) المصدر نفسه، ص ١٣٤

٧) المصدر نفسه، ص ١٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصرف يسقط في الشارع ميتا بالتفوئيد .

وهذا يعني أن فشل كريم، يبرر في قساوة الظروف التي واجهها : فقد واجه مجتمعا رأسماليا تختلف طبيعة العلاقات فيه عن طبيعة العلاقات في الوطن، بدون تخطيط واستعداد ، فأدت به هذه الظروف الى العزلة، فالمرض ، فالموت.

ب. الازدواج :

نعني بالازدواج أن يكون للبطل الروائي العربي سلوكان يناقضان بعضهما بعضا ويتعارضان، ولسنا نعني بذلك أن الشخصية الروائية يجب أن تكون مسطحة بدون أبعاد وبدون ذاكرة وبدون نمو. ولكننا نعني أن تكون الشخصية الروائية منسجمة في بنائها ، غير متناقضة في مفاهيمها .

أفرزت المواجهة مع الحضارة الغربية مثل هذه الازدواجية سواء على مستوى التفكير أم على مستوى السلوك، أم على الصعيدين معا ، فعلاء في ثنائية الجابري "قدر يلهو" و "قوس قزح" " لا هدف له في الحياة سوى الكفاح لتحرير بلاده ولا يعتز بشيء كمثل اعتزازه بأنه عربي في محيط غربي محض.

ولن يرضى قط أن يسجّل أمام اسمه سوري، أو غير ذلك. بل عربي ،عربي ، عربي . بل انه ليعتز باسلامه أشد الاعتزاز، فأعظم فخر للعروبة أن الاسلام قد جاء فيها.(١)

هذا ما قاله شكيب الجابري في احدى المحاضرات التي ألقاها ، ولكن الفرق بين رغبة الروائي ، وبين واقع الرواية شاسع. صحيح أن علاء يحاول أن يحمل هذه الافكار، ولكنه عند التطبيق يسلك مسلكا يناقض أفكاره تماما .

فالازدواجية التي يمثلها علاء تتمثل في عدم الوفاء للفكرة التي يحملها ، بسلوكه سلوكا مناقضا لها .

ففي بيت علاء في المانيا "على المنضدة قرب السرير مصحف صغير، مذهب حلّي

---

(١) شكيب الجابري، مجلة الثقافة الدمشقية، العدد الثامن، السنة الاولى، ص ص ٣٩ - ٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالنقوش العربية فكان أجمل ما في الحجرة وأشد ما فيها استثارة لاهتمام الغرباء واعجابهم." (١)

وتشهد له ايلزا (صاحبته الالمانية) قائلة :

" عرفتك مسلما تعجب بدينك وتحترم شعائره، وتقدس نهيك لشخصه قبل تقديسك اياه لنبوته، وتستعذب القرآن على أنه صوت الحق ورجع صدى الحياة، لا لأنه الكتاب الذى أمرتم بتقديسه وحبه." (٢)

فهذه المشاهد، بما فيها شهادة ايلزا تضع القارئ أمام حقيقة واحدة هي أنه أمام شخصية روائية متدينة، تجمع بين العقيدة والسلوك، ولكن سلوك علاء، أشبه بسلوك (الدونجوان)، فهو لا يكاد يستقر في علاقة نسائية.

وتشهد له ايلزا " أنه لكالنحلة لكل زهرة منها لثمة، ولكل روضة ساعة أو أدنى ولقد ألمّ بساحتي في لحظة مسكرة ثم استطار الى غير اياب." (٣)

ولا شك أن ثمة تناقضا واسعا في هاتين الشهادتين، وهذا التناقض يكشف عن جهل ايلزا بالاسلام، ولعلّ هذا الجهل هو السبب في تناقض هاتين الشهادتين " فظل الجابرى هو الذى يتكلم في مذكرات ايلزا كما في اعترافاته." (٤)، ويتحدث علاء عن علاقاته الجسدية مع النساء، ويقف عند ايلزا قائلا " لقد جنيت منها الجنية الحلوة، التي كانت تبتغيها غريزتي لدى كل النساء وما عمدت الى ذلك عن رغبة ملحة، ولا عن قلة. بل مددت اليها يدى كما يرفع الشبعان يده الى خوخة يصادفها في طريقه ثم يدفع بها الى فمه دون أن يولي عمله اهتماما." (٥)

فهو يعترف بعزارة علاقاته النسائية، ويعتز بها ولكنه مع ذلك يحاول أن يجيب على أسئلة ايلزا التي طرحتها عليه، عن الذات الالهية في المفهوم الاسلامي، وعن

---

١) شكيب الجابرى، قدر يلهو، ص ٧

٢) المصدر نفسه، ص ٩٥

٣) شكيب الجابرى، قوس قزح، ص ٥٩، وانظر قدر يلهو ص ٥٨

٤) شاكر مصطفى، القصة السورية، ص ٤٣٧

٥) شكيب الجابرى، قدر يلهو، ص ٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شخصية الرسول وعن اعجاز القرآن ، وعن ولد السفاح ، وعن مناجاة الخالق في الصلاة ، (١) ، بدون أن تكون هذه العلاقة طبقا للمفاهيم الاسلامية التي يتعصب لها .

فعلاء يريد أن يقيم جسرا بين وضعين حضاريين لا سبيل الى التقائهما على هذه الشاكلة ، دون أن يدرك أنه يقع فريسة وضع (تلفيقي) ينهار فيه الوضعان الحضاريان معا لأنه لا سبيل الى تعايشهما على هذه الشاكلة ، " ولكن لا شك أيضا في أن هذه النظرة المزدوجة تعبّر عن صراع بين نظامين من القيم في لحظة تاريخية معينة ." (٢)

ويتبدى هذا الازدواج أكثر ما يتبدى في طبيعة العلاقة بالوطن ، وبالغرب ، فهو في الغرب معتز بقوميته ، حاقد على المستعمر ، عازم على النضال ، يقسم بين يدي ايلزا " أني لن أتوانى عن هدر دمي في سبيل استقلال بلادي ويغلبنا التأثر فنصيح صيحة واحدة ، ويقع كل منا على كتف صاحبه باكيا معولا ." (٣)

أما بعد الوصول الى الوطن والحياة فيه فيقول " وكان ينقم على الغرب فنقم على الشرق أضعافا ، وعاد من الغربة بشيء من الايمان ، فأضاع في الوطن الايمان كله ." (٤)

انّ ازدواجية علاء نابعة من عدم ايمانه برؤية شاملة يستطيع أن يسير على نهجها وهي تعكس قلقا عاما يمثل اضطراب حياة شكيب الجابري ، وازدواجيتها . (٥)

وتمثل محاولة توفيقية فاشلة لأنها لم تحسن الانتقاء .

---

١) شكيب الجابري ، قدر يلهو ، ص ص ٨٥ - ٨٦

٢) شكري عياد ، الرواية الغربية المعاصرة ، وأزمة الضمير العربي ، عالم الفكر ، المجلد الثالث ، العدد الثالث ، ١٩٧٢ ، ص ١٢

٣) شكيب الجابري ، قدر يلهو ، ص ٦٤

٤) شكيب الجابري ، قوس قزح ، ص ١٨٢

٥) يقول شاكر مصطفى في كتابه القصة السورية ، ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، عن شكيب "كان ممزق النفس ، كأنما سياط من الجحيم تدفعه في ألف درب معا . . . انه ارستقراطي ولكنه يريد أن يكون شعبي الفكر والهوى ، وقد أعد ليكون العالم المادي الواقعي ، ولكن عمله كان عمل المغامر والفنان الخيالي ، وقد كان غنيا ولكنه عرف الفقر ونشأ عنيف التعلق بالاسلام ، ولكنه تعصب أيضا لروسو وفولتير مرة بعد مرة ، وكان يجمع رفاقه في جنيف وبرلين للصلاة والصيام ولكنه يعبد الجمال كأي وثني وما أكثر ما استسلم لغوايته ، وكان يدرس الكيمياء وهندسة المعادن ، ولكنه يهدف للمجد السياسي ويذوب في الوقت نفسه في الموسيقى والرسم والشعر وكل فن ."

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الازدواج عند سامي بطل رواية "الظمأ والينبوع"، فيتمثل في مواجهة هيلغا زوجة صديقه الألماني اوتوميلر.

ولا يخفى أنّ دلالة العنوان تشير الى أنّ الظمأ موجود في الشرق (ويمثله سامي) وأنّ الينبوع هو الغرب (ممثلا بهيلغا) .

وأنّ العلاقة بين الظمأ والينبوع، هي العلاقة بين الشرق والغرب، ولكنّ مضمون الرواية يخالف دلالة العنوان، أو على الأدق يتناقض معه فسامي رغم الظمأ الجنسي عفّ عن هيلغا الينبوع النّر.

وتكشف الرواية عن قصدية المؤلف المعدة سلفا في صياغته للرواية فهو يريد أن يكرس نموذجا أخلاقيا، ولهذا قام بتطوير قصته القصيرة "ضيف من الشرق" الى هذه الرواية كما يقول "وانما الذى خرجت به من تباين الرأيين (القادح والمادح لقصته الآنفة الذكر) كان عزما قد صح عندى على اعادة وضعها مطولة تثبيتا للمثل الخلقية التي آمنت بها، وتوضيحا للخط النفسي الذى سار عليه بطل القصة في وضعه السابق."(١)، أى أن الهدف الأخلاقي هو أساس تفكيره في المشروع الروائي، ويكشف عن ذلك الاهداء، لأنّ المؤلف أهدى روايته الى "الذين ما زالوا على ايمانهم بمكارم الأخلاق"، وهذا الاهداء يكشف عن تلك القصدية التي أشرنا اليها، كما يكشف عن تطابق بين كل من نظرة البطل الروائي، ونظرة المؤلف، وأن النظرتين تشكلان وجهين لعملة واحدة. ولكنّ المسافة واسعة أيضا بين تصور المؤلف، وبين واقع البطل الروائي نفسه.

فقد قابل سامي زوجة صديقه الرحالة اوتوميلر في غيبته، فأكرمت وفادته، وكان في ذهن كل منهما صورة مليئة الخيالات العذبة الجميلة. فعندما رأى سامي صورتها أعجب بجمالها حتى تساءل "كيف يستقيم لزوج في يمينه مثل هذا الجمال أن ينقلب رحالة مغامرا."(٢)

---

١) فاضل السباعي، الظمأ والينبوع، ص ٨

٢) المصدر نفسه، ص ٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعندما رأت صوره التي التقطها له زوجها " حفظتها في مظروف خاص"(١) ،
فهنا يمدّ الروائي عناصر الصراع من خلال الاستمداد النفسي له، فانّ كل واحد منهما معجب بالآخر قبل التقائه به.

ثم يهيئ لهم الجو المناسب لكي يأخذ هذا الصراع مجراه الطبيعي ، فقد رفض سامي أن يتناول الغداء في بيت صديقه فذهب الى المطعم ثم عاد ، وهنا بدأ الصراع يعمل طابعا نفسيا ومضمونا أخلاقيا . وكانت هيلغا هي المسكة بطرف الخيط، وسامي يمثل دور المتلقي الرافض، وتتلخص الرواية في اثارة هيلغا لسامي ، ولكنه يرفض أن يستجيب لنداء الغريزة بسبب وفائه لخطيبته ندى ، وبسبب تأنيب ضميره اذا ما خان صديقه ميلر مع زوجته، ويحاول سامي في حواره الطويل مع هيلغا أن يصدر عن مفهوم أخلاقي ، ولكن هذا المفهوم الأخلاقي غير متسق ومتناقض، فهي تسأله :

" هل لك بعد في قدح من شراب الجن"

- اقتراح مقبول ، وأضفت ولو أنني لم أذق هذا الشراب قبل اليوم"(٢)

وبعد قليل تسأله :

" ما هو مشروبكم الوطني ؟

- العرق ، الم يحدثك عنه أوتو ؟

- اوه، لا بعد

- لقد تناولناه معا لأول مرة في حياتنا نحن الاثنين .

وأومضت عيناها ،

لم تذق شرابكم الشائع قبل ذلك اليوم

وتوجب عليّ أن أبرر تقصيري :

- ذلك لأن تعاطي الخمرة يعتبر عندنا من العادات المستهجنة .

لقد نهانا عنها الدين ."(٣)

فهذا الحوار يكشف عن رغبة سامي الدفينة في اقامة علاقة مع هيلغا ، من خلال استمداده

---

١) فاضل السباعي ، الظمأ والينبوع، ص ٥١

٢) المصدر نفسه، ص ٧٨، ٧٩

٣) المصدر نفسه، ص ٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للتخلي عن كثير من القيم التي يعتقدها فهو لم يشرب "الجن" من قبل، ولا يمانع في شربه معها، وهو لم يشرب العرق قبل أن يعرف زوجها في حلب، ويبرر "هذا التقصير" بالدين الذي نهاه عن شرب الخمور، فسامي حريص على أن يجمع النقائض فهو يعرف تعاليم الدين ويتجاهلها في الوقت نفسه، ويستخدمها وقت يشاء في تبرير سلوكه.

أما الحديث الوعظي عن الدين فلقد كان كلاما يؤكد ما ذهبنا اليه في ازدواجية سامي وتناقضه.

فهو يدين تعدد الزوجات ويعتقد أنه "اذا وقع لأحدهم أن تزوج بامرأة أخرى - وهذا أمسى في عهدنا بالغ الندرة - كان موضع سخط من عارفيه وكان محط رثائهم."(١) ويصف المرأة المتحجبة "بالتخلف والجمود"(٢)

وهذا الحديث يتعارض مع المنطق الديني، فضلا عن تعارضه مع الواقع فليس صحيحا أن تعدد الزوجات أصبح في عهدنا بالغ الندرة. فهذا من تجميل صورة العرب ومحاولة رفعها الى مستوى الغرب بسبب عقدة النقص ازاء "الافرنجي"، ولهذا يقول برنة زهو "ان الاكثرية الساحقة من نساء بلدي يلبسن من الثياب ما تلبسينه أنت يا هيلغا وسائرات السيدات الألمانيات."(٣)

ثم تحدث لها عن واقع العرب في الجاهلية قائلا:

"كان أحدهم في العصر الذي يسميه تاريخنا "بالجاهلية" يتزوج باثنتين أو خمس أو عشر، ارواء للحاجة البيولوجية وارضاء لنازع الفروسية السائدة في ذلك الزمان.

فلما بعث فيهم رسولنا العربي محمد، لم تحد شريعته من تعدد الزوجات الا بقدر."(٤)

يعود سامي الى الحديث عن المرأة للمرة الثانية، باختيار متعمد فهو لا يستطيع أن يتفلت من ظل المرأة وما تلقيه على هذا الحوار من طابع مميز، وهو في الوقت نفسه

---

١) فاضل السباعي، الظمأ والينبوع، ص ٨٧
٢) المصدر نفسه، ص ٨٨
٣) المصدر نفسه، ص ٨٨
٤) المصدر نفسه، ص ٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حريص على أن يوضّح لها موقفا دينيا يدافع عنه ويعتقده.

ولكنّ ما يميّز هذا الموقف الديني أنه يتناقض مع الموقف السابق، فاذا كانت شريعة محمد قد سمحت بتعدد الزوجات، فلماذا يكون هذا التعدد موضع السخط ومحط الرثاء؟

انّ هذا التناقض يبيّن عدم تبلور تلك النظرة الأخلاقية التي يصدر عنها باعتباره "مسلم من أتباع النبي محمد"(١)، يبشر برسالته ويعتز بها لأنها تأخذ بيد الضعيف وتهدي الناس للايمان بالله وبالبعث بعد الموت، وباعتبار صاحبها رجل ملهم ونبي ومشرع وقائد."(٢)، فهذا الطابع الأخلاقي الوعظي الذي يحرص المؤلف على ابرازه طابع مزيّف يدين سامي أكثر مما يبرر سلوكه التبشيري.

فهو لم يترك تأثيرا في نفسه ولا في نفس المرأة الألمانية، فقد استطاعت بعد لحظات من هذا الحوار أن تجعله يسلك المسلك الآتي:

"هنا، ثارت في أعماقي تلك الرغبة التي توهمتها اللحظة أقل نزقا وثبت ناظريّ على المنهلين المذبين، ثم ألويت على الشفة الأكثر نضجا، فالتقطتها بين شفتي وطفقت أنهل وأنهل."(٣)

ثم يكرر هذا المسلك مرة أخرى "التقطت الشفة السفلى الزاخرة بالرغبة، بالحب، بالحرمان و بالثورة جميعا."(٤)

ولكنه يرفض أن يستمر في مواصلة التجربة حتى النهاية فيقول:

"يمتنع عليّ أن أخون صديقا في زوجته، يا هيلغا، في عقر داره، لا مجال تأكدي ذلك فوق طاقتي."(٥)، بل ان سامي في نهاية الرواية يتساءل: "لماذا عففت عن هيلغا، رغم ما أسرفت في اداء آيات الفتنة والاغراء."(٦)، "فما دام الكاتب

---

١) فاضل السباعي، الظمأ والينبوع، ص ٩٤

٢) المصدر نفسه، ص ٩٤

٣) المصدر نفسه، ص ٩٦

٤) المصدر نفسه، ص ١١٧

٥) المصدر نفسه، ص ١١٨

٦) المصدر نفسه، ص ١٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتحدث عن الخيانة والعفة في قصته فاننا نتساءل :

ما مقياس الخيانة هنا ؟

اذا كان العمل الجنسي المباشر يعني قمة الخيانة ، فان مجرد التفكير بحرمات الآخرين ، ناهيك عن الاستغراق في تقبيلهن والتهامهن بألف عين يعني أيضا الخيانة الصارخة من وجهة النظر العربية .

ترى هل أراد الكاتب أن يحدثنا عن أنصاف الخيانة ؟" (١)

أما علي في " جسر الشيطان" ففيه قد غير قليل من الازدواج وان كان يختلف عن طبيعة سامي في الرواية السابقة .

فهما يتشابهان في كون العلاقة مع المرأة الغربية تمثل محور العلاقة مع الحضارة الغربية ولكنهما يختلفان في التفاصيل .

فعليّ مهندس شاب متدين ذهب الى ألمانيا لاحضار سفينة تبنى لحساب مصر . تعرف عليّ الى امرأة المانية تعمل في الملاهي ، فحاول هدايتها وارجاعها الى حظيرة الدين ، فكان هو الجانب الايجابي المحرك ، أما سامي فكان هو المتلقي ، المنفعل .

ولكن السحار وضع عليا في اطارين متناقضين ، من خلال سياحاته وتعرفه الى طبيعة المكان الذى نزل فيه ، فكان سلوكه يشي بطبيعة تكوينه الفكرى ، عندما رفض أن يشرب البيرة ثلاث مرات واستعاض عنها بزجاجة كوكاكولا ." (٢) ، ولكنه مع ذلك كان يدخل ملهى ليليا ، ويراقص فتاة من فتياته ، ويتجاوز الملهى الى شارع سان بولي حيث البغايا والساقطات ، فوصفهن بأنهن " كن أشبه بقردة بيضاء في أقفاص من زجاج ، والناس لا يكفون عن مشاكستهن ، فأحس وقدة نار في حلقه وغيّل

---

١) محمد سرايجي ، الاداب ، العدد الخامس ، ١٩٦٥ ، ص ص ٦٤ - ٦٥

٢) عبد الحميد جودة السحار ، جسر الشيطان ، ص ٨ ، ١٢ ، ١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اليه أن البشرية كلها تتمرغ في الطين ."(١) ، ثم استيقظت فيه مشاعره الدينية فاستنكر اطلاق اسم القديس بولص على هذه البؤرة الفاسدة.(٢) ، ثم رجع الى ريمريان ودخل احدى الحانات، واشترك في مسابقة الأزياء حيث " جلس على الأرض يلف الساقين العاجيتين ، وضجت القاعة بالضحك والتصفيق عندما ربت على ساقها لتضمها الى ساقها الأخرى"(٣)

ولا شك أن كل ذلك كان تمهيدا لالتقائه بهذه الغانية الألمانية، ولكن هذا التمهيد يتناقض مع تكوين البطل النفسي والأخلاقي ، ويهدم بعض جوانب الصورة الاخرى التي رسمها له المؤلف.

فاذا كان علي يقصد أن يرينا الانحلال الأخلاقي الذى وصلت اليه الحضارة الغربية فلا يصح أن يكون ذلك عن طريق التجربة المباشرة التي تتناقض مع أخلاقيات علي ومعتقداته.

من هنا " فنحن نتساءل طوال متابعتنا لشخصيته، عن مدى صلته بعصرنا وهل يمثل أى نموذج يعيش بيننا .

فالشباب المؤمن بدينه، أقرب الى أن ينأى بنفسه عن مواطن الاغراء، والشبهات، ولا يسعى برجليه الى منزل غانية، تعطيه مفتاح بابها ليأتي اليها في أية ساعة من النهار او الليل محاولا هدايتها . لهذا بدا لنا علي أنه غريب عن انسانيتنا تحوطه هالة ملائكية أكثر مما تقوده طبيعة انسانية ."(٤)

---

(١) عبد الحميد السحار، جسر الشيطان، ص ١٧

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨

(٤) يوسف الشاروني ، في الرواية المصرية، ص ٧٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ - المثاليـة :

تنطلق هذه الروايات التي تنهج نهجا مثاليا من نقطة واحدة، وهـي رفض الواقع المادى، والتعالي عليه، والهرب منه، وجعل المثالية بديلا عنـه، بكل ما في المثالية من مطلق وروحانية.

وسواء أكانت هذه المثالية رؤية فكرية، أم تصورا دينيا، فانها تمثل لونا من ألوان مجابهة البطل الروائي العربي للحضارة الغربية. فهي بديل عن واقع الغـرب المادى، وثورة عليه، وهي في التصور النهائي " قيمة"، يحرص عليها البطل الروائي، لكونها مفتاحا يفسّر به الأشياء من حوله، وسلاحا يدافع به عن نفسه، ويحمي ذاته من الذوبان في اطار هذا المجتمع الجديد.

ينطلق محسن بطل رواية الحكيم " عصفور من الشرق" معبّرا عن مثاليته التي تقف نقيضا للغرب في كثير من جوانب حضارته. ولهذا طرح الحكيم علـى لسان بطله هذه المثالية في الحبّ (في العلاقة مع المرأة)، وفي الرؤية الحضارية الشاملة. فهو على الصعيد الحضارى يعزز شرقيته، ويعتز بها، لأن الشرق مصدر الصفاء الروحي، وهو رافض بالتالي للجوانب المادية في الحضارة الغربية، ويجسد الحكيم لبطله محسن الطريقة لكي يجسد ذلك، فتكون عن طريق علاقة " حـب" مع سوزى ديبون، قاطعة تذاكر في مسرح. ولكن محسن أعطى العلاقة بينه وبينها بعدا مثاليا حالما، فيه قدر كبير من الخيال، فهو لا يعرف في البداية، اسمها، ولا يريد أن يعرفه، بل يكتفي بالوقوف أمامها يتأملها " ان أجمل لحظاتي ساعة أقف أمامها انتظر وأنا أعلم أنها لن تلقي الىّ بكلمة تسر خاطرى، مرة واحدة نبذت الىّ عفوا بنظرة وقالت لي : أما تزال واقفا هنا ! أى مخلوق أنت !"(١)

ولهذا فهو لا يراها كما هي في واقعها الحقيقي، وانما يراها :

" تشرق على الناس بعينين من فيروز، وهم يمرون أمامها الواحد تلو الآخر، من كل جنس ومن كل طبقة، فيهم الفقير مثلي وفيهم الموسر مثل ملك من الملوك... نعم يمـرّ بين يديها كل يوم هذا الموكب وهي تبسم من شباكها بين آن وآن دون أن يعرف أحد سرّ قلبها."(٢)

---

١) توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص ٤٧

٢) المصدر نفسه، ص ٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انّ "محسن" يصرّ على أن يعطي لسوزى هنا ، صورة حالمة تناقض صورتها الحقيقية ، ولا شك أن هذه الصورة تكشف عن طبيعة محسن أكثر ما تكشف عن طبيعة سوزى ، فمحسن شخص خيالي ، حالم يعتقد أن " الصبر الطويل على القهوة في انتظار هذا الخيال - هو كل جمال الحب." (١) ، ولهذا كان يرضى أن يقول له صاحبه أندريه "انك رجل خيالي ، وهذه مصيبتك." (٢) ، لأنه يصدر في ذلك عن قناعة تجاه علاقته بالمرأة . فمحسن " لا يعشق اذن قاطعة تذاكر وانما يهيم بملكة ، ملكة تقيم في قصر ليس له شبيه حتى في قصور ألف ليلة وليلة ، تقيم في عقل محسن ، وفي مخيلته ، ملكة لا سبيل الى مقارنتها بأى امرأة موجودة في الأرض. بل لا سبيل حتى الى الاتصال بها ." (٣)

ولهذا أخذ يضفي عليها سمات ملائكية ، فهي " أعظم قدرا عندى وأجل خطرا من أن أقدم لها شيئا أو أن أوجه اليها كلاما ." (٤)

وهي معبودة وعشاقها كثيرون " ذرات الهواء وهوام الفضاء ونجوم السماء." (٥)

فهذه السمات والتصورات أخرجت سوزى من واقعها الحقيقي ، وصاغتها صياغة تتناسب مع طبيعة محسن ونظرته الى المرأة .

وعندما أخرج محسن هذه العلاقة - لفترة قصيرة - من طبيعتها الحلمية وأضفى عليها لونا واقعيا ، فانه أراد من وراء ذلك أن يحطّم هذه الواقعية على صخرة المثال فلقد كانت صدمته عميقة بهذا التحول " فأحس الفتى احساس من يهوى الى الارض ، وكأن قيم الأشياء في نظره قد تضاءلت ، وكأن الحياة نفسها قد تجردت من غلائلها فبدت عارية كتمثال مصبوب من السخف." (٦) ، وسيطر على داخله احساس عميق بالفجيعة ، فأخذ محسن يقارن بين عالمه السابق ، وعالمه الحالي ، وما فيه من واقعية صارمة تغتال أحلامه فهذا العالم الجديد ، عالم مادى يقتصر على الطعام والجنس ،

---

١) توفيق الحكيم ، عصفور من الشرق ، ص ٥٩
٢) المصدر نفسه ، ص ٤٧
٣) جورج طرابيشي ، لعبة الحلم والواقع ، ص ٤٠
٤) توفيق الحكيم ، عصفور من الشرق ، ص ٥٥
٥) المصدر نفسه ، ص ٥٧
٦) المصدر نفسه ، ص ١١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويخلو من القراءة ، والتأمل ، والخيال ، ويتحول فيه المطلق الى مادى مجسّـــم ، فهو يصف هذه الفترة القصيرة بحزن عندما يقول :

" عاش محسن حياة "الواقع" يأكل ويشرب وينام في " الحقيقة" ولم يفطن الى كتبه المغلقة منذ تلك الليلة ، ولم ير فوق أكداسها غير بضعة دبابيس شعر للسيدات وعلبة بودرة ... نعم لم يعد البياض الناصع لون السحب هو المثل الأعلى ، انما هي الحمرة الحارة لون الصلصال المحترق ." (١)

بعبارة أخرى أخذت سوزى ديبون صورة الحضارة الغربية ، كاملة ، وتجسدت فيها ميزات هذه الحضارة المادية ، " فهي قشرة براقة لواقع متعفن" (٢) ، ولهذا انتهت العلاقة بينهما نهاية أشارت الى أنه لم يكن يعني بالنسبة لها شيئا .

أما عن الجوانب المثالية الاخرى في فكر محسن ، فيمثل الحديث عن السيدة زينب جوهر هذه المثالية . ولعلّ الحديث عن السيدة زينب يكشف عن تطابق بين نظرة محسن ونظرة المؤلف ، مما يهدم الحد الفاصل بين حدود الشخصية الروائية داخل الرواية نفسها ، وبين التجربة الذاتية للمؤلف : فالحكيم يهدى روايته " الى حاميتي الطاهرة السيدة زينب" ومحسن يقول في لحظة ضيق "آه ... انه قد نسي حاميته التي في السماء لو أنه أحس يدها على كتفه لما تعثّر في خطاه أمام سوزى ." (٣) ، ومع أن هذه النظرة تضفي على السيدة زينب طابع التقديس الذى تضفيه النصارى على مريم العذراء ، وبالتالي فهي غريبة عن التصور الاسلامي ، الا أن الحكيم يتمسك بها ليدلل على جوهر المثالية التي ينتمي اليها . وليعقد مقارنة بين حياته في ظلال نعيم السيدة زينب في السابق ، وبين تلك الفترة التي نسي فيها السماء وأهلها " عند ذاك تركنا السماء في حقارتنا الأرضية ، ووحدتنا الباردة ." (٤) ، واخلاصا من الحكيم لمثاليته

---

١) توفيق الحكيم ، عصفور من الشرق ، ص ١١٦

٢) الياس خورى ، تجربة البحث عن افق ، ص ١٦

٣) توفيق الحكيم ، عصفور من الشرق ، ص ٩٧

٤) المصدر نفسه ، ص ٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تلك، فهو حريص على أن يظل يحيا في فلكها، فيختار من الحياة ما يناسب هذه المثالية، ويتوافق معها، في الزمن الماضي، وفي الزمن الحاضر، فهو يختار "ايفان" الشاب الروسي، الرافض للشيوعية ولحضارة الغرب عموما، المتعلق بالشرق، وخياله، وأنبيائه، ولهذا دافع عن الشرق دفاعا قويا، وهاجم الغرب بشدة، وكانت آراؤه متطابقة مع آراء محسن، بل انّ الحكيم أراد من خلال اختياره لايفان أن يكون دفاعه عن الشرق مبررا ومقبولا، فليس غريبا أن يدافع محسن عن الشرق، ولكن الغريب أن يدافع ايفان عن الشرق، ولهذا كانت آراؤهما من التطابق بحيث تغدو وجهين لعملة واحدة. فايفان مثل محسن يرى "أن الحلم هو العالم العلوي الذي لا يدخله حيوان، الخيال هو تاج السيادة والسمو الذي تميز به الانسان"(١)

وهو يرى أنّ معجزة أنبياء الشرق تكمن في ما أضافوه الى خيالات الناس فلقد قدموا لهم "عالما آخر عامرا بسكان من ملائكة ذوات أجنحة راعدا بنيران تتأجج بلهب زرقاء كألسنة الأبالسة."(٢)

ويختار محسن من الحضارة الغربية، الموسيقى ويتقبلها قبولا رائعا، لأنها لذة روحية، ولهذا يضحي من أجلها بكثير من الضرورات في حياته اليومية، لأنه "بقليل من الموسيقى يستطيع ان يعتصم بالسحب ضد هذا الحب الأرضي الذي وضع أنفه في الرغام."(٣)، بل هو يعتقد أنّ الموسيقى الغربية هي أفضل انتاجات حضارة الغرب، وأسماها "انك تستطيع أن تقول كل شيء عن الغرب فأسمع لك ولكن "بيتهوفن" ها هو ذا نبي حقيقي، ها هوذا رسول المحبة والسلام خليق أن يرفع مجد الغرب أبد الآبدين، وأن يطهر الانسانية وأن ينير القلوب"(٤) ولكن محسن لا يستطيع أن يتغاضى عن تقدم الحضارة الغربية المادي

---

١) توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص ٩٢

٢) المصدر نفسه، ص ٩٣

٣) المصدر نفسه، ص ١٤١

٤) المصدر نفسه، ص ١٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يستطيع أن يفلت من سحر هذه الحضارة، فيقف منبهرا أمام عظمة التقدم المادي فعندما دخل الاوبرا " فما تمالك أن وقف مشدوها أية عظمة، وأي ثراء يشعران بالدوار، وأي أنوار، عندئذ أدرك من فوره معنى مجسما لكلمة (الحضارة الغربية) التي بسطت جناحيها على العالم"(١)، ولكن محسن لا يستسلم لهذا الانجذاب، بل يرتد الى عالم الخيال، باعتباره البديل الموازي لسيطرة المادة وطغيانها. فاذا كانت الحضارة الغربية عظيمة بثرائها، فان الحكيم يريد لمحسن أن يتجاوز هذه العظمة، بعظمة أخرى تتجسد في المدن الفاضلة، من هنا كانت فكرة " الجمهورية الجميلة التي تخيلها الشعراء والفلاسفة في كل زمان، جمهورية لا تعرف الذهب، وتعرف السلام، لأنها لا تعرف الجشع، والكل فيها مثل فرد واحد، والكل يقرأ وينعم، والكل يلعب ويمرح، أما الذهب فانهم يصنعون منه مصابيح الطرقات وحوافر الجياد، يا للسماء أو مستطاع لمثل هذا الحلم الجميل أن يتحقق يوما على هذه الأرض."(٢)، فهذه الفكرة التي كانت قائمة في نفسه، أراد بها أن يزيل هذا الانبهار بعظمة الحضارة الغربية المادية، وكانت سطورها أشبه بهجاء لمادية هذه الحضارة، ولماديتها المسرفة.

ولقد نجح الحكيم الى حدّ بعيد في تسخير كل ما يدور حول بطله لكي يتمكن من الحفاظ على ملامحه عصفورا من الشرق.

أما علي في " جسر الشيطان"، فمثاليته دينية خالصة يسخرها فكرا وسلوكا، في سبيل اقناع آني الفانية الألمانية، بسلوك طريق التدين، وهجر طريق الضلال، ولهذا كان علي مؤهلا للقيام بهذا الدور التبشيري على مستوى الفكر، وعلى مستوى السلوك.

---

١) توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص ٣١

٢) المصدر نفسه، ص ٣٢، ٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو مهندس وهذا يعني أنه نال حظا وافرا من الثقافة العلمية، يستطيع بها أن يحمي نفسه من الانبهار بحضارة الغرب، وعلومه وتقدمه التكنولوجي، وهو مؤمن بالله ايمانا قاطعا "بكل جارحة من جوارحي، بكل ذرة في كياني، أنا لا أستطيع أن أتصور أن يستطيع انسان أن يعيش عيشة راضية بلا اله فالويل لمن لا اله له."(١)

أما عن فكره الديني، فهو غير مستمد من واحد من الكتب السماوية فهو خلاصة للتوراة والانجيل والقرآن، فهو كما يقول عن نفسه "أنا ابن بار ما يغذى الروح، للقرآن وللكتاب المقدس وكل كتاب كريم يرفعني الى السماء."(٢)

وهو يحفظ بعضا من اصحاحات التوراة عن ظهر قلب، كسفر الجامعة، ونشيد الأنشاد فالسحار - كما نرى - لا يريد أن يعطي بطله طابعا دينيا يصدر عن أحد الأديان، ولكنه يريده مثاليا انتقائيا، يلتقط من هذه الأديان الثلاثة ما يتناسب مع الحالة التي هو فيها، لكي يؤكد من كل ذلك على جوهر الفكرة الدينية في جميع الأديان وهو الايمان بوجود الخالق، وعدم التوقف عند النطاق المادي فقط، وتكون تجربته مع آني امتحانا لصدق هذه الأفكار، حين يجب أن تتحول الى سلوك، ويختار السحار آني نموذجا مضادا لعلي في كل شيء، فهي امرأة تتاجر بجسدها، بارعة في الاغراء، تنكر الدين، وترفض الايمان بالله وتراه وهما، وينفر عقلها من الغيبيات وتؤمن بالمحسّ "لم نعد نؤمن الا بما تلمسه أيدينا أو تراه أعيننا، أو تسمعه آذاننا أو تشمه أنوفنا أو تذوقه ألسنتنا."(٣)، وتضرب بالقيم عرض الحائط فتحتقر الصداقة وتراها مثل كل الامور المعنوية وهما، بل ان حبها للمال ورغبتها في الحصول عليه هو الذي دفعها الى هذا المسلك "انني أكسب من مهنتي كثيرا، وما كنت سأتناوله أجرا في الاسبوع أستطيع أن أحصل عليه في ليلة . . . وأنا أريد أن أصبح غنية أستغني عن الناس في يوم من الأيام."(٤)، فهمّة علي هنا شاقة ومزدوجة

---

١) عبد الحميد السحار، جسر الشيطان، ص ١٣٤

٢) المصدر نفسه، ص ١٣٤

٣) المصدر نفسه، ص ٤٣

٤) المصدر نفسه، ص ٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فعليه أن يغيّر عقيدتها ، ومن ثم سلوكها ، وأن ينقلها من عالم الكازينو الى عالم الكنيسة . وتكون اللقاءات وسيلة لهدايتها ، ويبدأ علّي باقناعها بوجود الله عزّ وجل ، فيتحدث عن العلم وعن غرور العلم ، وعن قدرة الله ، ثم يحضر لها الكتاب المقدس وينصحها بقراءته " لأن القراءة في الكتب السماوية ، تعيد الطمأنينة الى النفوس القلقة ، وتنزل السكينة على القلوب المعذبة ." (١) ، ثم يطلب منها أن تقرأ بالألمانية سفر " الجامعة" ، وعلى الرغم من أنه لا يفهم الألمانية الا أنه كان يستطيع ملاحقة ما تقرأ ، لأنه يكاد يحفظ اصحاحاته عن ظهر قلب.

وحتى يعطي السحار بطله بعض السمات البشرية ، يثير في داخله نوعا من الصراع بين المثل التي يعتنقها ، وبين رغباته الجسدية . فوجود شاب مع امرأة جميلة في بيت واحد ، لا يمكن أن يمر بهدوء ولكن السحار ظلّ حريصا على اعطاء هذا الصراع جانب الخفاء والسرية ليعبّر بذلك عن عذاب بطل وتمزقه " فهو معذب في داخله لكنه منتصر في تصرفاته الخارجية ." (٢)

وهذا الصراع الذى كان يدور في جوانب نفسه ، لم يكن صراعا بمعزل عن تاريخ الأديان ، فلقد كان يستقي أمثلته من هذا التاريخ ، ويستقي عزاءه من هذه الأمثلة ، ويجد الحلّ بين جنباتها .

فعندما تقف بجواره في المطبخ ، ويحتك كتفها بكتفه يتمثل في هذه اللحظة تجربة يوسف مع امرأة العزيز وكيف أنه " لم يعصمه من التردى في الخطيئة الا رحمة ربه ، وآدم لم يقو على رغبات جسده وعصى ربه ، وهو ليس أفضل من أبيه ، سينزلق الى التجربة ويستجيب لتلك القوة المدمّرة ." (٣) ، وفي لحظة أخرى من لحظات الصراع يمزج بترف فكرى ، بين آيات من الجامعة ، وآيات من نشيد الانشاد ، ليدلل على توزعه العميق بين الاغراء والاستجابة له ، وبين الايمان والاستمرار فيه ، فهو يقول تارة :

---

١) عبد الحميد السحار ، جسر الشيطان ، ص ٩٥

٢) يوسف الشاروني ، في الرواية المصرية ، ص ٧١

٣) عبد الحميد السحار ، جسر الشيطان ، ص ٩٢ وانظر ص ٢٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" ليقبلني بقبلات فمه، لأن ثغره أطيب من الخمر"

ثم يعود فيقول " أفرّ من الموت، المرأة التي في شباك ، وقلبها أشواك ، ويداها قيود . الصالح ينجه الله منها والخاطئ يؤخذ بها ." (١) ، ولكن آني تمتاز بخصيصة ايجابية وهي قابليتها للتغيير ولا سيما عند اقتناعها ولهذا أثمرت فيها جهود علي ، فتغيرت نظرتها الى الحياة، ولم تعد الحياة عندها شرا مطلقا بل آمنت بوجود الخير في الدنيا .

وأقبلت على قراءة الكتاب المقدس، وأخذت بالتردد على الكنيسة بتشجيع من علي ، وأخذت بالتحول التدريجي في سلوكها وفلسفتها " ما أكثر الأشياء التي كنت واثقة منها قبل أن ألقاه ، وقبل أن يزعزع ثقتي في آرائي ومزاجي ومعتقداتي وفلسفاتي ." (٢)

ويضعف علي عند ذهابه لوداعها ، وتضعف هي كذلك، ولكنها تهرب من لقائه لأنها لا تريد للشيطان أن يقيم بينهما جسوره، فتكتب له رسالة تخبره فيها أنها " وطدت العزم على أن أتطهر من دنسي ، وأن أصلي لله وابتهل اليه أن يقف الى جواري ويحميني من نفسي ويأخذ بيدي الى طريق الخلاص." (٣)

لقد نجح علي في مهمته، وانتصرت قيمه التي يؤمن بها ، وانتصر على غواية تلك المرأة .

واذا أردنا أن نفسّر ذلك ، قلنا ان عليا (وهو يمثل الشرق) يحمل مشاعل الهداية لآني (وهي تمثل الغرب) ، وليس من الضروري أن تكون هذه الهداية عبر أحد الأديان فقط، وانما يكفيها أنها روحانية تمزج بين الأديان الثلاثة، وهذه الروحانية هي المنقذة للحضارة الغربية لكي تتخلص من شرورها كما تخلصت آني من

---

١) عبد الحميد السحار، جسر الشيطان ، ص ص ١٠٦ - ١٠٨ ، وانظر ص ٢٠٨

٢) المصدر نفسه، ص ١٧١

٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دنسها ، ولكي تصل الى طريق النجاة .

وقد طرح عيسى الناعورى في روايته " ليلة في قطار" قضية تتشابه مع قضية السحار التي رأيناها ، فهو يختار لبطله سعيد أن يواجه امرأة ايطالية في غرفة من غرف القطار الليلي ، وفي فترة زمنية تمتد من الساعة الثامنة مساء الى الساعة الخامسة والنصف صباحا ، تحاول لوشيا في تلك الاثناء اثارته ولكنها تفشل . ولقد قام المؤلف بتكثيف شديد في الزمان ، واختصار لعدد الشخصيات، وللرقعة المكانية ، وسخّر امكانياته الروائية في سبيل ذلك الموقف بين سعيد ولوشيا .

ولكنّ مؤلف الرواية لا ينطلق من موقف مثالي يحرص على تجسيده ، بل يصدر مع سبق الاصرار، والتعمد عن فكرة مسبقة يريد بها أن يخالف غالبية الروائيين التي تحدثت عن موقف البطل الروائي العربي ، وهو يواجه المرأة الاوروبية فيسقط، ليكرس نموذجا (مثاليا) يصمد في وجهها .

ولكنّ هذا النموذج مقتول سلفا لعدة أسباب منها :

أنه لا يصدر عن رؤية فكرية محددة يدافع عنها في وقوفه أمام الاغراء بل ان وقوفه لا يزيد على أن يمثل خجله الذى يحرص عليه في المظهر الخارجي ويثور عليه في داخله ، فلقد كان سعيد يتحرك كما يريد له المؤلف أن يتحرك ، ولم يترك المؤلف للاحداث أن تقود الأمور بانسياب طبيعي ، ولذا وقع المؤلف والبطل في المبالغة والشطط مما جعل الأمر غير قابل للتصديق .

وسبب ذلك أنّ علاقة سعيد بهذه المرأة لا يتجاوز الساعات فلا يعقل أن تكون بمثل هذه الحرارة ، وعلى هذا القدر من الاثارة ، من هنا أسهم المؤلف في تسخين هذه العلاقة ، ولم يترك الأحداث للزمن لكي ينضجها .

ولقد اعترف المؤلف بذلك حين قال " موقف البطل الشرقي بشكل خاص لن يكون صحيحا أبدا . . . ثم بطلة الرواية الغربية لا يمكن أن يكون موقفها صحيحا تماما هو صحيح الى حد ما ولكنه لا يمكن أن يصل من التمادى الى الحدّ الذى أردت وتعمدت أن أصوره . "(١)

---

١) عيسى الناعورى ، ليلة في قطار، المقدمة ، ص ٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشخصيات كما أراد المؤلف وكما صرح تخدم فكرة يريد أن يقولها فتجسيد هذه المثالية في شخص سعيد لا تمثل - في رأى المؤلف - أكثر من ادانة للأخلاقيات الكاذبة التي يدافع عنها بعض الروائيين ، فكان النموذج مبالغا في صياغته حتى في رأى المؤلف " موقف البطل الشرقي هو الكذاب هذا صحيح ، أعترف به وقد تعمدت أن يكون كذلك ."(١)

ولقد صرح مؤلف الرواية في مقالة كتبها عن " بدوى في اوروبا " بفكرة تشابه تلك الفكرة التي أشرنا اليها فقال " الفرق بين جمعة حماد وبيني ، أن جمعة قد كتب ما كتبه وهو يعنيه بيقين راسخ ، وأنني عنيت في روايتي غير ما كتبت فيها ومع ذلك فكلانا صادق مع نفسه رغم اختلاف الاتجاهين ، فأنا أعتقد أن الغربيين أفضل منا فهما للحياة وللواقع وأكثر انسجاما مع أنفسهم ومع الطبيعة في التعبير عن انفسهم في حين يؤمن الحاج جمعة مخلصا بعكس ذلك ."(٢)

واذا كانت دلالة العمل الفني تستقى من داخله بالدرجة الأولى فان سعيدا يمثل نوعا من المثالية التي يلجأ اليها الانسان لتبرير عجزه ، ولكن تكوين سعيد الثقافي والحياتي كما عرضه لنا المؤلف سوى في الاطار العام . فلم يكن سعيد رجلا من عامة الناس ، بل كان رجلا مثقفا على صلة جيدة بالحضارة الغربية ، فهو يجيد اللغة الايطالية ، اجادة تامة ، ويعرف ايطاليا معرفة جيدة نتيجة الاحتكاك والخبرة ، بل هو يعرف بعض الأغاني الايطالية ويحفظها ، ويحب الرقص ، ويشعر وهو يرقص بغبطة شديدة ونشوة حلوة ولقد علمته اياه " مغنية بولونية جميلة كانت تدرس في روما ."(٣) ، وهو يميّز بين أنواع الرقصات عن دراية وتجربة " التانغو أحبها كثيرا وأرتاح الى رقصها ، والروبا ، وتعلمت أيضا أل (تشا تشا تشا) في روما ."(٤)

---

١) عيسى الناعورى ، ليلة في قطار ، ص ٩

٢) عيسى الناعورى ، بدوى في اوروبا ، جريدة الرأى ، العدد ٢١٢٣ ، ٦ تموز ، ١٩٧٧

٣) عيسى الناعورى ، ليلة في قطار ، ص ٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فسعيد كما نرى ليس رجلا محافظا ولا متزمتا ، بل هو منفتح على مناهي الحياة الاوروبية ، فكرا وسلوكا .

وسعيد لا يصدر عن رؤية دينية (اسلامية أم مسيحية) محددة ، ولهذا يبيّن كذب الكاهن الايطالي الذي زعم أن " العرب كانوا يخربّون حتى الآثار الجميلة ومن غير المعقول أن يتركوا أثرا جميلا ينبئ عن حضارة فيهم أو مدنية ." (١)

فهو في هذا الدفاع يغلّب موقفه القومي على الموقف الديني ، فيكشف زيف ما ألحقه الغرب المسيحي بصورة العرب في الماضي والحاضر ، من تشويه ، ويمسح عنها ما لحق بها من غبار .

فما هي المثالية التي يصدر عنها سعيد بعد كل هذا ؟

انّ هذه المثالية تنبع من موقفين :

الأول : أنه متزوج ولا يريد أن يخون زوجته .

الثاني : خجله الشديد الذي يمنعه من القدرة على التحديق في لوشيا .

فلقد وقف زواجه عقبة أمام اقامة علاقة معها .

فهو يعتقد أنها جميلة وأن جمالها لا يقاوم ولكنه لا يستطيع أن يقترب منها لأنه متزوج " لو لم أكن متزوجا لكانت ليلتي هذه معك فرصة من العمر لا تفوت ." (٢)

فالعفة هنا رغم حصولها ، ضرورة يتطلبها الزواج لأن الاقدام على هذا العمل خيانة للزوجة .

ولقد كان الحديث عن الخيانة مفتاحا للصدام الفكري بينهما ، وضع كل واحد منهما أفكاره على المحك .

فليس سعيد قناع المثالية ، ووقفت هي على الطرف الآخر - كما أراد لهما المؤلف - وطبقا لطبيعة الجو الذي يسيطر عليهما ، وما فيه من تفكير بالنصر أو الهزيمة ، فان الجدل بينهما كان حادا لم يصل بهما الى قناعة مشتركة .

---

١) عيسى الناعوري ، ليلة في قطار ، ص ٢٧

٢) المصدر نفسه ، ص ٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما عن خجله، فلقد كان هذا الخجل عقدة الرواية، فقد أثار خجله الشديد فضولها، عندما انسحب من الغرفة بسبب كونها هناك فتبعته في محاولة استكشاف سبب هذا الخجل، فكان خجله سمة طبعت سلوكه بطابعها الخاص، ولهذا اختلفت مثاليته عن مثالية علي في " جسر الشيطان"، اختلافا نوعيا. فاذا كانت مثالية علي فاعلة، قادرة على الصدام والتأثير، فانّ المثالية عند سعيد سلبية وعاجزة عن التأثير لأنها تقع في طور الانهيار فهو يصف نفسه قائلا : "كنت أخجل من التحديق في وجهها، فما أكاد أرفع عيني اليها وتلتقيان بعينيها الحلوتين، حتى أشعر بكثير من الارتباك والخجل فاغض بصري." (١)، ولهذا فان هذه المثالية التي يزعم الدفاع عنها لا تمثل بالنسبة له أكثر من حالة مرضية لا يستطيع تجاوزها. ومع هذا فقد كان الجدل بينهما ساخنا حول المفاهيم الخلقية، في الشرق وفي الغرب، وكان على لوشيا أن تبيّن له خطأ ما يعتقد معتمدة على عدة أسباب جعلت سعيد تحت رحمتها، فسعيد مرتبك، لا يستطيع أن يلتقط أنفاسه، نظرا لهذا الجو الذى يشحن غرائزه، ويجعله في وضع متمزق. وهي متوافقة مع نفسها قولا، وسلوكا، تتحدث عن واقع الغرب الجنسي وتدافع عنه بلسان الحال، أكثر مما تدافع عنه بكلامها، وتشير الى تمزقه النفسي اشارة واعية، ذكية، فتتهمه بالمثالية والبعد عن الواقع " أنت خيالي أكثر مما يجب، ان كلامك جميل في تنميقه، ولكنه بعيد عن تقرير الواقع، وقد شبع مجتمعنا العصرى من الكلام المنمق والخيال الجميل، ان عالمنا يعيش على واقعه، وحاجات نفسه وجسده ولا يستطيع أن يعيش على ما اعتاد الناس أن يدعوه بالمثل العليا فالمثل العليا كلام جميل، ولكنها لا تزيد عن كونها كلاما." (٢)، ويرد عليها قائلا " ما نسميه نحن دعارة تدعونه أنتم حبا، وما ندعوه خيانة تدعونه أنتم حرية فردية وسلوكا شخصيا، أنتم لا تدخلون التصرفات الجنسية المفضوحة في مفهوم

---

١) عيسى الناعورى، ليلة في قطار، ص ٨١، وانظر ص ١٦، ١٨، ٤٤، ٤٥، ٥٠، ١٠٦

٢) المصدر نفسه، ص ٨٩، وانظر ص ١٠٣، ١٠٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأخلاق، ونحن نعتبرها من أهم ما يبنى عليه السلوك الانساني الفاضل والتراب الاجتماعي القويم." (١)

وتدافع هي عن المفاهيم الغربية فيما يتعلق بالجنس، وترى أن المفاهيم الغربية قضت على جميع العقد النفسية في المجتمع الغربي فاستطاع الغربيون أن ينصرفوا الى الابداع في جميع الحقول.

وبعد نقاش طويل يسلّم سعيد بصحة منطق المرأة في داخله كما يعترف برغبته في أن ينالها، ولكن في داخله أيضا.

ولكن هذا التسليم الداخلي لا يعني الاذعان والتوافق، فهو حريص على أن يظلّ داخل الاطار الذي وضعه المؤلف فيه، والّا فسدت قوانين اللعبة، فتراه في لحظات الضعف يستعين بالدين، ويردد عبارات المسيح عن ضعف الجسد، وقوة الروح، ويستعين بالشعر والأدب فيتذكر جبران خليل جبران ونجواه لليل " ورحت أردد في سري ما أحفظه من عباراته، أو أركب لما أذكره من معانيه ألفاظا من عندي، محاولا أن أتجاهل الجسد البضّ الشهي الواقف بجانبي، واليد الطرية التي تمسك بيدي برفق ونعومة." (٢)، ويستعين بصورة أطفاله وزوجته وما في صورتهم من براءة، تقرعه بصمت عاتب وتقول له "" أنت لنا وحدنا، نحن في انتظارك، لم يبق من أيام اغترابك غير القليل، ولا تدع للتجربة فرصة للتغلب عليك." (٣)، ويستنجد بضميره، وتقاليد قومه، وتربيته الدينية، وقيود بيئته، وما نشأ عليه من شرف، وفضيلة، وسمو خلقي، لكي تساعده في الصمود أمام اغراء المرأة العنيف.

ان لوشيا تطارد فلول المثالية في داخله، وتحاول أن تقتحم حصونها فكانت النتيجة أن تراجع عن كثير من أفكاره، بدون أن تتراجع هي عن فكرة من أفكارها.

---

١) عيسى الناعوري، ليلة في قطار، ص ١٨٧

٢) المصدر نفسه، ص ١٠٢

٣) المصدر نفسه، ص ١٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا كانت النتيجة كما تبينها الرواية تنتهي بنوم لوشيا وبانهزام الشيطان المحموم في جسدها ، وتنتهي بلقطة بريئة فتنام بين ذراعيه ، دون أن يثير ذلك فـــي نفسه الشهوة ونوازع الجنس، فلا يخفى أن النوم في هذه اللحظة كان انقاذا نفسيا لسعيد ، فهو تكريس لصمود المثالية (شكليا) ، وتراجع النموذج المادى بعد أن مسه نوع من التطهير . . . وكان انقاذا لفنية الرواية ، لأنها شارفت على الانتهاء " بعد ربع ساعة سيقف القطار وأنزل منه تاركا خلفي السيدة التي لا أدرى أى أثر وأى ذكرى ستحمل عني ."(١)

اما اعجاب المرأة الغربية به فقد كان اعجابا يمثل طبيعة العلاقة العابرة ، لأن هذا الاعجاب لم يترك في نفسها قناعة ، ولم يرسخ في ذهنها قيمة ، بل ظلـــت كما بدأت، وظل سعيد في المظهر الخارجي كما بدأ ، وان كان في داخله أضحى على وشك الانهيار .

فالمؤلف يستعير من " ألف ليلة وليلة" ، احدى لياليها ، فيأخذ من هذه الليالي غموضها الجذاب، وحوارها الممتع، وأجواءها المشحونة بالجنس ولكنه يســـتغلها استغلالا معاصرا ، فيكون شهريار عفيفا ، وشهرزاد تحاول أن تقضي على هذه العفة ، ليلا .

ثم يأتي الصباح فتنام لوشيا (أو شهرزاد) وتسكت عن الكلام .

أما صباح محي الدين في " خمر الشباب" ، فيقيم تضادا بين شخصيتين روائيتين هما وليد ، وفؤاد ، وهما شابان سوريان يذهبان الى لندن ليتدربـــا على صناعة الصابون . فوليد يمثل نموذج الشاب المتحرر في سلوكه وفي أفكاره وفؤاد يمثل الشاب المثالي ، الذى تنبع مثاليته من موقف فكرى ، وان كان غـــــير متبلور ليأخذ شكل النظرية المتكاملة .

---

١) عيسى الناعورى ، ليلة في قطار ، ص ١٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا كان توفيق الحكيم يقيم هذا التضاد بين محسن وصديقه الفرنسي أندريـــه، فانّ صباح محي الدين يقيمه بين هذين الشابين العربيين، ليكون ذلك بمثابـة خطوة متقدمة على مرحلة الحكيم التي كانت تفترض المثالية في الشرقي، والماديـة في الغربي.

ويحرص صباح محي الدين على توضيح عناصر التضاد وأسبابها بين كل من فؤاد ووليد، ففؤاد ميّال الى الهدوء والعزلة، ومثقف وقارئ محترف، ولذا كان وليد ينادي به بألقاب تدل على صلة فؤاد بعالم الثقافة، كسيبويه وابن المقفع، ولامارتين. وهذه الألقاب زعم أنها تمثل أسماء محترمة في الثقافة الانسانية الا أنّ استخدام وليد لها يشي بشيء من السخرية والهزء، فان فؤادا يغدو هنا مرادفا للقارئ الذي لا خبرة له ولا معرفة بالحياة، وهو متهم أنّ القراءة تشكل بالنسبة لـــه بديلا عن الاختلاط بالناس، ولهذا ينتقده وليد وهو يشير الى قلة تجربته، ومعرفته بالحياة، " سوف تقتله الكتب، قولا له معي أن يترك القراءة، ويقرأ في كتاب الحياة"(١) ويتحرك فؤاد ضمن هذا الاطار، وليد بسلوكه المتحرر، وماريان الفتاة السويسرية الساذجة المحبة للمتعة، ومادى ابنة الثامنة عشر عاما وآدى الشيوعي المتحمـــس لشيوعيته، وجون، وكريستين تلك المرأة التي تتعامل مع الرجال تعاملا ماكشوفا يفضي الى اللقاء الجسدي.

وقد كان فؤاد يشعر بالغربة في مثل هذه الأجواء فكرا وسلوكا، فانّ ما يســـود هذه الأجواء من التحلل الاخلاقي، يتناقض مع ميله الى طلب العزلة والهـــدوء، ولكنه كان يحاول أن يندمج معهم بضغط من وليد وباقي رفاقه من جهة، ولأنـــه لم يجد البديل عنهم من جهة أخرى.

---

(١) صباح محي الدين، خمر الشباب، ص ٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولهذا كان يرافقهم في سهراتهم تلك، ويذهب معهم الى "النسر الابيض" "وهو مرقص يتجرد فيه الانجليز من كبتهم على موسيقى زنجية".(١)، على حد تعبير الشاب الانجليزى جون، وكان يحاول أن لا يجعل سلوكه متميزا عنهم، بشكل يجعله عرضة لنقدهم، وليس غريبا أن يسرف في شرب الخمر معهم، فهذا يعكس محاولته المستمرة للاندماج مستعينا بكثير من العوامل المساعدة، فأقام مع كريستين علاقة جنسية، ولكن هذه العلاقة بعثت في نفسه احساسا أقرب الى القرف، وأكدت نوازع المثالية في نفس فؤاد، ولا سيما في طلبه للمرأة المثال التي لا تنال "ولولا الكرى والنبيذ لابتعد عن كريستين، لأنه كان يفضّل تحاشي البنات اللواتي - في غرفته - يمزقن بأيديهن ستار الغموض الذى يجعل من المرأة شيئا بعيد التناول لا يصل اليه الراغب الا بجهد وتعب؛.. وهذا في رأيه ألذّ ما في العلاقة بين المرأة والرجل مهما قال ابن عمه."(٢)

من هنا كانت علاقته بمادلين انقاذا لنفسه الضائعة في هذا الزحام فقد كان يبحث عن "صورة للمرأة المعبودة المثال الجالسة على عرش في عالم شعرى."(٣)

وهو هنا يختلف عن محسن في "عصفور من الشرق"، فانّ محسنا أراد من خلال علاقته بسوزى ديبون أن يثبت مثاليته، ولو أدى ذلك الى فسخ العلاقة، أما فؤاد فانّ علاقته بمادلين كانت دليلا على مثاليته، ولهذا كان حريصا عليها في حدود امكاناته وقدراته. وعلى الرغم من أنّ علاقته بمادلين في بدايتها كانت نوعا من التحدى لهذا الجو بشكل عام، الا أنها عندما تطورت أصبحت تحتل في نفسه مكانة كبيرة فقد أراد أن يكتشفها وأن ينالها ولا سيما عندما قالت له "أنت تتكلم كشاعر."(٤)

---

١) صباح محي الدين، خمر الشباب، ص ٥٣

٢) المصدر نفسه، ص ٦٤

٣) المصدر نفسه، ص ٩٢

٤) المصدر نفسه، ص ٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لأنّ الاتهام بالشاعرية (وهي صفة مثالية في التصور العام) ، ذكره بتجربة فاشلة له في الوطن ، فشل فيها لأنّ صاحبتها قالت:

" حسبته رجلا فاذا به شاعر، الشعر جميل ولكنه لا يكفي . "(١)

فهي نكأت بهذه الصفة - التهمة ، جرحا يريد له أن يندمل لكي يندمج في هذا الواقع الجديد .

وقد أرادت هي تحت ضغط الجو الذى حولها أن تثبت له أنها لا تقل تجربة وخبرة عن كثير من النساء فتجاوبت معه " خوف أن يظنني فجة لا أعرف الحياة وخاصة بعد الحوار الذى دار بيننا ، وحاولت أن أظهر فيه ، بمظهر من طعم الحياة وخبرها ، ولم يعد يدهشه أو يفاجئه شيء . . . ثم لقد أعجبني ساعة رأيته ، . . لعلني أردت أن أثبت لماريان أنني لا أقل عنها خبرة وتجربة . "(٢) ، فؤاد ومادى يشعران بغربة عن اصدقائهما ، وهما مضطران في الوقت نفسه ، بحكم الصداقة أن يعيشا أجواء هذه الصحبة ، فكان التقاؤهما تحقيقا للتوازع المثالية في نفسيهما معا .

فقد تحقق في مادى الكثير من مواصفات المرأة المثالية ، فهي جميلة ، تشعر مثله بالقلق والعزلة والوحدة وهي " وحيدة في لندن أحس بالضجر يكاد يخنقني . "(٣) وهي " فتاة جديرة بأن تعرف ، جديرة بالصداقة لما فيها من طهر عميق ونضوج طالما نشده عند الفتيات علم يجده ، انها خير رفيق وصاحب ، يحسّ معها بأنه في حضرة اسنان يمكنه أن يكشف له خباياه ، وما يختلج في أعماق نفسه من أفكار يخفيها عن الناس ووجدها تتجاوب معه ، وتستجيب له على صعيد واحد ، كأنهما آلتان موسيقيتان تعزفان لحنا واحدا . "(٤)

---

١) صباح محي الدين ، خمر الشباب ، ص ٣٤ ، ٣٥

٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٩

٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٠ ، ١٠٢

٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه الصفة الأخيرة مهمة جدا ، فقد كانت علاقات فؤاد بمن حوله ولا سيما بالنساء قابلة لسوء الفهم نظرا لهذه الصفات التي يتميّز بها فؤاد ، وأهمها حذره الشديد من المرأة هذا الحذر الذي يلتبس بسوء الظن ، من هنا كانت علاقته بها علاقة اندغام ، وهي علاقة تختلف وتلتقي مع مفهوم محسن في علاقته بالمرأة ، فمحسن لا يسمح للمرأة أن تقترب منه ولهذا يحبها وهي بعيدة ، أما عند الاقتراب فتسقط ، أما فؤاد فيقيم علاقة مع مادى ، ويلتقي معها ، ولكنه يظل حريصا على أن تكون بينهما مسافة غير قابلة للتجاوز ، وذلك خوفا من السقوط .

ولقد أضفى فؤاد على مادى ، ما يضفيه المثاليون دائما على علاقاتهم فهي علاقة صوفية فيها استغراق كلّي شمولي لشخصيته يفصله عن العالم الخارجي " أينما كنا في الشارع ، في السينما ، في البار ، على النهر نحس أننا نشكل عالما خاصا لا علاقة له بلندن وبشوارعها وبسكانها ."(١) ، ولذا يحرص فؤاد على اشتداد علاقته بمادى ونعني بذلك أنه يمتلك " الرغبة العارمة في أن يرتفع الحب دوما الى أقصى درجات العنف ، والانفعال ، والجيشان ، أى أن تكون شعلته دوما ملتهبة ومتوهجة ."(٢) ، وهذا يفسر رغبته في أن تبقى العلاقة بينهما عذرية أو شبه عذرية ، لأنه لا يريد أن تتحطم صورتها المثالية الجميلة على مذبح الجنس ، فتتحول الى امرأة من لحم ودم وهذا يعني تدمير العلاقة . وهذه الرغبة دفعته الى أن يمارس الكف ، يقول " أنا الآن أعيش في واحة جوها هادئ ، وقطوفها دانية ، الا أني أخشى على الثمار حتى من اللمس فكيف بالتذوق ؟ أريد أن يكون حبنا فريدا صوفيا ."(٣) ، بل انّ هذا الاستغراق الشامل صرفه عن التفكير في مستقبل هذه العلاقة لأن المستقبل يمثل بالنسبة له " اللحظة التي سيضطر

---

١) صباح محي الدين ، خمر الشباب ، ص ١١٤

٢) صادق جلال العظم ، في الحب والحب العذري ، ص ٣٧

٣) صباح محي الدين ، خمر الشباب ، ص ١٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيها الى الاختيار والخروج من عالم الحب الهائي الى عالم الواقع الجاف الذي لا يعترف بالأحلام ولا بالمطلق ولا بالمثل الأعلى ."(١)

ولكن الروائي يعرف بيد من يضع السكين التي تقطع أوصال هذه العلاقة، فلقد اختار أن يقوم والد فؤاد بهذا الدور، فبعث له برسالة يخبره فيها أنه قد خطب له ابنة عمه درية وأن عليه أن يعود فورا . ولقد وصلت الرسالة ومادي في سويسرا فكانت امتحانا عميقا لهذا الحب، باعتبار أن مادي غير موجودة، ولهذا فقراره يمثل القناعة الحقيقة التي قد يمطيها وجود مادي نوعا من المجاملة. ولم يبشر فؤاد بل استسلم بصمت عميق، وعاد الى الشرق وهو ثمل من السكر معتقدا " ان مادي ستظل عندك ربيعا طفوليا يبقى عبقه في زوايا النفس الى الأبد ."(٢) وأن " المرأة التي نحبها يجب الا نتزوجها ."(٣)

وهذه الفكرة تتوافق مع رؤية المذريين للحب، فهم حريصون على ابقائه الى الأبد " أو مدى الحياة في أقصى درجة ممكنة من الاشتداد والحدة فلا يطرأ عليه وهن أو انحلال أو ملال ."(٤)

ان الروح (المحافظة) والتقليدية في الشرق هي التي قضت على مثالية هذا الحب، ودمرت تلك الرؤى الجميلة التي نسجتها علاقة الحب مع مادي والتي يقول عنها فؤاد :

" هل حاولت أن تقبض يوما على قوس قزح ، أو تمسك بين أصابعك بنقط الندى على خيط خيط عنكبوت؟

جمال قوس قزح ، ونقط الندى قائم بذاته لا يحتمل اللمس، أقل مس يحطمه ويذهب به هباء، وكذلك الحب في نظري ."(٥)

---

(١) صباح محي الدين ، خمر الشباب، ص ٢١٤

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٦

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٤

(٤) صادق جلال العظم، في الحب والحب العذري، ص ٧٥

(٥) صباح محي الدين ، خمر الشباب، ص ٢٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن فؤادا في هذه المثالية ينتمي الى الغرب، ويبقيه في خاطره حلما يتمنى أن يعيشه دائما ، وينفر من الشرق ، ويذهب لمواجهته ثملا مشبعا برؤى وخيالات الماضي السعيد .

وهنا يختلف فؤاد عن محسن ، فهما مشدودان الى الشرق ، ويشكل الانشداد عند محسن لب مثاليته ، ولهذا يتميز انشداده بالحنين .

في حين تكون علاقة فؤاد بالشرق ، واقعة في اطار الجبر واللااختيار كما قال له ابن عمه " أبوك اختار لك المدرسة ، والجامعة ، والمجيء الى لندن ، وها هو يختار لك خطيبتك ، وغدا يختار لك العمل في حلب، وسيختار الازواج والزوجات لأولادك اذا أطال الله عمره . "(١)

فقام فؤاد بقلب الوضع، فاذا كان محسن وصديقه ايفان ، مشدودين الى سحر الشرق ، فان فؤادا ينفر منه لا يربطه به الا العلاقة المادية التي دمرت احلامه في اوروبا وقضت عليها .

أما سويلم بطل رواية جمعة حماد "بدوي في اوروبا" ، فقد كان ذهابه الى اوروبا خاضعا لمنطلقين :

منطلق الوصاية ، وهذه الوصاية أتت من كونه يجهل طبيعة البلاد الذاهب اليها جهلا تاما .

ويتمثل هذا الجهل بعدم معرفته للغة الألمانية ، وهذا الحاجز حال بينه وبين معرفة الحضارة ومنتجاتها بشكل مباشر وجعل رحلته " لا قيمة لها ما دام هذا البرزخ الكبير يفصل بينه وبين الناس. "(٢) ، أي أن حاجز اللغة منع قيام علاقة ثقافية وحضارية تنبع من مخالقاته الفردية ، وجعله مضطرا للاستعانة بشرح (عبد الله) أو من يحيطون به ، والى السير مثلما يريدون .

ولعلّ كثرة انتقادات سويلم ، وازدياد عجبه من مشاهداته وأنماط السلوك التي

---

١) صباح محي الدين ، خمر الشباب، ص ٢٥٤

٢) جمعة حماد ، بدوي في اوروبا ، ص ٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يراها ، كان لأن سويلم ينقاد الى أوامر صاحبه ، ويذهب معه الى حيث يشاء وليس حرا في الرفض الا في الاطار الذى وضعه عبدالله .

أما المنطلق الثاني ، فهو منطلق يتواءم مع طبيعة سويلم نفسه ، ويصدر عن قيم البداوة التي يؤمن بها سويلم ، وهذا المنطلق هو كون " الضيف أسير المحلي . "(١)

وهذان المنطلقان جعلا سلوك سويلم ، ومشاهداته محكومة برأى صاحبه ، وثقافته وطبيعة فهمه للأشياء .

ولكن سويلم مع ذلك يلتزم في سلوكه بمثالية صارمة ترفض واقع الغرب المادى ، وتحلله الأخلاقي . صحيح أنه لا ينطلق في رؤيته من منطلق فكرى متبلور فلم يكن " من خريجي الأزهر ، أو اولياء الله قراء القرآن . "(٢) ، ولكنه يلتزم بمثالية تنبع من فطرته ، فهو بدوى ، مسلم ، وجد نفسه ، في مواجهة حضارة صناعية متقدمة ، ذات مقاييس أخلاقية تصطدم بمقاييسه ، فارتد الى بداوته ، واعتصم بها رافضا بشكل قاطع جميع افرازات هذه الحضارة ولا سيما الاجتماعية منها .

ولقد كانت مظاهر التحلل الأخلاقي التي وقف عندها سويلم وانتقدها كثيرة جدا ، فلقد رأى كثيرا من أنماط السلوك المنافية للأخلاق . "(٣) ، ولهذا شعر بصدمة عميقة من مشاهداته تلك ولقد كان سويلم يشعر أنه كمن يمشي في حقل ألغام ، " ومن يدرى ان هؤلاء جميعا انما يمثلون دورا معينا ليتخذوا منك يا سويلم سخرية ومضحكة وأنت لا تعرف عادات القوم ولا تعرف طريقة حياتهم . "(٤) ، ولهذا كان يتخوف أكثر ما يتخوف من أمرين :

---

١) جمعة حماد ، بدوى في اوروبا ، ص ٦٥

٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٨

٣) المصدر نفسه ، ص ٨٠ ، ١١٠ ، ١٩٠ ، ٢٠٨

٤) المصدر نفسه ، ص ٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخمر والمرأة.

فقد كان يعتقد بناءً على وصايا زوجته أنّ الخمرة تذهب قدرته على التفكير وتجعله لا يستطيع التفريق بين أمه وزوجته، ولهذا رفض شرب الخمرة والبيرة رغم الالحاح المتواصل عليه فلقد وضعت المضيفة بين يديه زجاجات كثيرة " وظلت تقلّب لـــه زجاجة، زجاجة، وعبد الله يترجم، وقد ارتج على سويلم فلا يحير جوابا " هـــذا نبيذ بافاريا، هل تفضل الفودكا شراب روسيا، وهذه شمبانيا، وهذا جن) وهنا انتفض سويلم (أى والله جن) فأدرك عبد الله أن سويلم لن يشرب شيئا."(١)

ولقد أفلح سويلم في الخروج من هذه المآزق على كثرتها وعلى الرغم من الصراع العميق الذى ولدته في نفسه.

ولكنّ هذه المآزق كانت امتحانا لصلابته، فلم يضعف ولم يتحول فرغم تأكيـــدات عبد الله " بأن هذا الشراب الزيتي الأصفر الكريه، هو لذة للشاربين لا يســـكر ولا يذهب العقل."(٢)، الا أن سويلم أصرّ على أن يطابق المثل القائل :" كل واشرب ما يعجبك، والبس ما يعجب الناس."(٣)، وكما رفض شرب الخمـــرة، رفض الاقتراب من نساء ألمانيا، الا في حدود التعامل العادى.

ورفض كل ما من شأنه أن يكون جسرا تعبر منه المرأة اليه كالرقص، لأنّ مثل هـــذا العمل مشين - في نظره -، لا يمكن أن يقوم به غير النور ولأن المرأة من خلالـــه تحك جسمها بأجسام الرجال."(٤)، ولهذا استغرب الحرية المعطاة للمرأة في المجتمع الألماني، على شتى الأصعدة، فهي تعمل مع الرجال، ولا تـــتزوج الا في سن متأخرة، ولقد ذهب مع صديقه الألماني عبد الله، ومع رجل ألمانـــي آخر وبرفقتهم ثلاث نساء (نيلي ولورا وماريانا) الى المسرح وقامت لورا بمحاولة لاثارته، ولكنها لم تفلح في ذلك، ولم تفلح محاولات عبد الله وزملائه في حمله على

---

١) جمعة حماد، بدوى في اوروبا، ص ٤٤، وانظر ص ٧٨، ٨٠، ٩٠، ١٠٠

٢) المصدر نفسه، ص ٧٩، ٨٠

٣) المصدر نفسه، ص ٨٠

٤) المصدر نفسه، ص ١٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرقص مع لورا . وكان صمود سويلم وعدم انزلاقه " خوفا مما يعرف أنه يسيحل به وما يعرفه سويلم كفيل أن يقشعر البدن وأن يبخّر كل اغراء شهواني يداهمه كان سويلم يتصور أنه لو فعلها فكأنه ينظر الى أعضائه ممزقة بين السماء والارض وقد تمزقت الطائرة، وكان سويلم يعتقد أنه لو اعتدى على عرض أحد ، فان أحدا سيعتدى على ام سليمان ، أو حتى ممكن أن يورث هذه العملة لبناته ." (١)

فاذا كان سويلم يخشى من الخمرة لأنها قد تقوده الى المرأة وهو غير واع، فانه يخشى أن يقع في تجربة محرمة مع امرأة ألمانية، خوفا من العذاب في الآخرة ومن الفضيحة في الدنيا . فسويلم يتمسك هنا بتعاليم الدين الاسلامي ، تمسكا فطريا يواجه بها كافة الاغراءات.

من هنا نرى أن سويلم مستعد لأن يتغير في حدود التغير الشكلي كأن يستعمل الشوكة والسكين ، ولكن الحضارة الغربية تقف عاجزة عن التأثير فيه ، فلقد شهد له عبد الله أنه " لم يذق طعم الخمر ولم يقرب امرأة على كثرة المعروض." (٢)

ولا يقف سويلم عند حدود تجربته الشخصية المباشرة ، وانما يوسّع دائرة تعامله مع الحضارة الغربية ، فيزور الكنيسة متخيلا أن هذا المكان سيمج بالمصلين والعابدين ، ولكنه لم يجد الا ثلاثة من رجال الدين ، وعندما يزور مكانا خاصا بالبغاء، يرى الناس مزدحمين فيه فيعلل ذلك بقوله " ان الناس هنا لا يعرفون الله." (٣) ، ويتساءل " كيف لا يخافون الله من الحرام." (٤)

ويلتقي سويلم عن طريق عبد الله بامرأة المانية مسلمة اسمها مريم ، وتقوم مريم - مع اختلاف بسيط - بدور ايفان في رواية الحكيم ، فهي امرأة المانية مسلمة ، تحب الشرق ، وتعتقد " أن الحياة في البادية هي جنة الحرية ، وموطن الحضارة ومهبط الالهام." (٥) ، وترفض الحضارة الغربية من منطلق اسلامي لما فيها من " انحلال وانفراط عقد الاسرة وجنون الشهوة ، وسيطرة المادة ، وتطور العلم

---

١) جمعة حماد ، بدوي في اوروبا ، ص ١٢٨

٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٨

٣) المصدر نفسه ، ص ١٦٣

٤) المصدر نفسه ، ص ٢١٥

٥) المصدر نفسه ، ص ١٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذى امتلكته هذه الشهوة الجنونية."[١]، ويجد سويلم فيها ضالته المنشودة فيرتاح لموقفها ذاك، ويرتاح لاحتشامها، ولعدم شربها الخمرة، ولعدم أكلها لحم الخنزير، وينصح عبد الله بالزواج منها لأنها "أشرف بنت رأيتها في هذه البلاد، والله لو شاورتني في أن تتزوج ما وصفت لك أفضل منها، فسكت عبد الله وقد اكتسى وجهه بملامح الجد."[٢]

وتنتهي الرواية بالحفل الذى يقيمه عبد الله في بيته، وباجبار سويلم على الرقص مع سونيا، عندها يصمم سويلم على العودة. وتعلل مريم سبب استعجاله للعودة "أن الحضارة وتحللها وفسادها وقفت جامدة بمفرياتها عندما اصطدمت بهذه الفطرة السليمة، فطرة سويلم."[٣]، وعندما يعود سويلم تأتيه برقية من عبد الله ومريم يخبرانه فيها بأنهما تزوجا على سنة الله ورسوله.

"فوقف سويلم يهرول لا يسعه المكان من الفرح، وكأنه قائد هزم عدوه هزيمة ساحقة."[٤]

لقد كانت النهاية اشارة الى الصراع العميق بين الحضارتين، والى دور الدين الاسلامي في تجنب الحضارة الغربية الانهيار، وأن عليها اذا أرادت البقاء أن تتمسك به، ولهذا اقتنع عبد الله بسلوك سويلم، على الرغم من بساطته وفطريته ونظرت اليه مريم "كنبي من أنبياء الشرق جاء في زيارة عابرة الى بلادهم."[٥]

---

١) جمعة حماد، بدوى في اوروبا، ص ٢١٥

٢) المصدر نفسه، ص ٢٢١

٣) المصدر نفسه، ص ٢٣١، ٢٣٢

٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٤

٥) المصدر نفسه، ص ٢٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د) التوازن :

نعني بالتوازن ،: قدرة الشخصية الروائية على التعامل مع الواقع الجديد بموضوعية ، بدون أن تلغي أهواؤها ورغباتها ، فتحجب عنها امكانية الرؤية الصحيحة لما يدور حولها . فاذا كانت شخصية مثل شخصية أديب تجنح بسبب مزاجيتها الحادة الى العزلة و شخصية مثل محسن الى الحلم والمثال ، وترفض رؤية الواقع كما هو عليه ، فان الشخصيات الروائية المتوازنة تدرك واقعها ، وتحاول معرفة الواقع الجديد الذى تتعامل معه ، وتسعى جاهدة لكي تخلق نوعا من الحوار بينها وبين هذا الواقع، ينتهي بها هذا الحوار الى تفهمه ، ولكن دون أن يعني ذلك التفهم ، قبوله ، والارتضاء به ، والتصالح معه دائما .

ولعلّ شخصية اسماعيل بطل رواية يحي حقي " قنديل ام هاشم" تمثل هذه الفكرة التي تحدثنا عنها ؛ ولد اسماعيل في وسط شعبي فقير ، وهو حي السيدة زينب ، وهو ينتمي الى اسرة اعتادت على تقديس ام هاشم ، والتبرك بها قبل أن تسكن القاهرة ، وظلّت على هذه العادة بعد أن سكنتها ، وقد كان جده وهو صبي اذا قدم القاهرة " دفعه أبوه اذا أشرفوا على مدخل مسجد السيدة زينب - وغريزة التقليد تغني عن الدفع - فيهوى معهم على عتبته الرخامية يرشفها بقبلاته ، وأقدام الداخلين والخارجين تكاد تصطدم برأسه ." (١) ، بل ان أم هاشم تدخل في جميع تفصيلات حياة هذه الأسرة ، " فاعياد الست أعيادنا ، ومواسمها مواسمنا ، ومؤذن المسجد ساعتنا ." (٢)

وعند نجاح اسماعيل وفيت النذور لأم هاشم ، وأطلق لها البخور ، فاسماعيل يعيش في حي السيدة زينب ، بجسده وروحه معا ، وهو يشترك في هذه الناحية مع محسن

---

١) يحي حقي ، قنديل أم هاشم ، ص ٥٩

٢) المصدر نفسه ، ص ٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بطل رواية الحكيم "عصفور من الشرق" فهما يتشابهان في اضفاء الطابع الروحي على السيدة زينب، وعلى علاقتهما بها، فاذا كان محسن يعتقد أن السيدة زينب تفرّج عنه الكروب، وتسهم ينجاحه عندما ترضى عنه، فان اسماعيلاً يعتقد أن زيتها يشفي مرضى العيون "ومن لم يشف فليس لهوان الزيت، بل لأن ام هاشم لم يسمها بعد أن تشمله برضاها."(١)

ثم ذهب اسماعيل الى لندن، ليتخصص في طب العيون، ومكث هناك سبع سنوات، غيرت حياته تغييرا جذريا، وواجه فيها من المشكلات الشيء الكثير، ولكن هذه المواجهة لم تجعل اسماعيل مثاليا، يرى حاضره على ضوء روحانيته، ولم تجنح به الى العزلة، ولكنها أسهمت في صقل شخصيته، واعادة صياغتها على ضوء معطيات الحضارة الجديدة، حيث نجح في تخصصه نجاحا باهرا حتى "شهدت له جامعات انجلترا بالتفوق النادر والبراعة الفذة."(٢)، وفوق هذا النجاح العلمي، نجحت الحضارة الغربية في قلب حياته، أوضح لنا الروائي بتكثيف شديد كيف أن "سبع سنوات قضاها في انجلترا قلبت حياته رأسا على عقب، كان عفا ففوى، صاحيا فسكر، راقص الفتيات وفسق."

هذا الهبوط يكافئه صعودا آخر لا يقل عنه جدة وطرافة، تعلم كيف يتذوق جمال الطبيعة، وتمتع بغروب الشمس - كأنه لم يكن في وطنه غروب لا يقل عنه جمالا - وكيف يستمتع ببرد الشمال."(٣)، وهذا التغيير يدل على أن اسماعيل قد تحول تحولا جذريا على الصعيد الأخلاقي، وهذا التحول نقله من النقيض الى النقيض، ولكن ثمة اضافات للناحية الجمالية في شخصيته. وقد يقال ان ما خسره اسماعيل

---

١) يحي حقي، قنديل ام هاشم، ص ٧٢

٢) المصدر نفسه، ص ٧٤

٣) المصدر نفسه، ص ٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أضعاف ما كسبه، ولكن المهم هنا أن اسماعيل ظل محافظا على هذا التوازن من خلال حركة الهبوط والصعود .

واذا تذكرنا الوسط الديني الذى عاش فيه اسماعيل ، ذلك الوسط الذى أجبره على أن يحمل بين امتعته قبقابا لأن الوضوء في اوروبا متعذر، أدركنا أن تغير اسماعيل لم يكن سهلا على المستوى النفسي .

من هنا كانت طبيعة العلاقة بينه وبين الغرب تتخذ شكل الحوار، وهذا الحوار يكشف عن ملامح الايجابية في شخصية اسماعيل ، فهو قابل للتغيير اذا اقتنع بضرورة هذا التغيير.

ويكشف أيضا عن مدى الاختلاف الشاسع بين اسماعيل وتفكيره وبيئته ، وبين الحضارة الجديدة ، وتفكيرها ، وقيمها .

ولهذا يكون دور مارى يتمثل في محاولة مدّ الجسور بينه وبين هذه الحضارة الجديدة فهي تجسّد (صورة للحضارة الغربية) في واقعيتها ، وتجددها المستمر، وعدم قبولها للجمود والركود ، وفي قدرتها على الرفض، وعلى الحسم والاختيار، وعدم الايغال في العاطفة. ولقد كان اسماعيل نقيضا لها في صفاته، وكان على مارى أن تحوله تحويلا جذريا .

" قال لها يوما : سأستريح عندما أضع لحياتي ، برنامجا أسير عليه، فضحكت وأجابت: يا عزيزى اسماعيل : الحياة ليست برنامجا ثابتا ، بل مجادلة متجددة .

يقول لها : تعالي نجلس، فتقول له : قم نسر، يكلمها عن الزواج ، فتكلمه عن الحب، يحدثها عن المستقبل ، فتحدثه عن حاضر اللحظة ، ان أخشى ما تخشاه هي القيود وأخشى ما يخشاه هو الحرية ." (١) ، ولكن هذا التحول ما كان ليتم بسهولة ، فان الوصول الى قناعة جديدة قد يتم بازالة القناعة الماضية ، ولكن تحول اسماعيل كان انقلابا كاملا ، ونقلة حضارية فلا بد أن يستدعي ذلك قلقا وجوديا .

١) يحي حقي ، قنديل ام هاشم، ص ٨٦، ٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلقد انتقل من مؤمن بالدين وبالقداسة، الى الكفر بها، وانتقل من عالم أم هاشم الروحي " فبدا له الدين خرافة لم تخترع الا لحكم الجماهير." (١)، وأصبح لا يفكر في " جمال الجنة ونعيمها، بل في بهاء الطبيعة وأسرارها." (٢)، واطرح الاعتقاد بالدين كمنهج حياة، واستبدل ايمانا أشد بالعلم. ولهذا كاد أن ينهار، وتنتهي به مواجهته لهذه الحضارة، وما أفرزته من انقلابات في حياته الى مصير أديب. فلقد وصل الى مرحلة " لم تقو أعصابه على التحمل الذي وجد نفسه غريقا وحيدا في خلائه، فمرض وانقطع عن الدراسة، وافترسه نوع من القلق والحيرة، بل بدت في نظره أحيانا لمحات من الخوف والذعر." (٣)، انّ هذه العوارض هي العوارض نفسها التي مرّ بها أديب في شعوره بالمرض، فالعزلة، فالجنون، فالموت. ولكنّ مارى لم تتخل عنه، فاجتاز " هذه المحنة التي يتردى فيها الكثيرون من مواطنيه الشباب في اوروبا، وخلص منها بنفس جديدة مستقرة، ثابتة وواثقة." (٤)

ولقد واجه اسماعيل بعد العودة الى مصر، مشكلة شبيهة بالمشكلة التي واجهها اثر اصطدامه بالحضارة الغربية. فلقد غادر هذا الوسط الشعبي الفقير، وغاب عنه سبع سنوات تغير هو في أثنائها، وتحول تحولا تاما، وبقي الوسط الذي كان يعيش فيه على ما هو عليه. ولقد فوجئ اسماعيل بهذا الوسط أشد المفاجأة، منذ لحظات اللقاء الأولى، " حتى في اللحظة التي كان يجب أن تشغله سعادة العودة الى أحضان والديه عن القياس والمقارنة والنقد، لم يملك نفسه عن التساؤل، كيف يستطيع أن يعيش بينهم." (٥)، وأولى المشكلات التي يصطدم بها، تكون اصابة فاطمة النبوية برمد في عينيها، ويرى أمه تقطرها بزيت من قنديل أم هاشم، فيثور عليها وينتزع من يدها الزجاجة بشدة وعنف ويطوح بها من النافذة.

---

١) يحيى حقي، قنديل أم هاشم، ص ٨٨

٢) المصدر نفسه، ص ٨٩

٣) المصدر نفسه، ص ٨٨، ٨٩

٤) المصدر نفسه، ص ٨٩

٥) المصدر نفسه، ص ٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصمم على تحطيم القنديل ، ويذهب الى هناك فيرى أن القنديل " تفوح منه رائحة اختراق خانقة ، أكثر ما ينبعث منه دخان لا بصيص ضوء ، هذا الشماع اعلان قائم للخرافة والجهل . "(١) ، فحمل عصاه وأهوى بها على القنديل ، فحطمه وتناثر زجاجه ، فهجمت عليه جموع الناس وضربته ضربا مبرحا ، وكاد يموت لولا أن أنقذه الشيخ .

في هذه الفترة يأس من الحياة في الوطن ، وهم بالرجوع الى انجلترا ، ولكنه أقبل على علاج فاطمة النبوية ، كما كان يعالج الحالات الشبيهة بها في انجلترا ، ولكنه فشل في ذلك ، فاسودت عيناها ، والتهبتا واختلط سوادهما بالبياض " وأخيرا استيقظت فاطمة على صباح وهي تفتح عينيها ولا ترى ، لقد انطفأ آخر بصيص تتعزى به . "(٢) ، ومع مجيء رمضان ، أخذ اسماعيل يبحث عن سبب فشله بالرغم من علمه الغزير .

وقاده هذا البحث الى المقارنة بين حضارة الشرق ، وحضارة الغرب . فبدا له المصريون في البداية " جنس سمج ، ثرثار ، أقرع ، أمرد ، عار حاف ، بوله دم ، وبرازه ديدان . يتلقى الصفعة على قفاه الطويل بابتسامة ذليلة تطفح على وجهه . "(٣) ولكن اليقين يعود اليه في ليلة القدر ، على شكل الهام ، فبدأ يؤمن من جديد بحضارة الشرق وأصالته ، وبدا له المصريون " شعبا حافظ على طباعه وميزاته ، رغم تقلب الحوادث ، وتغير الحاكمين ابن البلد يمر أمامه كأنه خارج من صفحات الجبرتي ، اطمأنت نفس اسماعيل وهو يشعر أن تحت اقدامه أرضا صلبة . "(٤)

وبدا له نور القنديل كما كان يبدو له قبل ذهابه الى اوروبا ، ووصل الى التوازن الذي كان يسعى اليه ، " أن لا علم بلا ايمان . "(٥) ، فأخذ من زيت القنديل

---

١) يحي حقي ، قنديل ام هاشم ، ص ١٠٣

٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٩

٣) المصدر نفسه ، ص ١٠١ ، ١٠٢

٤) المصدر نفسه ، ص ١١٦

٥) المصدر نفسه ، ص ١١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" وعاد من جديد الى علمه وطبه يسنده الايمان لم ييأس عندما وجد الداء متشبثا قديما ، يجادله بعناد ولا يتزحزح ثابرا واستمر ولاحت بارقة الامل "(١).

ثم شفيت فاطمة من رمد العيون ، وتزوجها وأنسلها خمس بنين وست بنات. وكان في آخر ايامه ضخم الجثة ، أكرش، أكولا نهما ، كثير الضحك والمزاح ، ملابسه مهملة تتبعثر على أكمامه وبنطلونه آثار رماد سجائره التي لا ينفك يشعلها جديدة من منتهية ."(٢) ، ثم يصاب بالربو، ويموت، ويظل أهل الحي يذكرونه بالجميل والخير ويسألون الله له المغفرة .

فلقد كان سعي اسماعيل لكي يحافظ على توازنه ، سعيا حثيثا انتهى به الى الاندماج الكامل في بيئته ، كأحد (أبناء البلد) ، وتحول العلم الذى أتى به من اوروبا ، الى سلوك يعالج به الفقراء والفلاحين .

من هنا كان بطل الرواية متوازنا على شتى الأصعدة . فلقد أخذ عن الغرب التفكير العلمي ، ولكنه رأى أن لا فائدة منه ان لم يسنده بالايمان .

فقد لاحظ اسماعيل " ان فاطمة لم تستجب لعلاجه لأنها لم تؤمن به فأتاها بشيء تؤمن به وهو زيت القنديل ، وضمه الى جوارها وبدأ علاجه الطبي .

لم يستعمل الزيت قط وسيلة للعلاج وانما ضمن به حسن نية المريض وتعاونه . وكان في هذا تنازل لا شك فيه ، ولكنه ليس تنازلا عن المبدأ وانما عن الوسيلة . لم يكن فيه دعوة للخرافة وانما محاولة لتطويق الخرافة ، وعزلها ثم تجاوزها واحلال العلاج الطبي العلمي محلها ."(٣)

لقد جسّد يحي حقي في روايته موقفا حضاريا متكاملا ، فلقد اختار فاطمة النبوية رمزا لمصر ، واختار لبطله أن يتخصص في طب العيون ، وكانت فاطمة مصابة بالرمد ، وكان على اسماعيل أن يعالجها . وهذا يعني أن مصر كانت مصابة بفقدان القدرة

---

١) يحي حقي ، قنديل ام هاشم ، ص ١١٩

٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٢

٣) علي الراعي ، دراسات في الرواية المصرية ، ١٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على الرؤية، ومعرفة السبيل القويم في بناء الحضارة.

وعندما حاول اسماعيل أن يعالج فاطمة، أي أن يقدّم الحل لمصر بعلم اوروبا، وبتر الماضي، رفضت فاطمة وأصيبت بالعمى نظرا لما يحمله اسماعيل من استعلاء على واقعها، ومحاولته فرض علمه عليها فرضا تعسفيا.

أما عندما أخضع العلم الاوروبي، الى طبيعة البيئة المصرية وما فيها من بساطة، فقد شفيت فاطمة، وأبصرت.

ولهذا اتخذ هذه البساطة منهجا في العلاج "كم من عملية شاقة نجحت على يديه بوسائل لو رآها طبيب اوروبا لشهق عجبا، استمسك من علمه بروحه وأساسه، وترك المبالغة في الآلات والوسائل واعتمد على الله ثم على علمه ويديه، فبارك الله له في علمه ويديه"(١)، فهو لم يتخلّ عن الاسلوب العلمي الذي قبسه عن الغرب، ولكنه خفف من غلواء هذه الحضارة في ميلها الى التعقيد التكنولوجي مراعيا بساطة البيئة المصرية.

فانتهت الأمور باسماعيل الى التوازن العام على المستوى الشخصي، والحضاري، فعمل اسماعيل "هو الزواج المثالي بين العقل والروح، بين العلم والايمان، بين الحضارة الغربية والحضارة العربية. وبذلك يمكن أن نقول ان يحي حقي تخيل نوعا من المصالحة."(٢)

أما بطل رواية "الحي اللاتيني"، فان جوهر علاقته بالحضارة الغربية يقوم على أساس بحثه الدؤوب عن ذاته في سبيل اكتشافها لورد اليها توازنها المفقود، ولهذا كانت رحلته الى الغرب من أجل ذلك، وما الحصول على الدكتوراه في الآداب، والحصول على المرأة، الا محاولة لتحقيق التوازن الذي كان يسعى اليه في مجتمعه.

---

١) يحي حقي، قنديل أم هاشم، ص ١٢١

٢) شكري عياد، الرواية العربية وأزمة الضمير العربي، عالم الفكر، المجلد الثالث، العدد الثالث، ١٩٧٢، ص ١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان بطل الرواية في وطنه " صدفة جوفاء ملقاة على رمل شاطئ ، عودا فارغـــا من القش تتقاذفه بلا هوادة مياه نهر صاخب." (١)

من هنا كان يسعى الى أن تردّ له حضارة الغرب، الشعور بقيمته الفردية أى " أن تمتلئ الصدفة بمعنى من معاني الحياة ، وأن يقاوم عود القش تيار المياه الصاخب." (٢)

ثم سعى من خلال احتكاكه بالحضارة الغربية ، الى أن يعود لبلاده شخصيـــة جديدة ، ولهذا تميزت مواجهته للحضارة الغربية ، بمحاولة لتحقيق ذاته الفردية من جهة ، ولتحقيق النزعة القومية من جهة أخرى .

وقد وظفت أحداث الرواية مجتمعة في خدمة هذين الهدفين .

سعى بطل الرواية منذ البداية الى اقامة علاقة مع المرأة في فرنسا ، وكان ســـعيه هذا يمتاز بالحرارة العميقة والدأب المتواصل .

وفشل في بداية الأمر في اقامة العلاقة المنشودة معها ، التي كان يطمع أن تعيد له ثقته بنفسه . فكانت مجموعة التجارب التي مرّ بها تؤكد فشله ، ولموجه فـــي الوقت نفسه الى التوازن المنشود .

وكان لهذا الفشل أثر عميق على تكوينه الشخصي ، دفعه الى شيء من التناقض، فأخذ يكره الغرب، ويحن الى الماضي حنينا يعكس ألمه من هذا الواقع، أكثـــر مما يمثل حبه لذلك الماضي .

وكانت التجربة الأولى له مع فتاة في السينما ، فقد دخل السينما عندما رأى اللافتة تعلن عن فيلم بعنوان " غدا تبدأ الحياة" ، وكان الدخول لأن العنوان يتوافـــق مع حالته النفسية ، في واقعها المرير ، وتفاؤلها بالمستقبل ، هذا من جهة ، ومـــن جهة اخرى فقد رأى أسماء سارتر ، وأندريه جيد ، ولاغاش وبيكاسو ، فاســـتبشر خيرا لأن الفيلم أخرج للفئة المثقفة .

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني ، ص ٦

٢) المصدر نفسه، ص ٦، ٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنه عندما جلس بجانب فتاة لم يعد " يعنيه من الفيلم بعد ذلك شيء. ان هذه الفتاة تملأ الآن فكره ووجوده، وانّ قربها الدافئ يسعده بالرغم من أنها تبتعد عنه." (١)، ثم ضرب لها موعدا في اليوم التالي، فأخلفت الموعد.

وقد كان لاخلافها موعدها أثر عميق أفقده الثقة في نفسه، وتمثل ذلك في ثورته على المرأة الغربية، والتحايل على نفسه واقناعها بأن الأمر لا يعدو على أن الفتاة أعطت موعدا وأخلفت وهي بالتالي كاذبة.

ثم تعرف الى فتاة من فتيات الرصيف، فشرب معها كأسا من الخمر ثم قادته الى فندق وعندما افترقا، قالت له:

" أشهد أنك لطيف جدا، ولكني أعجب لشيء واحد: لماذا لم تنظر اليّ طوال هذه المدة؟ لماذا لم تتطلع في عيني؟ ألا يعجبك جمالي." (٢)، فهذه التجربة، أكدت فشله الأول مع فتاة السينما، وليس نجاحه هنا الا تعبيرا عن فشله في اقامة علاقة صحية مع المرأة يكون شخصه محورها من غير أن يستعين بالعوامل المساعدة كالمال.

ولهذا كان يتحاشى النظر الى عينيها، لأن النظر الى عينيها يؤكد فشله، ويؤكد أن العلاقة التي يعيشها غير صحية، وتتناقض مع طموحاته. من هنا حاول أن يجد العزاء لنفسه في هذه الفترة بالحنين الى الماضي وبالقراءة. فهرب من واقعه السيّء باللجوء الى الماضي، وبممارسة القراءة لأنه اعتقد أنه " في صفحات الكتاب سيجد راحة ضميره. ان الكتاب وحده سيحرره من قيود هذا العالم المعذّب الذي يعيش فيه." (٣)، انّ الكتاب يقوم هنا " بوظيفة تعويضية ولئن كان يبحث في صدر بالنا دفئا وحرارة فهذا على وجه التحديد لأنه بديل

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٣٢

٢) المصدر نفسه، ص ٤٣

٣) المصدر نفسه، ص ٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن المرأة، ونائب عنها وهو لا ينوب عنها عن سبق اختيار وانما عن قسر وجبر." (١)

ثم يتعرف الى ليليان عن طريق أحد أصدقائه الذين جاءوا الى باريس ويريدون مغادرتها، وكانت تجربته معها تحتوي على الفشل وعلى شيء قليل من النجاح.

فهي ناجحة اذا كان مقياس النجاح يتمثل في الحصول على جسد المرأة، وهي فاشلة لأنها انتهت به كما انتهت به مثيلاتها من تلك العلاقات، الى ازدياد سخطه ولا ثقته بنفسه وبالمرأة.

فهي أوهمته أنها شاعرة، وسرقت قصيدة "جاك بريفير" "فجور الصباح"، وادعتها لنفسها وسمتها "دون كلمة"، وسرقت ما في جيبه من مال.

وكانت تجربته مع مارغريت تتشابه في النتيجة مع تلك التجارب وان اختلفت في التفصيلات معها. فمارغريت هي التي اقتربت من عالمه، ولكنها خرجت تسب الرجال جميعا لأنانيتهم وتذمرتهم.

فمجموع هذه التجارب يؤكد سعي بطل الحي اللاتيني الى الحصول على التوازن باكتشافه لذاته، ومعرفته لمناحيها المختلفة، من خلال ثار على هذه العلاقات، لأنها لم تحرك فيه ساكنا، "أكان فيهما غير رغام؟ وحل؟ مادة قذرة." (٢)، ومن هنا كانت علاقته بجانين مونترو تمثل مرحلة اعادة التوازن له على المستوى الذاتي.

فهي تمثل الحبيبة التي كان يسعى جاهدا في البحث عنها "انك أنت الصورة التي تبحث عنها روحي منذ زمن بعيد، فتظل بعيدة بين ركام من الصور الباهتة العائلة. لم تراك يا جنين ظللت غائبة عن وجودي هذه الأعوام الطويلة؟ وهل ستظلين بعد الآن هذا الوجود الفارغ الذي يبحث أبدا عن معنى ذاته." (٣)

---

١) جورج طرابيشي، شرق وغرب، رجولة وأنوثة، ص ٧٧، وانظر الحي اللاتيني، ص ٨٤

٢) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٧٦

٣) المصدر نفسه، ص ١١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا الكلام وان كان يحتوى على الحديث المعروف الذى يقوله العشاق دائما ، ألا أنه يعبّر تعبيرا صادقا عن حالة بطل " الحي اللاتيني "، في نزوعه الى تحقيق التوازن .

وتختلف جانين مونترو عن تلك النساء اختلافا نوعيا ، فلقد تمثل فيها من المقومات الثقافية والروحية والجسدية ما جعلها " فارسة أحلامه"، ولكنها تميزت بميزة كان لها أثر كبير على علاقتهما فيما بعد ، وهي أنها فاقدة للثقة بالرجال بسبب خيانة خطيبها هنرى لها .

فكان عليه أن يعيد لها الثقة بالرجال ، مثلما كان عليها أن تعيد له ثقته بنفسه وبالنساء، واذا كانت العلاقة بينهما تنتهي بتحطم جانين ، فان في هذا دلالة على أنّ بطل " الحي اللاتيني" قد نجح في اعادة التوازن الى ذاته بشكل نهائي الى الحدّ الذى أصبح فيه قادرا على التخلي عن الرمز الذى أعاد له التوازن .

وتنتهي الرواية بحصول البطل على شهادة الدكتوراه في الاداب، وهذا يعني أنه نجح في تحقيق ذاته الفردية علميا أيضا . ولكن الرواية لا تقف عند البعد الذاتي ، بل تتحدث عن محاولة اكتشاف بطل الرواية للذات القومية عنده من خلال اكتشافه للفكرة القومية . وكانت الفكرة القومية بمثابة " الوعي" الذى تسلح به بطل الرواية لمواجهة طغيان الحضارة الغربية .

ولعلّ التناقض القائم بينه وبين هذه الحضارة ، قائم على أساس التضاد بين الفكرة القومية ، والحضارة الغربية ، بشكل صدامي ، الأمر الذى جعل البطل " يحتفظ بالتناقض بين الحضارتين دون الوصول الى حل ."(١)

بدأ بطل الرواية في محاولة اكتشاف ذاته القومية من نقطة الصفر، وهذا يذكرنا

---

(١) شكرى عياد ، الرواية العربية وأزمة الضمير العربي ،عالم الفكر، المجلد الثالث، العدد الثالث ، ص ١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بمحاولة اكتشاف ذاته الفردية، فهو في البداية لم يكن يحبّ لقاء الطلبة العرب، نظرا لما في سلوك بعضهم من المظاهر المؤذية، ولكن شخصية فؤاد قادته الى اكتشاف هذا البعد الجديد، مثلما قادته جانين الى اكتشاف ذاته، واعادة التوازن لها، وكانت الرواية مزيجا متناغما من هذين الاكتشافين معا، ثم أقنعه فؤاد بأن الشباب العرب " ضائعون يفتشون عن ذواتهم بأنفسهم. "(١)، وأنّ مرحلة التفتيش عن الذات لا بد أن يرتكب الانسان فيها " كثيرا من الحماقات" . وهذا يعني أن التميز الذي يشعر به بطل الرواية عن أقرانه العرب غير مبرر ومستساغ طالما أنه يمرّ في المرحلة نفسها .

اقتنع بطل الرواية بأفكار فؤاد ، وكانت علاقته بفؤاد مؤشرا على تطور الوعي القومي عنده، نظرا للعلاقة الروحية التي ربطت بينهما فجعلت في قلب بطل الرواية " رجاء أن يبقى له فؤاد صديقا أبد الدهر. "(٢)، ولذا استلهم من شخصية فؤاد .. مثله الأعلى ـ البعد القومي، وشيئا من المضمون الاجتماعي المرتبط بهذا البعد، فقد رأى فؤادا يرفض الزواج من فرانسواز، رغم أنها ترضي جميع نزعات نفسه (فهي جميلة ومثقفة)، بدافع قومي " اننا مدعوون يا عزيزتي الى مواجهة كثير من قضايانا القومية التي لا تعني أحدا سوانا وأنا لا اعتقد أنّ زوجة أجنبية تستطيع أن تعين زوجها في معاناة مثل هذه القضايا، انني أريد أن تكون زوجتي رفيقة حياتي، بكل ما في الرفقة من معنى، ولئن أنا تزوجت يوما، فلن أتزوج الا فتاة عربية وان فرانسواز لتعرف ذلك. "(٣)

وهذا الحديث توضيح لموقف بطل الرواية بشكل عام، فانّ فرانسواز، تمثل عند فؤاد المرأة الكاملة المنبثقة عن حضارة ترضي نزعات نفسه، ولكنه لا يستطيع الاقتران بها ،

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٨٧

٢) المصدر نفسه، ص ٨٩

٣) المصدر نفسه، ص ١٥٨، وانظر ص ٢٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لأنها لا تستطيع أن تعين زوجها في القضايا القومية، أو هي على الأدق تتناقض معه فيها، فيتزوج بمصرية، لكي تتمكن من اعانته، وفرانسواز تعلم بذلك، وهذا يعني أن كلا من فؤاد وفرانسواز على وعي بالتناقض القائم بين الحضارتين اللتين ينتميان اليهما. واذا كان فؤاد يرى أن الطريق لخدمة الوطن العربي تكمن في دخول "الحزب الذي يعبر عن نزعاتنا وأمانينا."(١)، لأن "العمل الحزبي هو من أنجح الأعمال وأثمرها في خدمة الوطن."(٢)

فان بطل الرواية يقترح على ضوء هذه الفكرة أن يؤلف الطلاب العرب في باريس رابطة لهم مكونة "من هؤلاء الذين تجمعنا بهم وحدة الروح والقومية والتاريخ واللغة والأرض."(٣)، ويكون هدفها "أن نوقظ نزعاتنا الكامنة في أعماقنا ونصهرها في بوتقة واحدة."(٤)، من هنا تفجرت التناقضات بينه وبين حضارة الغرب، فاذا كان هو يسعى اليها لكي يرد الى نفسه توازنها عاطفيا، وعلميا، فانه يثور على هذه الحضارة للوجه الاستعماري الذي تحمله والذي يناقض ويتصادم مع "القضية القومية في بلاد العروبة كلها."(٥)، لأن "الاستعمار يتوسل بكل وسيلة ليظل ثابت الأقدام في بلادنا."(٦)، ولهذا لا يستطيع بطل الرواية أن يضع حلا لطبيعة العلاقة مع الغرب. فاذا كان هو يحب جانين، وتبادله هي الحب باخلاص حقيقي، فانه يتخلى عنها بضغط من أمه، للتناقض المطلق بين جانين وبين بيئته التي ينتمي اليها.

فأمه ترى أن جانين "لم تكن بكرا لأنها كانت مغلوبة، فتاة لردها أهلها، فتاة

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٢٥٠، ٢٥١

٢) المصدر نفسه، ص ٢٥١

٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٢

٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٢

٥) المصدر نفسه، ص ١٥٦

٦) المصدر نفسه، ص ١٨٣، وانظر ص ٢٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التقطها من الطريق ، فتاة تشتغل في مخزن ، فتاة مسيحية من غير دينه ، فتاة ، أى فضيحة وأى عار سينصب على بيتنا ." [١] ، ويمكن أن نتوسع في فهم هذا الكلام اذا أدركنا أن التناقض بين جانين وأمه هو رمز للتناقض بينها وبين الوطن ، يأخذ شكل الاختلاف حول القيم الاجتماعية .

واذا كان هو معجبا بتقدم الغرب التكنولوجي ، فهو رافض لنزعته الاستعمارية ، التي تتعارض مع مبادئ الديمقراطية والحرية في الفكر الغربي نفسه .

ولكن هذا التناقض لا يدفع بطل الرواية الى الاضطراب ، ولا سيما في علاقته مع وطنه ، صحيح أنه فارق وطنه وهو " يريد أن ينسى حداثته وأصحابه وبضع فتيات عبرن حياته بغموض ، ليبدأ من أول الطريق انسانا جديدا يستلهم الحياة شخصية جديدة ." [٢] ، الا أنه عاد اليه بروح متوثبة للنضال ، ليجد فؤادا في استقباله وعندما تسأله أمه :

" لقد انتهينا يا بني أليس كذلك

أجابها من غير أن ينظر اليها

بل الآن نبدأ يا أمي ." [٣]

ان النهاية تشير الى التوازن الذى انتهى اليه بطل الرواية ، وعلى الرغم من التمزق النفسي الحاد الذى تركته في نفسه جانين ، الا أن الفكرة القومية كانت مشجبا وضع عليه كل هذا التمزق ، واستراح .

أما مؤلف رواية " الاصدقاء " ، فيكرس في شخص بطل روايته جمال ، نموذجا للشخصية المتوازنة .

ولكنه يخالف في بنائه لهذه الشخصية الروائية كلا من يحي حقي ، وسهيل ادريس .

---

١) سهيل ادريس ، الحي اللاتيني ، ص ٢٣٢

٢) المصدر نفسه ، ص ٦

٣) المصدر نفسه ، ص ٢٨٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاذا كان حصول اسماعيل في " قنديل ام هاشم" على توازنه قد تولد بعد مواجهة حضارية قلقة، تميزت بالصراع النفسي، وأدى الى تغير عميق في قناعات الشخصية الروائية، وقيمها.

واذا كان بطل الحي "اللاتيني" يحتفظ بالتناقض بين الحضارتين في سبيل خدمة الفكرة القومية، فان جمالا يمثل الشخصية المتوازنة، ذات الابعاد الجاهزة في مواجهة هذه الحضارة.

صور لنا المؤلف هذه الشخصية في لحظة المواجهة ناضجة، تخطت مراحل القلق، وصورها مستقرة متوازنة في جميع الأمور. فهو يسكن في شقة فخمة لا يستطيع الطلاب العاديون الحصول على مثلها اطلاقا و "لم يستغرب ذلك أحد على جمال فهو ابن الثرى الكبير." (١)

وهو يدرس الموسيقى في المعهد الموسيقي الفرنسي مخالفا رغبة أهله الذين "أرادوا أن يختار موضوعا يؤهله لاستلام أعمال والده التجارية الضخمة." (٢)

وأضفى المؤلف على جمال كثيرا من خصائص الشاب المتوازن، فهو شاب مجتهد مقبل على تمريناته الموسيقية بصبر وجد، "اختط لمستقبله طريقا عرف حدودها ومجالها ومشى عليها بخطى أكيدة." (٣)

وهو شاب هادئ، يحترم مشاعر الاخرين، ويحب مساعدتهم.

وهو على علاقة حب مع زميلة فرنسية له اسمها كلود، وتتميز هذه العلاقة معها بالصفاء، والتوازن العميق، وبالخلو من المشكلات.

وبغض النظر عن مدى نجاح الروائي أو فشله فنيا في رسم ملامح هذه الشخصية،

---

١) حسن جمال الحسيني، الاصدقاء، ص ١٦

٢) المصدر نفسه، ص ٧

٣) المصدر نفسه، ص ١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فان هذه الصفات انتجت شخصية روائية من الشخصيات ذات البعد الواحد ، والتي لم تستطع أن تعمّق أبعاد علاقتها بالحضارة الغربية ، بسبب هذا الرسم المحدّد لطبيعة هذه الشخصية .

من هنا بدأ المؤلف في كشف الستار عن شخصية جمال وهو في السنة النهائية لدراسته ، وهذا يعني أنّ الروائي لم يطلعنا على صورة جمال كلها ، ولم يرصد التطور في شخصية جمال ، وانما أرانا القسم الناضج منها . ولكي يجسّد الروائي هذه الصفات ، قام بتصوير شخصية أخرى تحمل النقيض لصفات جمال . وهذا يعني أنّ الروائي سيقوم بجعل الشخصيتين تسيران سيرا متوازيا ، لتقوم كل شخصية بأداء الدور الموكول اليها . وهذه الشخصية هي شخصية علي وهو طالب عربي فقير يدرس الحقوق في باريس " كان الصديقان متناقضين في كثير من مظاهر حياتهما "(١) ، فعلاقة الصداقة التي تربط بين جمال وعلي ، هي الخط الذي يربط سير الرواية ، وحركتها ، ويضبطها في الوقت نفسه .

ولعلّ هذا يفسّر طبيعة جمال السيكلوجية ، والفكرية والحياتية في مواجهته للحضارة الغربية . فهذه المواجهة تمتاز بالثبات العميق ، ونعني بالثبات أنها فاقدة للرؤية الدينامية ، ومصابة بنوع من الركود .

فاذا كان علي "يكره الاستقرار ، ويقول بأنّ الاستقرار ما هو الا خمول واستكانة ، وينادي بالثورة التي تعني التقدم والرغبة في الوصول الى الأفضل فالأفضل ."(٢)

فانّ جمالا ينبغي أن يكون على تضاد تام مع صديقه علي ، فهو يدعو الى الاستقرار والثبات واذا كان يسعى الى الكمال فانه " كان لا يرى الكمال الا في فنه ولا يسعى الى شيء سواه ."(٣)

---

١) حسن جمال الحسيني ، الاصدقاء ، ص ١٥
٢) المصدر نفسه ، ص ١٥
٣) المصدر نفسه ، ص ١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا التحديد في بناء هذه الشخصية الروائية جعل جمالا يركز في تعامله مع الحضارة الغربية الجديدة على أمرين :

الأمر الأول : علاقته بالموسيقى :

والملاحظ أن الرواية تكثر من ذكر علاقة جمال بالموسيقى ،على الصعيد النظري ،وعلى الصعيد التجريبي ، اكثارا ملحوظا . وقد يبرر ذلك بأن جمالا طالب في المعهد الموسيقي ، وأن زميلته كلود في المعهد نفسه ، ولا غرابة أن يكون تخصصهما مثار حديثهما . فترد في الرواية أسماء مثل بيتهوفن ، وشوبان ، وبراهمز ، وغيرهم . ويكثر الروائي من وصف تمرينات جمال ودراساته الموسيقية ، ولقد كان هدف جمال واضحا ومحددا ، فقد كان يهدف الى تلافي النقص في الناحية العملية ، فقد كان ضعيفا في الناحية التكنيكية ، وكان لهذا الضعف أثر نفسي سيء عليه " وكثيرا ما شعر بالفشل واليأس وأوشك بالاعتراف بالهزيمة وفكر بالعودة الى أحضان أهله . . . لم يثنه عن الهزيمة الا ارادة حديدية ، وايمان عميق بفنه وبواجبه ، وبفضل اجتهاده المتواصل تقدم تقدما محسوسا بسرعة كبيرة ."(١) ، وكان هدف الروائي من جهة أخرى أن يعطي المبرر الفني لنفسه عندما فوّز جمالا ، وجعله يحصل على الجائزة الاولى باجماع كافة المحكمين .

أما الأمر الثاني فهو علاقته بكلود :

كانت علاقة جمال بكلود كما تبينها الرواية أيضا ناضجة لم تعرف الاضطراب ، وكانت مسحة عذرية تصبغ أجواء هذه العلاقة ، فكلود فتاة نقية عذراء ، ليس لها ماض ولا تريد أن يقربها أحد قبل زواجها ، وكان جمال مقتنعا بهذه العلاقة ، ويتعامل مع كلود ضمن هذا الاطار .

---

(١) حسن جمال الحسيني ، الاصدقاء ، ص ٩ وانظر ص ٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم رأت كلود أن ذلك يقيم حاجزا بينها وبين جمال ، فأقامت معه علاقة جنسية ، وقبل جمال رأيها كارها . من هنا كان الاطار الذي يعيشان فيه ، اطارا يشبه حياة الأزواج ، وهذا يعني أن ارستقراطية جمال قد حلت جميع مشاكله مع الغرب ، فهو لم يجابه أي مشكلة مادية ، استطاعت أن تعيقه أو أن تؤخر سيره . ولكن المشكلة الكبرى التي واجهها ، كانت وفاة كلود في حادث اصطدام ، فمن عادة كلود أن تذهب الى النزهة على الدراجة أيام الآحاد ، وفي أحد هذه الأيام ، صدمتها سيارة فقتلتها . فهذه الحادثة هي المشكلة الوحيدة التي واجهها جمال . ولكن هذه المشكلة القدرية ، برزت على شكل مصادفة أضعفت العمل الروائي ، لأنه ليس لها ما يبررها ، على الاطلاق ، كما أنه ليس من ورائها حكمة معينة أو هدف معين سعى الروائي الى تحقيقه . وعلى أثرها أصيب جمال بصدمة نفسية أفقدته ذاكرته " ولكنه وجد في الموسيقى عزاءه وخلاصه وحياته ، وبعد أن أبلى من مرضه بواسطة العلاج النفسي والطبي ، أصبحت الموسيقى علاجه الوحيد في دور نقاهته وشفائه وانخرط فيها بكل احساساته وامكانياته ."(١)

وهذا يعني أن جمالا ظل محتفظا بتوازنه ، محافظا على استقراره ، كي يحصل على الجائزة الأولى ، ذلك الهدف الذي كرس سنته الأخيرة - زمان العمل الروائي - في سبيل الحصول عليها .

أما عصام بطل رواية سلمى الحفار الكزبرى " البرتقال المرّ" ، فهو ينطلق في علاقته بالحضارة الغربية من موقف يلتقي فيه مع بطل رواية "الحي اللاتيني" ، وان كان موقف عصام أكثر تبلورا على الصعيد الكلامي ، بحكم الزمن ، وبحكم بناء الرواية .

---

(١) حسن جمال الحسيني ، الأصدقاء ، ص ٤١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلقد صدرت رواية الكزبرى سنة ١٩٧٤م، في حين صدرت الحي اللاتيني سنة ١٩٥٤م. ومعنى ذلك أن العشرين عاما التي تفصل بين هاتين الروايتين، أسهمت في توضيح وبلورة طبيعة العلاقة بيننا وبين الغرب. واذا أضفنا الى ذلك اعتماد "البرتقال المر" على أسلوب الرسائل والمذكرات وخلوها من أحداث تنمو وتتطور وفق بناء فني، أدركنا سبب وضوح موقف عصام من الحضارة الغربية، بالقياس الى بطل "الحي اللاتيني".

أما موقف عصام فهو يقوم على أساس الاعجاب بمنجزات الحضارة الغربية، ورفض الجانب الاستعماري منها. وهو يحاول في الوقت نفسه أن يوازن بين المعادلتين، بغية اقامة علاقة جديدة بالوطن.

جاء عصام الى ولاية كليفلاند في منتصف عام ١٩٦٦م تقريبا ليتخصص في جراحة القلب، ومكث هناك ست سنوات ونصف، نجح بعدها في الحصول على هذا التخصص. أسهمت هذه الفترة التي عاشها في أمريكا، في اعادة صياغته من جديد، وفي حمله على الاعجاب بكثير من منجزات هذه الحضارة يقول "تعلمت في هذه البلاد أشياء كثيرة، ومن أهمها تقدير الوقت، والاخلاص للعمل، واحترام الناس جميعا، على اختلاف نزعاتهم وأديانهم ما داموا مهذبين، فما زالت للانسان في هذه البلاد قيمة وكرامة، كما أن حريته مصونة مقدسة."(١)

انّ الاعجاب بالحضارة الغربية، بكافة مظاهرها، قاد عصاما الى الليبرالية، فأصبح يؤمن بالحرية، وصاغ مفهومه لها على أساس فردي شخصي، ولعلّ استدراكه يكشف عن ذلك "أتحدث عن انطباعاتي الشخصية ولا أريد أن أعمم الأحكام عندما أقول انه ما زالت للانسان قيمة وكرامة في هذه البلاد، لأني أعلم جيدا ما يلاقي الزنوج من اضطهاد وظلم في بعض الولايات الامريكية، وأتألم كثيرا للتفرقة العنصرية واستغربها في بلاد تدعي الرقي الانساني، وتفتح صدرها لمعالجة حقوق الانسان، وتتبجح بصيانتها."(٢)

---

١) سلمى الكزبرى، البرتقال المرّ، ص ٩، ١٠

٢) المصدر نفسه، ص ١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذا الاستغراب ما كان ليحدث لولا النظرة الفوقية الى الحرية، والتي تفتقر الى ادراك الجانب الاجتماعي، في حضارة قادرة على ممارسة الظلم نتيجة للعلاقات الاقتصادية الرأسمالية. وتكشف عن علاقته بهيلا المرأة السويدية عن اعجابه العميق بالقيم الحضارية التي تحملها، والتي تعتبر امتداداً طبيعياً لقيم الحضارة الغربية، "انها رائعة في صدقها وصراحتها تنظر الى الحياة والناس، كسائر بنات بلدها الاسكندنافي الراقي، نظرة مختلفة عن نظراتنا، تبدو لنا غريبة في أول وهلة، ولكنها موضوعية، وعملية لمن يفهمها."(١)، ولذا تكون هيلا جسراً تعبر منه القيم الغربيـــة الى نفسه، ويكون تغييره ثمرة طبيعية لهذه العلاقة "تعلمت من هيلا أن أتحرر من عقدي الوراثية وأن أتصرف معها تصرفاً رائداً الاخلاص في الشعور والصدق، واحترام الشابة المتحررة فيها، علمتني كل هذا."(٢) ولكن هذا ما لا يكتفي بالقبول، وانما يرفض الجانب الاستعماري من هذه الحضارة.

فيكره سيطرة اليهود على كثير من مظاهر الحياة الأمريكية، ولا سيمـــا سيطرتهم على الناحية الاعلامية، وأجهزة توجيه الرأي العام.

وهذا يعني قدرتهم على تشويه صورة العرب في أذهان الاميركيين "لقد اكتسح الصهاينة ميادين العمل والاعلام في هذه البلاد منذ عشرات السنين، ووجدوا فيها تربة خصبة لبث سمومهم وأضاليلهم."(٣)، ويرفض الجانب الاستعماري، وقدره أمريكا على التلاعب بمصير الشعوب المستعمرة "نحن اذن أحجار على رقعة الشطرنج، يحركها اللاعبون المهرة حســـب

---

١) سلمى الكزبري، البرتقال المر، ص ٣١

٢) المصدر نفسه، ص ٣١

٣) المصدر نفسه، ص ٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أهوائهم، وفقا لحسابات يضعونها للفوز بالغنائم."(١)

انّ هذا الجانب أبرز انتماء لوطنه (أيا كان شكل وطبيعة هذا الانتماء) وجعل التناقض بينه وبين الغرب ليس له حل. ولهذا فهو يحب هيلسلا، ولكنه في الوقت نفسه، لا يريد أن يستمر في الحياة معها "اذ مهما طالت مدة اقامتنا في بلاد الغرب حتى ولو تزوجنا، وأنجبنا الأولاد، وحصلنا على الجنسيات، فاننا نبقى غرباء متطفلين على عالم لا نمت اليه، ولا يمت الينا، الا بصفة الانسانية."(٢)، وبشكل صريح يقول عصام انه عاجز عن التوفيق بين حبه لهيلا وبين حبه لوطنه، "ويا ليت هذا لو أن هذا ممكنا، غير أن الأقدار تفرقنا، حيث الصوالف تجمعنا في كثير من الاحيان"(٣) من هنا تتضح طبيعة الموقف المتوازن الذي تميز به عصام.

ولكن لطبيعة البناء الروائي، أحالت الموضوع الى سرد جاف بارد، والى حوار عقلاني صارم، يحشر بناء العمل الروائي وأحاله الى نوع من المذكرات، التي تعوزها التجربة، والقدرة على التأثير.

---

(١) سلمى الكزبري، البرتقال المر، ص ١٣٥

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هـ: التحرر والانطلاق :

ينبغي أن نسجل هنا احتياطا فنقول أنّ وصف هذه الشخصيات الروائية التي سيجيء الحديث عنها بالتحرر، لا يعني أنّ ما سبق من تلك الشخصيات كان يتسم بالخضوع للقيود ، وبالمحافظة على الصميد الأخلاقي . فلقد كان سلوك علاء بطل رواية شكيب الجابري " قد يلهو"، أشبه بسلوك الدونجوان ، وكان سلوك بطل رواية " الحي اللاتيني" ولا سيما في بداية المواجهة مع الحضارة الغربية يخلو من الانضباط، ويمتاز بالانطلاق الجامح . ولكنّ الذي نعنيه بالتحرر هنا ، هو أن يكون سلوك البطل الروائي ، متميزا بهذه الصفة باستمرار، لا أن يكون سمة مرحلية كما هي عند " بطل الحي اللاتيني"، أو سلوكا مزدوجا كما هو عند علاء.

فالتحرر أقرب الى القناعة التي تصبغ الشخصية الروائية بسمة خاصة تميزها عما سواها . صحيح أنّ هذه القناعة تتولد أحيانا من تضاد النماذج ، ولكن هذا التضاد يؤكد سير الشخصية الروائية بهذا السلوك المتحرر .

وينبغي أن نسجّل هنا احتياطا آخر، فليس للتحرر هنا معنى فلسفي ، ولكنه يحمل أبسط المعاني لهذه الكلمة؛ فهو قد يعني الانفلات والانطلاق اما من أسر الماضي ، وامّا من أسر القيم، واما من كليهما معا .

من هنا تبدو هذه الشخصيات متحللة من الناحية الاخلاقية ، ولكن ذلك لا يشترط فشلها في الناحية العلمية والحياتية ، ولا يشترط الخواء الفكري . فالتحرر سمة تبيّن لونا من ألوان العلاقة بالغرب، ومما يميّز هذا اللون الاقبال على جو الحرية فيه ، وما توفره هذه الحرية من انطلاقات جسدية تمكن الشخصية الروائية من اشباع حاجاتها المختلفة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يشترك وليد وعلي ، الشخصيتان المضادتان لفؤاد وجمال في روايتي "خمر الشباب" و "الأصدقاء"، في نقاط التقاء كثيرة. فهما يمثلان نموذج الشاب المتحرر على الصعيد الفكري، وعلى صعيد العلاقة مع الحضارة الغربية بشكل عام، فكلاهما باحث عن المرأة ـ الجسد ، متحرر في سلوكه، يقول وليد مشيرا الى علاقته بالمرأة " خذ نصيحتي ، خير الكلام ما قل ودل ، وخير منه العمل . . . انظر اليّ قليل الكلام سريع العمل ." (١)

أما علي فلم يكن له " فتاة معينة يحبها ويخلص اليها ، وكان يسخر من أصدقائه المخلصين لفتياتهم ويستغرب حبهم ولا يعرف ما هو الشعور الذي يسمونه الحب." (٢)

وقد تمثل هذا السلوك في كثير من مواقف فؤاد ، وعلي ، واستتبع هذا التحرر، سخرية من الثقافة والدين وهزءا بهما عند وليد ، في حين أخذ التحرر عند علي شكل الثورة على الواقع، وعلى كثير من القيم في كثير من الأحيان.

ولقد تجسد هذا السلوك في علاقة وليد بكارولاين ، فقد أوهمها بأنه متصور " وجاءت كارولين الى بيتي ، وأخذت عشرات الأوضاع وهي عارية . وأنت تعرف ما قاله صلى الله عليه وسلم:

" ما اجتمع رجل وامرأة الا وكان الشيطان ثالثهما ." (٣)

فوليد ينظر الى الدين نظرة ساخرة ، ويكون استشهاده بالحديث النبوي ، دلالة هزء، وعدم احترام لهذا الحديث.

من هنا كان سلوكه وفكره يتميزان بفقدان الضوابط فهو يرى أن العمل مضيعة للوقت، وأنه يؤمن باللانظام " وان كنت أرى أن وجود النظام لازم ليعيش أمثالي على هامشه." (٤)

---

١) صباح محي الدين ، خمر الشباب، ص ١٣
٢) حسن جمال الحسيني ، الاصدقاء، ص ١٣، ١٤
٣) صباح محي الدين ، خمر الشباب، ص ٦١
٤) المصدر نفسه، ص٥٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا يعني أنّ لحظة لقاء وليد بالحضارة الغربية، ومعايشته لها، تمثل بالنسبة له لذة عميقة، تصرفه عن العمل، وعن القراءة والثقافة عموما، وتكون بمثابة لحظة خدر جميلة.

أما علي فهو يختلف عن وليد، فانّ تحرره الفكرى كان يتجسد عنده "بالثورة التي تعني التقدم والرغبة في الوصول الى الافضل فالأفضل. كان علي ثوريا بطبيعته، متألما من مهازل التاريخ، ساخطا على الفوارق الطبقية، ثائرا حتى على مواد القانون التي كان يدرسها."(١)، ولكن ثورة علي غير واضحة المعالم، وهذا يعني أنّ عليا ظل يمثل الأفكار الثورية، دون أن يكون لهذه الأفكار خط واضح متكامل.

واذا كان حديث فؤاد وعلي عن الحرية، يتميز بوقوفه الى جانب الطبقة الفقيرة"، فانّ هذا الحديث يأخذ طابع ردة الفعل، دون أن يتحول الى قيمة لها تأثير في سلوكهما معا. وتلتقي بهاتين الشخصيتين الروائيتين شخصية روائية ثالثة هي شخصية رزق الله زرتوت، بطل رواية حسن جمال الحسيني "ذكريات صبا سياسي محترف".

فلقد أراد الروائي أن يجعل شخصية رزق تمثل بسلوكها العام، في الوطن وفي أوروبا، نموذج الشخصية التي لا تحترم القيم.

وتستخدم هذه القيم جسرا لكي تعبر عليه الى ما تريد. ولقد كان قصد المؤلف فيما يبدو، أن يشير الى طبيعة حياة السياسيين، وما في هذه الحياة من انحرافات مختلفة. فلقد أقام رزق الله علاقة جنسية في الوطن مع زوجة مديره، الذى كان يعطف عليه، وتردد على الدور السرية عدة مرات. ولقد كانت ثقافته تقوى في نفسه هذا النوع من السلوك فهو لم يتأثر على الرغم من تنوع قراءاته وخصبها بكتاب أكثر مما تأثر بكتاب ميكافيللي "الامير"، "قرأت

---

(١) حسن جمال الحسيني، الاصدقاء، ص ١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كتبا كثيرة، ولكني لا أذكر أحدها، كما أذكر كتاب "الأمير"، للمؤلف الايطالي ميكافيللي، وكان مترجما الى الانكليزية، لقد ترك هذا الكتاب في نفسي أثرا كبيرا."(١)

من هنا لم يكن رزق الله يصدر عن مفهوم محدد، ولا عن عقيدة يلتزم الدفاع عنها. فهو يتخذ من الموقف المضاد لخصمه موقفا " ووجهة النظر التي دافعت عنها ليست وجهة النظر التي أومن بها، ولا توجد عندي في الحقيقة وجهة نظر أو من بها في أي موضوع كان."(٢)، وهذا يكشف عن ميله العميق الى حب الظهور " فأنا من خلق الله الذين ينعشهم اهتمام الآخرين بهم والتصفيق لأعمالهم وأقوالهم، لا شك في أن حب الظهور أساس من الأسس التي ترتكز عليها نفسية السياسي المحترف."(٣)

ولقد كانت حياته تتميز بالتحلل الأخلاقي " كم من حفلة أقمنا وصل بها المجون الى درجة الجنون، واختلط الحابل بالنابل ولم يعد أحد يعرف ما يفعل أو يذكر ما فعل."(٤)

بل ان الحرية عنده تأخذ مدلولا اباحيا، فانّ هذه الحفلات التي كان يفقد فيها وعيه، وتسلبه ارادته، تصبح عنده ضربا من ضروب الحرية " وكانت الحرية تصل أوجها عندما يفقد الكل وعيه واحساسه ولا يعود أحد يشعر حتى بالحرية التي يتمتع بها."(٥)

ولعلّ علاقته بآني تكشف عن طبيعة سلوكه المتحرر، فانّ هذه العلاقة لم تكن تمثل أكثر من طبيعة العلاقة العابرة مع المرأة الغربية. ولقد خانها عدة مرات أثناء علاقته بها، ولم يكن ينوى الزواج بها خوفا على طموحاته السياسية

---

١) حسن جمال الحسيني، ذكريات صبا سياسي محترف، ص ١٢٦

٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٤

٣) المصدر نفسه، ص ٣٨

٤) المصدر نفسه، ص ٣٤٤

٥) المصدر نفسه، ص ٣٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في بلده.

وهذا يكشف عن المقومات الفكرية والاخلاقية لشخصيته، فهو يريد الوصول والشهرة، ويستعجلهما، ويبيح لنفسه أن يسلك شتى الطرق في سبيل ذلك. فهو يدافع عن القضية الفلسطينية، ويلقي المحاضرات بشأنها، ولكنه كان يستغل هذه المحاضرات "ليتمرن في الوقت نفسه على الخطابة وخصوصا الارتجالية منها."(١)

وهو ينتقد الزعماء العرب واجتماعاتهم التي لا ترى منها "الا هيكل الخراف المحشية وبقايا عظام الطيور التي التهموها."(٢)

ولكنه عندما يتعرف الى أحد الزعماء السياسيين العرب في لندن، يكيل له المديح، ويرى في العمل معه شرفا عظيما. وهو في الوقت نفسه يرى أن هذا الزعيم ليس سوى "الحمار الذي سأستعمله للوصول الى ما أريد."(٣)

ولكن هؤلاء (علي، وليد، ورزق الله) لم يذوبوا في اطار تحررهم، فظلت المرأة محور حياتهم، دون أن يؤدي ذلك بهم الى الفشل والضياع.

فهذه النماذج تختلف اختلافا نوعيا عن بطل "السنفونية الناقصة"، لصباح محي الدين. فان بطل الرواية لم يكن ناجحا، نجاح أقرانه لأن "ارسال شاب في العشرين الى باريس، كمن يطلق ديكا كثير الفيتامينات في مزرعة تعج بالدجاج، ثم يطلب اليه أن يتعلم الكيمياء وهو العلم الشريف الذي كان مفترضا أني أدرسه."(٤)

فطبيعة المواجهة مع الحضارة الغربية، بالنسبة لبطل الرواية، هي مواجهة

---

١) حسن جمال الحسيني، ذكريات صبا سياسي محترف، ص ٤٢٩

٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٨

٣) المصدر نفسه، ص ٤٤٥

٤) صباح محي الدين، السنفونية الناقصة، ص ٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذكر للأنثى . ولذلك فانّ هذه المواجهة تشحن الشرقي من جهة، وتفرّغ طاقته الجنسية من جهة أخرى. فبطل الرواية مأخوذ بحضور المرأة، وهذا الحضور يدفعه الى التفرّغ المطلق للحصول عليها. ولهذا تتوقف الرواية عند تجربة بطلها وهو يحاول اصطياد فتاة نمساوية جاءت في زيارة الى باريس.

واذا كانت هذه المحاولة تمثل خلاصة تجاربه مع المرأة هناك، فانها تدل أيضا على فقدان عنصر الانسانية في علاقته بها، حين تتحول الى علاقة الصياد - بالطريدة. يقول " ومضى الأسبوع كلمح البصر، بين تردد من حين الى آخر، الى الجامعة ومواعيد مع هذه وتلك، ولولا هذه وتلك لقضيت اسبوعا عنوسا في انتظار يوم الاحد. ولكن الله - الحمد لله - كان قد تكرم علي بأكثر من واحدة يذوب الوقت في صحبتهن كما يتبخر الندى في شمس الصيف. الا أنني في هذا الوقت كله، كنت لأني أفكر في ماشا، لا تفكير المحب العاشق بل تفكير الصياد يبحث عن شرك يوقع فيه طريدة عنيدة وقضيت الساعات وأنا أضع الخطط وأرسم الطرق وأنصب الحبائل." (١)، ولهذا يمتبيح لنفسه استعمال كافة الوسائل التي تساعده على بلوغ غرضه منها. فيزعم أنه يحب الموسيقى، ويثقف نفسه ثقافة موسيقية، ويشترى كتاب " معالم باريس الموسيقية"، ليبهرها بمعرفته وسعة اطلاعه. بل نراه يكذب عليها، فيزعم أن شرابا الباستيس كالنبيذ " ويعلم الله أني كنت كاذبا، فالباستيس كالعرق المثلث، مفعوله هائل الا على الذين اعتادوه الا أن الحرب خدعة، وهل بين الرجال

---

(١) صباح محي الدين، السنفونية الناقصة، ص ٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنساء الا الحرب منذ أن وجدت الخليقة." (١)،

وتنتهي الرواية بحصوله على جسد ماشا، ولكنها تختفي بعد ذلك من حياته وهذا يعني أن بطل الرواية قد انتصر في حربه التي شنّها على ماشا، وهذا يبرر سبب اختفائها من حياته فيما بعد.

أما عباس بطل رواية عبد السلام العجيلي "رصيف المذراء السوداء" فهو يلتقي مع بطل "السنفونية الناقصة"، في طبيعة تحرره، وفي طبيعة فشله في دراسته، ولكنهما يختلفان في جوانب أخرى.

فانّ كلا من البطلين الروائيين قد دخل في مرحلة التذوق والاختيار، في طبيعة علاقته بالمرأة.

وهذا يعني أنهما قادران على اختيار فرائسهما بقصدية لاثبات فكرة معينه. فلقد حطم بطل "السنفونية الناقصة" ماشا "وأثبت لها أنها أنثى كأية امرأة أخرى فلم تغفر له ذلك." (٢)، وكان الصراع بينهما يدل على أن أنوثة ماشا، عار عليها، وأنّ ثمة صراعا خفيا بين ماديته، وروحانيتها. فهو نزّاع الى جسد المرأة، وهي تهفو الى الروح، وترى في الموسيقى بديلا عن واقع الجسد وغرائزه.

أما عند عباس في "رصيف المذراء السوداء"، فانّ الصراع يأخذ أبعادا أكثر وضوحا وتحديدا. فماريالينا في الخامسة والثلاثين من عمرها، ليست فتاة مراهقة يسهل التغرير بها، وهي فوق ذلك واسعة الثقافة "متعلقة تعلقا غريبا بطقوس مذهبها الكاثوليكي الجديد، فقد كانت بروتستانتية ثم تدينت بالكاثوليكية عن قناعة وايمان." (٣)

وعباس شاب عراقي مترف، فشل في دراسة الهندسة، وطب الأسنان، والحقوق.

---

١) صباح محي الدين، السنفونية الناقصة، ص ٢٥

٢) المصدر نفسه، ص ٣٥

٣) عبد السلام العجيلي، رصيف المذراء السوداء، ص ١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"ويعيش حياة لاهية صاخبة في صحبة فتيات الحي اللاتيني المتحللات من كل قيد وشبابه اللامبالين، راقصا مع صديقاته في الروميو أو في المايفير ملاعبا أصدقاءه الورق في قبو الكابولاد او النرد على باركوجاس واذا لم تكن له صديقة باريسية، متصيدا له صديقة عابرة، سائحة المانية من بافاريا، أو طالبة من نرويج يقضي معها سهرته أو ليلته." (١)، فلم تكن علاقته بماريالينا ناتجة عن فقر في علاقاته النسائية، ولكن غرابة النموذج وتفرده شجعت عباسا على اقامة هذه العلاقة بغية اكتشاف أبعاد هذه المرأة.

فلقد كانت ماريالينا تمثل الروح "لأن الروح شيء غامض، وهي بطبيعتها كنورية قادمة من بلاد الغيوم والضباب والأنواء تحب الغموض وتتعلق به." (٢)، وكان عباس يمثل المادية لأنه "قادم من بلاد الشمس التي تبعثر الغيوم وتبخر الضباب، كاشفة عن لب الحقيقة، والحقيقة هي المادة والجسد." (٣)

صحيح أن هذا يخالف ما تعارف عليه أبطال الروايات العربية، والمفكرون عموما الذين ينسبون الشرق الى الروحانية، والغرب الى المادية، الا أن طبيعة أبطال المجيلي تبرر هذه المخالفة. فبطل المجيلي في الأغلب "ليس ابن مدينة، ولا حتى ابن ريف، وانما ابن صحراء، ومعروف منذ العصر الجاهلي أن النزعة المادية والصحراء صنوان لا يفترقان." (٤)

وهو في سلوكه يجسد نزعة تحررية، تتفلت من اطار القيم الأخلاقية، وتصبح العلاقة بين الرجل والمرأة، تشبه علاقة الصياد بالطريدة، وتقضي آليتها على النزعة الانسانية.

"كان التنقل من أحضان فتاة الى أحضان أخرى ملهاة الطلاب الفاشلين أمثال عباس، في مقاهي الحي اللاتيني ومرابعه، بقدر ما يكون واحدهم عاشقا متيما ذات تصرفات مطبوعة بطابع الشهامة، وسمو العاطفة

---

١) عبد السلام المجيلي، رصيف المذارء السوداء، ص ١٢، ١٣
٢) المصدر نفسه، ص ١٣
٣) المصدر نفسه، ص ١٣
٤) جورج طرابيشي، شرق وغرب، رجولة وأنوثة، ص ١٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واللباقة قبل أن يظفر بفتاة يتعقبها ، بقدر ما ينقلب ذئبا وقحا يفضح سلوكه بالقحة والتبجح بعد أن تتصيدها حبائله وتقع فيها فريسة طيعة ."(١)

ولقد كانت ماريالينا تدرك طبيعة الحياة التي يحياها عباس، ولكنها كانت تطمع في أن تنقله الى " جو الفكر والروح الذى يعيشه معها ."(٢) ، ويترك " ارتياد بؤر الشهوات الجامحة واللذات الفائرة ."(٣)

أما موقف عباس منها ، فلقد كان نقيضا لموقف بطل " السنفونية الناقصة" " فالفتى الشرقي في قصة صباح محي الدين " يساير" - على حد تعبيره بالذات - ماشا ، ويجارى " ولعها" بالموسيقي ، ويحج معها الى "معالم باريس الموسيقية" في عملية تمويه تقنية بارعة للفخ الذى كان في سبيله الى نصبه لها .

" أما عباس فصادق النية لا يتصرف وفق تخطيط مسبق ، ولا يصدر في طوافه مع ماريالينا بمعالم باريس الروحية عن موقف تقني صرف ."(٤)

وهذا يعني أنّ العلاقة الفكرية ، التي كانت بينهما ، دفعتهما الى نوع من الصراع الفكرى ، ولقد كان هذا الصراع يسير مرافقا للنوازع الجسدية ، وموازيا لها .

فلقد كانت ترى أنّ الله محبة ، وكان هو يرى أنّ الله معرفة . وكانت معتصمة بتصوفها ، وكثلكتها عن معرفة الواقع الذى يدور حولها . ولكن التجربة الجنسية بينهما ، أسهمت في تعجيل انهيار هذا العالم الذى عقدته بينهما صلة شبه روحية . فافترقا بعد هذه التجربة ، وسار كل واحد منهما الى مواقع صاحبه ، فأصبحت هي ترى أنّ الله معرفة ، وأصبح هو يرى أنّ الله

---

١) عبد السلام العجيلي ، رصيف العذراء السوداء ، ص ٤٧
٢) المصدر نفسه ، ص ١٤
٣) المصدر نفسه ، ص ١٥
٤) جورج طرابيشي ، شرق وغرب ، رجولة وأنوثة ، ص ١٣٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محبة. ويكون هذا اللقاء آخر اللقاءات بينهما، رغم أن عباسا أصبح يحب ماريالينا " بالرغم من ملامح محياها المجهد، وتشعث شعر رأسها، ورثاثة ملابسها، تتحداه بصفائها ونقائها. "(١)

وهذا يدل على أن سقوطها، لم يحولها الى امرأة محطمة، كما تحولت ماشسا، بل ظلت تتحداه بصفائها ونقائها.

ولكن عباسا يعود بعد ذلك الى سيرته الأولى، لأن هذه التجربة على ما فيها من تفرّد، وتميز، تظل تجربة عارضة، يتجاوزها وان ظل يحمل لها نوعا من الذكرى.

" طريقانا مختلفان يا عباس، بل لعلهما متعاكسان، أنت سرت من المعرفة نحو المحبة، وأنا بدأت من المحبة لانتهي الى المعرفة، في هاتين الطريقين المتعاكستين لا يمكن أن نلتقي الا مرة واحدة، ويبدو أننا التقينا تلك المرة. "(٢)

أما سامي الشريف احدى الشخصيات الرئيسية في رواية سليم اللوزي " المهاجرون "، فهو يسعى من خلال علاقته بالغرب الى التحرر. لأن التحرر يمثل بالنسبة له مطلبا شخصيا، وفكريا. فهو يسعى الى التخلص من ماضيه العقائدي، والشخصي في الوطن على حد سواء. ويجد البديل في ما توفره له الحضارة الغربية من حرية فردية ويجده أيضا في ثروته المادية الوفيرة التي تتيح له أن يستغل هذا الجو، خير استغلال. وهو بذلك يختلف عن غيره من الشخصيات الروائية الأخرى.

---

١) عبد السلام العجيلي، رصيف العذراء السوداء، ص ٥٨

٢) المصدر نفسه، ص ٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فانّ تلك الشخصيات لا تعتبر نفسها في منفى ، ولهذا فانّ سلوكها وان كان لا ينطوى على رغبة عميقة في التخلص من أعباء الماضي وقيمه وذكرياته ، فانها لا تنظر الى ذلك الماضي نظرة عدائية .

أما سامي الشريف فان للتحرر عنده شقين :

شق موّجه نحو الماضي ، يريد أن يتخلص منه ، وهو في محاولته للتخلص منه ، يحمل له كراهية عميقة .

وشق موجه للحاضر ، يريد أن يهرب من بحره ما أمكن ، لينسى ماضيه ، ويدفنه تماما . فلقد كان سامي الشريف بعثيا ، دخل حزب البعث تحت تأثير زميل له وهما في المرحلة الثانوية .

وقد وقع سامي تحت تأثير أفكار زميله خالد " وبواسطته أصبح عضوا في حزب البعث ، وعن طريق أحاديثه الشيقة المثيرة ، أخذ يحلم بالأمة العربية الواحدة ، ذات الرسالة الخالدة ." (١) ، وكان ظهور عبد الناصر بالنسبة له تجسيدا لمبادئ حزبه " فالفكرة كانت تبحث عن بطل ، والبطل كان يبحث عن فكرة واخيرا التقيا ." (٢) ، ثم تحول انتماؤه الحزبي الى مجرد صلات لا يستطيع الاستغناء عنها ولم يعد الحزب " مجرد شعارات بل مجموعة من الأصدقاء ، تعود الحديث معهم والسهر برفقتهم ، وأحيانا مشاركتهم في سهرات حمراء ، لا علاقة لها بالاهتمامات السياسية ." (٣)

ثم كانت تجربته في السجن نقلة تحول في تاريخ حياته على المستويين الفكرى والشخصي . فكان عذاب السجن ، دافعا قويا ، شجعه على الرحيل الى اوروبا . لأنّ هذا التعذيب ، أفقده الانتماء للوطن

---

١) سليم اللوزى ، المهاجرون ، ص ٣٣

٢) المصدر نفسه ، ص ٣٣

٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على المستوى الشخصي بسبب اهانات السجن، وبسبب تأميم الدولة لأموال أبيه. ولقد بلورت تجربته الذاتية، مقياسا فكريا، أخذ يقيس به نزاهة أي نظام وصدقه، وهذا المقياس يكمن في "مدى ما يمنحه من حرية وضمانات للمواطن."(١)، ولقد حاول في اوروبا أن يدفن ماضيه تماما، فاشتغل بالتجارة وأصبح من الذين يملكون ثروة ضخمة، وبدت ملامح هذا الغنى على سلوكه، فأصبح يمتلك يختا فخما في مرفأ موناكو، وعندما قام بتجديد أثاث اليخت وتزويده بأحدث الآلات كلفه ذلك مليون دولار. وأخذ يستضيف كبار الشخصيات مثل الأمير رينيه، حاكم موناكو، وزوجته غريس كيللي.

وأحاط نفسه بحاشية واسعة من النساء، وكان كل ذلك لكي يعيش في الحاضر، وينسى الماضي، الذي ظلّ يلاحقه باستمرار.

وليس من قبيل المصادفة أن يرفض سامي اقامة علاقة دائمة مع أية امرأة فهو يعيش كما وصفته احدى النساء اللائي عرفنه "تحت عقدة كراهية الارتباط، يتصور كل علاقة مع امرأة وكأنها السجن."(٢)، بل انّ قصة سجنه في سوريا، غدت حكايته المفضلة، واتخذت شكل عقدة نفسية انعكست على كافة تصرفاته، ولا سيما في علاقته بالمرأة واصراره على اقامة علاقة سريعة عابرة بها دائما. من هنا كان تحرر سامي الشريف نزوعا من الانفلات من أسر الماضي، وصراعا بين ماضيه وحاضره. فاذا كانت ثروته قد أسهمت في توسعة جو تحرره، فانها لم تستطع ان تنسيه ماضيه الذي تحول الى عقدة كبرى ...

فكان تساؤل سعيد الطرابلسي "كل هذا الثراء، مظهر نجاح أم محاولة للهروب."(٣)، تعبيرا صادقا عن وضع سامي الشريف في صراعه وتمزقه.

---

(١) سليم اللوزي، المهاجرون، ص ٥٣

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٣

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتشارك رشا بطلة كوليت خورى " ليلة واحدة"، سامي الشريف في كونها تنظر للماضي نظرة عداء وكراهية، فهي ترفض هذا الماضي بمختلف جوانبه، ولا ترى فيه ما هو جدير بالحب والانتماء. ولكن ماضيها يختلف عن ماضي سامي الشريف، فان هذا الماضي ينحصر في تلك العلاقة الزوجية التي ربطت بينها وبين زوجها سليم. ولقد كانت لحظة المواجهة مع الحضارة الغربية، تحمل أبعاد الثورة على هذا الماضي بكافة ارتباطاته.

ولقد تجسدت هذه الثورة في سلوك رشا المتحرر، في علاقتها بالشاب الفرنسي - السورى كميل.

وليس من قبيل المصادفة أن يكون الزمن الروائي لهذه الرواية ليلة واحدة. فقد يبدو للوهلة الأولى أن أبعاد هذه الثورة لا تكتمل، ولا يتاح لها أن تعبّر عن نفسها، عبر زمن قصير.

ولكن الرواية قصدت أن تحمل هذه الليلة (وهي الليلة التي اتيحت لرشا) أبعاد هذه الثورة، لتجسد بذلك رغبة رشا العميقة بالتحرر والانفلات من أسر الماضي، وانتظار الوقت المناسب، واستغلاله بكافة دقائقه، كما ينتظر السجين الحرية بفرح عميق.

واذا كانت الرواية تأخذ في المظهر الخارجي شكل أدب الاعترافات فهي لا تقصد من خلال ذلك أن تعبر عن ندم رشا وتوبتها، ولكن لتستمير من هذا الأدب، صراحته العميقة، وصدقه المطلق، ونزوعه للكشف عن الحقيقة بشكل مطلق.

فكان موقف رشا في مواجهة الحضارة الغربية ذا شقين:

الشق الأول: موجه نحو الماضي، لاظهار عيوبه ومساوئه، وتبرير الثورة عليه.

والشق الثاني: موجه نحو الحاضر، لاظهار مزاياه، وتبرير الاقبال عليه.

وهي لم تجد كبير عناء في ذلك.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلقد حاصرت رشا ذكاء القارئ ومعرفته، في الشق الأول فكان الحديث عن زوجها يحمل طابع السخرية منه، على صعيد الشخص والفكر والسلوك. وكان الهدف من هذه السخرية، تحطيم تلك الشخصية في ذهن القارئ وفي نفس رشا أيضا. وعمدت في الشق الثاني الى احكام أثر الحاضر عليها، فأصبح الحديث عن كميل يميل الى احكام الحبكة الروائية، بغية اقناع القارئ وذاتها أيضا، بضرورة التجاوب معه.

ولقد كان الجنس مفتاحا استخدمته رشا للولوج الى عالم الماضي وعالم الحاضر، بغية محاكمة الماضي لصالح الحاضر.

ولهذا حرصت رشا على أن تبدو شرقية في اطار هذا المجتمع الغربي وحرصها نابع من حبّها للتفرد، عن السيدات اللائي تفص المقصورة بهن ولذا نرى كميل يقول لها:

" يخيّل اليّ أنك سيدة تخرج من روايات ألف ليلة وليلة، أنت لست فرنسية حقا، فأسرار وأسرار تختفي وراء عينيك، هاتان العينان لا يمكن أن تكونا فرنسيتين، من أين أنت؟ طربت لجو الأسرار الذى أحاطني به ولم أشأ أن أمحوه بجوابي." (١)، وليست مصادفة ذكر ألف ليلة وليلة، فانّ المؤلفة استعارت - وفعل الناعورى كذلك - من هذه الليالي سحرها، وأجواءها المشحونة بالجنس وغموضها، وحاولت توظيفها بشكل معاصر، في علاج قضية حضارية فكانت علاقتها بكميل تنمو بسرعة فائقة تخالف طبيعة نمو العلاقة بين الرجل والمرأة.

ولكنّ الحياة أمام رشا، كانت تنحصر في تلك الليلة، ولهذا حشدت المؤلفة كافة المقومات لانجاح هذه العلاقة.

ولقد كان التناقض التام بين سليم وكميل - والذى أشرنا اليه في الفصل الثاني - سببا هاما عجّل في نمو العلاقة، لأن كميل يمثل فارس أحلامها الذى كانت

---

(١) كوليت خورى، ليلة واحدة، ص ٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تبحث عنه، مثلما تمثل هي عروس أحلامه. ومن المهم أن نشير الى ميزة أخرى عجّلت في نمو العلاقة، وهذه الميزة هي كون كميل، نتاج للحضارة الغربية في حاضره، سوري في ماضيه وجذوره. ولذا حكمت عليه "لا بدّ أنه من بلاد الشمس بلادي."(١)، قبل أن تعرفه.

وهذا الاختيار يمثل موقفا حضاريا، فلماذا عزفت عن صديق كميل، جورج؟

انّ هذا الاختيار يجسّد الموقف الحضاري الذي تسعى اليه، فهي تريد أن تكون متحررة في باريس في عقليتها وتفكيرها، شرقية في شخصها وجذورها (مثل كميل) ولهذا رفضت شرقيتها المتمثلة بعلاقتها بزوجها، وما شاب هذه العلاقة من جمود ورتابة. وأقبلت على هذه العلاقة العابرة، لكونها تحقق ذاتها، وتحررها من كافة القيود.

فكانت لحظة الجنس بالنسبة لها تمثل عطاء متناهيا، في حين ارتبطت هذه اللحظة في ماضيها بالجمود المشاعري، وبالعقم البيولوجي: "لأول مرة في حياتي يا سليم فهمت قيمة جسدي، لأول مرة فهمت أن هذا الجسد ليس فقط أداة، ليس فقط غديرا باردا ينهل منه عطشان ويروي رغبته، ويسرق منه لذة مؤقته. لأول مرة فهمت أن جسدي دنيا جميلة، يصل اليها من استطاع أن يسبر أغوار نفسي فتغمره بالدفء وتغرقه بالحنان، وتنثر تحت أقدامه الأزاهير."(٢)

وهذا يعبّر عن تفتح نفسها، وتخلصها من عقدها عند مواجهة هذه الحضارة.

ولكن تجربة رشا كانت "ليلة واحدة"، وهذا يعني أنّ التجربة على ما فيها من تحرر عميق، لم تأخذ طابع الامتداد، والاستقرار. من هنا أخذت هذه التجربة طابعا حلميا "وتراءى لها طيف كمال فملأها احساس غريب! كمال لم يعد في

---

١) كوليت خوري، ليلة واحدة، ص ٥٠

٢) المصدر نفسه، ص ١٩١، وانظر ص ١٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ناظريها رجلا ماديا ، بل شبحا ، بل خيالا ، بل حلما ، لقد كان أداة رائعة استخدمها القدر ليشرح لها ، ولو على حطام نفسها معنى السعادة الحقيقية ، وليكشف لها عن عالم مجهول كان ضائعا ومغلقا في أرجاء روحها ." (١)

ولكن هذا الطابع الحلمي كان قاسيا على نفسها ، لأنه تركها في صراع نفسي ، بين العودة لزوجها ، أو الهرب منه ، والانشطار بين هاتين الرغبتين .

ولكن هذا الصراع كان بمثابة لحظة امتحان لصدق رغبتها ، في تحررها وانطلاقها . فان العودة الى زوجها يتنافى مع الاعترافات بخطايا الحاضر ، واصرارها على كتابة هذه الاعترافات ، يعني أن المصالحة بينها وبين ماضيها غير ممكنة .

فكان مقتل رشا في حادثة سيارة ، دليلا على حيرتها العميقة . فهي غاضبة لأن زوجها كذب عليها ، كما أخبرها الطبيب ، وهي في الوقت نفسه " يجب أن تهرب من السماء التي يعيش تحتها كمال ." (٢) ، فتحررها أدى بها الى خسران الماضي والحاضر على حد سواء . فلقد اكتشفت أن زوجها عقيم ، وأن حياتهما الزوجية كانت اكذوبة ، وأخبرها كمال أنه لا يستطيع الاستمرار معها ، " كيف أهدم ما بنيته طوال تسعة وثلاثين سنة ؟

كيف أهدم ما بنيته طوال حياتي ." (٣)

فكمال له جذور حضارية متشبثة في الغرب ، تتعارض مع علاقته برشا ، بالاضافة الى أن استمرارية علاقته بها سيسلب العلاقة بينهما طابعها الجمالي الذي أضفاه عليها الحلم .

صحيح أن مقتل رشا بحادث السيارة ، كان مصادفة خلخلت سياق الرواية ونهايتها . ولكن ذلك يدل على الحيرة العميقة ، في داخل رشا وكوليت معا .

---

١) كوليت خوري ، ليلة واحدة ، ص ٢٠٩

٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٠

٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتجسد كوليت خوري في روايتها " ومرّ صيف"، عبر شخصية سـهير مثالا آخر لسلوك المرأة المتحررة، التي ترفض القيود بكافة أنواعها. ولكنّ سـهير لا تثور على الماضي الزوجي ولا تحمل في حياتها عقدة معينة تريد أن تحطمهـا وتثور عليها، بل يكون التحرر سمة شخصية تصبغ شخصيتها وسلوكها.

فهي دائن علاقة حب مع الدكتور يوسف الاسواني، وهو دكتور في الاقتصاد ومتزوج. ولقد عادت سهير الى لندن، لكي تكون بجانبه، أثناء اجراء عملية جراحية لـه في كبده. ولقد كانت علاقتها بالدكتور يوسف، تدور على هامش أحداث الرواية، لأنّ الدكتور يوسف مريض، وهذا أتاح لسهير أن تكون أكثر تحررا وانطلاقـا في سلوكها.

ولقد جسّدت المؤلفة عبر سهير نموذجا للمرأة الشرقية المتحررة، كما جسـدت عبر جين نموذجا للمرأة الغربية المتحررة أيضا، ولقد كان بين سهير وجين نوع من العداء والتضاد المهذب، لأنّ جين كانت الممرضة التي أشرفت على الدكتور يوسف في مرضه.

ولكنّ الذي أعطى لسهير طابع التحرر، هو هذه العلاقة التي ربطت بينها وبين الشاب الايطالي " ايتالو".

واذا كانت العلاقة بين رشا وكميل، مبررة نوعا ما، فانّ هذه العلاقة العابرة نموذج لحب غريب، لم يوجد الا في الروايات التي كتبتها كوليت خوري.

ولقد كان هنالك أكثر من سبب شجع قيام مثل هذه العلاقة الغريبة. فانّ كلا منهما يشعر بالوحدة والعزلة، سهير بسبب مرض يوسف وايتالو بسبب رداءة الطقس وسوء الأحوال الجوية.

وكما تخيل كميل رشا، تخيل ايتالو سهير، فهو " يتخيلها في قصر شرقي من قصور ألف ليلة وليلة، تلبس الثياب الهفهافة، وتنتقل في الردهات الواسعة حافية القدمين، دون صوت أو ضجة وتصل الى الحبيب وتقف قبالته صامته."(١)

---

(١) كوليت خوري، ومر صيف، ص ٢٠٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ هذا التخيل وما فيه من صور شرقية متميزة عن الواقع الاوروبي هو الذي أوقع ايتالو في حب سهير.

" ربما كان هذا الغموض الذي يضفيه عليها صمتها ، فهي لا تتحدث الا نادرا وربما كانت هذه النظرة اللامعة التي تجعل الصمت ناطقا ، وربما ربما كان هذا الشيء الغريب في شخصها والذي يوحي للمرء بأنها دائما بعيدة مهما اقتربت."(١)

فهو يرى أن سهير صعبة المنال ، وتشكل حلما جميلا بالنسبة له وهذا يعني أنها نموذج متفرد عن نماذج النساء الغربية ، فرأى في شخصها تجديدا ، وخلاصا ، ورأى في طبيعة العلاقة العابرة واستحالة اللقاء الدائم بينهما ما يقوى لحظة العشق ، ولذا سارت العلاقة بينها وبين ايتالو ، كما سارت العلاقة بين الدكتور يوسف وجين ، فكلا العلاقتين تعبّران عن لحظة عابرة ، لا بد أن يتجاوزها الجميع.

ولعلّ عنوان الرواية " ومرصيف" يكشف عن ذلك ، فانّ المؤلفة تقول " فأنا أريد أن أسلخ الرواية تماما عن أجوائنا ، أى أنني أريد أن أكتب قصة لا يحمل كل بطل من أبطالها مشاكل المائة مليون قصة عاطفية من الممكن أن تحدث في أى زمان وفي أى مكان من العالم."(٢) ، فلحظة الاصطياف وما فيها من محاولة للتخلص من الهموم ، هي لحظة عابرة الا تستمر طويلا .

من هنا كانت تلك العلاقة تأخذ طابع الحلم ، كما أخذت علاقة رشا بكميل طابع الحلم أيضا . فهو يقول لها " انت حلم حياتي وقد تجسد ، أنا لا أريد منك سوى أن أعبدك."(٣) ، ومع ذلك يسافر في اليوم التالي الى ايطاليا وهو يقول : " سآتي اليك لا محالة ، سأرتب أموري وآتي اليك ، سآتي اليك في الاعياد."(٤)

---

١) كوليت خوري ، ومرصيف ، ص ٢٠٠

٢) المصدر نفسه ، ص ١٢

٣) المصدر نفسه ، ص ٢٢٠

٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ هذا يجسد طبيعة العلاقة الحلمية، فانهما لم يفكرا على الاطلاق بنوع من الارتباط، والارتباط الذي يفكران به هو زيارة الأعياد، أي العلاقة العابرة، التي تتواءم مع طبيعة الحلم نفسه.

ولهذا تتساءل "هذا الشاب الفارع الجميل الذي لم تعد تدري أقابلته فعلا أم كان مجرد حلم عابر." (١)

أما سلمى احدى شخصيات رواية سليم اللوزي "المهاجرون"، ففي تحررها نزعة تدميرية تهدف من خلالها الى تدمير ذاتها، وتدمير والدها أيضا، وهي تختلف بذلك اختلافا نوعيا عن رشا، وسهير. فاذا كانت رشا تخون زوجها مع شاب فرنسي - سوري، وتقتل في حادثة سيارة، فهي لم تقصد الوصول الى مثل هذه النتيجة، فكان مقتلها لا يصدر عن مخطط واع لتدمير ذاتها، مثلما كان اندفاعها الى اقامة علاقة مع كميل، لا يهدف الا لتحقيق ذاتها المسلوبة.

أما سلمى فقد كانت بذور تحررها الأولى، ناتجة عن ردة فعل لسلوك والدها اللا أخلاقي، فعندما رأت والدها مع امرأة أخرى، وهي في سن الثانية عشرة، سلّمت نفسها لأحد الضباط الشباب، انتقاما لنفسها ولوالدتها. ولهذا كانت تحمل في نفسها ثورة مستمرة على سلوك أبيها، ولكنها تسلك السلوك نفسه، بغية الانتقام منه. تقول "وعندما كبت أسمعه ينهال عليّ تقريعا ولوما وتأنيبا، كان ذهني ينصرف الى خطاياه ومعاصيه، فأتساءل: كيف يكون تصرفات شابة غير مرتبطة بأي التزام، ولا يحمل سلوكها أية اساءة لأحد، هي تصرفات مشينة ولا أخلاقية وتسيء لسمعة العائلة، بينما نفس التصرفات وأسوأ منها لا تشين رب العائلة؟." (٢)، ولذا أدمنت سلمى هذا السلوك [illegible]، فهي كما وصفها سامي الشريف "قطاع عام" لا تستطيع أن تنام الا في حضن رجل ولأنها كذلك لم تتزوج." (٣)

---

١) كوليت خوري، ومر صيف، ص ٢٧٠

٢) سليم اللوزي، المهاجرون، ص ١٨٠، ١٨١

٣) المصدر نفسه، ص ١٠٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ حياتها في اوروبا أسهمت في زيادة تحررها ، مما جعل امكانية التوافق بينها وبين حياة مجتمعها مستحيلة " مثل سمعت بقروى هاجر الى المدينة ثم عاد الى القرية واستطاع العيش فيها ."(١) ، وهذا يعني أن تحررها ، وانفلاتها من جميع القيم ، قد أصبح سلوكا مميزا لها ، وليس صفة مرحلية يمكن أن تعود بعدها الى أحضان مجتمعها الأم ، كما فعلت سهير في رواية " ومرّ صيف ".

أما عن علاقة الحب التي كانت تربطها بخليل الازرق ، فهي لا تخرجها عن سلوكها المتحرر ، فقد سيطر الطابع الجنسي الحاد على هذه العلاقة ، فأخرجها عن سمة العلاقة الطبيعية ، وكان سلوك خليل الازرق غير منضبط بهذه العلاقة لأنه عرف الكثير من النساء " كل امرأة عرفت خليل الازرق اعتبرته خطيبها ، ولكن المهم هو نظرة خليل الازرق لهذا النوع من العلاقات ، فليست الحقيقة هي ما نراه ، بل ما يراه الآخرون ."(٢)

وكان سلوك سلمى بعد مقتل خليل الأزرق ، يقرب من الدعارة ، صحيح أن ذلك قد يبرر بردة الفعل ازاء حادث الموت ، ولكن ردة الفعل نفسها تكشف عن طبيعة الشخصية ، فقد قضت اسبوعا بعد موت خليل الازرق ، " لا أستطيع أن أنام الا بعد أن أشرب زجاجة كاملة من الويسكي ، ثم فررت من الخمر الى الجنس ، كنت أنام مع ثلاثة رجال في ليلة واحدة ."(٣)

ومن الطبيعي أن يكون للوسط الذى تعيش فيه سلمى تأثير كبير على سلوكها . فأبوها ، وخليل الازرق ، يتعاملان بتجارة السلاح ، ويهتمان بجمع المال والحصول عليه بغض النظر عن الوسيلة .

---

١) سليم اللوزى ، المهاجرون ، ص ١٧٢

٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠٧

٣) المصدر نفسه ، ص ١٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد عبرت عن ذلك حين وصفت نفسها بأنها مجرد مخلوقة صنعتها ظروف خارجة عن ارادتها ولدت في عصر خاطئ، على جانب الخطأ من خطوط العرض." (١)

ثم تكشف أحداث الرواية عن مقتل خليل الازرق على يد علي الشيخ (والد سلمى) بسبب تهريب صفقة سلاح الى اسرائيل.

ويكون هذا الكشف نقطة تحول في حياة سلمى وفي حياة والدها على السواء، فتتقطع الخيوط التي تربطها بوالدها، وبالحياة وتبدو "مهزومة، جريحة، فقدت الثقة بكل شيء." (٢)، في حين يراجع علي الشيخ حساباته فيجد "أنه قد أفرط في التساهل معها، أعطاها حرية لم تحسن استخدامها، فدمرت حياتها فيما تريد أن تحمله المسؤولية، ولكنه كان يدرك أن الوقت قد فات لاصلاح ذلك الخطأ." (٣)

ولذا تنتهي الرواية بهروب سلمى واختفائها. من حياة أبيها، ومن حياة سامي الشريف، وسعيد الطرابلسي، وبمقتل أبيها في دورة مياه عامة في "سان ريمو"

و فقدان التوازن والاختلال:

ينصرف الذهن في الحديث عن الشخصيات التي فقدت توازنها، الى شخصية مثل شخصية أديب لطه حسين، فقد فقد أديب توازنه وهو يواجه حضارة جديدة لها من المقومات، والخصائص، ما يجعلها مختلفة اختلافا جذريا عن البيئة التي جاء منها.

وكان فشل أديب يتمثل في عدم مقدرته على أن يقيم جسرا بين هذين الوضعين الحضاريين، فهو يمثل عدم القدرة على التكيف، لأسباب نفسية، وحضارته معا. ولكن النماذج التي سنتحدث عنها، تختلف اختلافا كليا عن أديب. فإن ما يميز هذه النماذج هو الاندفاع الطائش، والرغبة الجامحة في الحصول

---

١) سليم اللوزي، المهاجرون، ص ١٨٢
٢) المصدر نفسه، ص ٣١٤
٣) المصدر نفسه، ص ٣١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على المال ، عبر المؤسسات الغربية .

وقد أدى هذا الاندفاع بها الى سلوك طرق غير شريفة ، تنافي الأخلاق ، والانتماء الى الوطن ، فكان فقدان التوازن يعبّر عن قصور أخلاقي ، وتغليب للمصلحة الذاتية .

فلم يكن فقدان التوازن هذا ناتجا عن عدم القدرة على التكيف مع الحضارة الجديدة ، فخليل الازرق وعلي الشيخ ، يمثلان حالة متقدمة على مستوى هذا التعامل شخصا وسلوكا ، ولكّن انهيارهما ناتج عن المغامرة ، ولا سيما في عقد صفقات السلاح . وثمة خيط يصل بين شخصية خليل الأزرق ، وعلي الشيخ ، فهما مرتبطان ببعضهما بعضا في الوطن ، فقد كان خليل يعمل تحت امرة علي الشيخ ، وبقيا في اوروبا يعملان مع بعضهما بعضا في سمسرة السلاح .

وتتبدى ملامح شخصية خليل الأزرق من خلال أحاديث الشخصيات الروائية عنها ، فهي غير حاضرة في الرواية على مستوى الحاضر .

فهو " رجل مذهل الذكاء ، مغامر لدرجة الجنون ، شخصية من الشخصيات النادرة ، ولعلّ ما يزيد في الغموض الذى يكتنف حياته ، أن قليلين جدا هم الذين يملكون معلومات عن عمله وتصرفاته وارتباطاته ." (١)

وهو يتقن الفرنسية والانجليزية ، ويتكلم الايطالية ، ويستطيع فهم الألمانية مع أنه ليس من خريجي المدارس والجامعات .

وهو من وجهة نظر بعض النساء في الرواية ، متفوق جنسيا ." (٢) ، فمجموع هذه الصفات تؤكد أنّ خليل الأزرق ، ناجح على شتى مستويات التعامل . " فلقد استطاع أن يهاجر من واقع تعس ولد فيه ، ليعيش بعد ذلك على القمة ." (٣)

---

١) سليم اللوزى ، المهاجرون ، ص ١٠٣

٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٥ ، وانظر ص ١٥٢

٣) المصدر نفسه ، ص ١٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ هذا النجاح دفع به الى المغامرة، التي أفقدته توازنه، وانتماءه لوطنه، فأصبح مستعدا لتهريب صفقات السلاح الى اسرائيل. ووقع خليل الأزرق صفقة الأسلحة الفرنسية باسم دولة عجمان، الأمر الذى أثار ردود فعل عند شريكه علي الشيخ، فأقدم على قتل خليل الأزرق. ويكشف الحوار الذى دار بينهما قبل لحظة القتل عن درجة الاختلال الذى وصل اليه خليل الأزرق.

"اسمع يا ابن الكلب، هل وصلنا لبيع السلاح لاسرائيل ؟

- وما المانع؟ نحن تجار سلاح، نبيع لمن يدفع الثمن

- الا اسرائيل،

- اسرائيل، اسرائيل، اسرائيل، هل جئت تخطب هنا.

صفقة قطع غيار، لن تقدم ولن تؤخر.

- كيف لن تقدم ولن تؤخر، الا تعرف أن معركتنا مع اسرائيل هي معركة حياة أو موت.

وضحك خليل الأزرق باستخفاف، ومد ساقيه فوق المقعد المواجه لمقعده وقال الآن فقط تذكرت صفقة السلاح مع الأكراد، هل كانت تخدم المعركة؟ لنتكلم بصراحة، أنت غاضب لأنك لم تأخذ حصتك من العمولة."(١)

فردة الفعل التي حركت علي الشيخ، لا تعني أنه أفضل من صديقه، فقد كان زميلا له في كافة تحركاته، وشريكا في كل أعماله التجارية.

ولكن ردة الفعل هذه استيقظت بفعل كلام شاب فلسطيني اسمه راشد أبو المنى لتكون بمثابة تكفير عن الماضي المملوء بالأخطاء. وقد كشف التحقيق عن مقدار ما وصل اليه علي الشيخ في اندفاعه وفقدانه للضوابط

---

(١) سليم اللوزى، المهاجرون، ص ٣٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

... كانت سكرتيرته (ريتا) يهودية، تعمل لصالح المخابرات الاسرائيلية " واكتشف أنه كان في قبضة المخابرات الاسرائيلية وهو لا يدري وهي غلطة لا تغتفر لرجل كان يعمل في المخابرات." (١) ، وعملت ريتا بكل جهدها على انقاذ حياته، ومحاولة ابعاده عن مسألة اغتيال خليل الأزرق ونجحت في ذلك، ولكن علي الشيخ ينتهي " مقتولا " في دورة مياه عامة في سان ريمو." (٢) ، وتختفي ابنته سلمى من حياة ابيها، ومن حياة الجميع. وتكون نتيجة الغربة هزيمة شاملة، ودمارا تاما، رغم النجاح المادي الكبير، ويكون تساؤل سلمى معبّرا عن انهيار عالم هؤلاء المهاجرين" لماذا شوهت صور الجميع على هذا النحو؟ خليل متعامل مع اسرائيل، عشيق ريتا، وأبوها متهم بالتعامل مع اسرائيل، متهم بجريمة قتل ... أهذه هي حصيلة كل سنوات الغربة وهل ينتهي كل شيء؟ أبوها في السجن، وحبيبها في القبر، وتنتصر ريتا وحدها." (٣)

وهذا يعني أن فقدان الانتماء، وفقدان الروابط الاجتماعية والخلقية واندفاع هؤلاء المهاجرين في جمع المال، جعل من حياتهم مأساة.

فقد أصبحت حياة علي الشيخ وخليل الأزرق، تدور ضمن مؤسسات، وعصابات استهلكت نجاحهم الفردي.

صحيح أن الطابع الوثائقي، طغى على رسم الشخصيات من الناحية الفنية، ولكن هذا لا يؤثر على النتيجة التي وصلت اليها.

---

١) سليم اللوزي، المهاجرون، ص ٢٦٢

٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٤

٣) المصدر نفسه، ص ٣٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ز . القلق والشعور بالغربة :

تتوضح ملامح الشخصية الروائية القلقة في روايتي "المتميّز" ، و"أحداث" في المنفى" لمحمد عيد وسامي الجندى .

فانّ كلا من سامي وأحمد - بطلي الروايتين - يستشعران غربة نفسية وحضارية ، بسبب انفصالهما القسرى عن مجتمعهما .

وهذا يعني أنّ القلق ليس سمة مرحلية من سمات المواجهة مع الحضارة الغربية ، ولكنه طابع دائم تتميز به الشخصية الروائية ، بسبب شعورها بالنفي ، والانفصال عن الوطن .

فالغرب بالنسبة لسامي في "المتميّز" واقع مفروض، عليه أن يواجهه ، وأن يحتمل ما في مواجهته من الآم ، لأنّ هذه الآلام بديل عن الموت المجاني في الوطن . ولهذا يواجه الغرب بانكماش داخلي ، يبدو فيه حريصا على ذاته ، وعلى ما يدور فيها من ذكريات ، والآم . وهذا يصرفه عن التعرف الى واقعه الجديد . " شغلني هذا عن رؤية مونستر ، المدنية التي أنا فيها الآن ، وكان قد مضى على وصولي شهران ، لا شيء في ذهني أنوى عمله ، زهفت الى الطريق ، أشعر بتبلد ، ورأيت المدينة للمرة الأولى ، رأيت امرأة تجرّ طفلا في عربة ، وقد بدا على الاثنين آثار التغذية الجيدة ، فدهشت ، أحسست انني جائع منذ زمن طويل ، دخلت مطعما واجهني ، أخذت أشيء بالاشارة ، أكلت كثيرا ، وشربت أيضا كثيرا ، وحينما أردت الوقوف على قدمي لم أستطع أحضروا عربة ، وأوصلتني الى البيت، تمددت على السرير، وعجزت عن النوم"(١) .

---

(١) محمد عيد ، المتميز، ص ١١ ، ١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالحرب والجوع والدمار في الوطن، جعلته يفاجئ بأبسط الأشياء، في المانيا، وبأقلها تعقيدا، فصورة المرأة وطفلها التي رآها، تركت دهشة عميقة في داخله، دفعت به الى حالة من القلق، صرفت عنه النوم.

ولهذا تراه لا يحتمل واقع العمل في ألمانيا، وما فيه من آلية ورتابة، لا يستطيع احتمالها رجل مثله، فيترك العمل، بعد تنبيه بسيط من رئيسه... أما عن لجوئه الى الدراسة، فلم يكن الا حلا اجباريا فرضته الظروف على بطل الرواية من أجل البقاء في ألمانيا "الالتحاق بالجامعة هو الخيار المطروح أمامي."(١)

ولكن الدراسة في الجامعة تثير فيه "شهوة قديمة، قراءة بريخت وكافكا، وشبنجلر، وهيدجر بلغتهم الأم."(٢)، أي أنها تبعث فيه الرغبة في العبور الى الفكر الاوروبي، من خلال كسر الحاجز اللغوي القائم بينه وبين هذه الحضارة.

وتبعث في الوقت نفسه شعورا عميقا بالغربة، وتصبح اللغة الأم معادلا موضوعيا للعالم الذي يحبه البطل وينتمي اليه "فقد كنت أبدأ بألمانية ممزقة، أو انجليزية لا تكفي، وأجد نفسي بعد خمس دقائق أتكلم العربية، ومحدثي أو محدثتي، قد اتسعت حدقتا عينيه من الدهشة دون أن يفهم، أخجل ازاء ذلك، كنت أشعر بحسرة وينتابني احساس بالنفي."(٣)، وهذا يعني انقطاع الروابط التي تصله بالمجتمع الاوروبي، لأن اللغة هي الجسر الموصل الى هذا العالم الجديد،

---

١) محمد عبد، المتميز، ص ١٤

٢) المصدر نفسه، ص ١٤

٣) المصدر نفسه، ص ١٤، ص ٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" لا أستطيع افهام أحد أريد أن أتكلم بلغتي تلك التي أستطيع بها أن أقذف نفسي في وجه العالم ، أريد أن أتكلم عن شيء محدد - أنا - هذا ما أفتقده ، ويكفي أصغر حدث أو حديث لصفع ذهني به من كل جانب، فأفقد احساسي بالأشياء، وأجد ملمسها كسلك مكهرب، كم هي غريبة." (١)

ان سامي قلق ، متوتر، لا يقدر على الاندماج بالواقع الجديد بسبب اللغة، وبسبب الماضي . وهذا القلق أضفى على علاقته بالأشياء، طابع الرفض والكراهية لهذا العالم الجديد ، فكانت علاقته بالمرأة الغربية تجسّد هذا القلق ، فقد كانت هذه العلاقة تأخذ شكلا جنسيا ، ليس فيه للعاطفة نصيب، ثم ان طبيعة النماذج النسائية التي أقام علاقات معها ، كانت رافضة للحضارة الغربية ، وتشعر مثله بقلق عميق ، وغربة حادة عن المجتمع. فقد تعرّف الى فتاة زنجية ليبيرية " كانت تصدر عن احساس بالظلم، انها تشترك فيه معي في هذا." (٢) ، وتعرف بعدها الى فتاة ألمانية كانت نزيلة ملجأ ، لأن والدها شنق وهي في بطن أمها ، وهي رافضة لمجتمعها ثائرة على انظمته. فلجوء سامي الى هذه النماذج النسائية، كان نوعا من التحايل على نفسه بغية الاندماج في حياته الجديدة ، " تحولت تلك الرغبة الجنسية الى محاولة لملء الفراغ، فالملل قد أصبح بعد أساسيا وصلبا لحياتي منذ وصلت الى هذه البلاد." (٣) ،

وهذا يوضح النوعية التي ينتمي اليها سامي ، فهو متمرد على قيم الحضارة الغربية ، رافض لبعض جوانبها ، ولكنه في تمرده حريص على توكيد حريته الفردية ، وعلى انتمائه للوطن في الوقت نفسه.

---

١) محمد عيد ، المتميز، ص ١٤

٢) المصدر نفسه، ص ١٥، ص ٤٩

٣) المصدر نفسه، ص ٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنّ هذا لا انتماء كان توكيدا لحريته الفردية، ونابعا منها. ولعلّ ذلك يفسر علاقته بأندريه، تلك المرأة الفرنسية، التي تعيش في ألمانيا. فهي في وضع يتشابه كثيرا مع وضعه، فهي فرنسية في مجتمع ألماني. أي أنها تشعر مثله بالغربة.

وهي ذات "شعر أسود فاحم ولون بشرتها بين البياض والسمرة، فيها الكثير من الملامح الشرقية."(١)، وهي على صلة بالشرق، حاولت دراسة اللغة العربية ذات يوم، وفي بيتها أغان لفيروز.

ولا يخفى أن تركيز سامي على كونها فرنسية في ألمانيا، وعلى ملامحها الشرقية، واهتمامها بالشرق، كان المبرّر والسبب للاندماج والحب الذي حصل بينهما.

فهي تشبه نوال، حبيبته التي تركها في الوطن، وهذا أعطى للعلاقة بينهما طابع الود الذي كان يفتقده في علاقاته مع النساء، "وعلى صوت فيروز، اختلطت في ذهني الصور، كنت أراها أحيانا أندريه وحينما تنحسر عينيها أراها نوال، وأحيانا أخرى امرأة مصرية في السادسة عشرة."(٢)

ولكنّ هذه العلاقة تثمر جنينا في أحشاء أندريه، ويكون هذا الجنين سببا في انتهاء العلاقة بينهما ("سأتخلص من ذلك المخلوق الذي سيأتي مشوها."(٣)، وهذا يعني أنّ العلاقة مع الغرب لا يمكن أن تستمر، لأنّ اللقاء مستحيل - من وجهة نظر البطل - ما لم يحصل تنازل من أحد الأطراف.

"لقد أحببتك، ولا زلت، لكن ذلك يجب أن ينتهي كممارسة، سأحوله

---

١) محمد عيد، التميز، ص ٣٩

٢) المصدر نفسه، ص ٦٤

٣) المصدر نفسه، ص ٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى ذكرى ."(١)

انّ التناقض الجذري بين الحضارتين ، حاول دون استمرار تلك العلاقة . وأكّد على استمرارية الطابع القلق لبطل الرواية . ولكن سامي أنهى هذا الصراع النفسي بين انتمائه لوطنه ، ورفضه لحياته في اوروبا بالعودة الى الوطن ، أو بالعودة الى عقله ، كما قال .

أما سامي الجندي فيتحرك أحمد بطل قصته "أحداث في المنفى" في تركيا . . . ولكنه في علاقاته ، وتفاعله مع الحياة في منفاه ، ينتقـــي أشخاصا اوروبيين ليكونوا رفاقه .

فحركته في تركيا لم تصرفه عن التأثر بقيم الحضارة الغربية ، ومعطياتهـا . ولكنّ أحمد ، يمثل حالة مستمرة من القلق ، تختلف عن نوعية القلـــق الذي عاناه سامي في "التميز" .

فاذا كان القلق في "التميز" حالة نفسية ، في مواجهة وضع حضاري ، فانّ القلق هنا يمثل خوفا ، وفزعا مستمرين ، بسبب خشية أحمـــد من القتل . فهو ملاحق ، تهدده احدى الفئات السياسية بالقتـــل ، ولهذا تنكر وغير اسمه "ولو ناداني باسمي الحقيقي لتغافلت وبدلـــت الطريق ، أنكرته لأنه يعني عندي الموت ، تركته هناك . ."(٢)

وأضفى شعوره بالمطاردة ، ظلّ الخوف على كل ما يدور حوله . فالمرأة الألمانية العجوز ، تتشابه معها في بعض نقاط حياتها ، فهي ترفـــض اسم مدام لاي ، وتصرّ على أن يدعوها بهيلين ، لكي تتخلّص من عبء الماضي وبينهما شيء من الهم المشترك "عربي أنت أيضا من أرض محتلة ، أنا ألمانية اسمي هيلين لاي من بروسيا ، بلدي محتل ."(٣)

---

١) محمد عيد ، التميز ، ص ٧٦

٢) سامي الجندي ، احداث في المنفى ، ص ١٢

٣) المصدر نفسه ، ص ٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلها كانت حريصة على صداقته، لما كان يمثله في نفسها من صورة الماضيها . فهو كاتب مثل زوجها ، ويشبه زوجها "في رقته وحنانه ."(١) وكونه "عاطفيا ومحبا ."(٢) ، وهي مثله وحيدة ، تشعر بالعزلة ، فكان التقارب بين عالميهما طبيعيا .

وهو يسقط تجربته في المنفى ، على التصوف ، فعندما يلتقي بشاب فرنسي (جان بول) ويصدقه ليزيت، يكون التصوف محور أحاديثهما لأن جان بول مهتم بالتصوف .

فيرى في صورة مولانا جلال الدين صورة سيزيف "يدفع الصخرة الى الجبل حتى اذا اقتربت من القمة تدحرجت الصخرة الى الوادي فنزل اليها كي يعاود معها الصعود كأنهما توأمان ."(٣)

ويجنح بالتصوف وجماليته، الى اليأس المطلق ، اذ "لا يرى الجمال الا بائس جرّد الأشياء من كل قشورها ."(٤) ، وواضح أن أحمد يحاكم التصوف من خلال تجربته في المنفى ، فهو في حالة تشرد مستمر ، وعذاب دائم ، ويأس مطلق ، فيحيل التجربة الصوفية ، وما فيها من أشواق ، وأمل للوصول ، الى شيء يشبه تجربة منفي سياسي .

من هنا كانت علاقته بالمكان تحمل علاقة الرحيل خوفا من القتل ، فهو ضد الاستقرار لأن الاستقرار يعني انفضاح شخصيته . ولعلّ رحلته الى باريس تمثل مثل هذا الهرب . وعند العودة يكون الرجل الموكل بقتله قد وقع في حب هيلين ، ولهذا يعزف عن قتله ، ولكن الشرطة تلقي عليه القبض على الرغم من ذلك لأن الرجل يدخل الى شقة أحمد ومعه المسدس ،

---

١) سامي الجندي ، أحداث في المنفى ، ص ١٥

٢) المصدر نفسه ، ص ١٥

٣) المصدر نفسه ، ص ٢٢

٤) المصدر نفسه ، ص ٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عاشقا لا قاتلا ، أي أنه يدخل ليرى هل تخونه هيلين مع أحمد أم لا ؟

فتجن هيلين تبعا لذلك ، أما صاحبه جان بول ، فتتركه ليزيـــــــت ويصمم على سلوك طريق التصوف ، بغية الوصول الى الحقيقـــــــة . فنهاية الرواية تحمل مفارقات عجيبة ، فخالد الموكل بقتله ، يتحول مـــن مأجور الى عاشق ، ويطهره الحب ويصبح غير مستعد للقتل . وهيلين صديقة العجوز ، تحب خالدا حتى الجنون ، وترى فيه شخصا بريئـــا خائفا "لو رأيته على قبر مولانا ، بكى كثيرا يا أحمد قال كلمات لـــم أفهمها ، هناك لم يفعل شيئا الا الصلاة والدموع ."(١)

ويقوم هو بتدمير علاقة هذين الاثنين ، بعد أن كان شخصه هو الرابطـــة التي جمعت بينهما .

فينتهي خالد الى السجن ، وهي الى الجنون ، فأخذت تتخيل نفسها عاقرا ، وحطت عندما ذهبت الى قونية "كان بيدو بطنها كبيرا ، رفعـــت السترة ، وقالت انظر ، انظر جيدا ، أنا حامل ، لفت بطنها بخرق كثيرة كي يظهر عليها الحمل كأنها تخدع الله ."(٢)

ولقد ولدّ مصيرها عذابا حادا في نفسه "كنت أمر كل صباح بالميـــدان أشاهدها من حيث لا تراني ، كأنما أذهب الى هناك كي أتعـــذب ."(٣)

وصاحبه جان عزم على الرجوع الى قونية ، لكي يعرف مولانا جـلال الدين عن قرب ويعايشه .

وهو استجاب لنصيحة هيلين "أنا ذاهب الساعة الى قونية ، نفسي حزينة يا هيلين ."(٤)

---

١) سامي الجندي ، احداث في المنفى ، ص ٦٥

٢) المصدر نفسه ، ص ٦٩

٣) المصدر نفسه ، ص ٦٨ ، ٦٩

٤) المصدر نفسه ، ص ٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا تذكرنا مفاهيمه عن التصوف، أدركنا الشقاء الذى سيلاحقه والاضطراب الذى يسيعيش فيه، والقلق الدائم، وحياة سيزيف، .

وهذا يعني أن ما في حياته من اضطراب وقلق، قـــــــــد انتقل بالعدوى الى الوسط الذى يعيش فيه، وصبغ حياتهم بصبغته.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تجتاز الشخصيات الروائية محنة عميقة اثناء مواجهتها للحضارة الغربيـــة، ولا سيما في قضية الانتماء.

ولسنا نعني بالانتماء ما هو متعارف عليه في المفهوم الغربي " وهو الارتباط المنظم بحزب سياسي يخضع لنظرية متكاملة في الفلسفة والاقتصاد والسياسة والمجتمع."(١) ولكننا نعني بالانتماء أمرا أكثر رحابة، وسعة من ذلك المفهوم، حيث يتحول الانتماء من ارتباط فكري وتنظيمي محدد الى موقف حضاري. ويتجسد ذلك الانتماء في جوانب متعددة، يدور بعضها حول علاقة البطل الروائي بالوطن، وقضاياه السياســـية والاجتماعية. وينبثق من ذلك الموقف تجاه الوطن، موقف من الحضارة الغربيـــة عامة، ومن بعض القيم التي تستدعي المواجهة مع الحضارة الغربية اعادة فحصهـــا وتحديد موقف معين منها.

ونستطيع أن نقسم موقف الشخصيات الروائية الى قسمين :-

القسم الأول : شخصيات روائية فقدت الانتماء الى الوطن، واستعاض بعضها عن هذا اللا انتماء، بالانتماء الى الحضارة الغربية.

والقسم الثاني : شخصيات روائية منتمية، وان اختلفت طبيعة هذا الانتماء، تبعـــا لاختلاف هذه الشخصيات. أما القضية الفلسطينية، وهي قضيـــة العرب الأولى، التي شغلتهم وما زالت تشغلهم، فأثرها ضئيل في نفوس هـــذه الشخصيات.

---

(١) غالي شكري، المنتمي، دراسة في أدب نجيب محفوظ، ص ٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشخصيات اللا منتمية :

تتمثل حالة اللاانتماء عند أديب بطل رواية طه حسين "أديب" في علاقته بالوطن، فانّ علاقته بالوطن هي علاقة الهروب والرفض فهو هارب من ماضيه على المستوى الشخصي ، كذكريات زواجه من حميدة، وما في هذه الذكريات من تأنيب لضميره .

وهو رافض لكثير من جوانب الحياة في مصر، ويقابل هذا الهروب والرفض حالة مضادة من الانتماء والاندغام بالحضارة الغربية .

أمّا زمن الرواية فهو الفترة الواقعة قبيل الحرب العالمية الأولى وأثناءها في تلك الفترة التي كانت مصر تقاسي من الاستعمار البريطاني واستغلاله لثرواتها وموقعها ، وكانت فرنسا في حلف مشترك مع انجلترا في هذه الحرب، وهي لذلك تتعرّض الى هجوم قاس من الألمان ، وهذا يعني أن مصر كانت تمرّ في وضع يشبه الوضع الذى كانت تمر به فرنسا ، مع فارق واحد وهو أنّ مصر تخوض حربا لا مصلحة لها فيها .

ولكنّ أديبا لم يلتفت الى وضع مصر، ولم يحاول أن يعرف ماذا حلّ بها فأهمل ما يدور في وطنه، وساءت علاقته بالمصريين في باريس، لأنهم "قوم متخاذلون متنافسون يبغض بعضنا بعضا ، ويمكر بعضنا ببعض او يكيد بعضنا لبعض في كل شيء لسبب ولغير سبب" (١).

وهذه العلاقة مع أبناء وطنه، هي امتداد طبيعي لعلاقته السيئة بوطنه، اذ ليس من المعقول أن تصدر هذه الرؤية في الحكم على أبناء الوطن عن انسان يحب وطنه، ويريد له الخير والتقدم. وهي اذا صدرت فلا يكون صدورها غاية، وانما يكون دافعا لكي يسهم البطل في تجاوزها ، لا تكريسها . ولعلّ ارتياحه للفرنسيين ، يمثل هذا الموقف الذى أشرنا اليه، "فقد اتخذت لي منهم أصدقاء، أحبهم ويحبونني وآمن لهم ويأمنون لي ولكني ألاحظ أن لي نفسين :

نفسا تأنس الى الفرنسيين ، وتجد اللذة في عشرتهم وأحاديثهم ومشاركتهم فيما يأخذون فيه من الجد واللهو، ونفسا أخرى مشوقة أبدا ملتاعة أبدا ، تحب أن تسمع صوتا مصريا صادقا وأن تأمن الى قلب مصرى صادق ." (٢)، فهذه الحيرة التي

---

١) طه حسين، أديب، ص ١٥٣

٢) المصدر نفسه، ص ١٥٣، ١٥٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تؤرق أديبا ، ليس لها امتداد عميق في ذاته، وهي بالاضافة الى ذلك تعبّر عن صدق انتمائه للغرب (على الأقل نظرا لعدم وجود البديل في الشرق) ، وهو يشترط لانتمائه لمصر أن يوجد صوت مصري صادق ، وقد يكون هذا الشرط صحيحا ، ولكن طريقة الوصل الى تحقيقه لا تكون بالأماني ، ولا برفض الحياة في الوطن لأنّ " الحياة في مصر هي الحياة في أعماق الهرم، وأن الحياة في باريس هي أن تخرج من هذه الأعماق."(١) ، ولا برفض العلاقة مع أبنائه والتعالي عليهم.

من هنا كان رفض الانتماء للوطن عند أديب يقابله انتماء حار للحضارة الغربية، وقيمها ومنتجاتها .

واذا تذكرنا أن فرنسا كانت تمرّ في حرب عالمية، وأن الطلاب المصريين قد عادوا الى مصر، أدركنا حرارة انتمائه لهذه الحضارة حين يقول :

" ولقد أخذت على نفسي عهدا ألا أبرح باريس مهما تكن الظروف، وستعلم أنني سأفي بهذا العهد ، مهما يكلفني ذلك، وان انتهى بي الى الموت، وأى شيء يكون الموت في سبيل باريس."(٢) ، فهو مستعد للموت في سبيل باريس، ولكنه يفرّ من الوطن ومن الحياة فيه.

ولقد التفت أديب في الحديث عن باريس، الى الجانب الحضاري باعتبار باريس منارة علمية، ولم يلتفت الى الجانب الاستعماري ولهذا كان الانتماء الى باريس والى الحضارة الغربية بشكل عام انتماء ثقافيا لأن باريس قد حوت" خير ما عند الانسانية من فن وأدب، ومن فلسفة وعلم، ومن عمل وأمل ، ومن تفكير وتدبير ورويّة

---

١) طه حسين ، أديب، ص ١٥١

٢) المصدر نفسه، ص ١٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونشـــاط." (١) ، وأصبح الاعتداء على باريس اعتداء على الحضارة، وتهديدا لها بالزوال والاندثار. ولذا ربط أديب مصيره بمصير باريس في محنتها تلك، ورفـــض التفكير في مصيره الذاتي، وقضايا وطنه، قبل أن يطمئن على مصير باريس" فالأسباب مقطوعة بيني وبين مصر حتى تتكشف هذه الغمة." (٢) ، وهو لا يجد حرجا فـــي موقف صديقته الفرنسية الين التي "لا تريد أن تهجر وطنها، ولا أن تفارق باريـــس وان اعطيت ملء الأرض ذهبا." (٣) ، بل ان موقفها لم يثر فـي نفسه الا تأكيـــدا واصرارا على موقفه " وشهد الله ما أجد لذلك ألما وانما أجد فيه اللذة كل اللذة." (٤)

---

١) طه حسين، أديب، ص ١٥٦، سادت مثل هذه الرؤية في كتابات الجيل الأول ممن تأثروا بالحضارة الغربية، يقول محمد كرد علي في "غرائـــب الغرب"، بعنوان " تحية باريز" ص ٥٩ : " سلام عليك مرضعة الحكمـــة، وربيبة الرخاء والنعمـــة، وروح الانقلابات الاجتماعيـــة، والسياســـية، ومحيية المدنية الأصلية في الاقطار الغربيـــة والشرقيـــة، ومعلمـــــة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين (!)؛ والضرب على أيـــــدي الرؤساء والنبلاء والمالكين. أنت هذبت طبائع البشر، حتى غـــدوا يشعرون باللطف والذوق، وفائدة العلم والعمـــل، أنت كنت فـــــي مقدمة العواصم التي انبعث منها تمجيد العقل، بل تأليهه، فقضيـــت بالتقدم على كل شيء في الوجود، وبالغت في اكرام رجـال العقـــول من أبنائك، سلام عليك يا عشـــيقة الابداع والاختـــراع..."

٢) طه حسين، أديب، ص ١٧٤

٣) المصدر نفسه، ص ١٧٤

٤) المصدر نفسه، ص ١٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا كانت مشاعر الحزن تتسرب الى نفسه، فليس حزنا على مصر لذاتها، ولكنّ هذا الحزن قائم في نفسه، لأنّ مصر لم تمد الجامعة بمال يمكن الطلاب المبعوثين في أوروبا من البقاء هناك، فحرص أديب على البقاء في اوروبا، دفعه الى تناسي وضع مصر، وما تعانيه من ويلات بسبب الاستعمار البريطاني، بل انتهى به الى الحديث عن تضحيات الشعوب الصغيرة لتثبت في الحرب، وكأن هذه التضحيات لا تصدر عن الشعوب نتيجة الضغوط الاستعمارية " أو ليس مما يحزن أو يسوء أن نرى هذه الجهود الضخمة الشاقة التي تبذلها الشعوب الصغيرة لتثبت للحرب وتحتمل أثقالها ونفقاتها وتضحي فيها بما تضحي من الأنفس والأموال وأن نرى مصر عاجزة أو بخيلة، لا تستطيع أو لا تريد أن تنفق على عشرة من أبنائها يدرسون العلم فيما وراء البحر. "(١)

وهذا الموقف لا يتناقض مع تكوين أديب، فقد كان يرى في الغرب خلاصا حياتيا شاملا. ولكنّ الطريف أنّ أديبا أصبح منتميا يشعر بالحنين الى وطنه بعد أن جنّ " أليست مصر أولى بي، أو لست أنا أولى بمصر ان في مصر حميدة، وانّ في فرنسا أليين، وجوار حميدة على بغضها لي، أهون عليّ من جوار أليين، فان حميدة لم تؤلب عليّ ولم تكد لي. "(٢)، ولكن هذا الحنين المرضي، لم يكن خالصا لوجه مصر، وانما كان في المحصلة النهائية لصالح فرنسا " فاذا وضعت الحرب أوزارها وتبين للحلفاء أنهم قد ظلموني حين أساءوا الظن بي، وسمعوا فيّ وشاية الوشاة، فمن يدري لعلي أعود الى فرنسا، فاتم دراستي في السوربون وأقترن الى هذه الفتاة التي احبها حبا لا حدّ له. "(٣)

من هنا كان أديب يمثل فكرة القبول المطلق للحضارة الغربية، بكل شرها وبكل خيرها، ولعل هذا الموقف، وما فيه من بتر لجذوره أسهم في وصوله الى المرض، فالجنون، فالموت.

* * * *

---

١) طه حسين، أديب، ص ١٧٥

٢) المصدر نفسه، ص ١٨١

٣) المصدر نفسه، ص ١٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتشابه سامي الشريف بطل رواية " المهاجرون " مع أديب في حالة اللاانتماء* للوطن ، ولكن هذا اللاانتماء يختلف اختلافا نوعيا عن اللاانتماء عند أديب ، فاذا كان أديب يصل الى حالته تلك بسبب قبوله المطلق للحضارة الغربية ، الذى أدى به الى رفض الماضي ، وكراهيته ، فان سامي الشريف ، يصل الى هذه الحالة بسبب ما لاقاه في ماضيه من سجن وتعذيب . فارتد من حالة الانتماء المتمثل بعلاقته الحزبية التنظيمية بحزب البعث ، الى حالته التي سنراها . فوصول سامي الشريف الى هذه الحالة ، هو خروج من الارتباط العملي ، بأحد الأبنية العقائدية الشمولية نوعا ما ، وارتداد الى الذات ، وتوحد معها ، والاستغناء بهذا التوحد عن الآخرين . وهو يبرر هذه الردة بغياب الديمقراطية ، وسيطرة الدكتاتورية على واقع الوطن " وطن من هذا ؟ هل هو وطني ، أنا العاجز الذى لا يعرف ما هي تهمته انتزعت من بيتي ومن بين أهلي ، ومن كل الملكية التي بناها أجدادى أم هو وطن الذى يقف على الجانب الآخر من الزنزانة والذى يملك بكلمة واحدة أن ينقلني من صف المواطنين الشرفاء الى صف المتآمرين الخونة ، بل وأن يشنقني معلقا ورقة في عنقي في ساحة المرجة ، يومها اتخذت قرار الهجرة ، فاذا كنا قد فقدنا حقوق الانتماء ، فليكن لنا حق اختيار البلد الذى ننتمي اليه ." (١) ، ولقد كان تجسيد هذا الانتماء يتمثل سلوكا وفكرا في علاقته بالغرب . فهو يتحدث عن حق الاختيار وهو " متمتع بالسكر يلف يده حول خصر احدى الصبيتين الألمانيتين ." (٢) أى أن سلوكه كان يجسد أزمته الذاتية العميقة ، ورغبته في التخلص منها ، عن طريق

---

* ان اللاانتماء يختلف في هذا البحث عن فكرة اللا انتماء عند كولن ولسن ، فاللامنتمون عنده " مجموعة من الناس يشعرون بغربتهم عن المجتمع الذى يعيشون فيه ، انهم أذكياء ، أقوياء ، متطرفون في حساسيتهم ولكن هذه الصفات المغروسة فيهم تبعدهم بالضرورة عن مجتمعهم " انظر المعرفة السورية ، العدد ١٤٩ ، تموز ١٩٧٤ ، مقابلة مع كولن ولسن ، ص ٨٢ فمنظار كولن ولسون ، منظار سيكلوجي أولا وأخيرا ، وهو يركز على الاغتراب داخل المجتمع نفسه ، ونحن ننظر الى اللاانتماء نظرة نفسية - اجتماعية ، ونحاول دراستها ، خارج مجتمعها الأصيل .

١) سليم اللوزى ، المهاجرون ، ص ٥٥

٢) المصدر نفسه ، ص ٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجنس، أما عن فكره فقد أصبحت الحرية الفردية هي الحقيقة الوحيدة التي يسعى للدفاع عنها، ولا شك أنّ التزامه العميق بالدفاع عن هذه الحرية يمثل ثورة على ماضيه العقائدي من جهة، وعلى الانظمة الدكتاتورية من جهة أخرى. كما يجسد غياب القيم عند هذه الشريحة الاجتماعية، التي يمثلها سامي الشريف، عندما تهدد في وجودها الذاتي "فاذا ما استحال وجود المبدأ الذي يحقق المصلحة القومية مع الحرية الفردية فأنا مع الحرية الفردية، ان جسدي هو الحقيقة التي لا تحتمل الشك وأنا مسؤول أولا عن الدفاع عن هذا الجسد."(١)

ولكنّ سامي الشريف لا يكتفي بادانة السلطة، بل يدين معها المجتمع أيضا ولعل هذا الخلل بين السلطة والمجتمع يعود الى اعتصامه بفرديته، ورفضه لكل فكرة أو قانون يهدد هذه الفردية بعد أن أصبح همه الحفاظ "على هذا الجسد ولكي تتوفر لي فرصة معرفة الصواب والخطأ يجب أن أهاجر من مجتمع يحرم الخطأ ولا يعترف بأي ضمانات للانسان."(٢)، ولذا كانت حضارة أوروبا تمثل بالنسبة له تلك الحضارة التي لا تحرّم الخطأ، وفيها الضمانات الكثيرة للانسان، فكان انتماؤه اليها ميكانيكيا، وان كان هذا الانتماء لم يتبلور في اطار فكري، وبقي في اطار المصلحة التجارية التي يوفر له المجتمع الرأسمالي الأسباب لتنميتها.

وتتشابه تجربة احدى الشخصيات الثانوية في الرواية نفسها وهي شخصية محمد أحمد، مع تجربة سامي الشريف. فقد كان أمينا للمعهد الاشتراكي في مصر، ولكنه مع ذلك اعتقل ثمانية أشهر "عندما اعتقلت وجردت من كل الظلال التي يخلعها الانتماء للسلطة، ووقفت عاريا أدركت أن ملايين مثلي يقفون عراة بلاحماية ولا أمن. فما هي ضمانات المواطنين العاديين غير المنتمين لتنظيمات السلطة؟ ... عندما أمرني الشاويش بخلع ملابسي في القسم، خلعت معها كل انتماء للنظام، بل وحتى للوطن."(٣)، ولكن سامي الشريف ومحمد احمد لم يفقدا الانتماء للنظام وللوطن الا بعد اعتقالهما وسجنهما. فجاء هذا اللاانتماء بعد مأساة فردية خاصة. وكان يمكن أن يظلا في اطار الأنظمة نفسها لو لم يسجنا. وهذا يزيد في ضخامة العقدة التي يصدران عنها، فهما يريدان التبرير السيكلوجي لتمردهما ولماضيهما على حدّ سواء.

---

١) سليم اللوزي، المهاجرون، ص ٦٨، ٦٩

٢) المصدر نفسه، ص ٦٩

٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشخصيات المنتمية :

تمثل رواية توفيق الحكيم "عصفور من الشرق"، في فكرتها العامة، مثالا على الانتماء العام، ولكن هذا الانتماء للشرق، جاء غامضا وبسيطا كما جاء بمثابة رد فعل لطغيان الحضارة الغربية. واذا عرفنا أن رواية الحكيم هي من أوائل الروايات العربية التي رفضت الذوبان المطلق في اطار الحضارة الغربية، أدركنا أن ما تمتاز به من غموض وبساطة، يعتبر شيئا طبيعيا بسبب هذه الريادة.

واذا تذكرنا مثالية الحكيم، التي جنحت به الى الروح، فصار الشرق عنده مصدر الروح، عرفنا لماذا أخذ هذا الانتماء طابعا مثاليا، روحانيا في الوقت نفسه، فعندما يتذكر محسن بطل الرواية ثورة ١٩١٩م، يتذكر ولا ريب - الجانب الايجابي في حياة مصر، فلقد كانت هذه الثورة رفضا لواقع الاحتلال الانجليزي، ومحاولة للاستقلال. ولكن سرد محسن لهذه الذكريات، يمتاز بالمثالية، فهو يكره منظر الدم، ولا يليق رؤيته، ويحزن حزنا كبيرا على الجندي الانجليزي "ان منظر الجندي الشاب المضرج بدمائه لم يترك مخيلته، لقد نسي أنه عدوه، عدو وطنه، انه لم يعد يذكر الا ذلك المنظر المحزن ذلك الموت الفظيع."(١)، وهو في سرده لهذه القصة حريص على ذاته وفرديته، فهو لا ينسى نفسه حتى في غمار ثورة جماعية، ومن ثم يكون الحديث عن هذه الثورة ضربا من التغني بقيمة ذاته. "ولذا كانت مهمته في أثناء الثورة تأليف الأغاني الوطنية التي كان يلحنها هو بنفسه، والتي كان يغنيها زملاؤه - شباب القاهرة - خلف قضبان السجن بحماس. وكان هو لا يحمل سلاحا غير سلاح الحماس، لم يكن يحمل - في وسط الزحام - غير قلب مشتعل وأغاني وطنية حماسية."(٢)، والنص السابق يدل على أن بطل الرواية حريص على أن يضفي لنفسه صبغة مثالثة - قيادية في الوقت نفسه. فهو لا يؤيد الثورة بالرصاص، وانما يستخدم الكلمات الفنية، المؤثرة، التي بوأته تلك المنزلة المرموقة في قلوب الشباب وهم في السجون. ولقد كان وهو يمزج الخاص بالعام يقع في مثل ذلك، فعندما يتحدث عن قصة والده مع الانجليز، ورفضه الرضوخ لأوامرهم في الحكم على أحد المصريين الوطنيين - وهذا موقف يحترم - يعقب على ذلك تعقيبا غريبا، يدل على جهله أو تجاهله لواقع وطنه.

---

١) توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص ٢٢

٢) المصدر نفسه، ص ٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو لا يتحدث عن الاستعمار، كغاز يطمع في ثروات البلاد، وموقعها، ولكنه يتحدث عنه كمخلوق أسطوري يشبه الغول، يوجد في كل العصور لكي يقضي على المحبه والتسامح.

" وهكذا تقوم الثورات وتمتلئ القلوب بالبغضاء، انّ هذا المحتل الذي لا يمثل في الحقيقة أي جنس بشري - رغم انتمائه الى جنسية معينة - هو كائن من طراز خاص قائم بذاته يوجد في كل عصر من عصور البشرية، يغرس الأحقاد في النفوس، ويقدح زناد الفتن والثورات." (١)

ولكن انتماء محسن الواسع الى الشرق يأخذ صبغة حضارية، فهو حريص على شرقيته في مواجهة الحضارة الغربية، ولكنّ هذا الحرص لا يعني الرفض المطلق للحضارة الغربية، فانّ محسن حريص على التوفيقية بين أفكار الشرق وحضارة الغرب. فمحسن يرى أنّ " أفكار الغرب لا تستحق أن تنبذ كل النبذ، بل ينبغي أن تضاف الى أفكار الشرق." (٢)، وهو يرى " أن الحضارة الغربية اذا ما تجردت من كبريائها وغرورها ونزلت من عليائها، صارت الأساس لما نسميه في المستقبل، الحضارة العالمية، حضارة الانسان، دون التفكير في مكان محدد فوق كوكبنا وسوف تتسع هذه الحضارة لكل ما هو جميل ومفيد وعملي في الشرق والغرب، لأنّ الشرق والغرب ان هما الا شقا تفاحة واحدة، أو وجها عملة واحدة، خلقا ليكونا كلا واحدا." (٣)، فمحسن في توفيقيته لا يقبل الحضارة الغربية جملة، ولكنه ينتقي منها أشياء، ويرفض منها أشياء أخرى.

ولقد كان ايفان صديقه الروسي هو الذي يحدد الجوانب السلبية في هذه الحضارة، وكان محسن يشترك معه في رفضها.

فالحضارة الغربية أنانية " لا تعرف غير حياة الواقع، ولا يهمها شقاء الغير ولا تحب الحياة الا في الحياة." (٤)، وهذه الصفة تتناقض مع نزوع محسن الى المثالية، فهو يأخذ على هذه الحضارة، مادّيتها الصارمة التي لا تفسح مجالا للحوار مع المثال، بل تقضي عليه قضاء مبرما، وهي حضارة صناعية، ولقد قضت بصناعتها على روح الانسان، " مصيبة المدنية الأوروبية نزلت منذ استقرار الصناعة الكبرى، هذه

---

١) توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص ٣٧

٢) المصدر نفسه، ص ١٧٠

٣) المصدر نفسه، ص ١٧٠، ١٧١

٤) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصناعة التي شطرت المجتمع الاوروبي الى شطرين :

فئة قليلة كلّ همها جمع المال ، وفئة كبيرة كل همها أن تقدم المال في مقابل لقمة، الفئة الأولى لا دين لها الا الذهب، والفئة الثانية لا دين لها اطلاقا ولا شخصيته ولا نفس، لأنها آلات صماء." (١)

وهي لذلك قضت على جوانب الصفاء في حياة الانسان ، ولذا كان التعليم - على سعة انتشاره - غير ذى فائدة لأنه يعتمد على الكمّ لا على الكيف " ان العلم تلك "الماسة" العظيمة المتألقة ، لم تضعها أوروبا في قمة عمامتها لتشع نورا وجمالا ، ولكنها وضعتها في سنّ مخرطة بخارية ، لتقلع بها زجاج ذلك الكأس العظيم ، كأس البشرية الممتلئ بماء روحها ومادة جسدها." (٢)

وهي حضارة أحرقت علماءها " واتهمتهم بالسحر والجنون وخنقت حرية الرأى حتى في شئون الأدب والفن ، وجعلت من المسيحية التي تبشر بالمحبة والسلام ، سلاحا للفتك أمام محاكم التفتيش، ولكن أوروبا اليوم أبرع قليلا من ذى قبل ، فهي تجيد اخفاء حيوانيتها ، تحت ريش صناعي يمثل أجنحة ملك سماوى ، انّ اوروبا اليوم في أزمة شديدة لا شك أنها أخطر أزمة مرت بها." (٣)

ولكنّ هذه الجوانب التي يرفضها محسن ، وايفان تشكل جوهرا مميزا لحضارة الغرب.

فانّ التقدم الصناعي ، والقيم الاجتماعية التي انبثقت عنه هي الملامح المميزة لأوروبا تكنولوجيا ، واجتماعيا ، فماذا يبقى من الحضارة الغربية ، اذا رفضنا ذلك كله ؟ وهل تستطيع الاختيار بعد ذلك ؟ وهل الحضارة قابلة للتجزئة الى هذا الحد ؟

لقد وضع محسن (الجمال والفائدة ، والعملية) مقياسا للانتقاء من الحضارتين . ولكنّ هذه القيم موضع خلاف عميق ، لأنها أمور نسبية لا يمكن تحديدها تحديدا معياريا .

ولكنّ الحكيم كان في انتمائه - رغم كل ذلك - حريصا على أن يعي دور الشرق ودور الغرب، وهذه هي القيمة الكبرى لروايته .

* * *

١) توفيق الحكيم ، عصفور من الشرق ، ص ١٥٤
٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٨
٣) المصدر نفسه ، ص ١٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويؤمن يحي حقي هو الآخر بالمصالحة واللقاء بين الشرق والغرب، ولكنّ الانتماء عند بطل روايته اسماعيل أخذ بعداً آخر، فلقد واجه الحضارة الغربية واستفاد من تقدمها العلمي، ولكنه لم ينعزل ولم يشعر بالاستعلاء على مجتمعه، وانما وظّف هذا العلم في خدمة فقراء مجتمعه. فهو متجاوز لرواية توفيق الحكيم التي وقفت عند حدّ التوفيق النظري بين الشرق وجزء من حضارة الغرب.

وقد جاء انتماء اسماعيل الى مصر بعد انفصاله عن مارى- وهذا يعني أنّ علاقته بالغرب في بداية الأمر، كانت من القوة بحيث صرفته عن التفكير في الوطن. فقد استغرقته هذه العلاقة بكل ما فيها من صياغة جديدة لشخصيته. حتى تحول اسماعيل تحولا جذريا، فتغيرت طبيعة نظرته الى الوطن.

فقد "كان اسماعيل لا يشعر بمصر الا شعورا مبهما، هو كذرة الرمل اندمجت في الرمال واندست بينها فلا تمييز منها، ولو أنها مع ذلك منفصلة عن كل ذرة أخرى."(١)، وأصبح الآن يشعر بنفسه كحلقة في سلسلة طويلة تشده وترتبطه ربطا الى وطنه."(٢)، أي أنه انتقل من مرحلة الاندماج التي تختفي فيها الملامح والهوية الى مرحلة الاحساس بالقيمة الفردية، دون التنكر للانتماء الجماعي. ولا شك أن هذا التغير تابع لسلسلة التغيرات الكثيرة التي طرأت على شخصية اسماعيل. ولذا تراه يصف شعوره نحو مصر:

"في ذهنه مصر عروس الغابة التي لمستها ساحرة خبيثة بعصاها، فنامت عليها الحلي و (دواق) ليلة الدخلة، لا رعى الله عينا لم تر جمالها، ولا أنفا لا يشم عطرها! متى تستيقظ؟ متى."(٣)، وواضح أنّ هذا الذي يعبّر عن طبيعة انتماء اسماعيل تعبيرا جماليا، من خلال لغة شعرية. ولكنّ هذه الرؤية الجمالية لم تجنح بعيدا عن الواقعية، فانّ مصر بكل ما فيها من جمال، وحضارة قديمة نائمة، وعلاقة اسماعيل بها تكمن في حملها على الاستيقاظ. والملاحظ أنّ اسماعيل يستعير في الحديث عن مصر، اسطورة اوروبية شائعة، فعروس الغابة النائمة

---

١) يحي حقي، قنديل أم هاشم، ص ٩١

٢) المصدر نفسه، ص ٩١

٣) المصدر نفسه، ص ٩١، ٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" لا يوقظها من سباتها السحري سوى مقدم أمير جميل يعشقها ." (١) ، فهذه الاستعارة تكشف عن مدى تغلغل تلك الجمالية الأوروبية في ذاته، حتى حرص على أن يبلور انتماءه الى مصر عبرها . ولكن اسماعيل (أو يحي حقي) حريص على الا يكون حديثه عن الانتماء تجريدا ، وقيما مطلقة، فهو يقول :-

" وكلما قوى حبه لمصر، زاد ضجره من المصريين ، ولكنهم أهله وعشيرته والذنب ليس ذنبهم، هم ضحية الجهل والفقر، والمرض والظلم الطويل المزمن ." (٢) ،

وهذا الحديث عن المصريين يختلف على سبيل المثال عن حديث أديب عنهم . فلقد كان أديب يكرههم، من موقع البرج العاجي ، ويتمثل هذا في نفرته منهم، وشعوره بالاستعلاء عليهم ، وما ارتياحه للفرنسيين الا نوعا من التغني بتميزه وتفرده، أما حديث اسماعيل فهو يمتاز بالصراحة العميقة ، وبالحب للمصريين ولعلّ حرصه عليهم هو الذي دفعه الى هذه النقمة .

ولهذا كان حريصا على أن يسهم في تغيير واقعهم، حتى لو أدى ذلك الى أن يصطدم بهم .

فهو " قد عاهد نفسه في حبه لمصر ألا يرى منكرا الا دفعه، علّمته ماري كيف يستقل بنفسه، وهيهات لهم بعد ذلك أن يجرّعوه خرافاتهم وأوهامهم وعاداتهم، ليس عبثا أن عاش في أوروبا ، وصلى معها للعلم ومن أجله ، علم أن سيكون بينه وبين من يحتك بهم نضال طويل ، ولكنّ شبابه، هوّن عليه القتال ومتاعبه، بل كان يتشوق الى المعركة الأولى ، وسرح ذهنه فاذا هو كاتب في الصحف أو خطيب في أحد المجتمعات يشرح للجمهور آراءه ومعتقداته ." (٣)

---

١) يحي حقي ، قنديل أم هاشم، ص ٩٢

٢) المصدر نفسه، ص ٩٢

٣) المصدر نفسه، ص ٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد حقق اسماعيل هذا الوعد الذى قطعه على نفسه، ووفى به وأصبح "الآن يذكره أهل حي السيدة بالجميل والخير، ثم يسألون الله له المغفرة."(١)

ولكن الذى يلفت النظر في روايتي الحكيم وحقي على حد سواء، هو غياب عنصر الصراع الاستعمارى، أو الحديث عنه بشكل حاد، فان يحي حقي لم يلتفت الى هذا البعد الهام في علاقة الشرق العربي بالغرب، على الرغم من أن الفترة التي كتبت فيها الرواية (١٩٣٩ - ١٩٤٠) من الفترات التي كانت فيها مصر مستعمرة بريطانية.

أما توفيق الحكيم فهو يتحدث عن أثر الحضارة الغربية في تلويث طهارة الشرق "ان الفتاة الشقراء يوم حقنت فخذها بالمورفين السام لم تترك أبويها سالمين لقد قضي الأمر ولم يعد هناك نبع صاف فان الزهد قد ذهب كذلك من الشرق."(٢) فالاستعمار (وهو صورة مجسدة لبعض جوانب الحضارة الغربية في بلادنا) في نظر محسن لوّث الشرق، ولما كان هو ملوثا، فقد استوى المستعمر والمستعمر في هذه النظرة، وهذا ينتهي الى قدرية مستسلمة ترى أنّ اوروبا كائن مريض، وأن الشرق كائن سليم، وأنّ من قدر السليم أن يصاب بالمرض ولا يفكر في المقاومة في الوقت نفسه.*

* * *

ولعلّ ما طرحه يحي حقي في القنديل، يتشابه في المضمون العام مع ما طرحه شكيب الجابرى في ثنائيته "قدر يلهو" (١٩٣٦)، و"قوس قزح" (١٩٤٦م). فهذه الروايات تقع في اطار زمني واحد تقريبا على مستوى الكتابة وعلى مستوى النشر، وهي تتحرك ضمن مخطط متشابه، فاذا كان اسماعيل يذهب

---

(١) يحي حقي، قنديل أم هاشم، ص ١٢٢

(٢) توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص ١٦٨

(*) يروى الحكيم في "عصفور من الشرق"، قصة طريفة عن أحد اللاب المصريين في باريس، وعن علاقته بالكاتب الفرنسي أناتول فرانس، هذه العلاقة التي حاول أحد أعضاء وفد مصر استغلالها في مؤتمر الصلح في فرساى، فأثمرت مقدمة لكتاب "صوت مصر" بقلم أناتول فرانس، دافع فيها عن مصر واستقلالها. ولكّن ذلك لا يغير من طبيعة نظرة الحكيم الى العلاقة بين الشرق والغرب. انظر ص ص ٧٢ - ٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى انكلترا لدراسة طب العيون ، فانّ علاء يذهب الى ألمانيا لدراسة الطب أيضا . واذا كان اسماعيل يتغير، وينقلب كيانه انقلابا جذريا بفعل مواجهته لحضارة جديدة ، فانّ علاء يتغير أيضا تغييرا جذريا . . . ولكنّ الفرق بينهما يكمن في تبلور النظرة القومية عند علاء على الصعيد النظري. فانّ علاء لا يتحدث من خلال " سوريته" وانما يتحدث بلسان العروبة دائما .

ولهذا فان شكيب الجابري تنبه - نظريا - الى القضية القومية ، وأنقذ الانتماء من شرقيته (المطلقة) عند الحكيم، وعبريته الخالصة عند يحي حقي .

" ولقد كنت أزداد كل يوم زهوا بيني وبين نفسي بأني انتمي الى أمة كنت أراها أفقر أمم الأرض مادة ، وأغناها روحا ، وكان أعظم تلك الحماسة التي تجيش في صوتي اذا طلب اليّ أن أنتسب فأجيب:

أنا عربي ، وكم كنت أجد من الصعوبة في وقف نفسي عن أن أردف: أجل أجل . . . أنا عربي ، وما أكثر ما أفخر بذلك ." (١)

صحيح أن تميز علاء بعروبته تلك لم يكن كلّه خالصا لعروبته ، بل كان بعض هذا الالحاح على هويته ، لونا من ألوان الحرص على التميّز الفردي ولا سيما في العلاقة مع المرأة.

ولكن ذلك لا يقلل من قيمة هذا الطرح النظري ، لهذه القضية فلقد كانت تفاصيل هذا الطرح على ما فيها من خطابية ، تمثل وعيا متقدما على مرحلة الحكيم وحقي معا ، فهو يستشعر ما يقاسيه قومه من " فقدان الحرية ، وسلف المستعمر ، ومناوأة القدر . . . وما يأتيه الأجنبي في بلادي من عسف ، وتنكيل ، ونكث بالعهود ، وهزء بالمبادئ الانسانية ." (٢) ، ولعلّ طرح علاء للحرية والاستعمار ، وما بينهما من تضاد ، وجعلهما محور الانتماء ، يمثل بداية طرح هذه المشكلة في علاقة الشخصية الروائية بحضارة الغرب. واذا كان اسماعيل قد عاهد نفسه وهو في أوروبا على ألاّ يرى منكرا في الوطن الاّ دفعه ، فانّ علاء قد وعد أنه لن يتوانى

---

١) شكيب الجابري ، قدر يلهو ، ص ٥٧

٢) المصدر نفسه ، ص ٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في صدر دمه في سبيل استقلال بلاده.(١)

وهذا يعني أن اسماعيل حصر المشكلة الرئيسية في تخلّف أبناء وطنه، ورأى الحل يكمن في تغييرهم حتى لو اصطدم بهم، أما علاء فلقد كانت المشكلة هي استقلال بلاده، وهذا يعني أن علاء قد صمم على الانضمام الى أبناء الوطن لنيل الاستقلال باعتباره غاية ووسيلة.

وثمة فرق آخر جوهري بين علاء واسماعيل يتمثل أكثر ما يتمثل في الممارسة والسلوك.

فلقد رأينا اسماعيل يفي بوعده، ويحاول أن يقيم جسرا بين الحالتين الحضاريتين أما علاء فقد اكتفى بموقفه النظري، وتنكّر لتلك الوعود التي أطلقها وهو في بلاد الغربة، "وكان ينقم على الغرب، فنقم على الشرق أضعافا، وعاد من الغربة بشيء من الايمان، فأضاع في الوطن الايمان كله، وكان أمولا، فأضحى قنوطا - وكان مرحا فأمسى كئيبا."(٢)

وهذه الحالة تمثل طبيعة الحنين المرضي التي يكون فيها الانتماء نابعا من الغربة ومن البعد عن المشكلات، فاذا اقترب الانسان من المشكلات، نكص على عقبيه، وفضل الهرب على مواجهتها. ولذا تراه يقول:-

"كم حننت اليك يا بيروت، ويا دمشق، ويا لبنان، ويا بلدان وطني وقراه لما كنت بعيدا عنك، حتى اذا أضاءت عيني أنوارك، انعكست وجهة قلبي، فاذا هو يرنو الى الغرب القصيّ وقد طالما رنا اليك لمّا كان فيه."(٣)، من هنا أخذ يعيش في الوطن بجسمه، ولكنه بعقليته وعاطفته وسلوكه كان يعيش في أوروبا. فهو يعلن عن ارتباطه بألمانيا بذكرى "حياة جنونية عذبة، قضيتها فيها فكانت الصلة الخالدة بين روحي وبينها، لن يفصمها الدهر، ولن يزيدها البعد الا قوة وسحرا."(٤) وهو في الوطن يتحرك كما تكشف الرواية مع صديق له يلقب "صريع الغواني" يقيم

---

١) شكيب الجابري، قدر يلهو، ص ٦٤

٢) شكيب الجابري، قوس قزح، ١٨٢

٣) شكيب الجابري، قدر يلهو، ص ١٠٣

٤) المصدر نفسه، ص ١٠٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علاقات نسائية متتالية (كما كان هو في ألمانيا) ويكون أحد الملاهي في لبنان مكانا لسهراتهما المتوالية، لأنه يريد أن يكون متحررا كما كان في ألمانيا. وهذا يعني أنه مشدود الى أوروبا، ونتيجة لهذا التوزع أصبح "طريد المدنيتين وغريب البلدين، أردت أن أسد نقص مدنية موروثة بمزايا مدنية مكتسبة، فاذا أنا أضيع المدنيتين، وأضيع بين ذلك نفسي، وبهجة العيش في عيني."(١)، فعلاء تنازل بفعل الواقع السيء، ولتكوينه الرومانسي عن التفكير بالنضال، وأصبح يسعى الى محاولة حلمية لاقامة علاقة توفيقية بين الغرب وبين الوطن، ولكنه فشل في ذلك أيضا لأنه لم يصدر عن رؤية فكرية معينة. "لا المظاهر الغربية ترضيني الرضا كله، فتنفتح لها نفسي، ولا مظاهر قومي تقرعيني فأجد فيها هناء."(٢)، ولهذا تجسد هذا الحلم في التوفيق بين الحضارتين، في حديث شكيب الجابري "ما أصبو اليه هو مدنية جديدة، تتوالد من صوفية المدنيات الشرقية، وروحانيتها وواقعية المدنية الغربية ومادتيها ونظامها، وهذه هي الفكرة التي دعوت اليها في "قدر يلهو".(٣)

ولكن هذا الحلم لم يتبلور قط في الرواية، ولم يتجسد في علاء الا بشكل سلبي، أعني أن تكوين علاء لم يساعد على تحقيق هذه التوفيقية، بل لعله كان في "قدر يلهو" عامل هدم لها، فثمة مسافة بين طموح الروائي، وبين ما فعله.

أما في "قوس قزح"، فان الروائي يخالف ما وصل اليه في "قدر يلهو" فهو يستعيد عند لقائه بايلزا قدرا كبيرا من الأمل والتفاؤل ويعلل شاكر مصطفى ذلك بأنه "جزء من أعراس الأمل التي غمرت العالم بزوال كابوس الحرب عنه سنة ١٩٤٥، وغمرت سورية بالذات بجلاء المستعمرين عنها سنة ١٩٤٦م."(٤)، وهذا التعليل وان كان صحيحا الا أنه لا يكفي، لأن الاعتماد على الواقع الاجتماعي وانعكاسه على رؤية المؤلف يمثل بعض الحقيقة ولا يمثلها كلها، فان ايلزا هي

---

١) شكيب الجابري، قدر يلهو، ص ١٢٣

٢) المصدر نفسه، ص ١٢٢، ١٢٣

٣) شاكر مصطفى، القصة في سورية، ص ٤٤٧

٤) المصدر نفسه، ص ٤٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي أعادت له ذلك الأمل ، وألقت في نفسه دفقة وجدانية حارة ، وهذا يعني أن الغرب هو الذي أعطى الشرق امكانية بعثه من رقاده ، " كانت نفسي لفرط ما وقر فيها من وحشة كالطلل البالي ، وروّع عيني ما روّعك من صور دنيانا الفقيرة أول عهدك بها . فاستبد بي اليأس، ونفرت من حولي الآمال . . . وجئت وأنا أشد ما أكون حاجة الى النور، وحدثتني عنه ."(١)

واذا استبحنا لأنفسنا أن نفهم ذلك فهما حضاريا عرفنا أن علاء يرى أن لا أمل بانقاذ الشرق من واقعه البائس الا بالاسترشاد بالغرب، ثم أن حديثه عن ابنه (محمد علي) ، وما بعثته ذكراه في نفسه من تفاؤل وحماسة ، يكشف عن مدى حبّه لحضارة الغرب، فانّ ابنه ثمرة العلاقة بينه وبين الغرب، وهو يريد أن يكون امتدادا لتلك الثمرة التي ماتت " سنكمل يدا بيد ، الطريق الذي عبدته لابننا يا ايلزا ، وسأكون على عهد صغيرنا حفيظا أمينا ."(٢) ، وهو يتحدث أيضا عن التراث الاسلامي ، وما فيه من أبطال " كنت فيما مضى أحبهم ، واعجب بهم ، وأجرب أن اتخذ منهم قدوة ومثالا ، فكانت الحياة تبدو لدنّى هينة ليّنة اعركها كيف أشاء أما اليوم ، فقد طال عهد الانقطاع بيني وبين الرفاق القدماء محمد ، ابو بكر ، عمر ، علي ."(٣) ، وهذا يكشف عن اعتماده في بنائه لحضارة المستقبل على الغرب والشرق معا ، باعتبار التراث ركيزة مهمة في هذا البناء ولكنه لا ينسى الاستعمار فهو " عدو عنيد وهو البلاء في كل ما وجدته بين ظهرانينا من فساد وشر ."(٤)

ولعلّ ذلك يكشف عن استلهام الشرق العربي الحديث للحضارة من الغرب، حتى وهو يفكر بالثورة عليه .

من هنا كانت "قوس قزح" أقرب الى التوفيقية من " قدر يلهو" في حين كانت رواية رواية " قدر يلهو" تمثل صدقا في الانتماء، على مستوى العاطفة ، وانتكاسا عند الممارسة .

---

١) شكيب الجابري ، قوس قزح ، ص ١٩٨

٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠١

٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٩

٤) المصدر نفسه ، ص ٢٠٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتطرح كوليت خوري في روايتها " ليلة واحدة"، " ومرّ صيف"، نوعا من الانتماء الرومانسي الى الوطن، ويتّميز هذا الانتماء بالحديث عن الوطن حديثا يفيض بالوجد، وبالحب، حيث يغدو الوطن جنة الدنيا ونعيمها، وتشغل الشخصيات الروائية بحكم تكوينها النفسي ومستواها الاجتماعي، الحديث عن مشكلات الوطن. فقد كان اندفاع رشا في تلك الليلة، التي قضتها في باريس قويا، ولعلّ علاقتها بكميل، تجسد عمق هذا الاندفاع، فهي نجحت في اقامة علاقة حب سريعة، انتهت بها الى السرير. واذا عرفنا أن رشا امرأة شرقية، متزوجة، عاشت في كنف زوجها بضع عشرة سنة، أدركنا صعوبة فعلتها، وأدركنا في الوقت نفسه رغبتها في التحرر، ولهذا كان الحنين عندها يمتاز، بمفارقة عجيبة، فهي تسعى بوعي تام الى تدمير ماضيها الزوجي، ولكنها تتشبث بوطنها، وتحن اليه حنينا دائما، وقد يكون صغر الفترة الزمنية لا يسمح بوجود هذه المشاعر، الأمر الذي يثير قضية الافتعال في الرواية. وهذا صحيح الى حد ما. ولكن رشا مع ذلك تستخدم الحنين استخداما، هو في النهاية لصالح تحررها وعلاقتها بكميل. فهو رجل أسمر " لا بد أنه من بلاد الشمس بلادي."(١)، " وقد كنت أرى في سمرته بلادي."(٢)، وعلى هذه الشاكلة، كان انتماء رشا طافحا بالحنين " حملتني الأمواج الى الضفة الثانية من البحر المتوسط، الى البلاد الشرقية، الى دمشق، تلك البقعة الجميلة، التي رعت طفولتي وآنست شبابي فطفح قلبي بالحنين حنين الى تلك السماء الواسعة التي كانت تلفّ أيامي، والى تلك الشموس المحرقة التي كانت تغزل أيامي، وعلى تعرّف الأمواج رقصت لحظات عمري."(٣)، ولعلّ ذكر الطبيعة، وعناصرها المختلفة كالبحر والموج والسماء والشمس، يكشف عن النزعة الرومانسية، في حبها للهروب الى الطبيعة، باعتبارها الملجأ الوحيد، والمنقذ من احباطات العصر، وقلقه. واذا عرفنا أنها في تلك اللحظة (لحظة حملتها الأمواج) كانت مع زوجها أدركنا مقدار ذلك الضيق الروحي الذي كانت

---

١) كوليت خوري، ليلة واحدة، ص ٥٠

٢) المصدر نفسه، ص ٥٠

٣) المصدر نفسه، ص ٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تقاسيه فكانت نقلتها الروحية تلك، تؤكد رومانسيتها، فانّ الرومانسي "لتوقد احساسه وما يسبب له ذلك من قلق وضيق لا ينظر الى الواقع الا ليتجاوزه ويأسى ان لم يخلق للجسم جناحان، كما للفكر جناحان ليسمو بهما الجسد، سمّو الروح فهو متطلع الى الأعلى، الى عالم خلقه لنفسه، وأبدع في وصفه فتراءت لنا فيه أوهام عقله وقلبه." (١)

ولذا كان انتماؤهما الى الوطن، يأخذ بعدا جماليا، تحرص على اثارته والتمسك به، والتنبه اليه، لأنّ هذا الجمال يؤكد حرصها على جمالها هي، فالتي تقول :-

"أنا من أجمل بلد في الدنيا، أنا من جنة صغيرة في الصحراء أنا من دمشق" (٢)

لا بدّ أنها تلفت نظر محدثها الى جمالها. وعندئذ تتناسى رشا مشكلات الوطن جميعا، ويتركز الوطن في نظرها في قضايا العشق والحب :-

"بلادي، بلادي بلاد الحب والشعر يا سيدي، بلاد الاساطير الجميلة، والروايات المدهشة، اذا أحب ابن بلادي، فانه يضع لهفات قلبه في قوافٍ وينظم من خلجات روحه عقودا يزين بها جيد حبيبه، ويجعل من حبه أغنية تردد ها النجوم فتتساقط الحانها احلاما. رجال بلادي يحبون بعقلهم وخيالهم وروحهم." (٣)

فهذه النظرة الرومانسية، تسهم في اضفاء ذلك الجو الشرقي على شخصها (كما يتخيله بعض الغربيين) بكل ما في ذلك الجو من اثارة، وغموض، وشاعرية. ولكنّ هذه النظرة مضلّلة وكاذبة معا، وهي امتداد لتلك الصورة التي سادت ردحا من الزمن في أذهان بعض الغربيين، عن الأجواء الاسطورية في الشرق.

فلقد رأى فكتور هوجو في الشرق - على سبيل المثال - "عالما ساحرا مشرقا فهو جنة الدنيا، وهو الربيع الدائم، مضمورا بوروده، وهو الجنة الغناء حكمة ذو الخضرة المشرقة، والخلجان الندية والأبراج القرمزية، والدفء والخير، وذو المنازل الذهبية والخيام المرجحنة على ظهور الفيلة، والعطور العبقة ... والنخيل دونها عيون الماء، وطير القلائق، فوق المنائر." (٤)

---

١) محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية، ص ٧٢

٢) كوليت خوري، ليلة واحدة، ص ٧٩

٣) المصدر نفسه، ص ١٢٠

٤) محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية، ص ٨٩، ٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويود فكتور هوجو أن يجلس هناك في الليل "عينه على البحر ذى الأعماق، بينما يفتح القمر الأصفر الشاحب مروحته الفضية فوق المروج، ويتخيل هوجو أن سطوح مساكن البدو مليئة بالزهور كأنها سلات ورد." (١)

فقد كان انتماء رشا في مجمله ينبع من رومانسيتها، ومن تحررها، ولذلك كان الحديث عن الحب (باعتباره محور حياة الشرق) يمثل لموحها في تحقيق علاقة الحب مع كميل. ولذلك تتحدث عن المطر في الشرق، حديثا تحمّله ذلك الزخم العاطفي "نشتاق بلوعة الى المطر، كما يشتاق المحب الى الذى يوافيه لهيب قلبه المحترق، وحين تزورنا الأمطار نهلل فرحا، ويلمع الشكر في عيوننا." (٢)

ولعلّ الحديث هنا عن المطر يشف حتى يصبح رمزا الى تلك العلاقة التي كانت تطمح أن تقيمها مع كميل.

* * *

أما الانتماء في روايتها الثانية "ومر صيف"، فهو لا يكاد يختلف في جوهره عن الانتماء في الرواية الأولى، رغم الفارق الزمني بينهما، حيث صدرت "ليلة واحدة" سنة ١٩٦١م وصدرت "ومرّ صيف" سنة ١٩٧٥م. وهذا الانتماء رؤية جمالية تغدو فيه دمشق "كالمرأة المعطرة حين تعرق بين ذراعي رجل." (٣) و "كامرأة الموّقت جيدها والزندين بالشذى، وتوشحت بالخضير، ولابت في الصحراء تبحث عن حبيب." (٤) و "كالمرأة التي تبكي أبدا لأنها تتحرق لهفة وشوقا وحبا." (٥) و "كالمرأة الأزلية كما تعيش في خيالي وحدى." (٦)، فهذه التصورات الجمالية وما فيها من ترف تكشف عن تلك النظرة البرجوازية الى الوطن. ولعلّ صورة المرأة، في أوضاعها المختلفة تكشف عن ذلك، ولذلك تقول "كم من مرة بحثت عنها في

---

١) محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية، ص ٨٩، ٩٠

٢) كوليت خورى، ليلة واحدة، ص ١٣٢

٣) كوليت خورى، ومر صيف، ص ٩

٤) المصدر نفسه، ص ٩

٥) المصدر نفسه، ص ٩

٦) المصدر نفسه، ص ٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الواقع فما وجدتها ."[١] ، ولعلّ ذلك يعود الى أنّ الواقع " بجانب هذه النظرة ليس الا شيئا باهتا . ومع كل ذلك الوجد الصوفي ، في الحديث عن دمشق ، فان المؤلفة تصمم على الذهاب للغرب وهي التي تحب الياسمين الدمشقي وتنتظر الصيف لتستمتع برائحته .

فماذا ستتذكر من دمشق وهي في الغربة ؟

ستتذكر هذا العالم الذي فارقته بمحض ارادتها ، وتحن اليه ، حنينا مرضيا كما تقول . وهي لن تذكر الا الصور الرومانسية " كأشجار الياسمين المعرشة على جدران المنازل ، وبائعي الصبارة المبعثرين مع قناديلهم على الأرصفة في الليالي الصافية ، وبصمات الشمس المنسية على أجساد الحسناوات في المسابح ."[٢]

* * *

أما الانتماء عند سامي بطل رواية محمد عيد " المتميّز" فيشكل جوهر العمل الروائي من جهة ، ويشكل من جهة أخرى مدخلا لفهم الغرب والتعامل معه ، فاذا كان الانتماء الى الوطن في الروايات السابقة ، يتحدد بمدى المواجهة للحضارة الغربية ، ويتأثر بطبيعة هذه المواجهة ، فانّ الانتماء هنا يشكّل مدخلا للتعامل مع الحضارة الغربية ، ويظلّ يمثل النقيض أمام هذه الحضارة . ويكشف السبر الداخلي لشخصية سامي عن شخصية روائية ، ذات ارتباطات حزبية ، ونتيجة لفشل سامي في تنفيذ احدى العمليات قرر الحزب طرده . ومن ثم يكون السفر الى أوروبا ، بديلا عن الموت في الوطن ، وحلّا لوضعه الجديد الذي أصبح فيه خارج الحزب .

---

١) كوليت خوري ، ومرصيف ، ص ٩

٢) المصدر نفسه ، ص ٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فسامي تجسيد للمنتمي المأزوم الذي يشعر أنه يعيش في دائرتين متعارضتين، ولكنه لا يستطيع التخلي عن احداهما.

ولكن الرواية لا تكشف عن البنى الأيديولوجية التي يتبناها سامي أو حزبه، ولذا ظلّت شخصية سامي تعاني من ضحالة المرتكزات الفكرية. وظلّت تعاني من انقسامها على نفسها، فهي ترغب بشدة الوصول الى أعلى درجات الانتماء، ولكنها تفشل في تحقيق ذلك وتتحدد تلك الطبيعة المنقسمة لشخصيته يوم عجز عن اطلاق النار على عدوه "صوبت بندقيتي نحوه، ورأيت الشعيرة من الفتحة القريبة، فضغطت باصبعي على الزناد، لم تنفجر، ضغطت بأقصى ما أستطيع، وجدت اصبعي يرتجف."(١)، ومن ثم كانت علاقته بالضرب قلقة متوترة، بسبب هذا الانقسام والعجز، فهو رافض للامبالاة التي يتحدث بها الشباب الغربي عن القضايا السياسية "كان واضحا أنهم يستطيعون سماع خبر يقول بأن المدنية كذا في الشرق الأوسط، أو في أمريكا اللاتينية، قد دكت بالقنابل لستة أيام على التوالي، لكني لا أجد ما يدل على أن ذلك يمثل شيئا بالنسبة لهم."(٢)

ولكنه عاجز (كما عجز عن اطلاق النار، رغم قناعاته الحزبية) عن ايجاد المدخل المناسب للحديث معهم واقناعهم، رغم اقتناعه بأهمية الحديث عن منطلقه، "لم أتكلم مرة واحدة، الحقيقة اني لم أجد الطريقة التي أتكلم بها، هل يجب أن أبدأ بطرح تاريخ المنطقة وعلاقاتها بالعالم وبدولتهم؟ أم يجب أن اعلق تعليقات خاطفة كما يفعلون."(٣)، وهو في النهاية يتشابه معهم، فهم كما تحدد الرواية مجموعة طلاب يساريين "هؤلاء جماعة - سبارتاكوس - ويميلون لروسيا، وأولئك - حزب الخيمة الحمراء - ويميلون للصين."(٤)، ولكنهم عاجزون عن ترجمة هذه الافكار الى سلوك فعندما فكروا بمساعدة فيتنام جمعوا نقودا لبناء مستشفى في هانوي. وهذا يعني أن انتماءهم الى اليسار، (مثل انتمائه)، لم يتعدّ

---

١) محمد عيد، المتميز، ص ٢١

٢) المصدر نفسه، ص ٢٠

٣) المصدر نفسه، ص ٢٠، ٢١

٤) المصدر نفسه، ص ٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دائرة **الفاشيات**، ولم يتحول الى ممارسة، فمساعدتهم لفيتنام، كانت مثل مساعدة الجمعيات الخيرية، ولهذا قال "أخشى أني اشبههم دون أن أعي ذلك من قبل. والا لماذا أنا بينهم." (١) واذا كان سامي يعبّر عن غربته الثقافية، من خلال غربته اللغوية فانّ نوالا تخدو ذكرى حارقة تفجر فيه الاحساس بالغربة، والانتماء على حدّ سواء، ولهذا يفزع الى صورتها "نوال الزميلة، ونوال الحزب ونوال الجامعة، ونوال الحبيبة." (٢)، واذا عرفنا أنّ نوالا هي التي أوحت اليه بالسفر الى أوروبا، وأبلغته قرار الحزب بطرده - بشكل ايحائي - أدركنا أنها تمثل بالنسبة له ذروة الانتماء، والطريق الى هذا الانتماء من جديد. وهو يكتب رسالة لها، رغم أنه لا يعرف عنوانها، ولذا كتب على المغلّف تحت اسم نوال مباشرة هيث هي في كل زمان ومكان." (٣)، فنوال هنا تخدو رمزا للوطن، "كل ما أراه هنا يدفعني الى التشبث بك أما كيف أعيش فلا أدري، شيء يجبرني على الابتعاد عنكم، ولا أجد ما يدفعني الى البقاء، أما ما أفعله فأنا أعيش، لكني لا أريد أن يكلمني هؤلاء الناس، اني لا أفهم همومهم سأكلمك أنت." (٤)

انّ لجوء سامي الى نوال يمثل الانتماء المأزوم على حقيقته فهو لم يستطع التعايش مع الأطر التنظيمية الحزبية، وهوفي الوقت نفسه مجبر على البقاء في أوروبا، رغم عدم تكيفه مع الوضع الحضاري هناك. واذا عرفنا حياة الفقر التي عاشها سامي في طفولته، أدركنا صدق محاولته للانتماء، وحقيقة التمزق الذي يعيشه، فعندما تسأله المرأة الألمانية عن حادث اختطاف طائرة:

"من هم هؤلاء! وقلت (٥) لا أدري في الواقع."، يجسد في الاجابة ذلك التمزق، في حين يخفي الحقيقة في داخله "كنت أريد أن أصرخ في وجهها، انهم أناس فقدوا كل شيء

---

١) محمد عيد، المتميز، ص ٢١

٢) المصدر نفسه، ص ٥٩

٣) المصدر نفسه، ص ٦٠

٤) المصدر نفسه، ص ٥٩

٥) المصدر نفسه، ص ٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويحاولون استرداد بعضاً مما ضاع، أما ما سيدفعونه بالمقابل فلا قيمة له لأنهم لا يملكون شيئا ."(١)

فهذه الاجابة تعبير مكثف عن جوهر هذا الانتماء، الذي خلاصته الصدق الشعوري داخليا، والفشل عند الممارسة خارجيا.

* * *

أما الانتماء عند علي، احدى الشخصيات الروائية الرئيسية في رواية حسن جمال الحسيني "الأصدقاء"، فيمثل وعي علي بالواقع السياسي والاجتماعي السيء في الوطن، ورغبته العميقة في تغيير هذا الواقع. ولكن وعي هذه الشخصية الروائية، وان كان صحيحا على الصعيد النظري، الا أنه لا يتداخل مع بنائها، بل يمثل حالة طارئة من حالاتها. وهذا عيب رئيسي من عيوب هذا الانتماء، فهو خاضع الى حالة التضاد، التي تعيشها الرواية على مستوى بناء الشخصيات. فلقد عجز الروائي عن تجسيد هذا الوعي السياسي والاجتماعي، ودمجه بسلوك الشخصية الروائية، فأصبح هذا الوعي يطفو على سطح الشخصية الروائية دون أن يشترك في صياغتها.

من هنا كان انتماء علي يمثل لحظة انفجار سريعة في وجه السيد كامل والد صديقه جمال، ولقد تبدى هذا الانتماء في جلسة أنيقة، في أحد المطاعم الفاخرة بعد وجبة عشاء دسمة، وتبعا لحالة التضاد، فقد كان "الصراع" الفكري فيه شيء كثير من الاعداد القبلي، فمن الطبيعي أن يدافع علي عن الفقراء، وأن يدافع كامل عن مصالح طبقته، فينتقد علي الامتيازات الطبقية التي تتمتع بها طبقة كامل، التي يجب هدمها واعادتها "الى المستوى الشعبي الطبيعي قبل البدء في العمل والبناء من جديد."(١)، ثم يتحدث عن وجوب الثورة

---

١) حسن جمال الحسيني، الأصدقاء، ص ٢٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"على الحالة المزرية الفاسدة التي وصلنا اليها ."(١) ، ويطالب بثورة جذرية تقبح كل ما هو عفن ."(٢)

وهو يحدد مفهومه للثورة بأنها ليست تلك التي تهدم، وهي في الوقت نفسه ليست هدفا وغاية، بل هي ثورة " مجد واصلاح وليست ثورة حقد وكراهية ."(٣) ثم ينتقد الحرية التي ترسخ وجود الطبقة الارستقراطية، ويرى وجوب التضحية بها موقتا " في سبيل وحدة أمتنا التي فسخت بأياد أجنبية ."(٤) ، ثم ينتقد الجيل الماضي، ويرى أن حسناته تكمن في كونه أتاح لجيل علي المجال لكي يتعلم، في حين لم يترك له شيئا غير الفشل في كل مشاكلنا القومية !"(٥)

أما ردود كامل والد جمال فتتلخص في الأفكار التقليدية المتداولة في هذا المجال: فهو يرفض اتهام علي للاقتصاديين، ويقبله للسياسيين ، لأن " صناعات بلادنا وتجارتها، ورفاهية الناس والازدهار الذي نعيش فيه، وكل ما تراه من تحسن في حياتنا هو نتيجة أعمالنا ."(٦) ، ويتناسى هذا المنطق أن الواقع الاقتصادي في أي بلد، هو امتداد للواقع السياسي . ولهذا يركز كامل على النظرة الاستهلاكية التقليدية القائلة بأن التجار يسعون وراء الربح " ولما كان الربح يأتي عن رغبة المستهلك، ورغبة المستهلك هي رغبة البلاد ."(٧) ، فالتجار معذورون بل هم يقدمون خدمة كبيرة للوطن .

وواضح أن هذا التضاد الفكري يكشف عن طبيعة الوسط الاجتماعي الذي ينتمي اليه كل منهما ، فان عليا يدافع عن الفقراء، ولكنه في دفاعه، يمثل المنهج الانتقادي غير الصادر عن عقيدة محددة، صحيح أنه يدعو الى هدم

---

(١) حسن جمال الحسيني ، الأصدقاء، ص ٢٨٠

(٢) المصدر نفسه، ٢٨٠

(٣) المصدر نفسه، ٢٨١

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٨٣

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٨٤

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٧٧

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٧٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الارستقراطية، وينادي بضرورة التغيير والثورة، ولكنه لا يضع أفكاره في اطـــار متكامل ولذا ظلّ يمثل التمرّد الكائن في أعماقه على وضعه الطبقي باعتبـــاره يتكلم من واقعه " من الجوع والمرض والاهانة. "(١)، وظـلّ يمثل طبيعة التكوين الثقافي الذي يستغرقه فلقد كان " لكثرة المواضيع التي كان يهتم بها مشوش النفس لا يعرف ما يختار لمستقبله. "(٢)

وهذا خلق منه انسانا ساخطا ثائرا باستمرار، ولعلّ هذه الديمومة طبعته بطابعها الدائم، فان التمرد كان يمثل طبيعة حياة علـــي : فلقـــد كان تحرره في علاقاته بالنساء الفرنسيات، يمثل تمرده على أحادية العلاقـــة ولعلّ رفضه لهذه الأحادية يعود الى طابع الشتات الذي أسهم في توزعه النفسي، ولهذا تحددت علاقته بكامل، على أنها علاقة تمرد على الطبقـــة الارستقراطية. ولقد كان دور كامل يتمثل في محاولة اقناع علي بخطأ هذه الافكار أو بتطرفها على الأقل، بغية حمله على التراجع عنها، لكي يتم احتـــواؤه. فلقد كان السيد كامل يطمح في أن يكسب عليا الى صفه، ولهذا كانت مناقشـــة كامل معه، تعتمد الحجة تارة، وتارة التلويح بمستقبل مغر، ان أطاع علـــي كاملا، ولكن الوعي السياسي ـ الاجتماعي الذي كان يملكه علي هو الـــذي فجّر فيه هذا الانتماء، ولم يأت هذا الوعي من خلال الانتماء. فالانتمـــاء هنا يتبلور من خلال هذا الوعي، ولكن هذا الوعي ظلّ خارج تركيبتـــه الشخصية الروائية، حتى أبرزته بعض المصادفات. فجاء أشبه بردة الفعـــل.

* * *

---

١) حسن العيسمي، الأصدقاء، ص ١٣١

٢) المصدر نفسه، ص ١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذلك يمكن الحديث عن رواية سلمى الحفار الكزبرى " البرتقال المرّ" فانّ بطلها يصدر في انتمائه عن انتقادية للوطن في مختلف جوانب الحياة فيه، وهذه الانتقادية لا تكاد تترك معظم الجوانب من حياة الوطن، الّا وحاولت مناقشتها والاعتراض على الجانب السلبي فيها. ويتّضح ذلك من خلال الرسائل المتبادلة بين عصام وبين أصدقائه في الوطن، ولعلّ هذه الروح الانتقادية، تتشابه مع روح علي الانتقادية في " الأصدقاء"، وتختلف معها في آن، فهي تختلف معها في استغراقها لكثير من صفحات العمل الروائي، في حين تنحصر عند علي في لقاء محدد قصير، وهي تشترك معها في كونها لا تشكل جوهرا مميزا للشخصية الروائية، ولعلّ تكنيك الرواية القائم على تبادل الرسائل وكتابة المذكرات أسهم في الوصول الى هذه النتيجة، فبدت هذه الأفكار المتراكمة الكثيرة في الرواية، خارج العملية الروائية نفسها، وأصبحت العلاقة بينها وبين الشخصيات الروائية علاقة التصاق مفتعلة، من هنا توحد الطابع النقدى، وتشابهت الأفكار النقدية، والأشياء المنقودة، على لسان الشخصيات الروائية. وهذا حرم الرواية من التنوع الخصب الذى كان يمكن لاختلاف وجهات نظر هذه الشخصيات أن تثيره، ولكنّ عصاما وضع هذا الاطار النقدى، داخل اطار عملية الانتماء جعلته لا يتعارض معها. فهو يقول: " أتحرق شوقا الى العودة، لأنّ حنيني الى دمشق، مدينتي، والى سورية، وكل بقعة من العالم العربي، حنين ملّح. يشدني الى الماضي، ويشدني الى الحاضر والمستقبل." (١)، وواضح أنّ عصاما يمزج بالبعد الشخصي والمحلّي، بعد قوميا يدا خله مع هذا الحنين ولكنّ هذا البعد القومي غير متبلور، ولذا فرغم حنين عصام الى كل بقعة في الوطن العربي، تراه يقف في بعض الاحيان موقفا اقليميا يتنافى مع ذلك الاحساس القومي، ففي حديثه عن أصحاب الخبرات في الدول العربية يقول عن أبناء بلده

---

١) سلمى الحفار الكزبرى، البرتقال المر، ص ١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"أما الذين تعاقدوا على العمل في البلاد العربية من ذوي الاختصاص وانتقلوا اليها مع عائلاتهم فاننا خسرناهم، بلا شك، في حين كسبتهم الدول الاخرى، وهكذا صدق المثل القائل: "مصائب قوم عند قوم فوائد"."(١)، واذا كان هذا الطرح يجيء في الحديث عن العمل الايجابي من أجل الوطن، فهو يقع في مأزق حرج، بسبب الاقليمية المفرطة التي يتسم بها، والتي تجعل من نظرته نظرة تجارية، نفعية تلغي علاقة الوطن العربي ببعضه بعضا، وتجعلها قائمة على أساس المثل الذي ألمح اليه... وما يحيط هذا المثل في طياته من مواقف عدائية في التعامل والنظرة. واذا كان علي في "الأصدقاء" حريصا في انتمائه على أن يضاد الطبقة الأرستقراطية، وينتقد عسفها، وتسلطها، فانّ عصاما يقف مدافعا عن الطبقة الارستقراطية، ويريد أن يرد لها الاعتبار.

ومن الطبيعي أنّ مستوى الشخصيات الاجتماعي، هو الذي أفرز مثل هذا الانتماء، فانّ عصاما وسالما وهما المحركان الفاعلان في سير الرواية ينحدران من هذه الطبقة، وهاتان الشخصيتان حريصتان على ادانة الاضطهاد للانسان لأنه ينحدر من طبقة معينه، لأنّ ذلك - بكل بساطة - ليس ذنبه، وهما يرفضان المنهج القائل بتأليب الطبقات الاجتماعية على بعضها بعضا، لأنّ الناس في مجتمعنا يميلون الى التحالف لا الى الصراع. من هنا يدين عصام ما حدث في وطنه حيث "تعرّض فيه أبناء الأسر المعروفة الدمشقية، وغيرها لضايقات علنية فتفاقم الأمر. وأدى الى هجرة بعض الناس والى انسحاب بعضهم الآخر من الحياة الاجتماعية وانزوائهم في بيوتهم."(٢)

ولذا كان سالم حريصا على تجسيد هذا الرفض بالشروع بتأليف كتاب بعنوان "دعوة الى الحب" يدعو فيه الى التسامح والتضامن.(٣)

---

١) سلمى الحفار الكزبري، البرتقال المر، ص١١٨

٢) المصدر نفسه، ٦٣، ٦٤

٣) المصدر نفسه، ص٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنّ اقتصار حركة الرواية على الدفاع عن هذه الطبقة، واظهار دورها الوطني لا يقلّ خطورة عن الهجوم عليها، والدعوة الى تحطيمها. فلقد وقعت هاتان الشخصيتان في مأزق "التعصب الطبقي"، في حين كان جلّ همهما يتلخص في تجاوزه. من هنا وقف عصام ضد التأميم، ووقف والد سالم ضد الوحدة السورية المصرية، باعتبار أنّ التأميم ضد مصالح الطبقة الارستقراطية ولأنّ الوحدة فسي مفهوم والد سالم كانت مرتجلة، واعلنت بسرعة ودون تخطيط.

واذا كانت الرواية تتحدث بعد ذلك على لسان والدة عصام عن مشكلة الخبز في سورية، (أي أنها تتحدث عن مشكلة عامة)، فهي تتحدث عن فقدان الخبز الجيد حتى أصبح "السوريون السعداء هم الذين يتمكنون من شراء خبزهم من لبنان كلما سنحت لهم الفرصة بذلك." (١)

ولكنها تعلل فقدان الخبز الجيد بكثرة استيراد الأسلحة على حساب المواد الضرورية. وهي بهذا التعليل تكشف عن ذلك التحيز للطبقة الارستقراطية وتردّ مشكلة الفقر الى أمور معزولة عن الواقع الاجتماعي، وتصادر في الوقت نفسه الحرص المتزايد على قضية فلسطين من خلال انتقادها للتسليح.

ولقد شملت هذه النزعة الانتقادية الدين أيضا، كبناء المساجد والآذان عبر الميكروفونات، وظاهر هذا الانتقاد يمثل نزعة فكرية متحررة، ولكنها في النهاية لا تختلف عن محصلة الانتقاد للاوضاع الأخرى.

ولعلّ هذه الارستقراطية تبدو على الملامح العامة لمعظم شخصيات الرواية. فمنى-ابنة عمة عصام - تلك الفتاة الفلسطينية، حرّمت على نفسها أكل البرتقال لأنها وجدت "عبارات مطبوعة بالحبر البنفسجي على كل برتقالة صنعتها "يافا اسرائيل". (٢)

---

١) سلمى الكزبري، البرتقال المر، ص ١٤، ١٥

٢) المصدر نفسه، ص ١٠٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنذ ذلك اليوم أصبح " كل البرتقال ، مرّ المذاق فحرام عليّ أكله الى أن أعـــود الى أرض الوطن أو أموت." (١)

وهي تخيل عصاما لأنّ له ولذا يستطيع أن يعود اليه " أما أنا فان وطني الحقيقي تمزق ، مجي من الخرائط الدولية ، أضاع اسمه وحدوده ولكنه ما زال حيا فـــي وجداني." (٢)

ومع ذلك فهي تقول لعصام " لولا وجودكم أنتم ، أنسباءنا في دمشق ، لكنا نحسن الآن ، فوزي شيبان وحرمه وولداه ، من سكان المخيمات ولكنت أنا من مواليد هـــا يا عصام." (٣) ، فهي في تخوفها من حياة المخيم ، (وهي حياة فقراء الفلسطينيين) أبانت عن ترفعها عن مستوى هذه الحياة ، واحتقارها لها ، نظرا لمستوى الحياة الأرستقراطي الذي تعيشه ، أي أنّ عائلة عصام الأرستقراطية ، مدت لهم جسرا أنقذهم من واقع حياتهم المائسة من هنا تلخص الانتماء في الرواية بالانتماء الـــى طبقة محددة بمصالحها ، وأفكارها .

* * *

أما بالنسبة للانتماء عند بطل " الحي اللاتيني" ، فهو يتلخص فـــي موقف فكري نظري ، أكثر مما يتمثل في علاقة حارة ، فعالة . وهذا الموقف ذو شـــقين :

الشق الأول : يتعلق برفض الجانب الاستعماري من الحضارة الغربية .

والشق الثاني : يمثّل الرد على هذا الجانب ، وهو الايمان بالوحدة العربية واتخاذ الموقف القومي ، نقطة انطلاق للتعامل مع الوطن ومع الغرب." (٤)

ولكنّ الذي يهمنا في الحديث عن هذا الانتماء ، هو كيفية تبلور هذا الانتمـــاء

---

١) سلمى الكزبري ، البرتقال المر ، ص ١١٠

٢) المصدر نفسه ، ١١٤

٣) المصدر نفسه ، ص ١١٥

٤) أشرنا في الحديث عن التوازن الذي تمثله الرواية الى طبيعة هذا الموقف .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من خلال مجريات العمل الروائي ، فلم يأت الانتماء في الرواية مفتعلا ، ومبتورا عن جذوره الاجتماعية ، وانما جاء بعد معاناة وتجربة عميقة على الصعيدين الشخصي والفكري ، فقد كان موقف بطل " الحي اللاتيني ، من الوطن العربي ومشكلاته غامضا وغير محدد ، ولذا يتحدث عن الوطن العربي بلفظة الشرق ، مما يذكرنا بعموميات توفيق الحكيم وتجريداته في "عصفور من الشرق" ، فيقول عن شوارع الحي اللاتيني " ليس في بلاده ، ولا في الشرق كله مثلها جمالا ونظافة." (١) ، ويقول في اطار حوار داخلي " أفيكون اطار الحياة في شرقك ذاك أضيق من أن تجدي فيه هذه التجارب." (٢)

وواضح أن بطل الرواية يعبّر عن عدم اكتشافه بعد للطبيعة الانتماء القومي ، ويعبّر في الوقت نفسه عن ضيق بماضيه ، ولهذا يطلق كلمة الشرق لتكون رمزا يجسّد مدى المحافظة والجمود الذي كان يعيش فيه والذي يسعى من خلال تجاربه الكثيرة في باريس ، الى الانعتاق من أسره ، من هنا نفهم سبب رفضه لأن يعانق صاحبه في باريس: " لأنه لا موجب للعناق ، يجب أن نقلع عن هذه العادة الشرقية السخيفة." (٣) ، فالشرق هنا حاضر في عادات ، يجب بترها والتخلص منها ولهذا قرن الشرق بالسخف ، في عاداته ، وكان الانطباع الذي يعطيه عن الشباب العربي في باريس ، امتدادا لصورة الشرق في ذهنه ، فاذا كان الشرق على هذا القدر من التخلف ، فان أبناءه لن يختلفوا عنه كثيرا ، واذا كان هو يكره الشرق ، فلا غرو أن يكره أبناءه . ولذا كان يتجنب لقاءهم ، ويحتال لنفسه كي يبقى بعيدا عنهم " وكانا اذا ما فرغا من تناول الطعام في مطعم الطلاب ، مضيا

---

١) سهيل ادريس ، الحي اللاتيني ، ص ١٢

٢) المصدر نفسه ، ص ١٣

٣) المصدر نفسه ، ص ٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى " الكابولاد "، ليحتسيا فنجانا من القهوة، وهناك كانا يلتقيان كانا يلتقيان بطائفة من موا لنيهما السوريين واللبنانيين، ومن العراقيين، والمصريين والتونسيين وقد كان هو في الحق ينفر من لقاء هؤلاء الموالنين ويتجنبهم، ويعتقد أنّ من الخير أن يعيش في غير أجوائهم، فان في أحاديثهم هذرا كثيرا، وفي وقتهم ساعات كثيرة مهدورة، وكان على يقين أن قراءة فصل في كتاب، خير من محادثة أي من هؤلاء المنتشرين على الطاولات هنا وهناك لا يفعلون الا أن يحلقوا على الفتيات اللواتي يدخلن المقهى، او يتبادلوا الضحكات والفكاهات." (١)، ولكنّ هذه الكراهية كما يتضح من حركة الرواية لم تكن نابعة من موقف فكري، بقدر ما كانت ردّ فعل لحالته النفسية المتضايقة من فشله مع المرأة، فكان التحول الى الخط القومي، خير دليل على عدم تأصل تلك الكراهية.

من هنا كانت شخصية فؤاد تمثل الفكرة القومية، وتمثل الجسر الذي عبر عليه بلال الرواية الى هذه الفكرة.

فلقد ربط فؤاد ربطا نفسيا وفكريا بينه وبين هؤلاء الشباب الذين ينفر منهم، وأثبت له أنهم مثله " ضائعون يفتشون عن ذواتهم بأنفسهم ولا بد أن نرتكب كثيرا من الحماقات قبل أن نجد أنفسنا." (٢)، وكان هذا مدخلا سيكولوجيا ناجحا في سبيل اعادة الثقة بينه وبينهم، وقد عزز فؤاد هذا الربط السيكولوجي الناجح بربط فكري ـ ثقافي ناجح أيضا، فأشار الى أن الشباب العربي يشبهون أبطال مسرحية البيركامو " العادلون"، " كل ما في الأمر أن الخيوط بينهم مقطعة، ان الرابطة مفقودة، وانهم لواحدون أنفسهم متى وجدوا هذه الرابطة ويومذاك فقط ـ لن تستطيع أن تتجنبهم ولن يتجنبهم أحد منا ـ لأنه سيكون لرسالتهم قوة جاذبة، تكوى بنار المحبة والاحترام، كل من ينظر اليهم، يومذاك

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٨٥

٢) المصدر نفسه، ص ٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لن تنطلق من فم أحدهم تلك الضحكة المجلجلة الفارغة التي تنطلق بالعبث واللامبالاة.[١]

وقد ترك هذا الربط الناجح تأثيرا عميقا في نفس بطل الرواية جعله يعتقد أنه "لولا أن صديقه تعدى بفكره أحداثها، وكشف عن صفة تشد أبطالها الى شبان عرب، يعيشون في تمرّد مكبوت لا يعي نفسه، لولا ذلك لكان جديرا به أن ينسى هؤلاء العادلين وأن تمحّي صورهم من ذهنه في تلك الليلة بالذات."[٢]، لقد أصبح بطل الرواية في هذه الفترة من أصحاب التفكير القومي، فأصبح يستخدم الشرق مضيفا اليه صفة العروبة، فأخبر جانين "أنه من الشرق العربي."[٣] وبدأ يتحدث عن "خدمة القضية القومية في بلاد العروبة كلها."[٤] ومن ثمّ تطورت علاقة البطل بأمه بشكل يوازي تطور الفكرة القومية.[٥]، واذا أجزنا لأنفسنا ان نعطي للأم بعدا رمزيا، كأن تمثل الوطن. أدركنا أنّ علاقته بالوطن كانت تخضع الى انتماء قسرى تفرضه الظروف والعلاقات، أكثر مما ينبع من موقف فكرى، فعندما عاد من فرنسا الى الوطن في اجازة الصيف، وبعث لجانين برسالة يتنكر فيها لعلاقتهما، ويتبرأ من الجنين، كان ذلك تحت ضغط نفسي هائل من أمه. وهذا يعني أنه لم يكن قد استكمل بعد القدرة على التفكير الحر، ولذا فعندما عاد الى فرنسا، ازداد عنده الشعور بالاحساس القومي "وجدت غرفتي قد أصبحت أضيق مما كانت."[٦]، وهذه الاجابة ذات أبعاد نفسية وقومية، فهي تعبّر عن الضيق بالقيود على الحرية الشخصية في الوطن، وتأمل في التواصل القومي، الذى يكسر الحدود الاقليمية.

ولعلّ تفجّر هذه المشاعر القومية كان يحدده عاملان:

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٨٨

٢) المصدر نفسه، ص ٨٩

٣) المصدر نفسه، ص ١٠٠

٤) المصدر نفسه، ص ١٥٦

٥) يرى أحمد كمال زكي "أن الحي اللاتيني تتحول كلها من أولها الى آخر في ظل هذه العقدة، وأسميها عقدة، لانها فعلا كذلك، بل أزعم أنها عقدة اوديب نفسها" انظر مجلة الاداب، العدد الرابع، ١٩٥٤، ص ٧٦-٧٨ وبغض النظر عن الخطأ في التفسير او المبالغة فيه. فان لوجود الأم أثرا لا ينكر على البطل في سلوكه على المستويات الثلاث: الماضي والحاضر والمستقبل

٦) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٢٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رغبة عميقة في التخلص من سيطرة أمه، ورغبة عميقة في التخلص من الشعور بتأنيب الضمير، نظرا لسوء تصرفه مع جانين. فعاد الى باريس وهو يفكر في انشاء رابطة الطلاب العرب في باريس، ويقف ضد الاقليمية على اختلاف نزعاتها.

ولعلّ الرسالة التي تركتها له جانين، تكون بمثابة "صك غفران" شجعه على الاستمرار في هذا الخط، باعتبارها آخر رغبة لهذه الضحية. "انك الآن تبدأ النضال أما أنا فقد فرغت منه، ومات حسن النضال في نفسي."(١)، وعندما عاد كانت يد فؤاد اول يد صافحها، حتى سألته أمه ان كان قد نسيها، فأجابها بأنه لم ينسها ولكنه رأى فؤادا قبلها.

ففي ذلك توكيد على السير في الخط القومي الذي أراد أن يسلكه، والذي سار طويلا حتى انتمى اليه.

* * *

واذا كان الانتماء عند بلال "الحي اللاتيني" انتماء فكريا، يتولد من معاناة فكرية ـ ثقافية، ويتمخض عن تجربة شخصية، فانّ الانتماء عند "أحمد" في "أحداث في المنفى"، هو انتماء عار، لا يعكس قلقا فكريا أو ثقافيا ـ بالدرجة الأولى ـ، بالقدر الذي يعكس خوفا حياتيا. ولذا كان الانتماء الى الوطن، بحجم الخوف الذي يؤرق بلال الرواية على حياته. فالخوف على حياته، هو سبب تخفيه وانتحاله لأسماء مستعارة، ولذا كان الوطن يتنقل معه في رحلاته وأسفاره، وصداقاته، وحواراته الفكرية.

فالأنتماء الى الوطن يأخذ شكلا بانيا، حيث تتوحد الشخصية مع همومها

---

(١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٢٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويكاد هذا التوحد يفضي بها الى العزلة عن الآخرين ، فهو يقول عن نفسه :
" كنت على خشبة مسرح أضع برقعا على وجهي ، أمثل دورا يقيني الموت ، تركت اسمي على أرض الوطن ، يطفر على روابيه يشم عبير زهوره ، كفتى خصب الجنون . "(١)
فالربط بين الحالة الشخصية القلقة ، وبين الانتماء الى الوطن يكمن في حالة التخفي عند كل منهما ، فهو يضع القناع ، ويخفي شخصيته الحقيقية ، ويخفي انتماءه الحار الى الوطن أيضا .
ولكنه يترك اسمه الحقيقي (في خيال تعويضي) ليشم زهور الوطن ، التي حرم منها .
ولذا كان الانتماء عنده حصيلة للماضي وللحاضر معا .
فالماضي يشكل بالنسبة له عامل جذب رهيب ، لا يستطيع التخلص منه ، ولا سيما ذكريات السجن ، فهذه الذكريات التي " تتردد دائما في سمعي كحشرجة . "(٢)
هي امتداد لعالم رفضه ، وكان سببا في نفيه ، وتشريده وملاحقته .
ويقيم الحاضر كذلك علاقة امتزاج قوية بالماضي ، فهو منتزع من صميم الماضي ، ولهذا يسيطر عليه ذلك الكدر الذي كان يصبغ ماضيه ولذا يقول :
" تساءلت ويلا عن معنى وجودي فانتهيت الى أنه ما كان ينبغي لي أن أكون . "(٣)
من هنا لا يعمد أحمد الى انتقاء عالمه ، فانّ هذا العالم مفروض عليه ، ويكاد يكون على شبه تام بماضيه . فمدام هيلين مثله ترفض اسمها الشرعي ، وتريد اسمها القديم ، وهي الأخرى هاربة من الذكريات ، ومطاردة من قبلها أيضا . وجان بول هارب من مشكلاته مع الحضارة الغربية ، ومع صديقته ، ومطارد من قبلهما معا ، ويرى اللجوء الى التصوف حلا .
وخالد (عضو العصابة الذي كان يريد قتله) هارب ومطارد ، فهو لا يريد أن يقتله ولذا هرب من عصابته ، والعصابة بدورها تصر على أن ينفذ ذلك . من هنا وسع أحمد مشكلة الانتماء ، حتى شملت كافة العلاقات الانسانية والاجتماعية التي أقامها .

---

١) سامي الجندي ، أحداث في المنفى ، ص ١٢
٢) المصدر نفسه ، ص ٣٩
٣) المصدر نفسه ، ص ٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومع ذلك ظلّ النتماؤه يتميّز بالحرارة، وبالتدفق، ولكنه ظلّ يدور في حلقة مفرغة، لشعوره التام بالفردية:

" الى من ينتسب الكاتب العربي ؟ كنت في رحيلي بدويا ضلّ مضارب قبيلته، يطوف في الصحراء، يكاد يقتله الجوع والظمأ، لم أجد أحدا من عشيرتي، والقتلة ورائي أنيّ حللت." (١)، ولذا أسهم في تدمير الوسط الذى يعيش فيه، وان كان هذا التدمير غير متعمد. فلقد أودى بخالد الى السجن، وبمدام هيلين، الى الجنون، ورأى تحطم علاقة جان بول بليزيت، دون أن يفعل شيئا.

ولكنه استمر مع ذلك وحيدا، كما بدأ، واذا كان قد أشار الى التصوف، فهو يؤكد بهذه الاشارة، قضية الفردية التي يصدر عنها. فانّ الذى يميّز التصوف هو الفردية، وخصوصية التجربة.

فكل تجربة في التصوف لها مذاق خاص، يميزها عن غيرها، ولن يستطيع الانسان استكناه أبعاد هذه التجربة الاّ عن طريق التجربة نفسها، ولذا اصطبغت تجربة أحمد، بالمرارة وأصبح الانتماء فيها، مفروضا على الذات لا سبيل الى التخلّي عنه. صحيح أن الطريق الفردى يؤدى الى التعب الكثير، ويقلل من حجم النتيجة ولكنّ البطل والمؤلف على وعي بذلك " قد تكون تجربتي مصدر يأسي، الاجهاد والأرق، والأحزان والمقبل الآتي الذى أجهل ما يخبئ لي. أنا سعيد بالاجهاد والأرق سعيد حتى الألق ولكني تعبت، تعبت من كل شيء ووهن الجسد، ولكني ما زلت قادرا على النشيد - حكايات كثيرة أعدك بها رغم أني تعبت." (٢)

انّ الاغتراب الذى يشكل بنية أساسية في تكوين شخصية أحمد، جعل منه كائنا غريبا يطوف في العالم بلا أهل ولا وطن، يكتب لأنه بلا أهل ولا وطن كي يسلو أحزانه. (٣)، هو الذى قاده الى ذلك الخط الفردى، وهو الذى ضخّم شعوره بالانتماء، فلقد أصبح الانتماء عنده رفضا لحالة التشرد والقلق، ولكنّ هذا الرفض قاده الى الخط الفردى، الذى انتهى به الى اليأس.

---

١) سامي الجندى، أحداث في المنفى، ص ٦
٢) المصدر نفسه، ص ٨، ٩
٣) المصدر نفسه، ص ٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الانتماء ومشكلة فلسطين :

تتحدث بعض الروايات عن المشكلة الفلسطينية، باهتمامات ولهجات متباينة، ومن البدهي أن يقال انّ الحديث عن القضية الفلسطينية يشكل محورا من محاور الانتماء، لأنّ فلسطين ليست مشكلة اقليمية تقتصر على الفلسطينيّين وحدهم، ولأنّ التصدى للحديث عن فلسطين في اوروبا (وفي الغرب عموما) يكتسب طابعا مختلفا بحكم موقف الغرب والغربيين منها . ولذا يكون الحديث عنها، وربط قضية الانتماء بها، قضية حضارية لأنّ ذلك مؤشر على الانتماء الحار الى الوطن، ورفض للجانب الاستعمارى في حضارة الغرب.

ويعتبر شكيب الجابرى أول من أشار - في هذه الروايات - الى المشكلة الفلسطينية، وكيفية طرح الصهيونية لها في أوروبا . واذا عرفنا أنّ رواية الجابرى " قوس قزح " ، صدرت سنة ١٩٤٦ ،أى قبل النكبة الأولى بسنتين، أدركنا أن الجابرى كان واعيا لمخططات الحركة الصهيونية، ولفلسفتها ولحججها . ولكن الجابرى لم يستطع فنيا دمج هذا الوعي في بناء الرواية، أعني أن الموقف جاء في الرواية على صيغة اخبارية انشائية تشبه المقالة . ورغم أنه اجتهد في تبرير ذكر الحادثة، وردّها الى ذكريات ايلزا، وذكر على لسانها، كيف تطورت علاقتها بهذا العربي الذى وقف أمام جابوتنسكي .الا أنّ كل ذلك لم يدخل هذا الموقف في صلب العمل الروائي، وظل بالامكان حذفه، بدون أن ينقص من الرواية شيء.

ولكنّ هذا المأخذ الفني لا ينفي ريادة الجابرى، في التنبه الى هذه المشكلة والاهتمام بها على الصعيد الأدبي، وان كان هذا الاهتمام يأخذ طابعا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عاطفيا ، أكثر مما يأخذ طابعا فكريا .

واذا تذكرنا أن الرواية المذكورة قد صدرت قبل النكبة ، أدركنا أن ما في موقف الشخصية الروائية من حماسة واندفاع كان مستمدا من الرؤية العربية للمشكلة وما فيها " من استخفاف كبير بقوة الصهيونيين وهم هنا يهود جبناء ضعاف لا تقوى عريكتهم اللينة على منازلة العرب الأشداء ، وان العربي ليشفق عليهم ويهزأ بهم لأنه بيد و متأكدا من قوة قومه وشدة بأسهم ." (١)

يقول شكيب الجابرى على لسان ايلزا :

" وقف جابوتنسكي ، كبير خطباء الصهيونية الحديثة ، في قاعة من قاعات برلين العامة يعرض القضية الصهيونية - والصهيونية اذ ذاك في الأوج من دعوتها - ويدافع عما لفئته المتطرفة من آراء وأهداف ، وكلما سنحت له الفرصة رمى العرب ، خصوم الصهيونية الألداء ، بسهام دقيقة نافذة ظاهرها بريء مسالم وفي باطنها كيد عميق .

وكان الناس منصتين ذاهلين ، قد أخذ بألبابهم فيض تلك البلاغة الدافقة التي كانت تبين في كل تعبير ومثال وتشبيه وافتراء يجرى به لسانه ." (٢)

فهذا التمهيد الذى بدأ به شكيب الجابرى ، يكشف على المستوى النظرى ، وعيه على الخطاب الصهيونية ، وأساليبها في تكوين رأى عام يساندها ويقف الى جانبها ويكشف أيضا عن المنهجية في الفكر الصهيوني ، تلك المنهجية التي تجعل دعاوته قائمة على أساس علمي ، بعيد عن الارتجال ، الأمر الذى يترك تأثيرا على مستمعيه ويجعلهم " منصتين ذاهلين ، قد أخذ بألبابهم . ثم أخذ جابوتنسكي يتحدث عن حق اليهود " التاريخي " في فلسطين ، ويكرر المقولة التقليدية التي يرددها اليهود في أنهم ضنعوا من فلسطين جنة بعد أن كانت صحراء .

---

١) حسام الخطيب ، ملامح في الأدب والثقافة واللغة ، ص ٨٨
وانظر مجلة الاداب البيروتية ، العدد الخامس ، سنة ١٩٧٥

٢) شكيب الجابرى ، قوس قزح ، ص ١٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهنا يتصدى له شاب عربي قائلا :

" بل جعلوا منها جحيما . "(١)

ولقد ترك هذا التصدي صدى واسعا عند جمهور المحاضرة ، فهم غير متوقعين لردة الفعل هذه ، واستمر الشاب يقول :

" بصوت لا تدري أهو الى السذاجة أدنى أم الى الخبث : يا بني اسرائيل ما بالكم وقفتم حيال عربي فرد لا يملك عن نفسه دفعا وقفة المتهيب الحيران أأفأنتم الذين تأهبوا لنزال قومي الأشداء ؟! اتقوا الله في أجسادكم اللينة فما أراها خليقة باحتمال ما تنتظرونه من مجد عظيم . "(٢)

انّ وقفة الشخصية الروائية العربية كانت وقفة " فروسية وعاطفية وحريئة لا يتوافر فيها الحدّ الأدنى من الاستهداف والتكتيك . "(٣)

ولذا كان الانتماء الى القضية الفلسطينية عندها يمثل وعيا نظريا على المستوى الفكري ، لمخططات اليهود ، وبعكس مشاعر عاطفية متوقدة نحو فلسطين ولكنّ هذه المشاعر العاطفية طغت على الوعي النظري ، وصبغت هذه الشخصية الروائية وانتماءها بطابع خطابي ، انفعالي .

* * *

ويتشابه موقف سويلم في " بدوي في أوروبا " مع موقف تلك الشخصية الروائية التي أشرنا اليها في رواية شكيب الجابري . فانّ انتماء سويلم الى قضية فلسطين ، عاطفي ، حار ، يشبه انتماء البدوي الى عشيرته .

ومن الجدير بالذكر أن سويلم لم يكن المبادئ في الالتفات الى قضية فلسطين وفي الحديث عنها .

---

(١) شكيب الجابري ، قوس قزح ، ص ١٥١

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥١ ، ١٥٢

(٣) حسام الخطيب ، ملامح في الادب والثقافة واللغة ، ص ٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلقد جاء ذكر فلسطين على لسانه ردة فعل لتصرفات من حوله . ويبالغ الباحث اذا طالب سويلم بوعي نظري شمولي بأبعاد القضية الفلسطينية ، لأن سويلم يستشعر أبعاد القضية الفلسطينية من خلال تجربته - باعتباره من اللاجئين - وليس من خلال التأمل والقراءة ، ولذا كانت ردة فعل سويلم تحمل زخم وحدة الساكن في الصحراء عندما يثور ، فهي لحظة توتر عاطفية تصل الى الذروة ، وما تلبث أن تهبط الى الصفر ، فلحظة الحديث عن فلسطين في المرة الأولى كانت عندما عرفه صاحبه (عبدالله) على بلدته الاصلية قائلا :

" هذه مدينتنا يا سويلم ، هذه بالنسبة اليّ كالموجا حفير بالنسبة اليك . " (١)

كان انفعال سويلم الغيا " أحس سويلم بالنسيم يهف على قلبه ، وكأنه على ربوة الموجا حفير ، ثم أحس بالألم يعتصره عصرا ، وأحس كأن الدموع توشك أن تسيل على خديه فأشاح قليلا ، وتنحنح وتحرك في مقعده وقال . . . أين نحن من الموجا حفير ، وأين الموجا حفير يا عبدالله ، لكأنك تذكرني بأنا هربنا ، وأن العدو يحكمها ، الان رغما عنا ، لا بأس يا عبدالله انها أيام ، واني لأرجو أن تدوسني سياراتكم ان لم أعد الى بلادي ، يا عبدالله ان الدم لا يبلى ، بل تزيد قوته كلما تقدم الوقت ، ولكن الحق معك ، ما كان لي أن أتفرج هكذا على الدنيا وأسوح معك في بلاد الله الواسعة واترك بلادي أسيرة الاعداء . " (٢)

ان ذكر فلسطين يهيج في داخله احساسا عميقا بالمهانة نظرا لانها محتلة وهو يتفرج ويسوح في بلاد الله الواسعة .

ولذا يتخذ الحديث عن تحريرها طابعا ثأريا ، انتقاميا ، " لان الدم لا يبلى " ، بل تزيد قوة الثأر في النفس الانسانية بتقادم الزمن . فمنطلق البداوة هو الذي

---

١) جمعة حماد ، بدوي في اوروبا ، ص ١٨٠ .

٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يصبغ الانتماء بطابعه، وسويلم منسجم مع نفسه، فهو لا يتكلف شيئا مخالفا لتكوينه ولذا عاد الى هدوئه السابق بعد مجاملة قليلة من عبد الله:

" أنت ضيف هنا ولازم (تفرفش) وسيأتي يوم تعود فيه الى الموجا حفير، وسأضيفك المرة القادمة هناك. ولا تنسى أن تنصب الخيمة، حيث نقيم سويا في ذلك المكان، فتنهد سويلم وهو يقول لصاحبه في عزم وتصميم: ان شاء الله." (١)

أما لحظة الحديث عن فلسطين في المرة الثانية، فقد كانت بعد مشاهدة سويلم لعرض مسرحي، بمرافقة "مريم" المرأة الألمانية المسلمة، فلقد كانت الممثلة اليهودية تقصد الى تشويه صورة العرب في الذهن الاوروبي " وهي تختتم قصص بعض أبطال الفضائح من شيوخ العرب فتزيد فيها لتجعل من العرب اضحوكة الناس هنا." (٢)

ولقد كانت انتفاضة سويلم شديدة وانفعاله قويا عندما رأى " رجلا بعباءة وبملابس بدوية في غاية المهابة، وكان يتقدم الى المرأة في ثبات، وفجأة احتضنها وجعلا يتعانقان هكذا أمام الناس." (٣)، فسويلم في مواجهة صورة مزيفة للعربي، لا يقرّها، ولا يعتقد بصحتها، كان انفعاله طاغيا الى الحد الذى جعله يهتف ان هذا " لا يمكن أن يكون بدويا أصيلا." (٤)، وتمنى معرفة هؤلاء الشيوخ " الفالتين" ليلزمهم بالحق...

والذى أثار سويلم بالدرجة الأولى، هو كون الممثلة يهودية فاستعرض " في مخيلته وطنه ومسقط رأسه، وتذكر فراره مع أهله وأحس بالخجل من نفسه وأنه كان يجب أن يموت في أرضه، قبل أن يرى هذه اليهودية " تتسخر" على مشايخ العرب... يا خسارة." (٥)، ولعله يبدو واضحا أن ثورة سويلم. لا تعدو في النهاية أن تكون ضربا من الثورة لكرامة البداوة التي اهينت على يد يهودية. ولذا فان استشعاره للخجل يمثل في حقيقة الأمر، انكسار الهدوى الأنوف، عندما ينهزم في معركة

---

١) جمعة حماد، بدوى في اوروبا، ص ١٨١

٢) المصدر نفسه، ص ٢١٧

٣) المصدر نفسه، ص ٢١٨

٤) المصدر نفسه، ص ٢١٨

٥) المصدر نفسه، ص ٢١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على يد خصم جبان، من هنا كان احساسه بالقضية الفلسطينية، يتوافق مع هذه المشاعر البدوية، أو على الأدق ينبع منها.
فقدا الانتماء انتفاضة مشاعرية حارة تبدأ بسرعة و تنتهي بسرعة.

* * *

وعندما يتحدث سعيد بطل رواية عيسى الناعوري "ليلة في قطار" عن فلسطين، تتراجع قضية فلسطين عن كونها قضية عربية، وكارثة قومية لتصبح "حربا محلية مدمرة"(١)، يأتي ذكرها في سياق عام متخلخل.
ولا ريب أن مثل هذا الطرح للقضية الفلسطينية، ولا سيما أمام الرأى العام الغربي يجرد المسألة الفلسطينية من أبعادها الحضارية والتاريخية والانسانية، ويسلبها أهم خصائصها، وهي أن اليهود غرباء استوطنوا أرضا ليست لهم. ولقد كان بامكان سعيد أن يتحدث عن اليهود والصهيونية، كما تحدث لوشيا عن النازية والفاشية، ولكنه عمّى على هذه القضية التي يستطيع أن يوضحها بحكم ثقافته وخبرته، واتقانه للغة الايطالية وأخذ يطرح مفهومات "شرقية" نقيضة لمفهومات لوشيا، عن "الدم الذى يغلي بالثأر"، والنضال العنيد، والحرب الأشد ضراوة، والكرامة والرجولة.(٢)، فهذا الموقف صورة معاكسة للغربيين الذين جعلت منهم الحرب أناسا يبحثون عن اللذة، ولكن هذا الموقف وما فيه من قياسات خاطئة، أبعد القضية عن سيرها الطبيعي، وجعلها عواطف شرقية متأزمة بدون مبرر. فجاءت هذه النظرة الى القضية الفلسطينية، ممثلة لطبيعة هذا اللقاء العابر، وما يحمله من ايحاءات جنسية، جعل ذكر فلسطين يأتي بالمصادفة، وبقدر كبير من التعمية.

* * *

---

١) عيسى الناعوري، ليلة في قطار، ص ١١٤
٢) المصدر نفسه، ص ١١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتميّز اهتمام علي الشيخ بالقضية الفلسطينية بميزة عاطفية، فعلى الرغم من أنه طيلة اقامته في أوروبا، لم يفكر بقضية فلسطين، بل اندفع في عالم تجارة السلاح، وما فيه من صفقات مالية ضخمة، الاّ أنه عندما سمع من صديقه راشد أبو المنى أنّ شريكه خليل الأزرق، عقد صفقة مع اسرائيل، لم يتورع عن قتله. وعندما يتساءل في أثناء محاكمته:

"كم مرة فكرت يا علي الشيخ بقضية فلسطين منذ خرجت من سوريا؟"(١)

يجسد في هذا السؤال أزمة الضمير التي يعانيها، نظرا للامبالاة التي يتميز بها، ولعلّ الذي اسهم في ازدياد أزمة الضمير لديه، هو كون الاتهام صادرا عن المقاومة "التي يحرص كل عربي على تبرئة ساحته أمامها"(٢)، ووصله عن طريق صديقه راشد أبو المنى.

فكان هذا الموقف سببا في تغيير سير حياته تغييرا جذريا، أدّى به الى تدمير مستقبله الفردي، وانتهى مقتولا في دورة مياه عامة في سان ريمو...

فهذه السلبية التي وقفها على الشيخ ازاء القضية الفلسطينية، لم تكن نابعة من موقف عدائي، بالقدر الذي كانت تمثل انشغاله بعلاقاته التجارية، وازدياد ثروته.

أما موقف صديقه راشد أبو المنى، الهارب من الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية بعد حرب ١٩٦٧م.

فهو لا يكاد على الصعيد العملي، يختلف عن موقف علي الشيخ، وان كان يظلّ أكثر نقاء وبعدا عن الشبهات.

فهو حريص بسبب غربته ومنفاه، على عدم الاشتغال في العمل السياسي ولكنّ هذا لم يمنع أن يكون له أصدقاء في حركة المقاومة.

---

١) سليم اللوزي، المهاجرون، ص ٢٥٩

٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد اقتصر موقفه من القضية الفلسطينية على التبيان النظرى لموقف العرب (كما يراه) من اليهود .

ولقد بيّن ذلك الموقف بشكل حادّ ، يختلف عن موقف الشخصية التي تحدث عنها شكيب الجابرى في " قوس قزح ".

فأوضح أن العرب لا يعانون من عقدة يهودية ، لأنهم لم يضطهدوهم وقال : " نحن لا نعادى اليهود ولكننا نعادى الحركة الصهيونية التي انتزعت أرضنا وشردت شعبنا ، وأقامت كيانا عنصريا وعدوانيا ." (١) ، وتتشابه هذه النبرة مع موقف رزق الله زرتوت في رواية " مذكرات صبا سياسي محترف"، وان كان موقف رزق الله أكثر تفصيلا . فانّ كلا منهما يواجه جهلا ، وتحاملا من بعض النماذج الروائية الغربية فيما يختص بقضية فلسطين .

وهذا يدل على غياب الصوت العربي من الناحية الاعلامية ، فالقاضي شينجلر ، الذى استجوب راشد أبو المنى ، لا يعرف شيئا عن القضية الفلسطينية ، أما آن صديقة رزق فهي ترى أنه لو ترك لها اختيار الجانب الذى تحارب معه ، لاختارت الجانب اليهودى (٢) ، في حين يعترف صديقه سيسيل " بأننا لا نعرف سوى القليل عن الجانب العربي من القصة ، ويجب أن تفعلوا شيئا لشرح وجهة نظركم." (٣)

وهذا يعني أنّ أبطال هذه الروايات يواجهون جهلا بالقضية الفلسطينية في واقعها التاريخي ، وتحيزا لليهود ، نظرا لتأثير دعاياتهم في الرأى العام الغربي . وتتوسع الرواية السابقة في تبيان الحجج التي ينطلق منها الغربيون ، والردود على هذه الحجج . والغربيون يطالبون بأن يلقى اليهود معاملة عادلة ، لأنهم لاقوا من التعذيب والقتل الشيء الكثير ، ويطالبون بأن تعطى فلسطين لهم لأنها بلادهم التي وعدهم الله بها . ورزق الله يجيب بأنّ اضطهاد اليهود ، قد حدث في أوروبا ، أما في الأقطار العربية فانهم كانوا يعيشون مثلنا ،

---

١) سليم اللوزى ، المهاجرون ، ص ٢٦٨

٢) حسن جمال الحسيني ، ذكريات صبا سياسي محترف، ص ٣٧١

٣) المصدر نفسه، ص ٣٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلماذا ندفع نحن العرب ثمن الجرائم التي ارتكبتموها أنتم؟ ويرّد على الزعم القائل بأنّ فلسطين هي أرض اليهود بقوله انّ فلسطين قبل الحكم اليهودي وبعده، وأثناءه، كان فيها شعب آخر غير اليهود.

ثم بيّن لهم زيف دعاوى الحركة الصهيونية، وكونها حركة عنصرية، عندها يعترف سيسيل بأنه لا يعرف شيئا عن وجهة النظر العربية في قضية فلسطين.

والقارئ يلاحظ أنّ البطل الروائي العربي، أصبح قادرا على مواجهة الرأى العام الغربي، بجراهين وبأدلة علمية، بعيدا عن الانفعال والخطابة، ولكنه يلاحظ في الوقت نفسه، أنّ المواجهة مع الرأى العام الأوروبي فردية، مبعثرة، فرزق الله يبرر ذلك في نهاية الأربعينات:

" بأننا فقراء ولا نملك الوسائل والأجهزة اللازمة"(١)، في حين يرى عصام في السبعينات أننا " كنا وما زلنا بحكوماتنا وسفاراتنا ومكاتب الجامعة العربية مقصرين في شن الحملات الاعلامية المنظمة المجدية، أى التي تنبثق عن تخطيط محكم، وتتطلب العلم والمال والرجال."(٢)

وهذا يعني أن ابطال الروايات - التي تحدثت عن فلسطين - يشعرون بوطأة المشكلة، ويحاولون مجابهتها فرديا في غياب المواجهة العربية الاعلامية الجماعية.

---

١) حسن الحسيني، ذكريات صبا سياسي محترف، ص ٣٨٠

٢) سلمى الحفار الكزبرى، البرتقال المر، ص ٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتناول هذا الفصل صورة المرأة الغربية في الرواية العربية، والملاحظ أن الفصل حاول بناء هذه الصورة، عبر الأطر التالية:

١- صورة البطل الروائي العربي في الذهن الغربي.

٢- أنماط العلاقة بين المرأة الغربية والبطل الروائي العربي.

أ) مرحلة البحث عن مطلق المرأة (مرحلة اللاانتقاء).

ب) مرحلة الاصطياد.

جـ) علاقة الحـــــب.

د) العلاقات ذات الأبعاد الحضارية.

٣- خاتمـــــة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة البطل الروائي في ذهن المرأة الغربية :

تتبدى صورة البطل الروائي العربي ، أوضح ما تكون من خلال علاقته بالمرأة الغربية . لأن هذه العلاقة في مرحلة الحلم وفي مرحلة التحقق مرتبطة بجذور عميقة في داخله .

ولذلك تكشف علاقته بها عن نواح كثيرة في شخصيته ، لأن موقفة من المرأة يمثل موقفا فكريا - حضاريا ، ولأن علاقته بها ، أكثر تجسيدا لطبيعة البطل الروائي ، لما فيها من شمول ، وكشف عن مناحي الشخصية الروائية في مختلف أطوارها فهي في جوهرها علاقة انسانية لها صلة بكثير من النواحي النفسية ، والاجتماعية ، في الشرق والغرب ، وهي في توظيفها الروائي " أكثر استقطابا لحركة الواقع وأغنى دلالة لتحديد موقف الأديب منه "(١).

ولذا ترى البطل الروائي ينتظر لقاء المرأة الغربية بفارغ الصبر ، ويعد هذا اللقاء ، حلما وهاجسا ، يضاعف من حماسته للذهاب الى الغرب ، حتى ليتخيل أحد أبطال الروايات ، أن المرأة في اوروبا جالسة على الرصيف يستطيع أن يلتقطها وقت يشاء ويمني نفسه قائلا :

" يكفيك أن تسير في الطريق ليتهافتن عليك ، ويحدثنك حديث الهوى . "(٢)

ولكن النماذج النسائية الغربية - في الأغلب - لا تلقاه بمثل هذا الشوق ، فهي تتلقاه ببدهشة ، وفضول ، وعداء أحيانا ، لأنه قادم من مجتمع غريب ، تجهل الكثير عنه ولا يشعر مجتمعها نحوه بالتعاطف ، بل هو مهيأ أصلا ، لأن يقف موقف العداء

---

١) طه وادي ، صورة المرأة في الرواية المعاصرة ، ص ٥٦

٢) سهيل ادريس ، الحي اللاتيني ، ص ٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منـه ."(١)

من هنا كانت الأفكار التي تدور على لسان المرأة الغربية لا تخرج عن المداه للشرق ، أو الجهل بطبيعته ، تقف سوزى بطلة رواية الحكيم " عصفـــور من الشرق" ، حائرة من بعض تصرفات محسن ، ولذا " جعلت تفكر فـــي أمر هذا الفتى الغريب، أهو شرقي متوحش لا يعرف آداب اللياقـــة ."(٢)

وهذه الصورة وما ينبثق عنها من التأخر ، والبداوة ، والبعد عن الحياة المتحضرة ، هي الصورة التي يحملها المجتمع الغربي - بشكل عام - عـــن العربي . ولذا تقول فرانسواز احدى الشخصيات في رواية سهيل ادريس " الحي اللاتيني " : " لقد علموا الفتاة الفرنسية في بعض مجتمعاتهم أن تخشى هذا الشرقي الساكن في الصحراء ، القائم في مجتمع متأخر، لا بدّ أنه متوحش ."(٣)

أما عيسى الناعورى فيشير الى التشويه المتعمد الذى يمارسه الغـــرب لابراز العرب في صورة غير متحضرة ، من خلال حواريجرى بين بطـــل روايته " ليلة في قطار" ، وبين كاهن ايطالي ، يبدو فيه الكاهن متحاملا على الحضارة العربية ، فيقول : " العرب كانوا يخربون حتى الآثار الجميلة التي تركتها الشعوب الأخرى ومن غير المعقول أن يتركوا أثرا جميـــلا ينبئ عن حضارة فيهم أو مدنية ، فقد كانوا كل عمرهم أهل صحراء ، يحملون

---

(١) انظر: محمود السمرة ، فلسطين الفكرة والكلمة ، ص ص ٥ - ١١ ، وانظر محمود ابراهيم ، الاديب العربي ومكافحة الصهيونيـــة في الخارج ، الآداب ، العدد الرابع ، ١٩٦٨ ، ص ٣٤ - ٣٧ ، وانظر هوارد رولاند ، رأى مستشرق أمريكي في عدم التفاهـــم بين العرب والامريكان ، العدد الثاني عشر ، ١٩٦٩ ، ص ص ٥-٧ ، وانظر كريستوفر ميهيو " نظرة الغرب الى العرب" ، مجلة المعرفة السورية ، السنة السابعة عشرة ، العدد ٢٠١ ، تشرين الثانـي ، ١٩٧٨ ، ص ص ٣٨ - ٣٩

(٢) توفيق الحكيم ، عصفور من الشرق ، ص ٨٥

(٣) سهيل ادريس ، الحي اللاتيني ، ص ١٨٢ ، وانظر ص ١٠٠ ، ص ١٠٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صحراء هم معهم حيثما نزلوا ."[١] ، ويتراجع الكاتب الايطالي عن حديثه هذا عندما يعرف أن محدثه عربي ويعترف بأن " العرب أرقى الشعوب وأعظمها حضارة في العهد الذي حكموا فيه الجزيرة وعنهم أخذنا نحن الغربيين العلوم والفنون وهم الذين نقلوا الينا كنوز العالم القديم، وتركوا في حضارتنا اللاحقة آثارا جميلة جدا من فنونهم الرائعة ."[٢]

وترتبط صورة العربي عندهم، بالبداوة، وما يرتبط بالبداوة من صور كركوب الجمل، وحمل الخنجر، وغلبة العاطفة على العقل، فعندما يسأل أحد الألمان سامي بطل رواية " المتميّز":

" من أين أنت؟"

قلت : عربي

قال : آه، الجمل"[٣] ، فانه يكشف بهذا التداعي السريع عبر كلمة واحدة، عن طبيعة الصورة اللاصقة بذهنه عن العرب. ويظن سامي بطل رواية " الظمأ والينبوع"، أن سلوك هيلغا معه يؤكد أنها تتخيله " أميرا شرقيا قد ورث عن أبيه قوافل الجمال في صحراء حلب."[٤]

وترتبط هذه البداوة بالفحولة الجنسية تارة[٥] ، وبالشذوذ الجنسي تارة أخرى[٦] ، وبالعاطفية[٧] أيضا ، او بكون الحصول على جسد المرأة محورا من محاور التفكير الشرقي " فأنتم الشرقيون معروفون بأن المرأة لا تهمكم الا من ناحية واحدة، واذا خرجتم معها فلغاية واحدة ."[٨]

---

١) عيسى الناعوري، ليلة في قطار، ص ٢٧
٢) المصدر نفسه، ص ٢٩
٣) محمد عيد، المتميز، ص ٥٢
٤) فاضل السباعي، الظمأ والينبوع، ص ٧٨، وانظر ص ٣٣، ٣٤
٥) جمعة حماد، بدوي في اوروبا، ص ٧٠ وانظر حسن جمال الحسيني الأصدقاء، ص ٤٥
٦) عبد الحميد السحار، جسر الشيطان، ص ١٥
٧) حسن جمال الحسيني، ذكريات صبا سياسي محترف، ص ٣٦٨
٨) صباح محي الدين، السمفونية الناقصة، ص ١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتحدد صورة العربي أيضا من خلال التصور الرومانسي الحالم للطبيعة الشرق، ولا سيما من خلال كتاب " الف ليلة وليلة" [١]، الذي رسخ صورة للشرق، بيد وفيها مترفا، شهوانيا، متحررا، ولا سيما على الصعيد الجنسي، ولذا فان لوشيا في رواية الناعورى تعجب للمفارقة التي يمثلها سعيد، فهو عربي، ومع ذلك لا يستجيب لاغرائها، وبيد ومتحفظا، فتسأله: " تقول انك عربي، وكتاب الف ليلة عربي كذلك؟

- هذا صحيح.

- وأنا قرأت ألف ليلة وليلة أكثر من مرة، واعجبت به كثيرا أعجبتني الحياة الحرة الجميلة التي يصورها. أليست هي حياة العرب أنفسهم.؟" [٢]

انها لا تطيق هذا التناقض والتضاد بين صورة العرب في ذهنها، وواقع سعيد المتزمت.

ولذا يتخيل ايتالو الشاب الايطالي صديقته المصرية " في قصر شرقي من قصور ألف ليلة وليلة، تلبس الثياب الهفهافة، وتنتقل في الردهات الواسعة حافية القدمين، دون صوت أو ضجة." [٣]، أما هيلغا، فهي تطلب من سامي أن يحدثها عن الجريم في الشرق، حيث يقتني الرجل عددا كبيرا من النساء." [٤]

ولا شك أن هذه الصورة مستمدة أيضا من أجواء " ألف ليلة وليلة" وما يعمر هذه الأجواء من خيالات جنسية متحررة.

من هنا أصبح الشرق مصدرا للسحر، وللغموض، وللاثارة، وأصبح عند بعضهم ملاذا. باعتباره مصدر الصفاء " ان العودة الى الهدوء والصفاء

---

١) انظر عادل عبد الله، ألف ليلة وليلة وصورة المجتمع العربي، مجلة حوار السنة الثالثة، العدد الاول، ١٩٦٤، ص ٨٠، وانظر جمال شحيد، ألف ليلة وليلة في الأدب الفرنسي حتى الثورة، مجلة المعرفة السورية (١٩١ - ١٩٢)، ١٩٧٨، ص ص ٢٥٣ - ٢٥٩

٢) عيسى الناعورى، ليلة في قطار، ص ٨٦

٣) كوليت خورى، ومر صيف، ص ٢٠٠ وانظر ليلة واحدة، ص ٦٧

٤) فاضل السباعي، الظمأ والينبوع، ص ٨٧ وانظر حسن جمال الحسيني، الاصدقاء، ص ٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هي في عودتنا الى فضاء الصحراء، هناك نستنشق بملء رئتينا ، لا دخان المداخن ، ولكن رائحة الشاء، هناك لا تجد تلك السحب الكثيفة التي تحول بيننا وبين الله." (١) ، وأصبح الشرق بالاضافة الى ذلك مصدرا للجمال الطبيعي البكر، الذى يفتقده الانسان الغربي ، ففي الشرق " الغابات المذراء، والفيلة البيضاء، والنساك، والحواة، والقردة التي ترمي الجوز، والأفاعي ذات الأجراس، والرمال الصفراء، والبيد القفراء، والسراب، وقوافل الأعراب، والخيام السود ، والعباءات البيض . . . ومملكة هارون الرشيد ، ومرابع شهريار، وشهرزاد ، ألف ليلة وليلة كلها ملك أيدينا ، هناك مجال الخيال الواسع ومناهل النفوس الظامئة." (٢) ، فسحر الشرق نابع - في نظر بعض الغربيين - من تخلفه ، لأن هذا التخلّف مصدر للجمال والمتعة .

ولكن مشاهدة واقع الشرق ، تكشف زيف هذه التصورات وتبيّن ما فيها من جموح وتخيلات غير واقعية اطلاقا . ولذا تصرخ ايلسكا عندما تأتي الى الشرق العربي زائرة :

" ليتني لم أر الشرق ! ان قلبي ليحدثني أني لن أغادر ربوعه حتى يكون كل خيال جميل قد تبدد ، وكل أمل جميل خاب . . . ويح الكتاب متى يصدقون ؟ صوروا لنا الشرق روعة متعة وهناءة وها هو ذا بين يدى يستنفض بصرى جنباته ويستجلي محاسنه وميزاته ولا يني يتقلب فيه ، فاحصا سابرا ، ينشد الصورة الزاهية التي خلبت ألبابنا في " ألف ليلة" ، وزينها لنا من بعد هذه كتاب وشعراء من الغرب فلا أقع في الأغلب الا على بهاء مضى ، ومجد تولى ، وعالم تافه لا انسجام فيه ولا روعة." (٣)

* * *

---

١) توفيق الحكيم ، عصفور من الشرق ، ص ١٥٩ ، وانظر جمعة حماد ، بدوى في اوروبا ، ص ١٩٥

٢) شكيب الجابرى ، قوس قزح ، ص ١٦٩

٣) المصدر نفسه ، ص ١٨٦ ، ١٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما عن أنماط العلاقات التي ظهرت في علاقة البطل الروائي العربي بالمرأة الغربية، فانّ الاستقصاء يكشف أنّ هذه العلاقة قد مرت في ثلاثة أنماط:

أ ـ مرحلة البحث عن مطلق المرأة (مرحلة اللاانتقاء).

ب ـ علاقة الاصطياد.

جـ ـ علاقة الحب.

د ـ العلاقات ذات الأبعاد الحضارية.

* * *

أ ـ البحث عن مطلق المرأة:

لا تعني المرأة في هذه المرحلة بالنسبة للبطل الروائي أكثر من كونها وسيلة لتفريغ الطاقة الجنسية، ولتحقيق المتعة له.

فهي مرحلة يبحث فيها الذكر عن الأنثى، دون أن يكون لهذه الأنثى خصوصية تميزها عن غيرها من النساء، ودون أن يكون هنالك اهتمام بالناحية الانسانية.

وعلى الرغم من اختلاف دلالات هذه المرحلة عند البطل الروائي، الا أنّ الحصول على جسد المرأة، يشكل قاسما مشتركا بين جميع أبطال الروايات الذين يمرون بهذه المرحلة.

يمثل علاء بطل رواية شكيب الجابري "قدر يلهو"، البطل "الدونجوان" الذي يبحث عن المرأة بحثا دائبا متصلا، ويقيم معها علاقات كثيرة، متنوعة حتى تتطبع شخصيته بذلك الطابع. واذا كانت الرواية تكشف الستار عن علاء في مرحلة الشبع الجنسي، حيث يغدو البحث عن المرأة عادة صحيحة متأصلة في النفس، قبل أن يكون ضربا من التعبير عن الحرمان الجنسي، فان شخصية علاء لا بد وقد مرت في مرحلة البحث عن مطلق المرأة من موقع الجائع.

ولعل حديث علاء عن نفسه يكشف عن ذلك، فهو يحدد في البداية طبيعة تكوينه الرومانسي، المجبول على الاندفاع والتطرف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" ولقد كان في قرارة نفسي ضرب من اللذة الوحشية البكر، يرائق جميع أنواع الأحاسيس التي أتأثر بها . فانّ طربت زخرت دقائق روحي وخلايا جسدي بعباب تلك اللذة ، وان أدركتني الحماسة ، اصطخبت اللذة بي وقد اتخذت مذاقا جديدا ، وان أحببت كان بي مثل ذلك ، وان تألمت أو فرحت أو غضبت أو رضيت أو ضحكت أو بكيت." (١)

ويحدد بعد ذلك العامل الثاني في اقباله واندفاعه وهو طبيعة الحضارة الغربية وعالمها الذي " يزخر بجميع ما هوى حسه وحنّ اليه خياله." (٢)

وهو القادم من احدى مدن بلاد الشرق الضيقة ، ولكنّ علا "لا يصوّر نفسه في مرحلة البحث عن المرأة من موقع الجوع، لأنّ في ذلك خدشا لكبريائه وهو العربي الحريص على كرامته وانتمائه " الى أمة كنت أراها أفقر أمم الأرض مادة وأغناها روحا ." (٣) ، ولذا لا يصور نفسه طالبا للمرأة ، يطاردها ويحاول الوصول اليها بشتى الوسائل ، بل يصوّر نفسه مطلوبا ، تلاحقه المرأة ، وتحاول أن تصل اليه ، ويبدو أنّ السلاح الذي كان يعتمد عليه هو شرقيته ، وتفرده في محيط غربي صرف ، فكان الطرف الآخر يسعى الى اقامة علاقة معه طمعا في استكشافه " فكأن غربتي في القوم منحتني ميزة خاصة تقربني من قلوبهم فهم لا يكادون يعلمون أني عربي حتى يستنبه اهتمامهم فيجدون في التقرب مني ، متسائلين ، دهشين ." (٤) ، ولم تقف هذه العلاقات بطبيعة الحال عند مرحلة الاستكشاف " بل كانت مراحل الاستكشاف تتطور ، وسلسلة العلاقات تتكامل سريعا ، سريعا ، كالصخرة تدحرجت على سفح المنحدر اثر دفعة قوية خفيفة ، فهي لن تقف في

---

١) شكيب الجابري ، قدر يلهو ، ص ٥١

٢) المصدر نفسه ، ص ٥١ ، ٥٢

٣) المصدر نفسه ، ص ٥٧

٤) المصدر نفسه ، ص ٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اندفاعها السريع المتعاظم حتى تصل الى مستقرها ."(١)

ولعلّ ذلك أذكى هذه الدونجوانية في نفسه، فغدا البحث عن مطلق المرأة، دلالة على الترف، والتمرّد على أحادية العلاقة، والرغبة في عدم الخضوع للقيود التي تضبط اندفاعه الرومانسي، كما كان نتيجة لتفرده النوعي أيضا. فأصبح غير قادر، وغير قابل لاقامة علاقة حب واحدة " كنت أنتقل بين حب وحب، ولا أجد لي بين القلوب التي أرتادها قلبا واحدا أقر فيه وعلام الاستقرار على ترشف الهوى من معين واحد ؟ ان النحلة لتهبط على زهرة فلا تكاد تلثمها لثمة تنال فيها القطرة الحلوة التي تمخض عنها نسغها حتى تسلم أجنحتها للريح طالبة مبسما آخر تمتص شهده، واذا حياتها اللاهية المرحة الطروب مزيج عبقري من أرواح شتى الزهور والرياحين ."(٢)

فهو يريد أن يكون كالنحلة لا تربطه بالزهرة الا علاقة متعة عابرة، لا تخضعه لقيد ما، ومثل هذه النظرة تسوى بين النساء، وتحيل النساء الى أنثى واحدة، تتكرر بأشكال مختلفة، ولكن تكرارها لا يعطي لأى امرأة خصوصية على الاطلاق.

ويتشابه وليد بطل رواية " خمر الشباب"، مع علاء في نزوعه للبحث المستمر عن الأنثى، وفي كون المرأة لا تعني بالنسبة له الا جسدا فقط. ولكنّ التقاء هما لا يتعدى هذه النقطة لأنّ كل واحد منهما من طينة مغايرة للأخرى تماما، فاذا كان علاء " مطلوبا" يمتز برومانسيته وتفرّده، وتفد و " دونجوانيته" استجابة لضغط الأنثى، فان وليدا - على العكس من ذلك - يجرى وراء الأنثى، وينصب لها الشراك ويأسف " لأن تكون مئات الآلاف من

---

١) شكيب الجابرى، قدر يلهو، ص ٥٨

٢) المصدر نفسه، ص ٥٨، ٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفتيات في كل مكان تنضج شفاههن ، وتنهد صدورهن ، وتلتف سوقهن ، دون أن أعرفهن ."(١) ، ولهذا يستمتع في عملية البحث عن المرأة ، وفي مطاردتها كما يستمتع في الحصول عليها ، فكان سلوكه نقيضا لابن عمه فؤاد - ذلك المثالي الحالم ، الذى كان حريصا على أن يجذبه الى جوه الذى يعيش فيه .

فوليد يرى أن القراءة مضيعة للوقت ، وأن محاولة اقامة علاقة انسانية مع المرأة لا تفيد ، وهو في سلوكه متوافق مع أفكاره ، فلا تعني المرأة بالنسبة له الا أنثى هو مستعد لأن يستخدم كل الأسلحة - مشروعة كانت أم غير مشروعة - في سبيل الوصول اليها ، ففي احدى الدكاكين التي توجد فيها لوحات اعلانات صغيرة في سوهو ، يختار صورة فتاة تعرض نفسها للعمل "كموديل" عار للتصوير ، وتأتي " كارولين" ، ويستعير آلة تصوير ، ويلتقط لها عشرات الأوضاع وهي عارية ولكن دون أن يضع في الآلة فيلما ، وهو لا يسلك كما يسلك العاشق التقليدى الذى يبدو حريصا على اظهار كرمه ، فلا يدعو واحدة من طريداته الى فنجان قهوة او وجبة طعام (٢) ، لأنه لا يحب أن تنمو العلاقة الا بالقدر الذى يريد . من هنا يجسد وليد طبيعة الشخصية الدونجوانية التي " تتصف بالتقلب السريع ، والاستجابة للمثيرات العاطفية ، والخرامية المحيطة بها بغية ابقاء الحب في مستوى العشق المنيف والانفعال الحاد ."(٣) ، ولذا تراه يقول : " انك تخطئ في شيء وهو أني انما أبحث عن النساء بدون عاطفة ، ان ما يدفعني نحوهن أشد من العاطفة ، انه شغف ماله حدود ، وكلف بهن يضرب بجذوره في صميم وجودى وكياني ليتك تعرف لذة هذا البحث اللامتناهي عن المرأة ."(٤)

وهذا القول يوضح طبيعة البحث عن مطلق المرأة عند وليد ، فهو يبحث عن

---

١) صباح محي الدين ، خمر الشباب ، ص ١٦٠

٢) المصدر نفسه ، ص ١٩ ، ٦٦

٣) صادق جلال العظم ، في الحب والحب العذرى ، ص ٥٢

٤) صباح محي الدين ، خمر الشباب ، ص ١٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النساء كجنس، ولا يبحث عن امرأة معينة، وهو يجعل البحث عنهن أمرا مرتبطا بوجوده لأنه يريد للحب أن يبقى شيئا حارقا لا يخضع للرتابة التي قد تبعثها العلاقة الواحدة، ولذا فانّ " كل امرأة عالم جديد غامض وكل تعارف جديد يثير في دمي حب المغامرة والاستطلاع. "(١)، ولذلك فان بحث وليد عن النساء يتجذر في ذاته ويغدو جزءا منها لأنّ دونجوانيته تسلبه القدرة على الثبات أو الخضوع لقيود العلاقة الواحدة. أما رواية سليم اللوزي " المهاجرون" فتجسد عبر شخصياتها طبيعة البحث عن مطلق المرأة. فهي تخلو - على كثرة العلاقات فيها بين الرجل والمرأة - من علاقة حب واحدة، ويرجع ذلك الى طبيعة تكوين الشخصيات، فهي في معظمها متحللة أفسدها الثراء الفاحش، فأصبحت المرأة لا تعني أكثر من وجبة دسمة . ويلتقي في هذه النقطة الرواية - سعيد الطرابلسي - مع بقية الشخوص. فعندما واجه سعيد الطرابلسي اغراء ماديا ليوقف حملة سياسية معينة " هرب من نفسه بالرقص مع فرانسواز، ثم عاد فهرب بها ومعها ومن نفسه، ملقيا بجسده في خضم ليلة حب عاصفة. "(٢)

وواضح أن سعيدا يشير الى القلق والصراع في داخله. الذي حاول اخماده باللجوء الى الجنس. فالمرأة هنا تؤدي دور الخمرة في الالهاء، والتخدير، والحمل على النسيان، ولذا فانّ كلمة " حب" جاءت في الجملة السابقة مضلّلة، لا تعني الا لقاء جنسيا مخدرا، فكان أن انتهت علاقته مع فرانسواز، لأنها أدت دورها، وعندما اقترح سامي الشريف على سعيد أن يتناول العشاء معه بدون فرانسواز قال :

---

١) صباح محي الدين، خمر الشباب، ص ١٥٩

٢) سليم اللوزي، المهاجرون، ص ٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" وماذا بقي من فرانسواز بعد ليلة أمس؟ لقد جئت الى اوروبا بحثا عن التغيير لا عن الاستقرار." (١) ، فاللقاء مع فرانسواز لم يمثل بالنسبة له الا وجبة دسمة لا دخل للمشاعر الانسانية فيها . ولقد أشار سعيد الى مثل هذا الرأى في حديثه عن اليزابيث فقال : " ان الوجبة لا تثير الشهية." (٢) من هنا اندفع سعيد الى اقامة علاقات متتالية لا يبغي منها سوى المتعة بغض النظر عن طريقة الوصول اليها . فعندما يتصل سامي الشريف بمدام كلود " لتوفر له صبيتين ترسلهما الى الشاليه في " شامونيكس"، كما تعودت أن ترسل دائما ، ولم ينس أن يوصيها بأن تختار الفتاتين من النوع الممتاز لأن الصديق الذى سيقضي عنده عطلة الاسبوع شخصية هامة." (٣) ، لم يحتج سعيد على ذلك ، مع أن العملية نوع من الدعارة تتحول فيها المرأة الى أداة للمتعة تشترى بالمال وتمارس عليها العقد النفسية (٤) ، فشخصيات الرواية تعامل المرأة معاملة الاسلاب والغنيمة ، ويكشف هذا الحوار بين سامي الشريف وسعيد الطرابلسي عن التشابه في النظرة نفسها :

" - قلت لك ، غدا سنتحدث في الموضوع ، أما الان فعليك أن تختار بين سلمى واليزابيث.

- اذا كان لي حق الخيار ، فأرجو أن لا تزعجك صراحتي اذا قلت أنني أختار سلمى ." (٥) ، ولذا تخلو العلاقات في الروايات من اللمسات الانسانية ، وتتحول الى نوع من التشفي الحاقد ، الذى يعكس طبيعة التكوين النفسي عند هذه الشخصيات ، فنرى سامي الشريف ينصح سعيد الطرابلسي ، " اسمع يا سعيد اذا أردت أن تسهر مع سلمى ، فاصطحب معك اليزابيث.

---

١) سليم اللوزى ، المهاجرون ، ص ٢٧

٢) المصدر نفسه ، ص ٩٣ ، وانظر ص ٩١

٣) المصدر نفسه ، ص ٥٦

٤) انظر : سليم اللوزى ، المهاجرون ، ص ٥٧ ، ص ٩١ ، ص ٩٢ ، ففي هذه الصفحات دلالة واضحة على أن اللذة الجنسية أصبحت هي محور العلاقة بين الشخصيات والمرأة الغربية ، دون أى اعتبار للنواحي الانسانية في علاقة الرجل بالمرأة .

٥) المصدر نفسه ، ٩٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا لأنني وعدتها بذلك، وثانيا لأنّ حظك سيكون أكبر عندما تتنازعك صديقتان لدودتان ولو على حلبة الرقص، وثالثا لكي أستطيع أنا أن انفرد بفيروينكا." (١)

أما روايتا "الحي اللاتيني"، و"المتميّز"، فان بطليهما يمران في مرحلة البحث عن مطلق المرأة، لكي يصلا الى علاقة حب حقيقية فثمة تشابه في مخطط كلتا الروايتين على الصعيد الخارجي، ولكن رواية ادريس تميل نحو التفصيل والتحليل، في حين تجنح رواية محمد عيد الى الايجاز والتكثيف. فاذا تفحصنا مجموعة النساء التي أقام سامي بطل "المتميّز" علاقات معها، أدركنا أنّ المرأة كانت وسيلة لنسيان الماضي، ومدخلا للتعامل مع الحاضر يقول: "بدأت تلك المرأة تزورني في غرفتي، كنت أنام جسمها في كل مرة تأتي، ولا نتكلم الا قليلا، لم أجد فيها ما يشدني، ولا أعرف ما الذي تجده في." (٢)، فهذه العلاقة التي يتحدث عنها تخلو من الحرارة، وتسيطر عليها اللامبالاة نظرا لخلوها من العاطفة والانفعال. وفي مكان حديثه عن علاقة أخرى يقول: "تلك هي المرة الأولى التي تدعوني فيها الى حيث تسكن. لم أسألها مرة واحدة أين تسكن. أو ان كان لها سكن أصلا. أخشى أنّ دعوتها قد جاءت متأخرة. نهضت دون أن أتكلم، أردت في البداية الحصول على امرأة اشتهيتها ووافقت على التصرف عليها، تحولت تلك الرغبة الجنسية الى محاولة لملء الفراغ، فالطلل قد أصبح بعد أساسيا وصلبا لحياتي منذ وصلت الى هذه البلاد." (٣)

---

١) سليم اللوزي، المهاجرون، ص ٩٥ وانظر ص ١٦١، ص ٢٤٧

٢) محمد عيد، المتميّز، ص ١٨، ١٩

٣) المصدر نفسه، ص ٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فسامي يؤكد من خلال هذه العلاقات محاولته للانسلاخ من الماضي، والاندماج في الحاضر، ولكن النجاح لا يكتب لهذه المحاولة، لأن مجموع هذه التجارب يزيد في شرخ حياته ولا يرد اليه توازنه المفقود.

أما سهيل ادريس فيوضح من خلال بطله في "الحي اللاتيني" مرحلة البحث عن مطلق المرأة، بتفصيل، وتحليل، فبطل الرواية تواق الى اقامة علاقة مع المرأة. نظرا للحرمان الجنسي الذي يعانيه، ويكون مرور اسبوع على اقامته في باريس، دون أن يتمكن من اقامة علاقة مع أية امرأة، مبعث قلق واحباط. "أسبوع طويل ينقضي منذ قدمت الى باريس، لم تلق فيه الا الاخفاق ازاء المرأة. أية امرأة. أسبوع طويل ينقضي، وفي جسدك نار تلتهب، وفي مخيلتك ألف صورة وصورة لنساء عاريات، متمددات على السرير، يلسعن فكرك وجسمك بألف لسان من نار."(١)، من هنا كانت مجموعة التجارب التي مرّ بها تكشف عن عمق الأزمة في داخله، وعن رغبته في الوصول الى الحلّ، بغض النظر عن مستوى الوسيلة ومدى مناسبتها لطموحاته، فقد دخل احدى دور السينما ليشاهد فيلما ثقافيا، ولكنه نسي الفيلم عندما جلست بجانبه احدى الفتيات، فأمسك بيدها، وأعطاها ورقة حدد فيها موعدا ليوم غد، ولكنها أخلفت موعده معها. وواضح أن هذه التجربة تكشف عن مدى الحرمان الجنسي الذي يعانيه بطل "الحي اللاتيني"، وتوضح رغبته في كسر طوق الحرمان. وهي ذات دلالة واضحة على فكرة البحث عن مطلق المرأة. فالظلام الدامس في سينما يحول بينه وبين رؤية الفتاة، بشكل واضح، فلا يستطيع تحديد مستوى جمالها أو عمرها، ولكنها لا تعني بالنسبة له الا امرأة وجدها بقربه فأصبح الوصول اليها كل همه حتى

---

(١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنه " لم يتمالك نفسه عن ارتكاب فعل اغتصاب حقيقي وان جزئي حين قبض على يد الفتاة المجهولة وراح يجسها في ظلام الفيلم." (١) ، ثم لجأ بعد أن أخلفت الفتاة موعدها الى امرأة من نساء الرصيف، ليؤكد نجاحه، وينقذ نفسه من الم ذلك الفشل ، وتوضح نهاية علاقته بهذه المرأة الهزيمة المرة التي ذاقها . فهو لم ينظر الى عينيها قط. وهذا يعني أنه لم يستطع الحصول على المرأة من خلال علاقة متكافئة يكون شخصه - لا ماله - محورا لها ، فلم ينظر الى عينيها لأنه لا يرغب في أن يرى هزيمته، التي تأخذ شكل الانتصار. ومن الجدير بالذكر أن هذه الشخصيات النسائية التي يتحدث عنها البطل ، غير محددة الملامح ، وليس لها صفات مميزة ، ولكنها تأخذ شكل الأنثى ، في مواجهة الذكر.

أما ليليان فقد ورثها عن طريق أحد أصدقائه، ولم يصل اليها بجهوده الذاتية، ولذا فقد أقامت معه العلاقة بارادتها ، ولم يكن هو طرفا فاعلا فيها ، بل ظلت تتلاعب به كيف تشاء. وعندما تنتهي العلاقة - وقد استمرت عدة ساعات فقط - يكتشف أنها قد سخرت منه وهزئت به فقد سرقت محفظة نقوده، وانتحلت قصيدة جاك بريفير " فطور الصباح"، ونسبتها لنفسها وسمتها " دون كلمة" (٢) ، فهذه العلاقة تكشف عن قلة التجربة من جهة، وعن الحرمان الجنسي من جهة أخرى، فتصبح المرأة في ذروة الشهوة " دنيا واسعة ليس لها حدود." (٣) ، وتكون بعد انطفائها شيئا لا قيمة له " لقد تحطم السحر كله، فانهارت اسرار روحها بعد أن سقطت الخشاوة." (٤) ، أما مارغريت فلقد بدأت هي بالتعرف عليه فدخلت عالمه ثم خرجت منه وهي تتهمه بالانانية وقلة التجربة أيضا.

١) جورج طرابيشي ، شرق وغرب، رجولة وانوثة، ص ٧٥

٢) سهيل ادريس، الحي اللاتيني ، ص ص ٥٧ - ٦٥

٣) المصدر نفسه، ص ٦١

٤) المصدر نفسه، ص ٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- علاقة الاصطياد :

نعني بعلاقة الاصطياد ما يقوم به البطل الروائي في سبيل الحصول على امرأة معينة. فالاصطياد بهذا المعنى تال لمرحلة البحث عن مطلق المرأة. لأنّ المرحلة الأولى لا تميز بين امرأة و أخرى، اذ يستوى فيها كل النساء، أما في هذه المرحلة فينصب الاهتمام على امرأة بعينها تكون هدفا يخطط البطل الروائي، لكي يصل اليه. ولذا تمتاز علاقة الاصطياد عن المرحلة الاولى، بسعة تجربة البطل الروائي مع المرأة، فالبطل هنا أصبح محترفا ذا خبرة واسعة في هذا المجال، وأصبح يتأنى في اختيار "فرائسه" واذا كان هذا النمط من العلاقات يتميز بطرافته، فانه قد يخلو من الروح الانسانية لأنّ المرأة تصبح فيه طريدة، ويصبح الرجل فيه صيادا.

يجسّد صباح محي الدين في "السنفونية الناقصة"، عبر بطله علاقة الاصطياد، فهو يحدد في البداية الأطوار التي تمرّ بها علاقة البطل الروائي العربي بالمرأة الغربية. يقول: "ولباريس على أمثالنا من فتيان الشرق الذين حرموا حتى النظرة الى أنثى - بله التحدث الى النساء وصخالطتهن - أثر واحد لا يتغير، مهما كان أحدنا ومن أين أتينا. فالسوري والعراقي والمصري والهندي والصيني، كلنا في الهواء سواء. ما أن نصل الى باريس حتى نحاول أن نجد لنا غرفة أقرب ما تكون من الحي اللاتيني، ونسجل أسماءنا في الجامعة - ارضاء لضميرنا ثم اقناعا للوالد بارسال الاتاوة الشهرية، ثم نبدأ باكتشاف مقاهي البول ميش، ومونبارناس. ولا تمضي أيام وأسابيع قلائل حتى يكون واحدنا قد عرف أكثر من واحدة تساهم في تخفيف الكبت المتراكم عليه منذ أجيال لا تعد. والنساء كماء البحر يزداد الشارب منه عطشا، مع فارق واحد، وهو أن ماء عين عذب قراح، ثم تنقضي ثلاثة، أربعة، أو خمسة شهور فيكون الفتى الشرقي قد أشبع نهمه الأول، وأصبح في امكانه أن يتمالك نفسه، فلا يذوب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رغبة أمام أى أنثى تبتسم له او تنظر اليه ببعض الاهتمام وهنا يدخل فـــي طور التذوق والاختيار." (١)

يتوقف صباح محي الدين عند البحث عن مطلق المرأة، ويبيّن كيف يكـون هذا البحث مدفوعا بالغريزة الجنسية، ثم يبيّن طور التذوق والاختيار وكيف يأتي بعد مرحلة الشبع الجنسي.

ومن المهم أن تكون علاقة بطله بماشـــا، قد جاءت في الطور الثانـي، لأنّ الصياد يحتاج الى دراية، وعلم وصبر يفتقده البطل في الطور الأول " ولو عرفتها أول وصولي لما نمت صداقتنا وأثمرت، اذ لكنت وجدتها بطيئة على المستعجل مثلي، يقطف من شجرة اللذائذ، أدنى قطوفها، ولو كانت بعيدة عن الكمال، ولا يكلف نفسه جهد التسلق الى الثمار البعيدة." (٢)

ومثلما يفعل الصياد الماهر يتعرّف بذكاء وحذر الى فريسته فهـــــي " فتاة شقراء الشعر، خضراء العينين، سوداء الحاجبين، تمزح قـدح في يدها مزاحا رقيقا." (٣)، ثم يبدأ بدراسة الطرق التي توصله الى اصطياد " الفريسة"، متغلبا على الحواجز الكثيرة التي تحول بينه وبين هذا الهدف. فهو يبدأ بتجميع المعلومات الضرورية عنها، من خلال حواره معها. فهي نمساوية من فينا، لا تتقن الفرنسية، وتتقن الانجليزية، وتحب الموســـيقى " فلقد نلت الجائزة الأولى من " كونسرفتوار" فينا فأرسلني أهلي لأدرس على جاك تيبو." (٤)، وعندما اقتربت منه لتتحدث اليه عن قرب " فلا تمكر صفو الموسيقى، وملت عليها كي أهمس لها بما أقول، فلامس شعرها وجهي

---

١) صباح محي الدين، السنفونية الناقصة، ص ٨

٢) المصدر نفسه، ص ٩

٣) المصدر نفسه، ص ٩

٤) المصدر نفسه، ص ١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وملأعطرها أنفي وأحسست بدفء ، لذيذ يشع منها فلم أتمالك أن سألتها :

- ما هو العطر الذي تستعملينه؟ فلم تجب بل وضعت اصبعها على فمها وقالت : هس استمع الى الموسيقى .

وسكت. لا لأستمع الى الموسيقى ، بل لأفكر كيف أستطيع أن أجعل هذا العطر يستقر في غرفتي ."[1] ، في هذه اللحظة بدأت علاقة بالفريسة ، وبدأ يستعمل الطعوم المناسبة وكانت الموسيقى الطعم البارز بين هذه الطعوم. ففي اللقاء الأول يسألها : " ما هو العطر الذي تستعملينه؟ فأجابت ما لهذا جئنا . ألم تقل انك تريد لقائي للتحدث في الموسيقى ؟"[2] ، عندها يستيقظ فيه الصياد الماهر ، وأولى صفات هذا الصياد الصبر ، ومعالجة الأمور باللين والحذر حتى لا تنفر منه "الفريسة" ولذا أثار تمنعها أكبر قدر من الرغبة عنده في الحصول عليها لأن "لذة الصياد لا تقاس الا بالمشقة التي يبذلها في اقتناص الطريدة . فلا غرو ألا تطيب له من الطرائد الا الأوابد النافرات، العصيات اللائي يجتمع أكثر من دليل ، في المناوشات الأولى ، على أنه سيلقى في طرادهن عنتا ."[3] يقول : " . . . ولكن ألا تريدين أن تشربي شيئا ؟

- مع الشكر: أشرب حليبا باردا بلا سكر.

وطلبت لها الحليب وأنا أعوذ في نفسي بالشيطان من هذه البداية، حليب (وبلا سكر) ، وحديث عن الموسيقى . الا أن هذه البداية

---

(١) صباح محي الدين ، السنفونية الناقصة ، ص ١٢

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣

(٣) جورج طرابيشي ، شرق وغرب، رجولة وأنوثة ، ص ١١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصعبة بعض الشيء لم تزدني الا رغبة فيما كان يحول في خاطري . وماشيت ماشا فيما أرادت." (١)

ويمكن تقسيم علاقة بطل الرواية بماشا الى قسمين كبيرين هما :

مرحلة التغرير ثم لحظة الاصطياد .

ففي المرحلة الأولى أبدى اهتماما زائدا بالموسيقى ، على الصعيد النظري والعملي ، فهو يحب " موتزارت . . . ان فيه انفاسا ليست في " باخ" الهندسي ، ولا في بيتهوفن " الاعصار" ولا في شوبان "النسوى" (٢) وهو متعلق بالكمان ، على اعتبار أنها جاءت الى باريس لكي تستكمل تعلم العزف على الكمان ، وأبدى كذلك اهتماما بالفنون ، فاشترى كتاب " معالم باريس الموسيقية" ، واستظهره ليبدو أمامها بمظهر عاشق الفن . حتى اطمأنت اليه وغيرت فكرتها المسبقة عن الشرقيين " أنا شاكرة لك لطفك في مرافقتي ، ولم أكن أتوقع منك أن تكون على هذا الاطلاع وعلى هذا الحب للموسيقى . . . فأنتم الشرقيون معروفون بأن المرأة لا تهمكم الا من ناحية واحدة واذا خرجتم معها فلغاية واحدة ." (٣)

وهو في هذه المرحلة يخطط لاصطيادها "كنت لا أني أفكر في ماشا لا تفكير الحب العاشق ، بل تفكير الصياد يبحث عن شرك يوقع فيه طريدة عنيدة وقضيت الساعات وأنا أضع الخطط ، وأرسم الطرق ، وأنصب الحبائل ." (٤)

وتكون الموسيقى هي وسيلة الاصطياد . فيأخذها الى حفلة من حفلات الجاز ، ويدعوها الى شرب قدح من الباستيس " وما أن جرعت ماشا جرعة واحدة حتى صاحت:

- اوه ! هذا شراب قوى . . . اوه !

---

(١) صباح محي الدين ، السنفونية الناقصة ، ص ١٣

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٨

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقلت لها : لا تخافي هذا طعمه، أما مفعوله فلا يزيد على مفعول النبيذ ، ويعلم الله أني كنت كاذبا ، فالباستيس كالعرق المثلث، مفعوله هائل الا على الذين اعتادوه، الا أن الحرب خدعة، وهل بين الرجال والنساء الا الحرب منذ أن وجدت الخليقة." (١)

وبعد أن تشرب الباستيس، تخرج من ذلك القالب الذي وضعت نفسها فيه، لتنطلق على سجيتها ، ثم يأخذها في آخر الليل الى غرفته. بعد هذه الحادثة تقطع ماشا علاقتها به وتختفي من حياته. "وما زلت أتساءل : هل قطعت علاقتها بي لأني لم أصفر لها السنفونية الناقصة كما أمرت دوما ؟ أم ترى الحق على الفتى الشرقي الذي جسر القناع عن وجه عازفة الكمان الآتية من فينا وأثبت لها أنها أنثى ـ كأية امرأة أخرى ـ فلم تغفر له ذلك." (٢)

انّ هذه الأسطر تبيّن أنّ طبيعة العلاقة بين بطل الرواية والمرأة الغربية، هي علاقة تضاد ، وصراع. فهو يحمل رجولة شرقية، وهي تحمل أنوثة تحاول اخفاءها، ويكمن دوره في ردها الى طبيعتها الأصلية، "انطلاقا من هذا كله يفترض أنها انقطعت عن رؤيته لأنها لا تريد أن تقرأ ثانية وشيقة هزيمتها في عيني الفتى الشرقي." (٣)

فالاصطياد عند بطل السنفونية الناقصة يمثل مبدأ فكريا لا يتنازل عنه، وهو اعتقاده بأزلية الصراع بين الذكورة والانوثة

---

١) صباح محي الدين ، السنفونية الناقصة، ص ٢٥

٢) المصدر نفسه، ص ٣٥

٣) جورج طرابيشي ، شرق وغرب، ص ١٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذلك يحمل في طياته طابعا انتقاميا على الرغم من الطرافة التي تبدو في ثناياه.

أما علاقة الاصطياد عند علي في "الاصدقاء" فهي لا تخلو من المرح، ولكنها أكثر انسانية، وملاءمة لتكوينه الذهني. فقد كان يتعلق يتساءل "ما هو الشعور الذي يسمونه الحب.؟" (١) ويعجب كيف لا يعرف ماهية هذا الشعور، ويعلل ذلك "بأنه لم يجد فتاته بعد، وأنه يتنقله من فتاة الى أخرى كان يبحث عن الفتاة التي تستحق حبه." (٢)، ولذا توقف عن الاصطياد ابان تلك العلاقة التي ربطت بينه وبين مينا حتى قال له أحد أصدقائه: "لو أخذنا معدل صداقاتك السابقة لكان عليك أن تكون قد بدلت صديقتين في هذه المدة." (٣)

ولعل علاقته بجانين تكون خير مثال على طبيعة علاقة الاصطياد لديه. فهي تختلف اختلافا نوعيا عن طبيعة الاصطياد في "السنفونية الناقصة" فاذا كانت لحظة الاصطياد عند بطل "السنفونية الناقصة، تمثل لحظة انقضاض ناقمة، على فريسة مخدرة، غافلة. فانها تمثل عند علي لحظة انسانية واعية يدرك فيها الطرفان طبيعة ما يقدمان عليه. فلا يجنح علي للخداع والتغرير، والتظاهر بما ليس فيه، بل يتقدم الى هدفه بصراحة وثقة. ولذا يمتزج الاصطياد هنا بالاعجاب، في حين يكون في "السنفونية الناقصة"، يهدف الى الانتقام، كما تكون اللاثقة سمة من سماته الرئيسية.

تتميز هذه المغامرة بالمرح والصراحة، فعلي لا ينصب شركا لجانين، بل يتعمد الجلوس الى جانبها مع أن الباص خال، ويسألها "ما هي أفضل

---

١) حسن الحسيني، الأصدقاء، ص ١٤.

٢) المصدر نفسه، ص ١٤

٣) المصدر نفسه، ص ٤٤، وانظر ص ٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طريقة تنصيحيني بها للتكلم معك والتعرف اليك ، أنا الآن في انتظار نصيحتك لأبدأ ما علي من واجب نحو فتاة جميلة ."[١] ، وعند ما تجيب الفتاة على تساؤله قائلة : "كيف تريدني أن أعطي نصيحة لشخص لا أعرفه؟ ، أنا اسمي جانين . ما اسمك؟"[٢] ، تكون اللبنة الأولى لعلاقة الصطياد قد وضعت. ثم يبدأ علي بعد ذلك بجمع المعلومات الضرورية لاستمرارية الحوار : لأنّ الصمت في اللحظات الأولى شرخ يهدد العلاقة بالموت. ولكنّ العلاقة ليست عابرة ولذا كان لا بد لها أن تتجدد . ومثلما كانت موسيقى الجاز طعما أوقع ماشا في شبكة بطل "السنفونية الناقصة"، فقد كانت الموسيقى الكلاسيكية هنا وسيلة لتقوية علاقة علي بجانين . فقد تبدت حيرة علي العميقة في كيفية تجديد علاقته بجانين . صحيح انه قد أفلح في اصطيادها ، ولكنّ الاصطياد هنا لا يكفي . فكان لا بد من مبرر لتجديد العلاقة معها ، لا سيما وأن عليا وجانين يعانيان من عدم وجود أرضية فكرية متقاربة . ولهذا صرّح لصديقه بهذه الحيرة قائلا : "أريد أن أتصل بجانين تلفونيا ، وأدعوها ، ولكني لا أعرف على أي شيء أدعوها ."[٣] ، وعند ما يقترح صديقه جمال عليه أن يدعوها الى غرفته ، باعتبارها نهاية المطاف، ردّ بأنه ليس في حيرة بسبب نهاية العلاقة ولكنه في حيرة "لأني لا أعرف كيف أصطادها حتى آكلها ."[٤]

واذا كان بطل "السنفونية الناقصة" يشتري كتاب "معالم باريس الموسيقية"، لكي يبهر ماشا بسعة اطلاعه، فانّ عليا يلحّ على صديقه طالب الموسيقى

---

١) حسن الحسيني ، الاصدقاء ، ص ٢٩١

٢) المصدر نفسه ، ص ٢٩١

٣) المصدر نفسه ، ص ٣٠١

٤) المصدر نفسه ، ص ٣٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليزوده بتفصيلات عن أسماء القطع الموسيقية التي سيعزفها كلاوديو آرو، وعندما يسأله صديقه عن سرّ حماسته لهذه المعزفة يجيب بأن جانين "تحب الموسيقى وقد تسألني عن هذه الأشياء، ولا أريد أن أبدو جاهلا أمامها."(١)، فالاستعراض الثقافي عند كل من البطلين، ضرورة لكي يشعرا بالتفوق والاستعلاء أمام طرائدهم، ولكنّ عليا يظل سيادا يحافظ على "شرف" اللعبة، وعفتها. فهو لا يفعل ما يفعل بغية الانتقام من المرأة، بل بغية امتاع نفسه واشباعها فهو يقول "لا أظن بأني خدعت صديقة من صديقاتي، وأؤكد لك بأني لم أغتصب أيا منهن، ان استقامتي معهن مثالية، وهدفي لم يتغير أبدا وأن ما أطلبه منهن يتطلب تعاون الطرفين، كما أن اللذة مشتركة. ان كل امرأة تلحظ اهتمامي بها تعرف تماما ما يداعب نفسي نحوها، وعندما تقبل تودد اليها انما ترضي عن نيتي نحوها من حيث المبدأ على الأقل."(٢)، صحيح أنه يرى "أننا في حالة حرب لا نهاية لها معهن."(٣)، ولكنّ هذه الحرب لا تعني بالنسبة له الا الاستمرار في عملية الصيد، دون توقف، لأنّ في توقفها توقفا لشيء كبير في حياته.

---

(١) حسن الحسيني، الاصدقاء، ص ٣٠٢

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٣، ٣٠٤

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ - علاقة الحب:

تجسد علاقة الحب بالنسبة للبطل الروائي قيمة من أعظم قيم اللقاء بينه وبين الحضارة الغربية. فعلاقة الحب تحمل صورة من صور التواصل، وكسر الأنا على مستوى الذات.(١)، وتحمل في بنائها الداخلي لحمات حضارية متباينة، ولكنها على تباينها تشكل موقفا حضاريا يلتقي فيه الشرق والغرب على مستوى الموضوع. صحيح أن أنماط الحب في - الروايات العربية موضوع الدراسة - تتباين وتختلف طبيعتها من علاقة لأخرى، مما يجعل كل علاقة من هذه العلاقات نسيج وحدها، ولكنّ هذا لا يمنع من التقاء عام في بعض تفصيلات هذه الأنماط، نظرا لوحدة الجوهر بينها. واذا كانت مرحلة البحث عن مطلق المرأة، تهتم بالمرأة من حيث كونها أنثى، فانّ علاقة الحب، تتجاوز هذا الاهتمام العام بالمرأة الى امرأة بعينها، تكون ذاتها محور العلاقة. وهذا يعني أن للمرأة هنا خصوصية، تميّزها عن بقية النساء، ومن هنا "يرتبط الانسان من خلال هذه العاطفة بعلاقات معقدة مع غيره من الناس، تختلف طبيعتها من شخص الى شخص، وتتنوع وفقا لأنفس المحبين، وشخصياتهم، ووفقا للزمان والمكان والعصر الذين يجدون أنفسهم فيه."(٢)

انّ التباين في التكوين العام لأبطال الروايات، جعل اختلاف أنماط الحب أمرا طبيعيا، فوجدت أنماط متباينة من العلاقات مع المرأة الغربية، كالحب الرومانسي عند أبطال روايات "أديب"، و "عصفور من الشرق"، و "الجوع"، و "ليلة واحدة"، و "مرّ صيف". واذا حاولنا معرفة الملامح العامة التي تميز طبيعة هذه العلاقات الرومانسية

---

١) انظر: زكريا ابراهيم، مشكلة الحب، ص ٢٣١ وما بعدها

٢) صادق جلال العظم، في الحب والحب العذري، ص ٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سنرى ما يلي :

١ - قصر الفترة الزمنية التي سادت فيها علاقة الحب، فهي لم تبدأ الا لتنتهي . وقد تعكس هذه الظاهرة حالة عدم التوازن ، وقد تدل على تعذر الظفر بالمثال المنشود ، ولكنها في كل الأحوال تمثل حالة من حالات القلق وعدم الرضا ، والتمرد على الوضع السائد .

٢ - تشكل هذه العلاقات رغم قصر الفترة الزمنية ، نقطة تحول في حيـــاة الشخصية الروائية ، على صعيد السلب والايجاب .

يجسد بطل " أديب" طبيعة البطل الرومانسي ، كما هو متعارف عليه في الأدب ، وفي المقاييس النقدية . " فالرومانتيكي غريب في عصره بشعوره واحساسه ، ولـــذا كان عصبي المزاج ، ذا نفس سريعة التأثر ، وهو في كل ذلك معتد بذاته ، يعتقد أنها مركز العالم من حوله ، ويحب لذلك أن يتميّز عن يحيطون به ، في خلقـــه وعاداته وميادئه ، بل وفي ملابسه ولهجته ."(١) ، وتكاد هذه الصفات تنطبـــق على أديب بشكل كبير ، وترسم لنا ملامح شخصيته ، وتحدد طبيعة علاقته بفرنند والين ، والمتتبع لهاتين العلاقتين ، لا يكاد يجد ملامح مميزة لهذه العلاقـــة الا من خلال أديب نفسه . ولذا كانت صورة علاقته أولا علاقته بهما ، تحمـــل قدرا كبيرا من الاعتداد بالذات ، فقارئ الرواية لا يستطيع أن يخرج بصورة مميّزة لكل من هاتين المرأتين ، فهما شخصيتان مسطحتان على مستوى البناء الفني ، ما وجدتا الا لينعكس عليهما هذا القلق الذي يشكل جزءا من حياة أديب . فلقـــد عرف أديب فرنند في مرسيليا لعدة أيام ، ثم عاد من باريس ، وسافر معها الى كـــان . وهو يعقب على هذه الرحلة قائلا : " ولا تسل بعد ذلك عن هذه الأيام الحلـــوة

---

(١) محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ، ص ٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المرة، والمشرقة المظلمة، التي قضيتها في هذه المدينة مع فرنند في أول الأمر، ثم وحيدا بعد أن آن لفرنند أن تعود. ولا تسل عما جنته عليّ هذه الوحدة من السيئات والآثام." (١)، وهذا الكلام وان كان يشخص جوهر أزمة أديب في توزع حياته، بين المرض والوحدة والجنون، الا أنه مفاجئ للقارئ وبخاصة لأنه أديب هو الذى ألحّ على مراقب البعثة لكي يعود الى مرسيليا، ثم عرف الين، التي لم تختلف كثيرا عن فرنند في أبعادها وتركيبها، لانه في الحالتين لم يعرف غير نفسه. وهو يرفض في البداية أن يتحدث عنها "ما دامت هذه الأسباب موصولة، فاذا انقطعت فسيطول بينك وبيني الحديث. فأنت تعلم أني لا أحدثك عن رضاى حين أرضى، وانما أحدثك عن شقائي حين أشقى فتمنّ لي الشقاء ان حرمت أن أتحدث اليك." (٢)

وهذا الكلام ترديد للمقولة الرومانسية الشائعة، في أنّ صاحب الحياة السعيدة، يحياها ولا يكتبها، أما الجديرة بالكتابة فهي حياة الشقاء، لأنّ دوافعها من القوة بحيث تجبر صاحبها على الظهور، ولذا ينتظر لحظة الألم بفارغ الصبر، ويدفع صاحبه كي يتمنى له الشقاء.

وقد كانت نهاية أديب الموت، بعد أن مرض، وجنّ، ولكن لحظة الجنون بالنسبة لأديب لم تكن الا تعبيرا عن تضخم الذات عنده. فقد استقرّ في نفسه أن فرنسا والحلفاء معها، يكيدون له، ويأتمرون به لينفوه الى المغرب الأقصى. وأنّ الين، هي التي أفسدت قلوب الحلفاء وصورته لهم في صورة العدو المخيف.

* * *

---

١) طه حسين، أديب، ص ١٤٨

٢) المصدر نفسه، ص ١٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما محسن بطل "عصفور من الشرق"، فقد كانت علاقته بسوزى ديمون، قصيرة هي الأخرى، ولكنها تركت أثرا كبيرا في نفسه. ويستطيع قارئ "زهرة العمر"، أن يرى الأصول الأولى لتجربة الحكيم مع ايما دوران، قبل أن تتحول الى "سوزى ديمون"، التي استلهم الحكيم من خلالها عملين فنيين هما: مسرحية "أمام شباك التذاكر"، و "عصفور من الشرق" (٢)، ولكنّ الرواية لا تطرح لنا هذه العلاقة الّا عبر شخصية محسن، التي تشكل المحور العام لباقي الشخصيات ولا سيما سوزى التي بدت وكأنها "حيّز يسقط الفنان فيه أحلامه، حيّز هيولي، لا يتحرك ولا ينفعل الا بقدر حجم الموجة التي يطلقها القطب، الفنان الرجل." (٣)، ولذا فانّ جميع الصفات التي تشكل ملامح سوزى ديمون، انطلقت من ذات محسن قبل أن تكون في شخصية سوزى.

فاذا كان توفيق الحكيم يعتقد "بأن الحب الملتهب بين الخليلين يفتر اذا تزوجا وقد يعود الى سابق اشتعاله اذا عادا خليلين لكل منهما حياته المنفصلة، انّ الانفصال هو الذى يغرى بالاتصال." (٤)، فانّ علاقة محسن (وهو صورة تطابق الحكيم) بسوزى ديمون (وهي ايما دوران)، لا بدّ أن تخضع لهذه الفكرة. فليس غريبا أن يظل محسن يحب سوزى ديمون، لأنها قاطعة تذاكر، فذلك يحفظ المسافة بينهما، ويهيج خيالات محسن، ويؤجج لهفته بالاتصال. حتى كان قلب محسن وهو يطاردها، ليعرف مكان نزولها، يسابق السيارة، وعندما عرف مكانها كان شعوره "كأنه قد ظفر بايوان كسرى." (٥)، ثم يكون اتصاله بها سببا لدمار هذه العلاقة، لانّ هذا الاتصال أنهى تفرّدها، وتميزها، وبخاصة وقد سيطرت حياة الواقع على العلاقة وقضت على ما فيها من مثال وخيال. فقد صارا "يذوبان وقد فرغت

---

١) نشر هذا الكتاب سنة ١٩٤٣م، ولكن تاريخ كتابته يعود الى أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات.

٢) انظر، جورج الطرابيشي، لعبة الحلم والواقع في أدب توفيق الحكيم، ص ٣٣

٣) الياس خورى، تجربة البحث عن أفق، ص ٣٣

٤) توفيق الحكيم، زهرة العمر، ص ٩٢

٥) توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص ٦٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من عملها الى سينما الحي فيجلسان متلاصقين يتبادلان القبلات كما يفعل من بجوارهم من عمال وعاملات." (١)، ومحسن ساعة أن رأى "فتى فرنسيا يعانق فتاة في الطريق حسب يومئذ أن في ذلك امتهانا لقداسة الحب." (٢)، فما الذى تغير اذن ؟

انّ محسن ما زال يؤمن بالحب، ولكنّ هذا الحب الذى يعيشه يغاير فكرته عن الحب، فالذى تغير هذه المرة هو طعم الحب "التفاحة هي التفاحة، ولكنها تفاحة أرض جديدة، تفاحة الأرض حلوة ولكنّ داخلها الدود." (٣)، ولذا هرب محسن من الأرض الى السماء، ومن الحب الى الفن، لأنّ الحب السعيد قد يقضي على مستقبله كفنان. وكان حرص محسن على تجسيد رومانسيته، واضحا فرفض أن يهدى سوزى عطرا، كما يفعل العشاق، وأهداها ببغاء، واستدان منها مالا في بداية علاقته بها، مخالفا ما يفعله العشاق الذين يحاولون الظهور بمظهر الكرم واليسر. وكل ذلك كان الحاحا من محسن كي تتميز علاقته، وكي تستمر أطول فترة ممكنة قبل الموت. صحيح أنّ سوزى هي التي بادرت بقطع العلاقة، برجوعها الى هنرى، ولكن هذه العلاقة كانت قد ماتت في نفس محسن، لأن حياة الواقع والحقيقة، ودبابيس الشعر، وعلب البودرة، حلت محل الكتب والمثل في حياته ... ولذا كانت رسالة محسن (٤) لها، قصيدة رثاء ينعى فيها هذا الحب، ويعلن موته الى الأبد.

* * *

---

١) توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص ١١٢

٢) المصدر نفسه، ص ١١٣

٣) المصدر نفسه، ص ١١٣

٤) المصدر نفسه، ص ص ١٢٦ - ١٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما كريم في "الجوع"، فقد كانت الظروف التي عاشها في فرنسا ظروفا مأساوية، ولكنها زادت من احساسه بذاته.

يتردد اسم ليليان في الرواية كشخصية نسائية، حاول كريم أن يقيم معها علاقة ولكنه لم يستطع. وقد كان من الممكن أن تكون هذه المحاولة أمرا عاديا لولا طبيعة كريم الرومانسية. التقت ليليان بكريم في احدى وجبات الطعام، برفقة صديقها سلمان. وحاولت "أن تثير اهتمامه بها، بالرغم من ادراكها أنه سينفر منها بالبداية. وقد قابل كريم محاولاتها باللامبالاة."(١)، وهذا أمر طبيعي، اذ ليس من المعقول أن يستجيب كريم بطبيعة تكوينه الى اهتمام امرأة به، لأن ذلك ينقص من تعاليه، واعتزازه اللامحدود بذاته، أما ليليان فقد شعرت "أن حضور كريم على الطاولة أفقدها المنطق."(٢)، وشعر هو بذلك فمارس زهوا كاذبا، وغادرهم لأنه على موعد مع فتاة رائعة الجمال."

"- هل هي رائعة الى درجة أنك تترك طعامك من أجلها؟

- انها كالملاك وداعة ورقة."(٣)، واذا تذكرنا الوضع الاقتصادي البائس الذي يعيشه كريم، وحاجته الماسة الى وجبة عشاء رخيصة، ثم عرفنا أنه ضحى بكل ذلك، لكي يمارس هذا الزهو الكاذب، أدركنا طبيعة التفكير الرومانسي الذي كان يحرك كريما في بداية الرحلة والذي دفع به الى مهاوي المرض فالموت. وعندما يعود كريم الى حجمه الطبيعي، يبدأ في التقرب من ليليان، عندما تقسو عليه ليليان وترفض مجرد الحديث معه. ويفكر هو بالانتقام منها، ولكنها لا تسمح له بتحقيق هذا الحلم. فعندما يعرض عليها صداقته، تجيبه قائلة: "اذا كنت تحبني حقا فيجب أن تتزوجني، فانني فتاة أريد الزواج."(٤)، ولعل هذه

---

١) خضر نبوة، الجوع، ص ٦١

٢) المصدر نفسه، ص ٦١، ٦٢

٣) المصدر نفسه، ص ٦٤

٤) المصدر نفسه، ص ١١٣، ١١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصراحة الجافة قد قطعت عليه كل أمل في امكانية العلاقة معها ، فصارحها بشكل بدا فيه عاريا من كل السحر والغموض اللذين أضفاهما على نفسه " اني طالب مفلس وانتظر من أهلي الراتب لكي اتابع دراستي ."(١) ، وعندما رآها ظهر اليوم التالي مع أحد الشباب، تناوبته مشاعر الشفقة والكراهية ، ثم ودّ لو يترك المطعم كلـــه. انّ علاقة كريم بليليان لا تحتل حيزا هاما في الرواية ، لأن مشكلة العمل كانت شغل كريم الشاغل ، ولكن ليليان عادت الى كريم في فترة مرضه الأخير فحسبته لشدة المرض والعزلة مجنونا ولكنها قالت: "كريم ، لقد عدت. انظر اليّ يا كريم لقد عدت."(٢) وهذا يعني أن كريما وليليان عانيا من شيء شبيه بانفصام الشخصية ، وانعكس هـذا الفصام على علاقة الحب الموهومة ، فاستحالت الى شيء يشبه رياضة شد الحبـــل . فكان الحزن الناجم عن ذلك بالنسبة لكريم كبيرا ، دفع به الى الابتعاد عن الناس ، نظرا للجفوة في تكوينه ، وطبيعة المجتمع الذى عاش فيه .

* * *

وتتبدى ملامح الرومانسية في علاقة رشا بكميل في " ليلة واحدة" ويعتبر قصر الفترة الزمنية فيها نموذجيا ، ولذا حاولت الروائية التمويه عن هذا القصر برفـع درجة حرارتها . جسدت رشا في هذه الليلة تمردها ورفضها لماضيها ، شـــابة ومتزوجة . لأنّ عقدة حياتها كانت تتلخص في عدم القدرة على الاختيار . فقد اختار والدها زوجا لها " يا رشا لقد تقدم شاب لطلب يدك وأعتقد أننا سنوافق."(٣) وكانت النتيجة صدمة ظلت تحفر في قلبها " فقد كنت ككل الفتيات أحلم بأمير ألـف وليلة هذا الأمير الشاب الذى سيحملني ويطير."(٤) ، وكانت حياتها الزوجيـــة

---

١) خضر نبوة ، الجوع ، ص ١١٤

٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٨

٣) كوليت خورى ، ليلة واحدة ، ص ٢٨

٤) المصدر نفسه ، ص ٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا اختيارا متواصلا ، تسيطر عليها الرتابة والملل " كانت حياتنا روتينية ، وكانت علاقاتنا روتينية ، وكانت نظراتنا روتينية ." (١) ، وكان هذا اللااختيار يسيطر على دفة الحياة فيصبغها بالهدوء الظاهري ، المبطّن بالنقمة والتمرد ، واختيار الفرصة المناسبة للعصيان . فقد تسرب الفراغ الى حياتها ، وأصبحت هذه الحياة بلا معنى ، ولذا كانت تفكر في " عالم قد تضيئه نظرة ، وتحييه كلمة ، ويستعبده قلب مرهف الحس." (٢) ، من هنا استكملت رشا جميع عناصر التمرد الرومانسي في سرعة تأثرها ، وعصبيتها ، واعتدادها بذاتها وطموحها نحو المثال ، وشعورها بعدم التوافق مع مجتمعها . فكان الحزن نتاجا طبيعيا رافق هذه المشاعر ، وحاول تعميقها في داخلها . ولعلّ هذا يوضح سرعة اندفاعها في اقامة علاقة الحب مع كميل فقد اختزنت في داخلها ، ثورة سنين طويلة وأطلقتها في ليلة واحدة . ولذا لم يكن من المصادفة أن تبدأ هي بالمغامرة " ضاعت نظراتي في سمرته ونسيت أن هذه النظرات المنسكبة عليه قد تضايقه ، ولاحظت فيما بعد أنه ارتبك ثم حياني بابتسامة ." (٣) ، وواضح أن رشا تجسد من خلال هذه النظرات بحثها السابق عن " ذكرى حلوة مفقودة ، وعن أمل مشع مجهول ." (٤) ، ولعلّ التضاد بين كميل وسليم يوضح الجموح الرومانسي عند رشا ، فقد تحققت في شخصية كميل - كما ارادت رشا - جميع الصفات المثالية في فارس الأحلام ، شكلا ومضمونا . في حين تجسدت كلّ الصفات المنفرة في زوجها السابق ، حتى غدت الثورة عليه أمرا بديهيا ، وحتى أصبح القارئ يتعاطف مع رشا في ثورتها ، ويحنق على زوجها واذا كان حديثها عن زوجها يحمل طابع الحقد الممزوج بالسخرية ، فان حديثها عن كميل يقترب من الغزل " كان في رزانته ثقة ، وكان في حزنه اهتمام ، وكان في اهتمامه كبرياء ، اعجبت بشخصيته القوية ، وأحببت اهتمامه الرصين ." (٥) ، فكان استسلام رشا

---

١) كوليت خوري ، ليلة واحدة ، ص ٣٧
٢) المصدر نفسه ، ص ٣٩
٣) المصدر نفسه ، ص ٥٠
٤) المصدر نفسه ، ص ٥١
٥) المصدر نفسه ، ص ٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكميل يعادل مقدار ثورتها على سليم، فالسكون، والصمت المطبق، والملل، والنفور والشعور بالتفاهة، والقلق والسهاد - وهي مشاعرها في سنوات الزواج - استبدلت بمشاعر مضادة، يتجلّى فيها الشعور بالفرح واضحا. ولذا تقول عن نفسها في فترة اللقاء: "في اللاشعور، صوّر لي خيالي الشرقي الواسع أنني أنثى ضعيفة يدللها رجل قوي." (١)، ورغم أن هذا الشعور يصادر كل حديث لرشا عن ضيقها بحياة الزواج الشرقي، وقيوده، الا أنه يكشف عن رغبتها العميقة في البحث عن رجل تركن أنوثتها الى قوته، ولكن رشا ترفض أن تكون أى أنثى، فهي تصر على تميزها في نظر الآخرين، وفي رأيها. فقد أحدث وجودها تأثيرا في ركاب القطار، وبالذات في كميل، فكميل انسان لا يهتم بالمرأة أو "لا يبالي بالنساء اطلاقا." (٢)، وهذا يعني أن الذى جعله يهتم بها، ليس أمرا عاديا، بل هو شيء خارق، وكانت كل جزئيات اللقاء تؤكد ذلك الحب الرومانسي فهو لحظة عابرة، جميلة، حالمة، ولكنه مع ذلك يشكل نقطة تحول في حياتها، جعلها تفكر بعدم العودة الى زوجها، وسبب لها حالة من الاضطراب، وعدم التوازن، انتهت بها الى الموت.

أما رواية كوليت خورى الثانية "ومرّ صيف"، فهي رواية ذات أبعاد رومانسية في نزوعها العام. فقد أرادت كوليت في روايتها أن تسلخ الرواية تماما عن أجوائنا. أى أنها أرادت أن تكتب "قصة لا يحمل كل بطل من أبطالها، مشاكل المائة مليون؛ قصة عاطفية من الممكن أن تحدث في أى زمان وفي أى مكان من العالم." (٣)، فرغبة المؤلفة توضح طبيعة الأبعاد التي ستدور الرواية حولها. فهذه الأبعاد العاطفية تحاول أن تتخذ من البعد الانساني شعارا، ولكن هذا البعد جاء على حساب بناء الشخصيات من الناحية الفنية. وتتضح طبيعة العلاقة الرومانسية بين سهير،

---

١) كوليت خورى، ليلة واحدة، ص ٧١

٢) المصدر نفسه، ص ١٣٠

٣) كوليت خورى، ومرّ صيف، ص ١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشاب الايطالي ايتالو، من خلال فهم طبيعة تكوينهما ، ومن خلال فهم الظروف المحيطة بهما ، فقد كانت العلاقة بين سهير والدكتور يوسف، لا تراعي طبيعة الضعف البشري، وتحاول ابراز ارادة حديدية ، تتحكم في التصرفات والسلوك . فسهير ترى أن الدكتور يوسف " فارس من الفرسان القدامى ، فارس هاجمه المرض، فرفض أن يرضخ للمدد القوى . رفض أن ينزل من على صهوة جواده ليبكي على صدر امرأة . انه يؤثر أن يخسر المعركة . ولكنه يخسرها وهو راكب على جواده ، وبين ذراعيه امرأة تبكي على صدره ." (١) ، والدكتور يوسف يعتقد أن " كل امرأة تعرف اليها في حياته فرض عليها حمايته ، فارتاحت لهذه الحماية . كل امرأة ما عدا سهير." (٢) فهذا النمط لا ينظر الى علاقة الحب، الا أنها توكيد لأنانيته وذاتيته ، ولهذا تتخذ المواطف طابعا صراعيا ، يهدف الى اخضاع الآخر. لهذا التفت سهير الى ايتالو، وأعطته بعض اهتمامها ، ورغم أن اللقاء غير مبرر فنيا ، الا أن العلاقة بينهما جاءت لترطيب جفاف تلك العلاقة بينها وبين يوسف. ففي شخصية ايتالو وجدت كل الصفات التي تسهم في اشباع غرور سهير، مثلما وجدت في شخصية جين (الممرضة الانجليزية) كل الصفات التي تشبع غرور الدكتور يوسف. ولهذا سارت العلاقتان في نمو مطرد ، باتجاه متواز، وان كانت قد توقفت في اللحظة الأخيرة بين جين ويوسف، حتى بدت وكأنها علاقة حب من طرف واحد . أما الشاب الايطالي ، فقد شكل عاملا مهما في نجاح هذه العلاقة. فكان دائب الانتظار لسهير، مهتما بجمع المعلومات عن شخصها ، يشعر بتميزها شكلا ومضمونا عن فتيات الغرب. فهو " ما زال مؤمنا بالحب." (٣) ، رافضا لواقع الجنس الميكانيكي ، يبحث عن التغيير " أنا أريد أن أركض وراء انسانة ، أريد أن أتعب

---

١) كوليت خوري ، ومرّ صيف، ص ١٦٦.

٢) المصدر نفسه، ص ١٧٤

٣) المصدر نفسه، ص ١٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن أشقى ، أريد أن أحس بسعادة، لا تعادلها سعادة حين أتوصل لأحضنها بين ذراعي ، أما أن أدعو فتاة فأجدها قد مشت من تلقاء نفسها الى غرفتي ، والى سريري فهذا أمر لا يطاق ." (١) ، ولذا تميزت محاولاته بالصدق والحرارة ، واستجابت لها سهير لأنها كانت في لحظة هبوط نفسي ، فكانت استجابتها له ردا على احمال يوسف لها ، " ايتالو . . . الشاب الذى سلاها في البدء فأنساها وحدتها ، ثم استطاع فعلا أن يمحو في نفسها هذا الشعور بالغربة ." (٢)

من هنا كانت بواعث العلاقة وتصيلاتها تدل على حرص سهير على تميزها ، وذاتيتها ، كما أنها تنزع عنها قسوتها وتعيدها الى عالم الانسان بكل ما فيه من ضعف " في البار أمس حين كان يتأملها وهي تتحدث عن بلادها ، كانت تحس بأنها طفلة صغيرة تركض في بساتين وارفة تزغرد فيها عصافير الحب." (٣) ، ولكن ايتالو ذلك العاشق الرومانسي الذى يقول لسهير " أنت حلم حياتي وقد تجسد." (٤) ، يضفي على تعامله معها طابع القداسة " أنا لا أريد منك سوى أن أعبدك." (٥) ، ولذا يخاف أن يعرض فكرة الزواج عليها . وحين يلتقي معها في غرفته، " أحس بأنه عاجز عن سوى الخشوع." (٦) ، ومثل العشاق الرومانسيين يتمنى لو يستطيع الاحتفاظ بسحر الوصال " وتمنى لو تجمد الزمن في تلك اللحظة ، ولو يفنى هو على مهل في الزمن المتجمد ." (٧)

---

١) كوليت خوري ، ومرصيف ، ص ١٦١

٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٤

٣) المصدر نفسه ، ص ٢١٦

٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢٠

٥) المصدر نفسه ، ص ٢٢٠

٦) المصدر نفسه ، ص ٢٢٦

٧) المصدر نفسه ، ص ٢٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د - العلاقات ذات الأبعاد الحضارية :

في العلاقات التي تأخذ فيها علاقة الحب أبعادا حضارية ثمة مستويان :

الأول : مباشر قريب .

الثاني : رمزي حضاري .

ولذا تبدو علاقة الحب في المستوى الأول علاقة عادية لها ما لأبعاد علاقة الحب من بنية ومضمون ، ولكنها تحمل في جملتها أو في تفاصيلها رمزا ذا دلالة حضارية ، " فقد استخدمت الرواية الرمز أحيانا متشحة بجماله الفني ، وعمقه في التعبير عن المعنى ، لتعبر عن فكرة أبعد مما توحي به الحكاية في الرواية ." (١) ، ولعلّ رواية يحي حقي " قنديل أم هاشم" ، تشكل تجسيدا لهذه الحقيقة ، فان أهم ما تمتاز به هذه الرواية فنيا " هو كثافة الرمز مع وضوحه وبساطته في نفس الوقت. انّ فاطمة رمز لمصر ، ونعيمة رمز لضمير اسماعيل ، ومارى رمز لاوروبا ، والقنديل رمز للايمان ." (٢) وسنتوقف عند علاقة اسماعيل بمارى ، لأنّ علاقته بها لا تتوقف عند حدود علاقة الرجل الشرقي بالمرأة الغربية ، وانما تتجاوزها لكي تمثل علاقة الشرق بالغرب.

ولذا فان اسماعيل - يجسد عبر علاقته بمارى علاقة حضارية ولكنّ هذه العلاقة الحضارية لا تأخذ شكلا صداميا عدائيا ، بل تأخذ شكلا وجدانيا ، يمثل الغرب فيه دور المعلم ، ويمثل الشرق فيه دور التلميذ + فحديث اسماعيل عن مارى ، ملئ بالدلالات التي تبيّن رمزية هذه العلاقة . فاذا كان اسماعيل قد سافر الى اوروبا وهو " جوعان الى فتاته السمراء ، الى النساء جميعا ، ولا سيما أخيرا الى نساء اوروبا ." (٣) ، فان علاقته بمارى تختصر بالنسبة له كل النساء . ولذا يتحدث عنها قائلا : " ان لم يكن له في هذه الفترة سوى (مارى) زميلته في الدراسة لكفى بها في نسيان ماضيه . لقد أخذ هذا الفتى الشرقي الأسمر بلبها فآثرته واحتضنته ." (٤)

---

١) طه وادى ، صورة المرأة في الرواية المعاصرة ، ص ١١٢

٢) طه وادى ، مدخل الى تاريخ الرواية المصرية ، ص ٨٢

٣) يحي حقي ، قنديل ام هاشم ، ص ٧٨

٤) المصدر نفسه ، ص ٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمارى تشكل نقيضا للماضي ، في كل شيء . ولذا كانت جسرا عبرت عليه كافة التحولات الجذرية في شخصية اسماعيل . فتغير اسماعيل تغيرا عميقا على شتى الأصعدة ، أخلاقيا ، وجماليا ، وذوقيا ، وانسانيا وفكريا وعاطفيا ، وهذه السلسلة من التغيرات أقرب في نشوئها الى تأثير الحضارة منه الى العلاقة بالمرأة . ولذا فان الفتى الشرقي الأسمر ، يمثل الشرق ، كما تمثل مارى الغرب . ولعله ليس من قبيل المصادفة أن تكون فاطمة هي خطيبة اسماعيل وزوجته فيما بعد ، وأن تظل مارى حبيبته فقط ، دون أن يسمح اسماعيل أو مارى لهذه العلاقة بالنمو . فهذا يعني انشداد اسماعيل الى حضارتين مختلفتين ، انتهى به الى توظيف ما اكتسبه من حضارة (مارى) ، لكي يعالج به عيني فاطمة .

وتنبئ مراحل العلاقة بين مارى واسماعيل عن طبيعة البعد الحضارى الذى يومئ الكاتب اليه . فلقد كان في المرحلة الأولى خاضعا لتأثيرها ، لا يستطيع المناقشة ، ولا يقدر على التخلص من سحر هذه الحضارة . ثم اجتاز هذه المرحلة ليتخلص من مرحلة التلمذة وما فيها من تلقين ، ويصل الى مرحلة الاستيعاب والقدرة على الرفض ، والتعامل مع الحضارة من موقع التساوى . " ولعل أكبر دليل على شفائه أنه بدأ يتخلص من سيطرة (مارى) عليه ، أصبح لا يجلس بين يديها جلسة المريد أمام القطب ، بل جلسة الزميل الى زميله . "(١)

ولعل تجاربه في مصر وما فيها من اخفاق ذريع في البداية ، هي التي قادته الى التوازن ، والتوفيق بين فاطمة ومارى " لقد زالت الغشاوة التي كانت تدين على

---

١) يحي حقي ، قنديل ام هاشم ، ص ٨٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قلبي وعيني ، وفهمت الآن ما كان خافيا عليّ ، لا علم بلا ايمان ."(١)

* * *

أما علاقة علي بطل " جسر الشيطان" بآني فهي تجسد علاقة حضارية تقف نقيضا لعلاقة اسماعيل بمارى من عدة وجوه. فاذا كانت مارى هي التي تقوم بدور المعلم، فآن عليا هو الذى يقوم هنا بهذا الدور، واذا كانت التغيرات التي أصابت اسماعيل قد انتهت به الى التنكر للدين ، والثورة على مفاهيمه فأصبح لا يفكر في جمال الجنة ونعيمها ، بل في بهاء الطبيعة واسرارها . فآن التغيرات التي أصابت آني قد نقلتها من عالم المادة الى عالم الروح .

وثمة مفارقة أخرى على صعيد البناء الفني للروايتين ، فاذا كانت رواية حقي تتحدث عن تأثير سبع سنوات في اسماعيل من خلال بضع صفحات، فان رواية السحار تتحدث عن تأثير بضعة أيام في آني عبر ما يزيد على مائتي صفحة .

---

(١) يحي حقي ، قنديل أم هاشم، ص ١١٧ . يقول يحي حقي عن تلك السنوات الخمس التي قضاها في روما : " في تلك السنوات بدأ اتصالي المباشر بالحضارة الاوروبية ، وأخذت موقف التلميذ في الموسيقى والتصوير والمعارض والمتاحف والمسارح ... ورغم ذلك فقد كنت أشعر دائما أن في داخلي شيئا صلبا لا يذوب بسهولة في تيار حضارة الغرب. وقد وضحت ذلك مرة في مقال قارنت فيه بين الأثر الذى تتركه روما في القادمين اليها من الشمال والنازحين اليها من الجنوب. ولاحظت أن أهل الشمال ينبهرون بشمسها وحضارة عصر النهضة، أما أنا فقد وصلت وعندى قدر أكبر من اللازم من الشمس، عندى حضارة، ان لم تفق ، فهي تماثل حضارتها وعندى دين هو نظام متكامل فيه الفنا."

يحي حقي ، قنديل أم هاشم، المقدمة ، ص ٤٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لذا فانّ علاقة علي ـ آني علاقة حضارية يمثل الشرق فيها دور المعلم، والغـــرب دور التلميذ . وقد توافرت في آني الشروط والمواصفات التي يبحث عنها السحـار ويطله، والتي تجسد حسب رأيهما الحضارة الغربية . في وجهها المادي .

فآني فتاة لا تؤمن بالقيم الروحية والمعنوية على الاطلاق، فهي ترى في الصداقة وهما، وتعد الايمان بالله وهما كذلك، وترى أن لا حقيقة على وجه الأرض، ولا تؤمن بالكتاب المقدس، ولم تقع عيناها عليه، وتنكر الروح وما يتفرع عنها من قيم." (١) ، وهي تؤمن أشد الايمان بالعلم الغربي، وتتحمس له وترى "أن داروين كشف لنا سـرّ الحياة، وارتاد فرويد أنفسنا وهتك أسرارها، وألقى أنشتين، وأترابه الضوء على الكون فانجاب ما كان يغلفه من ظلام." (٢)

وآني بالاضافة الى ذلك فتاة جميلة، تمارس الرقص والبغاء لكي تصبح غنية . ولهـا من التجارب القاسية المريرة ما يفسّر حبها لحياة اللهو، وشدة اقبالها عليها . فهي تتساءل "أين كان الله يوم كنت طفلة غريرة لم أبلغ الثانية عشرة، وجاء الي جنـدي من جنود الحلفاء فأغراني بطعام لذيذ وشراب جعل الدفء يسري في عروقي . ثـم راح يعبث بي، وليته اكتفى بذلك بل أخذني الى رفاقه السكارى، وخلع عني ثيابـي وأوقفني بينهم عارية، حتى اذا دارت رؤسهم قاموا اليّ كوحوش كاسرة، ولم يتركونـي الا وأنا أكاد ألفظ الروح . انّ ما رأيته من أهوال لا يمكن أن يراه اله ويسكت عنـه فلو كان الله موجودا لما سكت على ما في الأرض من شرور." (٣) ،

فآني وصلت الى هذه الآراء بفعل العوامل الاجتماعية المختلفة التي اسهمت فـي تكوينها النفسي والفكري، فهي محرومة من الحنان، فقيرة، مشردة، ولا ريب أن اختيار السحار لمثل هذا النموذج المتطرف، يكشف عن رغبته في تجسيد العلاقـة

---

١) عبد الحميد السحار، جسر الشيطان، ص ٣١، ٤٦، ١١٢، ٤٨، ٤٩

٢) المصدر نفسه، ص ٥٠

٣) المصدر نفسه، ص ٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحضارية في واقعها ،وكما ينبغي أن تكون. فانّ اقامة حوار بين علي وآنـــــي يبدو للوهلة الأولى مستحيلا. ولكنّ السحار أصر على اكماله لكي يصل الى غايتـه ولهذا كانت العلاقة بين علي وبين آني في بدايتها علاقة حوار لا علاقة حب، لأنّ عليا بمواصفاته الفكرية لا يمكن أن يحب بغيا، وهذا يؤكد أن الجمع بينهما لم يكن الا بقصد اقامة مثل هذا الحوار الحضاري.

" قال في هدوء : لقد وجدتك وهذا يكفيني ولن أبحث عن مجربة أو غريرة، غدا في الخامسة سأمرّ عليك. أتأذنين." (١)

كان هدف علي من هذا الحوار الحضاري، اعادتها الى حظيرة الايمان بالـــروح وبالقيم الروحية المختلفة. ولكنّ عليّا في أثناء ذلك كان يمرّ في مزلق صعب، فقد كان عليه هو الآخر أن يثبت استاذيته، بأن يقاوم اغراءها الجنسي الكبير، ولقد استشعرت آني هذا التميز، من خلال تلك الحوارات الكثيرة التي دارت بينهـــا وبين علي أو بينها وبين نفسها. فهي تشعر " أن ذلك الرجل القادم من الشـرق يختلف كل الاختلاف عن ماكس وعن كل الرجال الذين دخلوا حياتها. انه نســيج وحده، فطالما خيل اليها أنه من عصر غير هذا العصر، وأنه وجد على الأرض مـــن قرون ثم بعث اليوم، فحديثه غريب تفوح منه رائحة القدم، ولكنها في قرارتها ترتاح اليه، وان جادلته وعارضته وسخرت منه أحيانا." (٢)

ولكنّ عليا لم يستغل هذا الشعور بالتميز، كما فعل علاء في " قدر يلهو" بل اســتغله في سبيل تأكيد الفكرة التي يحملها. ولذا استجابت له آني وبدأت تتغير رويدا رويدا

---

١) عبد الحميد السحار، جسر الشيطان، ص ٣٣

٢) المصدر نفسه، ص ١١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على شتى الأصعدة، فبدأت تشعر بوجود القيم المعنوية " فقد كنت أومن أن العالم كله شرور، واذا بهذا الرجل يغرس في ايمانا جديدا بأن الخير موجود ."(١)
وبدأت تفكر في قراءة الكتاب المقدس(٢)، وفي زيارة الكنيسة(٣). وهي اذا قالت لعلي في البداية، عندما نصحها بالذهاب الى الكنيسة " سأذهب الى الواعظ، فأخلع ثيابي وأخطر أمامه وأرى ان كان يستطيع أن يقاوم اغرائي. سأصرعه حتى ان كان رجلا ."(٤)، فانها قد خرجت بعد ذهابها اليها وهي " سعيدة لأني وجدت نفسي، كنت ضالة في أعماق الحقد، أعمت قلبي البغضاء، واذا بالمحبة تنير بصيرتي ."(٥)
وتكشف المحصلة الختامية عن انتقال آني من عالم المادة الى عالم الروح، فلقد أفلح علي في فتح عينيها " على عوالم جديدة زاخرة بغموض لذيذ تهفو اليه النفوس، وترتاح اليه الأفئدة المثقلة بالهموم والغواية ."(٦)، ومن هنا ولد هذا الحب الذي تصفه آني بأنه "حب روح لروح، انه كائن بين المعلم وتلميذه، بين صاحب المذهب ومريده ."(٧)
واذا كانت مارى في الرواية السابقة تلتقي باسماعيل لقاء الوداع، وتمنحه نفسها، وتتمنى أن تلقاه في مصر. فهي تفعل ذلك لكي تؤكد في نفسه الشعور بأن الحضارة

---

١) عبد الحميد السحار، جسر الشيطان، ص ٨٧
٢) المصدر نفسه، ص ١٠٢، ص ١٣٣
٣) المصدر نفسه، ص ١١٣
٤) المصدر نفسه، ص ١٣١
٥) المصدر نفسه، ص ١٤٢
٦) المصدر نفسه، ص ١٥٩
٧) المصدر نفسه، ص ١٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغربية ما زالت ذات أثر كبير في نفسه، ووجدانه، ولكي تؤكد استاذيتها له أيضا.

فانّ آني تفرّ من وجه علي في اللقاء الأخير، حتى لا تدع للشيطان أن يقيم الجسور بينهما، وحتى لا تحطّم بجسدها ما بناه علي في عالمها الروحي. ولذا فانّ النموذجين السابقين، يذكران القارئ باسطورة بجماليون، فلقد كانت مارى صانعة ماهرة، وكان علي صانعا ماهرا، مع الفرق بين الصنيعين.

* * *

واذا كانت مارى قد قامت بدور المعلّم بالنسبة لاسماعيل وبخاصة في فتح عينيه على حضارة الغرب، وفي القدرة على التعامل معها. فانّ جانين قد قامت أيضا بهذا الدور، مع الاختلاف الشاسع في الطريقة وفي النتيجة على حد سواء. يلتقي بطل "الحي اللاتيني" بجانين بعد تجارب فاشلة كادت تسلبه ثقته بنفسه، فكان لقاؤه بجانين أمرا ردّ له هذه الثقة الضائعة. ومع ذلك فقد كان اللقاء بينه وبين جانين يحمل نوعا من التكافؤ النسبي يختلف عن اللقاء مثلا بين اسماعيل ومارى، أو بين علي وآني، ولذا اتخذت العلاقة بينهما شكل علاقة حب لها كامل الأبعاد. فلقد فجّرت العلاقات التي أقامها احساسا عميقا بالدونية في نفسه، رغم أنها أشبعت طاقته الجنسية الا أنها أيقظت في نفسه شعورا بالدونية، "وحتى تلك الحاجة التي كانت تأكل جسده". أتراه قد بدأ يشبعها كما كان يتمنى. أكان فيها غير رغام؟ وهل؟ مادة قذرة أي احساس أيقظته في جسمه وفي نفسه هاتان المرأتان اللتان استسلمتا له منذ اللقاء الأول؟ هل أحسّ لاحداهما بأية عاطفة؟ هل اهتزّ في قلبه لهما وتر؟ ماذا؟ ألمثل هذا اذن قدم الى هذه البلاد وغادر ذلك الوطن.؟"(١)، ولذا كان القلق يسيطر على حياته في تلك الفترة سيطرة تامة،

---

(١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٧٦، ٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبدأ يشعر بعزلة عن كل ما حوله .

صحيح أن الكتاب قام بدور تعويضي الا أن هذا الدور ظاهري لا يؤدي ما هو مطلوب منه الا من الناحية الشكلية ، "كان يعيش حينذاك داخل نفسه ، أما الكتاب الذي يقرأ فيه فلا يفهم فليس الا تعلة . فليوصد الأبواب دون كل زائر ، أو فليفتحها لكل فضولي ، وليراكم حوله أطنان الكتب ، أو فليخفها عن عينيه ، فليست هذه القشور ببالغة منه شيئا ولا مفر له من أن يستسلم لهذا الانطواء ." (١) ، ولم يفلح أحد قاؤه في اخراجه من هذه العزلة ولا سيما عدنان ومجي " ولعل ما زاده رغبة يصيبان في هذه العزلة يقينه أن صديقيه في علاقتهما الجديدة بالمرأة مالم يدركه هو ." (٢) ، ولكن الذي أفلح في كسر طوق هذه العزلة ، شاب سوري تعرف اليه في مطعم لوى غران ، ولعل علاقته بهذا الشاب (فؤاد) ، تكون بمثابة بؤرة تجمع تنطلق منها بقية العلاقات الأخرى . فاذا كان عدنان ومجي لم يفلحا في اخراجه فلأن منهجهما في التعامل مع الحضارة الغربية لا يلتقي بمنهجه " ان مجي وعدنان رد فعل سلبي ازاء الحضارة الاوروبية فهما يتخبطان بين هوامش المرأة ." (٣) وهذا التخبط هو أهم باعث من بواعث عزلته ، وهو لا يريد أن يخرج من عزلة الى أخرى . فكان فؤاد القادر على أن يخرجه من هذه العزلة ، بسبب الروابط الفكرية والروحية التي ربطت بينهما .

واذا كانت بذور علاقته مع جانين قد نمت قبل أن يتعرف الى فؤاد ، فان هذه البذور كانت ستموت لو لم يشجعه فؤاد . ولعل المدلول الرمزي

---

١) سهيل ادريس ، الحي اللاتيني ، ص ٨٤

٢) المصدر نفسه ، ص ٨٤

٣) غالي شكري ، أزمة الجنس في القصة العربية ، ص ١٧١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لذلك لا يخفى . فكان تعرفه الحقيقي على جانين (وهي رمز للحضارة الغربية) ، بعد أن اكتشف فؤادا (وهو رمز للفكر القومي العربي) ؛ وكانت مواجهته للحضارة الغربية تحاول التوفيق بين هذين البعدين ؛ كانت علاقته بجانين في المرحلة الأولى ، قوية ، حارة ، استغرقت جوانب حياته المختلفة . فقد توفر فيها صفات كثيرة تشجع مثل هذا الاستغراق ، فهي جميلة وذكية " تفوقه في سرعة ادراكها واصدارها للدقيق من لمعات الذهن والحاد من شرارات الشعور . "(١) ، وهي مثقفة ثقافة فنية " تتذوق الأثر تذوقا مرهفا . "(٢) ، وهذه الجوانب هي الجوانب التي يبحث عنها بطلنا لكي تكتمل علاقته بالمرأة ، فلا تقتصر على الحسية الغليظة ، أو الجنس فقط ، من هنا استغرقته هذه العلاقة وصرفته عن أصدقائه بما فيهم فؤاد ، حتى شعر بالخجل " أي حب هذا ! بل أي فتاة هي جانين لتصرفه عن ذلك الصديق الذي استأثر بفكره وعاطفته جميعا منذ أيام قليلة ؟ لقد كان يحس بغموض أن صديقه يشق له آفاقا جديدة من وجوده كان ينشادها ضباب كثيف ، أيكون هذا وهما استحوذ عليه اذ ما كادت جانين تدخل حياته حتى غابت تلك الآفاق . "(٣)

ولا تخفى دلالة هذه الأسطر . فانّ الغرب المثل بجانين استطاع أن يصرفه بشكل مؤقت عن الاهتمام بهذه الآفاق الجديدة ، في عالم الفكر القومي ، التي فتحها فؤاد . من هنا كان حبها يحمل شتى أنواع التضادات في بذوره الأولى . ولذا فهو لم ينس أصدقاءه فقط وانما نسي أمه في لحظة مرضها الشديد . وهذا يعني أن جانين كانت نقيضا لكل هؤلاء ، وكان علي

---

١) سهيل ادريس ، الحي اللاتيني ، ص ١١٦ ، ١١٧

٢) المصدر نفسه ، ص ١١٦

٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بطل الرواية أن يحتفظ بالطرفين دون أن يطغى أحدهما على الآخر. وعند ما يتساءل بطلنا "أنىّ لأمه أن تقره على شيء من هذا؟"(١)، فهو يشير الى التضاد بين جانين وأمه (وهي تمثل الوطن)، قبل أن يقع من هنا لم تكن ثمة مشكلة في علاقته بجانين وهو في باريس اذن أن هذه العلاقة هنا تأخذ بعدا جماليا، يتحمس له بطل الرواية، لما فيه من تحقيق لشتى هواياته.

ولكنّ المشكلة الكبرى هي استمرارية العلاقة، ودوامها، فانّ بطل سهيل ادريس يريد لها علاقة عابرة ولذا قال لها وهو يحسب نفسه وفيا: "أعاهدك يا جانين على أن لا أدعك بعد الآن، ما دمت في باريس."(٢)، وهذا يطرح مشكلة المستقبل، بكل ما في هذه المشكلة من أبعاد، ومن ثم تتحول هذه المشكلة الى شبح يدمّر هذه العلاقة، ويلقي شبح الأم أيضا ظلا مزعجا، ينبئ بعدم استمرارية هذه العلاقة ويؤكد كونها عابرة. فعندما فكر في زواجه من جانين "سرعان ما طفرت الى ذهنه صورة أمه، وأحسّ بضيق شديد يأخذ بخناقه، ينبغي أن ينحيها الآن على الأقل هذه الفكرة الكابوس."(٣)، فالزواج مستحيل، لأنّ الأم تشكل التضاد الذي يصطدم بجانين ويدمر علاقتها بابنها، ولذا تكون الأم حريصة على أن تذكره بأنها تخشى "أن يصرفك الغرب عنا، وأخشى فوق ذلك أن تسحرك امرأة من هناك فتقع في شباكها، وتخيب أمل أمك الصغيرة بك."(٤) ولعلّ نهاية العلاقة بينهما تحمل أكثر من دلالة، فهي لم تحدث في باريس،

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ١٢٧

٢) المصدر نفسه، ص ١٤٩

٣) المصدر نفسه، ص ١٧٢

٤) المصدر نفسه، ص ١٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم تحدث بسبب خلاف أيا كان نوع هذا الخلاف، (كما حدث بين فرانسواز وفؤاد حول وجهة النظر القومية) ، ولكنها حدثت في بيروت، تحت ضغط كبير من أمه التي تمثل الشرق العربي كما يراه المؤلف في تلك الحقبة. ورغم أنّ الجوّ العام الذى كان بطل الرواية يعيشه في بيروت يتضح بالعداء تجاه جانين، وبالرغم من شعور بطل الرواية بالغربة، نظرا للازدواج في المشاعر وبالرغم من خضوع رسائله للتفتيش، والمراقبة من قبل أمه، ولم يمض على وصوله ساعات، الا أن رغبة البطل في انهاء العلاقة كانت قابلة للمناقشة، انّ رسالة جانين الأخيرة التي سببت له كل هذا الذعر، لا تكاد تختلف عن رسائلها السابقة، الا في كونها تحمل نبأ أنها أصبحت أما وأنها مستعدة أن تقدم على جميع التضحيات وتواجه جميع مخاطر الاجهاض اذا طلب منها ذلك. (١) ، ومع ذلك فان بطل الرواية يشعر "بالاضطراب ممثوثا في كل ركن من أركان نفسه، ليس هو اضطرابا على التحقيق، بل هو ذعر مروع." (٢)

انّ الذى يفسر مثل هذا الذعر هو تحول العلاقة وانتقالها من علاقة ذات أبعاد جمالية لا دليل عليها، الى علاقة بيولوجية لها طابع قانوني. هذا على المستوى الظاهرى. أما على المستوى الرمزى، فانّ علاقته بالحضارة الغربية قد انتقلت من العلاقة العابرة، الى العلاقة الدائمة، وهذا ما يرفضه هو وأمه على حد سواء. وقد كانت القيم ذريعة مقبولة لا لتحطيم هذه العلاقة فحسب، بل للهروب من آثارها المختلفة. ان كون جانين مخطوبة قبل أن يعرفها يعني أنها لم تكن بكرا، وكونها غادرت قريتها شبه مطرودة، يعني أنه لا أهل لها، وكونها تكسب عيشها من العمل في مخزن يعني ذلك سبة وعارا، وكونها مسيحية، يعني أنها

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٢٣٠

٢) المصدر نفسه، ص ٢٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من غير دينه، وهذا الأمر يعني "اى فضيحة، وأى عار سينصب على بيتنا ."(١)
أما عن كونها حاملا، فهذا لا يعني أبوته لهذا الجنين، لأنّ هنرى قد زارها في العاصمة ورفضت الاجتماع به كما قالت " وما يدريك أنها لم تدعه هي نفسها الى العاصمة ... الا تعلم أن المرأة تحن دائما الى أول رجل عرف جسدها ."(٢)

وواضح أنّ مثل هذه المعلومات لا تملكها الأم، ولذا فهي تمثل ردة وانقلابا في موقف البطل لا يفسره الاّ خوفه من دوام العلاقة. ولعلّ حيرته في تحديد مصدر التكلم " هي التي تكلمت، أم هو، أم شخص آخر لا يعرفانه، انه لا يدرى، لقد سمع كلاما، ولا يدرى أسمعه بأذنيه أم بأعماقه ."(٣)، لعل هذه الحيرة تكشف عن قابليته للوصول الى مثل هذا الموقف، نظرا للازدواج في موقفه من جانين ومن الحضارة الغربية عموما. من هنا كان خطابه لها صاغا بلغة قانونية حذرة " هي أقرب ما تكون الى بطاقة مفتوحة مرسلة بالبريد المضمون، دبجتها براعة محام أريب، يريد أن يدفع عن موكله، لا كل تهمة فحسب، بل كل شبهة أيضا ."(٤)

أما عن عودة بطل الرواية الى باريس للمرة الثانية، فهي عودة ذات بعدين: البعد الاول: هو شروق الفكرة القومية، وتحققها في داخله، بانتقالها من مرحلة الفكرة الى مرحلة التحقق، فبعد أن كان يستمد الزاد الفكرى من فؤاد، أصبح قادرا على التفكير المستقل في الخط الفكرى نفسه، ولذا يقترح انشاء " رابطة الطلاب العرب في باريس" لتكون معبرة عن الأفكار القومية، وحربا على النزعات الاقليمية كالفنيقية والفرعونية وغيرها .

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٢٣٢
٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٢
٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٣
٤) جورج طرابيشي، شرق وغرب، رجولة وانوثة، ص ١٠٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما البعد الثاني : فهو أفول سحر الحضارة الغربية وفقدانها لقدرتها على التأثير في نفسه ، فقد وصل بطلنا الى باريس أول مرة وهو تواق الى الاندماج والانصهار في توتقة الحضارة الغربية ، ينتظر لحظة اللقاء مع المرأة بفارغ الصبر ، أما في المرة الثانية فقد أصبح مثل صديقه واستاذه فؤاد اذ " أضحت المرأة أحد همومي ولكنها ليست همي الرئيسي ."(١) ، ومن الواضح أن أفول سحر هذه الحضارة في نفسه قد سبب نسيانه لجانين ولكل ما يتعلق بها (باعتبارها محور اهتمامه) . ولذا ترك أمر لقائها ، وانكب على رسالته يدفعها الدفعة الأخيرة نحو غايتها حتى " أحس بعد ثلاثة أشهر أن حمى العمل والرغبة في انجاز الرسالة قد استغرقته في جوّ من الانعزال صرفه عن كل ما حوله ."(٢) ، وكذلك " لم تفته يوما محاضرة من محاضرات الرابطة ."(٣)

انّ لقاءه الأخير مع جانين قد تمّ . بعد أن حقق عدة أشياء ، منها أنه حصل على درجة الدكتوراه في الآداب ، واكتشف البعد القومي في ذاته الذي كان مدونه ضائعا ، وأصبح يتعامل مع الغرب تعامل الند للند ، يأخذ الجيد ، ويرفض القبيح ولا سيما الاستعمار .

أما جانين فقد انحدرت حتى أصبحت بغيا ، ولهذا فحين عرض عليها الزواج ، لم يكن ذلك حبا بل كان شفقة . فقد فقدت جانين سحرها " كانت تنتعل حذاء مسكينا ، وحين رفع عينيه ، التقتا بعينيها ، عينيها الزرقاوين الشفافتين ، كم كانتا مجهدتين ، لكأنها استبدلت بهما سواهما ."(٤) ، ولذا هربت ، ورفضت الزواج منه ، لأنهما كانت في طريق الدمار بينما كان هو في بداية الحياة والبناء . فهي تقول له : " ولكن يخيّل اليّ أن الجذوة التي كانت تطل من ناظريك هي أشد التهابا

---

١) سهيل ادريس ، الحي اللاتيني ، ص ٢٦١

٢) المصدر نفسه ، ٢٦٠

٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦١

٤) المصدر نفسه ، ص ٢٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واشعاعا من جذوة فؤاد تلك التي حدثتني عنها مرة في معرض الاعجاب، انك انسان جديد يعرف الذى يريده، ويسعى اليه بثقة وايمان. لا يا حبيبي، لسنا على صعيد واحد، لقد وجدت أنت نفسك بينما أضعت أنا نفسي، فكيف تريدني أن أستطيع السير الى جانبك قدما واحدة، في الطريق الشاق الذى ستسلك؟ انني لا أنتمي الى جيلكم، جيلك، وجيل فؤاد، وربيع وأحمد وصبحي وعدنان، لا لن أذهب معك، انّ بوسعي الآن أن أتمثل نفسي اذا رافقتك. ستجرجرني خلفك. سأعيق طموحك، سأكون أنا في السفح وتكون أنت في القمة، فامض قدما يا حبيبي، ولا تلتفت الى ما وراءك."(١)، انّ هذه السطور تكشف عن بداية نهضة الشرق العربي، وبداية سقوط الحضارة الغربية. من هنا فالعلاقة بين بطل الرواية وبين الغرب "هي علاقة عابرة علاقة تماس لا تهدف سوى الى تأكيد الذات، وبعدها العودة للشروع في الثورة القومية .... هذه العلاقة العابرة لا تتوقف عند المرأة وهي حتى في توقفها عندها تتجاوزها لتصل الى الذات."(٢)، ولذا فان أول يد يصافحها عند العودة تكون يد فؤاد التي شعر أنه صافح فيها ألوفا من الأيدى في كل ركن من بلاد العروبة.

* * *

أما العلاقة بين سامي وأندريه في "المتميّز"، فهي علاقة ذات أبعاد حضارية تلتقي بعض الشيء بعلاقة بطل "الحي اللاتيني" بجانين، ولكنّ الاختلاف بينهما يكمن في طبيعة علاقتهما بالماضي، فانّ بطل "الحي اللاتيني" يحن الى ناهدة(٣)، وهذا الحنين يظهر في لحظات الجذب العاطفي، فيأخذ شكل حب رومانسي، تنسج ذكرياته على أنغام موسيقى شوبان. ولكنّ صورة ناهدة الحقيقية تغاير ذلك التصور

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٢٨١،

٢) الياس خورى، تجربة البحث عن أفق، ص ٢٣

٣) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ص ٧٨ - ٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السابق فهي كالمرأة الشرقية في رأى بطل الرواية - " تخاف الرجل ، تخاف الكائن الذى ينبغي أن تثق به ، لأنها تخاف الجسد الذى ينبغي لها أن تحبه ." (١)

ولعلّ طبيعة اللحظتين في الرواية وما بينهما من اختلاف هو الذى رسم لنا هذه الصورة المتناقضة ، فبدت لنا محببة في الصورة الأولى ، بغيضة في الصورة الثانية ، ولذا فانّ حنين بطل الرواية الى ناهدة ، كان حينئذ بسبب فشله في الاندماج مع الحضارة الغربية ، أمّا الصورة النقيض فجاءت بعد علاقته بجانين - بعد العودة الأولى للوطن - وكان قد تغير تغيرا جذريا .

أما علاقة سامي بماضيه فهي علاقة ذات أبعاد مغايرة تماما . فان علاقته بنوال هي المفتاح الذى يفسر بقية علاقاته . فلقد كان يعيش في ألمانيا وهو يحس بالغربة الحضارية " لا أريد أن أسمع هؤلاء الناس يتكلمون ، ليس هناك ما هو مشترك بيننا ويمكن أن نتكلم عنه ، هذه هي الحقيقة ، أخشى أني فقدتهم الى الأبد اولئك الذين سيفهمونني لو تكلمت." (٢) ، فهذه الغربة الحضارية التي وصل اليها ذات بعدين سالبين ، فهو في البعد الأول عاجز عن التعامل مع حاضره ، لأنّ كلا منهما رافض للآخر ، نظرا لانعدام جسر الحوار ، وفي البعد الثاني يفيء الى الماضي لأن فيه من يهتم بكلامه ، ومن يفهمه أيضا ، كما جاء في رسالته لنوال " انظرى انهم لا يأبهون لما أقول ، فهم لا يفهمون ." (٣) ، ولكنه عاجز عن التواصل مع هذا البعد أيضا .

في ظل هذه الظروف ، ولدت علاقته القصيرة بأندريه ، المرأة الفرنسية التي تعيش في ألمانيا . ومن الطبيعي أنّ هذه العلاقة محكومة بالظروف التي ولدت فيها ، وهي لذلك لا تملك القابلية للنمو والاستمرار . من هنا كان سامي واقعا تحت تأثير التفكير الرغبي في اقامة هذه العلاقة . فاذا كان طيف نوال يلاحقه في صور شتى ،

---

١) سهيل ادريس ، الحي اللاتيني ، ص ٢١٤
٢) محمد عيد ، المتميز ، ص ٥٤
٣) المصدر نفسه ، ص ٥٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلا بدّ أن يميل الى أندريه " لأنّ لها طريقتها في الحديث. "(١) ، ولمسة اختلاط ملامحها بنوال في لحظة الجنس، وهي هنا لحظة لا واعية يكشف عن هذا الميل، " حملتها الى الأريكة الموضوعة في غرفة الجلوس، دون أن يلفظ أحدنا بكلمة، وعلى صوت فيروز، اختلطت في ذهني الصور، كنت أراها أحيانا أندريه، وحين تغمض عينيها أراها نوال وأحيانا أخرى امرأة مصرية في السادسة عشرة. "(٢) انّ عدم مقدرة سامي على التحديد " هل هذه المرأة أجنبية أم عربية. "(٣) ، يعود الى ذلك الوضع النفسي الذى كان يستشعره، ولذا كانت علاقته بأندريه جسرا عبر عليه الى التوافق مع الحضارة الغربية، فقد حملت أندريه عبر شخصها عناصر الطمأنينة الى حياة سامي المشحونة بالقلق. فهي تملك شقة فخمة، وسيارة حديثة، ولا ترى مانعا في أن يشاركها سامي هذا النعيم. ولذا فكر بأن يعرض عليها الزواج، " سأربط نفسي بها الى الأبد. "(٤) ، ولكنّ قابلية النمو في هذه العلاقة غير موجودة، وقد أدركت المرأة ذلك، فانتهت هذه العلاقة. ولنترك أندريه تتحدث: " وجدت نفسي أحمل جنينا في أحشائي منذ أربعة أشهر. كان سيكون حدثا سعيدا في حياتي في ظرف آخر، ولكن ... كل منا سيعود الى الجنين لموطنه، حينما يفكر عمليا في الاستقرار، انك لن تتنازل، وكذلك أنا، ولو أنني أقول هذا للمرة الأولى، سأتخلص منه ذلك المخلوق الذى سيأتي مشوها. "(٥) وهذا يعني أنّ اللقاء الدائم، لا يتم الا بتنازل أحد الطرفين، وعندئذ يجيء اللقاء مشوها لأنه لا يمثل وعيا حضاريا بالقدر الذى يجسد حالة منتصر ومهزوم.

---

١) محمد عيد، المتميز، ص ٦٠

٢) المصدر نفسه، ص ٦٤

٣) المصدر نفسه، ص ٦٤

٤) المصدر نفسه، ص ٧٤

٥) المصدر نفسه، ص ٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا ريب أنّ موقف أندريه يمثل حالة التقابل التام مع جانين في " الحي اللاتيني " فاذا كانت جانين تحمل اثر علاقتها ببطل الرواية، فانها تتصاع انصياعا تاما لرغبة البطل، ولكنه هو الذى يتنكر لها، ولحطها، في حين ترفض أندريه تقديم مثل هذا التنازل، وتراهن على موقف سامي سلفا. ومن هنا ولد قرار العودة " اني صفر اليدين تماما. كل شيء حولي يبعث على التقزز، ولا مجال لندم أو تمني أو حتى قول شيء. اذا كان يجب أن أبدأ من جديد، فلن يكون ذلك هنا. "(١) واذا كان بعد عودته الى الوطن يتزوج نوالا، فانها تحقق حالة أندريه، على نحو من الا نحاء، فهي تموت في لحظة الولادة. ويصاب سامي بانهيار عصبي. فالبطل متميز بفشله على شتى الأصعدة، ويعود ذلك الى حالة التمرد التي يحياها هنا، والى طبيعة الرؤية الفردية التي يحرص على أن يميز نفسه بها.

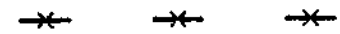

أما العلاقة الحضارية في رواية فاضل السباعي " الظمأ والينبوع"، وعيسى الناعورى " ليلة في قطار" فهي تشكل نمطا متشابها يلفت النظر، بالرغم من الفرق الشاسع في طبيعة بناء الروايتين، ومن الاختلاف أيضا في أسباب التوجه، وطبيعة الرؤية الموضوعية عند الكاتبين. فبالرغم من وجود فاصل زمني بين الروايتين يصل الى عشر سنوات(٢)، فان كلتا الروايتين تدور حول فكرة متشابهة وهي لقاء الرجل الشرقي بالمرأة الغربية في غرفة مغلقة. ولذا فانّ من الممكن أن يصف الباحث هاتين الروايتين بأنهما من الأدب المكشوف، ولكن هذا الوصف غير دقيق، لأنّ الروايتين كتبتا لتثبيت مكارم الأخلاق عند السباعي ولتصويرها عند الناعورى. فهما

---

(١) محمد عيد، المتميز، ص ٧٧

(٢) كتبت رواية فاضل السباعي "الظمأ والينبوع" في ايلول سنة ١٩٦٣، وصدرت الطبعة الثانية منها عن دار الاداب، بيروت، سنة ١٩٦٤، أما رواية الناعورى "ليلة في قطار" فقد كتبت سنة ١٩٧٣، وصدرت الطبعة الاولى في عمان عن دار فيلادلفيا سنة ١٩٧٤م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

روايتان أخلاقيتان ، الأولى بالتحقق ، وبالحفاظ على الأخلاقيات الموروثة ، والثانية بالبعد الذى تشير اليه ، وتبشربه ، وهو الايمان بأخلاقيات الغرب ، ولكن السؤال الذى يثار هنا ما طبيعة الحوار الحضارى الذى يكمن في هاتين الروايتين ؟ يجيب السباعي " وانما الذى خرجت به ... كان عزما قد صحّ عندى على اعادة وضعها مطولة تشبيتا للمثل الخلقية التي آمنت بها ." (١) ، ويرد الناعورى قائلا : " أردت أن أقدم عملا روائيا يتميز بالصراحة والجرأة - ربما غير المألوفة عندنا - في معالجة المفاهيم ، والتقاليد ، والأخلاق ، وفي المقارنة بين البيئتين الشرقية والغربية ، بين الجمود والتزمت ، والحرية والتحلل ، بين التمرد والتشدد ، وبين الرياء والصراحة " (٢) فالقاسم المشترك بين الروايتين هو التمحور حول القيم ، وجعلها مركزا للصراع بين الشرق والغرب . ولذا فالسباعي والناعورى يسلكان طريقا واحدة ، ولكنهما يختلفان في تفسيرهما . فعندما يلتقي سامي في رواية السباعي بالمرأة الألمانية هيلغا ، زوجة صديقه اوتوميلر في بيتها وزوجها غائب ، وتراوده عن نفسه فيصمد ، ويصمد سعيد كذلك في رواية الناعورى عند لقائه بالمرأة الايطالية لوشيا في غرفة من غرف القطار ، ويخرج من التجربة منتصرا ، يكون صمود سامي على حد تعبير أحد نقاد الرواية " أقوى تعبير عن حقيقة الأصالة في كيان الانسان العربي المعاصر ." (٣) ، ويكون صمود سعيد أكذوبة يريد مؤلف الرواية أن يكشف من خلالها زيف النماذج الروائية التي تدعي مثل هذا الصمود " فما يمكن أن يتعرض رجل لمثل الموقف الذى تعرض له هذا البطل الشرقي ، ثم يخرج من المعركة العنيفة منتصرا على التجربة كما انتصر بطل الرواية ." (٤) ، وبالرغم من هذا الاختلاف الجذرى في الرؤية وفي الموقف من القيم ، فقد تحدثا من خلال منظومة متشابهة من القيم ، عبر شخصيات يشكل التضاد

---

١) فاضل السباعي ، الظمأ والينبوع ، المقدمة ، ص ٨

٢) عيسى الناعورى ، ليلة في قطار ، المقدمة ، ص ٨

٣) ممدوح مولود ، رأيان في الظمأ والينبوع ، الاداب ، العدد الثالث ، ١٩٦٥ . ص ص ١٠١ - ١٠٢

٤) عيسى الناعورى ، ليلة في قطار ، المقدمة ، ص ٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيما بينها ، ضرورة لاستمراريتها .

انّ الملامح الداخلية لكل من سامي وسعيد تتشابه ، وكذلك تتشابه ملامح هيلغا ولوشيا . ففي الوقت الذى يكون فيه سامي وسعيد ممثلين للحرمان الجنسي ، والخضوع للقيود والميل نحو التحريم ، والتركيز على الوعظ الأخلاقي ، والتمسك التام بالوفاء للخطيبة أو للزوجة . تكون هيلغا ولوشيا ممثلتين للانفلات ورفض الخضوع للقيد ، وتجسدان الاغراء والحنان على الخيانة . واذا أردنا أن نجسد العلاقة الحضارية أو نبسطها قلنا انّ هيلغا ولوشيا تمثلان الشر ، في حين يمثل سامي وسعيد الخير . ولمّا كان من طبيعة الأشياء أن يقوم الصراع بين الشر والخير ، وأن يشحذ الشر جميع أدواته لكي يدمر الخير ، فانّ من الطبيعي أن يكون دور لوشيا وهيلغا مدمرا .

واذا أردنا التوضيح قلنا انّ التمزق بين الانتماء الى قيم الغرب وأخلاقياته أو الانتماء الى قيم الشرق وأخلاقياته هما قطبا هاتين الروايتين . ولذا فانّ هاتين العلاقتين تخلوان خلوا تاما من الحب ، وتستبدلانه بالشهوة الجنسية ، اذ ليس من المعقول أن يوجد الحب في مثل هذا النمط من العلاقات ، لأنها علاقات عابرة ، والحب يصبو للتعمير ، ولأنّ هذه العلاقات مبنية على التضاد أساسا والحب توافق . ثم انّ الشهوة الجنسية دلالة واضحة على الصراع والتمزق ، ورمز معبر عنه ، فهي ثورة داخلية مخفية لا تبدو للعيان ، وهي امتحان حقيقي لمصداقية الانتماء الى القيم التي يدافع عنها البطل الروائي . ولذا فهي تجسيد لصراع الخير والشر ، التسامي ، أو الهبوط ، وهي مفتاح ناجح لكي يأخذ الصراع بعدا خصبا لما تتمتع به من شمولية ، وقدرة على الاثارة . ولهذا ينطلق

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الروائيان من النقطة نفسها وهي كون البطلين يعانيان حرمانا جنسيا فسامي يصيح " محروم ! محروم أنا ، لشد ما أكابد في غربتي من الوحشة ومن الشوق ومن رهق العمل والتعليم، محروم أنا لشد ما ضل به السير في صحراء حرمانه ، حتى اذا دنا من الواحة المخضوضرة من الينبوع الثر انتفض مذعورا مثل عصفور اجتاحته بغتة عاصفة هوجاء." (١) ، أما سميد فهو يعترف قائلا : " انّ الجوع الجنسي يعربد في جسدي عربدة صاخبة مجنونة ، فيصده حياء الشرق وتقاليده ومفاهيمه الخلقية ، وضربات الضمير التي تهز جسمي كله هزا عنيفا." (٢)

وليس انطلاق الروائيين من الحرمان الجنسي ، من قبيل المصادفة. فانّ عدم وجود الحرمان يصادر كل ما يقال عن الطهر والبراءة ويجعل الصراع مفتعلا . ولذا يستقطب البطلان كل قوى " الخير"، في حين تستقطب البطلتان كل قوى " الشر". فهما يستميلان بطيف الخطيئة أو الزوجة للصمود في تلك المجابهة القاسية . والدلالة الحضارية لذلك لا تخفى . فاذا كان لا بد من الحب، فانّ سامي يحب حبيبته " الشرقية الدافئة، على يدي تفتح برعومها ، فهي لم تعرف من الشباب سواي . لا ولا أثار أشواقها للرجل انسان قبلي أنا الذي أودعت في أذنيها أول همسة." (٣) ، واذا تذكر النساء (رمز الشر) فهو لم يعرف منهن الا " الخير المطلق"، " لقد عرفت منهن الزهرة المكونة : ندى." (٤) ، وهذا يعني أنّ ندى تمثل الوفاء، في حين هيلغا

---

١) فاضل السباعي ، الظمأ والينبوع، ص ١٠٢

٢) عيسى الناعوري ، ليلة في قطار، ص ٩١

٣) فاضل السباعي ، الظمأ والينبوع، ص ٦٧

٤) المصدر نفسه، ص ٦٧ وانظر ص ٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمثل الجسد المستباح "ان العربي الأصيل، يا هيلغا، ان العربي الحر في طبعه أنفة لم أحدثك عنها، انه يأبى الولوغ في اناء يلغ فيه غيره." (١)

وكذلك يفعل سعيد، فهو يفزع الى طيف زوجته وأولاده، يستمد منهم القدرة على الثبات، كما يستنجد بما يحفظه من آيات الانجيل، ليقوى من عزيمته، "كنت أتصور وجه زوجتي هادئا بريئا كوجوه أطفالنا الراقدين من حولها، فاشعر بخجل من أن تضعف نفسي أمام الاغراء والفتنة في هذا الليل الأثيم، الصامت على مكيدة لي، وحباله منصوبة لايقاعي." (٢)

فالاثم المجسد بلوشيا، يقابل بتصويذة الخير التي تملكها زوجته. ولكن فعالية هيلغا ولوشيا تكمن في القدرة على الاثارة والفعل، في حين يكون ضعف سامي وسعيد في كونهما رد فعل. ولقد كان المحور الثاني من محاور الصراع هو الذكورة الشرقية في مواجهة انوثة الغرب.

وهذا مستمد من المفتاح الأصيل وهو الحرمان الجنسي. فقد كان تركيز لوشيا وهيلغا على هذه الناحية كبيرا. واذا تركنا المقولات الشائعة عن تفوق الشرقيين الجنسي، عرفنا أن التركيز على هذا الأمر يؤكد ما قلناه عن طبيعة الحوار الحضاري. فهو حوار يشبه الصراع الى حد بعيد. والهدف منه استسلام أحد الطرفين. ولهذا يكثر الحديث عن ألف ليلة وليلة، وعن حريم الشرق، وعن سحر الرجولة الشرقية. (٣)، في حين يعني سعيد بكلمة الرجل ذلك المخلوق الذي يتحمل الشدائد ويضحي "نحن الرجال خلقنا للتضحية والصبر وجهاد النفس." (٤)، ولا بد أن يكون الكرم من مستلزمات الرجولة "نحن لا نسمح بأن تدفع رفيقاتنا ثمن طعامهن." (٥)

---

١) فاضل السباعي، الظمأ والينبوع، ص ١١٥

٢) عيسى الناعوري، ليلة في قطار، ص ١٠١

٣) انظر ليلة في قطار، ص ٥١، ص ٨٤، ص ٨٦، ص ٨٧، والظمأ والينبوع، ص ١٠٧، ١١٥

٤) عيسى الناعوري، ليلة في قطار، ص ١٥١

٥) المصدر نفسه، ص ٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنّ الوجه الداخلي للشخصيتين يكشف عن ازدواج وضعف فسعيد يؤمن أن أخلاق الشرق صادقة ولكنها مثالية، غير قابلة للتحقق."(١)
ويرى أنّ واقع الشرق يوقوم على ازدواجية " كلهم يعرفون الفضيلة، ويعلمونها لغيرهم ويفاخرون بين الناس - بالقول دون الفعل - أنّ بيوتهم فاضلة شريفة ولكنهم مع ذلك لا يتحرجون في السرّ من ممارسة ما ينهون عنه في العلانية ويمارسونه بنهم وجوع."(٢)، وهو بالتالي معجب بقيم الغربيين، وأخلاقياتهم في السلوك وفي التعامل فهم " صادقون مع أنفسهم، صادقون مع رغباتهم، لا يتكتمون ولا يخجلون مما يفعلون، بينما نحن في الواقع أكثر منهم خلاعة وانحلالا خلقيا بما نمارسه سرا من علاقات محرمة لا يقرها ضميرنا ولا ترضاها أخلاقنا."(٣)، وهو يكاد يستشعر شيئا من النقص ازاء هذه الحضارة ومنجزاتها.
ولكنّ لعبة الازدواج التي يلعبها البطل هنا غير منطقية وغير مبررة، فلقد بنى المؤلف عقدة الرواية بشكل رئيسي على خجل بطلها وصوّره وكأنه يعاني من الفصام. مع أن معرفة سعيد بفصامه تجعله يتحرر من هذا الفصام. فالمعروف أن الفصام يستدعي بالضرورة جهل صاحبه التام به.
من هنا كان الوجه الداخلي لسعيد يكشف عن ميل واضح نحو الغرب، وكراهية شديدة لقيم الشرق. أما سامي فهو يجسد حالة الحائر في تحديد الانتماء، فهو يدافع عن الشرق، ولكنه يتنازل قليلا (فيشرب الخمر، ويقبل هيلغا) ولا يعصمه من اقامة علاقة معها في الواقع الا كون جسدها مستباحا، ولذا يتهم نفسه بالخيانة لأن النزوع نحو الخيانة، ضرب من ضروب الخيانة.

---

١) عيسى الناعوري، ليلة في قطار، ص ١٢٧
٢) المصدر نفسه، ص ١٤٤، ١٤٥
٣) المصدر نفسه، ص ١٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صحيح أنه تزوج ندى، الا أنه ظل يتساءل : "لماذا عففت عن هيلفـــا رغم ما أسرفت في ابداء آيات الفتنة والاغراء؟ أطرح هذا السؤال علـى ذاتي ثم أنثني أفتش في أعماق نفسي عن الجواب الصحيح : هل كانـــت عفة مني ، حقا ، واقرارا بحق المروءة علي لزوجها الصديق الغائب؟ هـل كان وفاء للخطيبة التي عاهدتها بين الدموع والزفرات الحرى على الوفاء؟ أم أن ذلك لم يكن مبعثه سوى الخشية من مفاجأة ما ، وقد ضاق بنا الوقت وأوشك الغائب أن يعود ؟ أم أن ما اعتراني كان نوعا من التهيب أمـام سعادة كنت تمنيت في الخيال الواهم نوالها ، فلما واتتني في الحقيقـة الواقعة على غير ميعاد رأيتني أعتصم بالجبن وألوذ بالفرار؟ لســـــت أدري ، لست أدري !"(١) ، وهذا يعني أن تجربته مع هيلفا ظـلّت تشكل - رغم كونها عابرة - بالنسبة له جزءا كبيرا من ماضيه. فانّ الحـــاح المسألة عليه يؤكد هذه الحقيقة وهي أنه يعيش في ظل نظامين حضاريين. فبالرغم من مرور خمس سنوات على الحدث، وسعادته في حياته الزوجيـــة مع ندى، الا أنه ما زال يصر على معرفة الموانع التي حالت بينه وبيـــــن التجربة. ولقد كانت عفته، ووفاؤه لخطيبته ولصديقه احد الموانع، وهي قيم ايجابية خيرة. وكانت الخشية والجبن أحد الموانع أيضا. وهي قيم سالبة تسلك بصاحبها طريق الخير اضطرارا. وهو ما زال متوزعا بين هاتين الدائرتين.

* * *

---

(١) فاضل السباعي ، الظمأ والينبوع، ص ص ١٤١ - ١٤٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما في رواية جمعة حماد "بدوى في اوروبا"، فمن الصعب أن يقرر الباحث أنّ ثمة علاقة مع المرأة الغربية، تنمو، وتتطور بحرية. لأنّ ثمـــة صعوبات كثيرة تعترض قيام مثل هذه العلاقة، منها افتقار سويلم الى امتلاك ناصية اللغة الألمانية، الأمر الذى حال بينه وبين امكانية اقامة علاقة حرة، كما أنّ جهله بالمكان جعله أسير صاحبه الذى سماه عبد الله لأنه لا يستطيع أن يلفظ اسمه الافرنجي، ولكنّ أهم صعوبة واجهت سويلم، في هذا المجال تعود الى طبيعة الفكرة التي يحملها عن المرأة الغربية. فانّ ثمة توحـــدا بين صورة المرأة الغربية، وبين الشيطان. ولما كان سويلم مسلما "يمسك بنفسه من الانزلاق فيما حرم الله خوفا مما يعرف أنه سيحل به."(١)، فانّ المرأة الغربية كانت تجسد الشيطان الذى يحاول غوايته لكي يفعل ما حرمه الله. ولهذا فلا فرق بين امرأة وأخرى في هذه الرواية فـ (نيلي، ولورا، وماريانا) على درجة واحدة من الشر، ويهدفن الى سلبه "شرفه وسمعته في بلاد الغربة."(٢)

انّ سويلم يرى الشر كامنا في جميع مظاهر الحضارة الغربية فهي حضارة "لا تعترف بالحلال والحرام."(٣)، تتناقض كلية مع حياة الشرق، وحضارته. ولعل وصايا سويلم للطلاب العرب تجسد خوفه من هذه الحضارة "يا شباب أنا أنصحكم، الغريب يكون أديب، كان الله في عونكم من هذه البلاوى، وأنا أنصحكم أن ترجعوا الى بلادكم قبل أن تحشروا مع هؤلاء الناس وجعل يحوقل."(٤)

---

١) جمعة حماد، بدوى في اوروبا، ص ١٢٨

٢) المصدر نفسه، ص ٩٥

٣) المصدر نفسه، ص ٢١٠

٤) المصدر نفسه، ص ٢١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنّ عنصر الخير في هذه الحضارة يتمثل أكثر ما يتمثل في مريم. واذا كان القاص لم يبلور شخصيتها على الصعيد الفني، فان مريم على صعيد المضمون تمثل الطهر الآتي من الشرق، القادر على انقاذ حضارة الغرب من شرورها وفسادها.

" فعلى الرغم من أن سويلم لا يثق كثيرا بالنساء، فانه أحس بشيء يرغمه ارغاما على احترام هذه الفتاة اللينة الناعمة، المحتشمة والقوية الأخلاق." (١)

انّ الذي جعله يحترم هذه المرأة، هو كونها تجسد نموذجا مختلفا عن نساء ألمانيا، فهي متميزة على صعيد الشكل " بملابسها الطويلة المحتشمة، ووجهها العاري من المساحيق." (٢)، ومتميزة على صعيد السلوك والأخلاق، فهي لا تشرب الخمر ولا تأكل لحم الخنزير، ولا تختلط بالرجال، الا بأدب واحتشام. وهي رافضة لحضارة اوروبا وما فيها من " الانحلال وانفراط عقد الأسرة، وجنون الشهوة، وسيطرة المادة، وتطور العلم الذي امتطته هذه الشهوات الجنونية." (٣)، مؤمنة بالاسلام تتحدث عنه " بحماس وكأنها مبشرة مؤمنة." (٤)

وقد تمّ اللقاء بينها وبين سويلم بعد أن أخذه أحد الطلاب العرب الى سوق البغاء، فتوقيت اللقاء، جاء لكي يجسد القاص تضاد الخير والشر في هذه الحضارة، وما بينهما من صراع.

ولكنّ هدف سويلم يكمن في نقل عبد الله الى مواقعه، والى مواقع مريم أيضا، فهو يقول له عنها " انها أشرف بنت رأيتها في هذه البلاد، والله لو شاورتني في أن تتزوج ما وصفت لك أفضل منها، فسكت عبد الله وقد اكتسى وجهه بملامح الجد." (٥)

---

١) جمعة حماد، بدوي في اوروبا، ص ٢٢٠

٢) المصدر نفسه، ص ٢٣١

٣) المصدر نفسه، ص ٢١٥

٤) المصدر نفسه، ص ٢١٥

٥) المصدر نفسه، ص ٢١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعبد الله معجب ببساطة سويلم، وبحياة الفطرة التي يحياها " ان الانسان ليسعده أن يصادق مثل هذه القلوب النظيفة التي لا تقيم وزنا للمادة وأن يستمتع بمزايا الاخلاص الفطرى الذى لا يؤسس على المصالح والمنافع المتبادلة." (١)، وأعجب عبد الله بمريم " كأنه وقع فجأة على كنز من المعرفة والأخلاق في شخص مريم." (٢)، ثم تزوجها على سنة الله ورسوله " ووقف سويلم يهرول لا يسعه المكان من الفرح، وكأنه قائد هزم عدوه في معركة ساحقة." (٣)

لقد انتصر الخير على الشر، انتصارا نهائيا، وهذا يعني أنّ الغرب اذا أراد الاستمرار في تقدمه، فان عليه أن ينبذ أخلاقياته ويستبدلها بأخلاقيات الشرق وقيمه. واذا كان هذا في نظر الكاتب ضرورة حضارية، فانّ الضرورة الفنية تحتم عليه أن يدخل شخصية مريم في نسيج الرواية، ويعطيها دورا في الحدث يتناسب مع الأهمية التي اعطاها لها.

* * *

تجسد هيلا في رواية سلمى الكزبرى " البرتقال المر"، الخير المطلق كما تجسد نموذجا للمرأة البانية. فاذا كانت لوشيا، وهيلغا في روايتي الناعورى والسباعي، تحاولان هدم ما بناه سعيد وسامي فانّ هيلا تحاول من خلال علاقتها بعصام أن تدعه يبني لنفسه شخصية متكاملة. وهي هنا تلتقي بمارى في رواية يحي حقي، التقاء جزئيا. فان مارى تجسد طبيعة المرأة الخالقة، فهي تخلق من اسماعيل نموذجا جديدا، يخاير ما كان عليه في السابق، في حين تدع هيلا عصاما يبني شخصيته على ضوء علاقة الحب

---

١) جمعة حماد، بدوى في اوروبا، ص ٢٠

٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٢

٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي تربط بينهما . فاذا كان اسماعيل يذهب الى بريطانيا بعد اكمال دراسته الثانوية، فانّ عصاما يذهب الى الولايات المتحدة بعد أن ينهي الدراسة الأولية في الطب. واذا كانت مارى بالنسبة لاسماعيل هي المرأة الاولى ، فان هيلا على تفردها " لا تشبه اللواتي عاشرتهن قبلها بشيء أبدا ، لأنها رائعة في كل شيء." (١) ، ومعنى ذلك أن عصاما لا يقف - مثل اسماعيل - موقف التلميذ من الاستاذ ، وان كان لا ينكر تأثره واعجابه بها شخصا وسلوكا . " تعلمت من هيلا أن أتحرر من عقدى الوراثية ، وأن أتصرف معها تصرفا طبيعيا رائده الاخلاص في الشعور، والصدق ، واحترام الشابة المتحررة فيها ، علمتني كل هذا ، ولم تكن ثمة حاجة لكي تعلمني أن أحبها وكيف أحبها ." (٢)

كما استفاد من صدقها وصراحتها ، ومن نظرتها الموضوعية العملية الى الناس.

انّ الاشكال الذى يمكن أن يثار هنا يكمن في معرفة محور الرواية المكاني ، فمن المعروف أنّ علاقة الحب في هذه الرواية تدور في ولاية كليفلاند الأمريكية. ومن ثم يكون السؤال البدهي :

هل ترمز هيلا الى الحضارة الأمريكية ؟ انّ الاجابة على هذا السؤال بالموافقة يعني أنّ المثالية التي أحاطت بصورة هيلا غير قابلة للتصديق ، وهي موضع شك كبير. ولذا اختارت المؤلفة أن تكون هيلا ممرضة سويدية ، تعمل في هذه الولاية ولعمل هذا الاختيار يحقق غرضيين :- فهو يقرّب بين عصام وهيلا ، فكلاهما غريب عن وطنه ، وان كانت هذه الغربة بنسبة متفاوتة . وهو يخفف من وطأة الجرح الاستعمارى ، فانّ العلاقة بين العالم العربي ، والولايات المتحدة ، تحمل في طياتها العداء والتناقض، ومن ثم فاختيار فتاة أمريكية واضفاء طابع المثالية عليها سيفقد موضع شك وانتقاد كبيرين ، ولذا فاختيار هيلا من السويد يجيء لأنه

---

١) سلمى الكزبرى ، البرتقال المر، ص ٣٠

٢) المصدر نفسه، ص ٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم تنشأ علاقة تصادمية استعطرية بينها وبين العالم العربي . وقد أشار عصام الى ذلك في معرض حديثه عن الجوانب الايجابية في هيلا ، فهي تتمنى للبلاد العربية أن تنتصر " في معركتها القادمة مع اسرائيل ، لأن هيلا تكره اليهود لخداعهم ، ومادياتهم ، وعنجهيتهم ، انها تشعر بشعور العرب ، وتعطف على اللاجئين ، وتتألم لما لحق بهم من ظلم وشقاء بدافع انسانيتها ونزوعها للعدالة ."(١)

وهذه النظرة للقضية الفلسطينية - على قصورها - غير مادية ، وايجابية ، وبخاصة اذا عرفنا طبيعة الجو الذى يعيش فيه عصام وما فيه من " تيارات مادية كان بعضها يجهل القضية ، وحتى موقع بلادنا الجغرافي ، وينعتنا بالوحشية والاجرام ."(٢)

من هنا حرص عصام - وحرصت المؤلفة أيضا - على اقامة علاقة حب بينهما . فقد تزوجت هيلا ، وعادت الى بلادها ، ثم رجعت الى الولايات المتحدة بعد أن فشل هذا الزواج ، واتصلت أسباب العلاقة بينها وبين عصام مجددا .

انّ التكامل في شخصية هيلا ، والمثالية في تفكيرها وسلوكها ، بالاضافة الى ما تملكه من ذكاء وجمال ، جعل تعلقه بها أمرا لا مفر منه ، فهي امرأة متميزة على شتى الأصعدة " ان نشاط هذه المرأة واهتمامها بعملها وأصدقائها ونفسها شيء خارق ، فهي لا تضيع ساعة ، تعمل بتفان في المستشفى ، وتطهو في بيتها أحيانا ، وتمارس الرياضة وتعزف على البيانو ، وتقرأ كثيرا ، وتشيع البهجة حيثما وجدت ، ولا أنكر أني مدين لها بسعادتي الحاضرة ."(٣)

ولكنّ موقف عصام منها ذو أبعاد متنوعة ، ففي الوقت الذى يرى فيه أنها تخلو من العيوب وأنّ حبها له أفضل من حبه لها " وأقرب الى المثالية لخلوه من الاثرة ."(٤) وبالرغم من كونها " ممزوجة في دمي ، ساكنة في قلبي ، ومسيطرة على عقلي ."(٥) ،

---

١) سلمى الكزبرى ، البرتقال المر ، ص ٣٢ ، ٣٣

٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧

٣) المصدر نفسه ، ص ٣٠

٤) المصدر نفسه ، ص ١٢٦

٥) المصدر نفسه ، ص ١٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الا أنه يرى أن علاقته بها ستكون علاقة عابرة لسببين :

أولا لأن " كل جميل في الوجود قصير العمر: الربيع والشباب والسعادة، والمهم أن نقدره في حينه وأن ننعم به." (١) ، وثانيا لأنه لا يستطيع أن يوفق بين حبه لها، وحبه لوطنه، فقد حاول " التوفيق بين حب المرأة التي بها اعجبت وهمست، وبين حب الأرض التي أنبتتني، والأهل الذين ربوني، وباتوا على أحر من الجمر للقائي." (٢) ، ولكن ذلك متعذر في رأى عصام " لأن الأقدار تفرقنا، حيث المواطف تجمعنا في كثير من الأحيان." (٣) ، وينبغي أن نشير الى أن هيلا اتخذت موقف ايجابيا من رجوع عصام فقد شجعته على العودة، لأنها لا تريد الزواج أيضا، ولكن موقف هيلا لا ينبغي أن ينسينا ضيق تلك الرؤية التي يتحلى بها عصام، فان تشجيع هيلا له لكي يعود لا يتنافى مع اللقاء الدائم بينهما، واذا صح أن التوفيق بينهما متعذر، فلا يصح أن يكون هذا بدون تبرير، فالاتكاء على الأقدار يشكل مقولة غير مستمدة من بنية الرواية، وبخاصة اذا علمنا اعجاب عصام المطلق بالحضارة الغربية، ولا سيما في تعاملها مع المرأة. فالتناقض بين الشرق والغرب في هذه الرواية - وان أشار عصام الى الناحية الاستعمارية في النهاية - يظل معزولا عن الواقع، وأسير العنوانات الشديدة العمومية، وهو أقرب الى رأى رود يارد كبلنغ الذى يرى " أن الشرق شرق، والغرب غرب، والتقاؤهما غير ممكن." ان الذى يكشف عن طبيعة العلاقة بين عصام وهيلا، هو حديث عصام عن رواية أريك سيغال " قصة حب". فقد أعجب عصام بهذه الرواية من حيث الشكل والمضمون، وعبر عن هذا الاعجاب من خلال تحليله المسهب لها في رسالة بعثها الى سالم أحد أصدقائه في دمشق. (٤)

---

(١) سلمى الكزبرى، البرتقال المر، ص ٣٦

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٦

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٦

(٤) المصدر نفسه، ص ص ٧٨ - ٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولندع عصاما يحدثنا عن هذه الرواية " تصرف الطالب الجامعي " اوليفر باريت الثالث"، ابن المليونير باريت الثاني ، وهو رجل اقتصاد نافذ في الولايات المتحدة الى طالبة جامعية فقيرة ، من أصل ايطالي ، تدعى " جينيفر كافيليرى" وكان عمره واحدا وعشرين سنة ، في مثل عمرها تقريبا ، فتحابا منذ اول لقاء، ثم كللا هذا الحب الجميل بالبسيط بالزواج متحدين معارضة اسرة باريت العنيفة ، والتقاليد الدينية للزواج المتعارف عليها ، اذا اختارا بنفسيهما نمطا شعريا رائعا في تقديس الحب والاخلاص لرباطة ، قرآه ساعة اعلان الزواج ، وقد وصف لنا الكاتب الهوة الكبيرة التي تفصل بين اوليفر الشاب وأبيه ، أى تصادم بين عقليتين متنافرتين وصفا دقيقا : عقلية الرأسمالي المتحجر، الحريص على الأمجاد المالية المكتسبة ، والمظاهر الاجتماعية البراقة الناجمة عنها ، وعقلية الشاب الانسان ، المؤمن بالمساواة المبغض للاستثمار والتواكل والنفاق الاجتماعي ، المخلص لنفسه ، المحب للآخرين.... وأرى أن هذه القصة حملت في فصولها رسالة انسانية عظيمة : حملت الدعوة الى الحب الصحيح الذى بين الناس جميع الفوارق ."(١) ، ثم يضيف عصام قائلا : " لقد انتهت القصة بفاجعة مروعة بموت جنيفر بالسرطان الذى أذلها في شهور قليلة ، وأطاح بأماني العش الجميل ، وكان اختطاف الموت لتلك الصبية، وهي وزوجها في أوج سعادتهما ، رمزا الى استحالة السعادة ، والكمال في حياة الانسان ، ولكنه رمز أيضا الى ضرورة السعي للوصول الى السعادة ، والدنو من الكمال ."(٢)

من هنا يتضح خوف عصام ، وحرصه على عدم استمرارية تلك العلاقة ، على الرغم من وجود سبب مادى محسّ. فلقد خشي أن تنتهي علاقته بها بفاجعة ، وهو الذى يعتقد باستحالة السعادة والكمال . فهو عندما يقول : " ولا أخفي عنكما أنني خرجت من قاعة السينما متفطر القلب وأن القصة استدرت من عيوني الدموع ."(٣)

---

١) سلمى الحفار الكزبرى ، البرتقال المر، ص ٧٩، ٨٠

٢) المصدر نفسه ، ص ٨٠

٣) المصدر نفسه ، ص ٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا يبكي ما رآه على شاشة السينما فحسب، وانما يبكي علاقته بهيلا .

ولقد كان من الممكن أن يكون هذا الكلام ضربا من الاستنتاج غير المدعم لولا النتيجة التي توصل اليها عصام بعد هذا الحديث مباشرة عن " قصة حب"، فهو يقول : " والآن وبعد أن بينت ما آلت اليه الأمور في هذه البلاد التي عبدت المال فاستعبدها ، فاني ازداد حنينا الى الشرق ، وأرى على بعد الدار محاسن بلادي ، وفي طليعتها الروابط العائلية والاجتماعية الطيبة ، والقيم الروحية التي ما زالت قوية فيه ، تضفي على حياة سكانه نعما لا يقدرها الا الذين حرموا منها ! "(١) ان هذا التعقيب عن الروابط العائلية ، يؤكد ما ذهبنا اليه فهو يأتي ليؤكد التناقض الاجتماعي بين حياة الشرق والغرب ولكي يؤكد صعوبة اللقاء بين هيلا وعصام في الشرق ، ولكي يوضح أن عصاما لا يملك رؤية حضارية شاملة ، وهذا ما يفسر تناقضه وازدواجيته في كثير من الأحيان .

---

١) سلمى الحفار الكزبرى ، البرتقال المر ، ص ٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خاتمـــــة :

ينبغي في نهاية هذا الفصل أن أشير الى عدة أشياء هامة :

أولا : انّ العلاقة بين الشخصيات الروائية ، والمرأة الغربية على غزارتها وتنوعها - لم تنته بعلاقة زواج واحدة . فقد منيت كل هذه العلاقات بالفشل ، فلم تستمر علاقة واحدة من هذه العلاقات ، بل انتهت لحظة مغادرة البطل الروائي للغرب عائدا الى بلاده .

ولقد تباينت أسباب هذا الفشل ، ولكننا نستطيع أن نرجعه الى عدة أسباب :

أ - طبيعة العلاقة نفسها : فبعض هذه العلاقات غير قابل للاستمرار ، كأن يكون اللقاء عابرا ، كما في رواية الناعورى ، والسباعي ، وكوليت خورى . وهذا يعني عدم توافر رغبة عند أحد الطرفين أو كليهما في تحويل العلاقة من عابرة الى دائمة . فعلى سبيل المثال ، كان ايتالو في رواية كوليت خورى " ومر صيف" ، يتمنى دوام العلاقة ، ولكنّ سهير ترفض ذلك ، وكانت رشا في " ليلة واحدة" تتمنى دوام العلاقة ، وكميل يتمنى ذلك أيضا ، ولكنّ ارتباطات كميل بالغرب ، وتشبث جذوره هناك جعل اللقاء عابرا . أما سعيد وسامي في " ليلة في قطار" ، و " الظمأ والينبوع" ، فهما لا يريدان هذه العلاقة مع التفاوت النسبي بينهما .

ب - هناك بعض العلاقات التي تحمل امكانية الاستمرار ، غير أنّ العوائق حالت دون ذلك ، ويمكن تقسيم هذه العوائق الى ثلاث فئات :

- أسباب قومية - أسباب اقتصادية - أسباب حضارية .

فقد رفض علاء الزواج من ايلزا ، كما رفض فكرة الزواج بأجنبية ، فهو يرى " ان كان الرجل العادى ملك نفسه فالرجل الممتاز ملك وطنه ، وأنتم في روابطكم الزوجية ، ملك هذا الجيل الناشيء من نساء الوطن ، تهذبوهن ، وتنشئوهن ، وتبثون فيهن ما حملتم من الغرب من مبادئ الحضارة الحقة ليقمن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقام القادة في هذه الأمة التي لا قادة فيها ، فان أنا تزوجت من هنا ، وتزوجت أنت من هناك ، فمن يغرس في جيلنا النسائي الجديد ، بذور البحث العظيم الذى كتب على جبين امتنا الناشئة النبيلة ذات الرسالة المقدسة ." (١)

ويشاركه في هذا الرفض النابع من منطلقات قومية ، فؤاد احدى الشخصيات الهامة في رواية سهيل ادريس " الحي اللاتيني " ، فعلى الرغم من أن فرانسواز ترضي نزعاته ، ويجد فيها امرأة كاملة الا أنه لا يفكر في الزواج منها ، لأننا " مدعوون في المستقبل ... الى مواجهة كثير من قضايانا القومية ، التي لا تعني أحدا سوانا ، وأنا لا أعتقد أن زوجة أجنبية ، تستطيع أن تعين زوجها في معاناة مثل هذه القضايا . انني أريد أن تكون زوجتي رفيقة حياتي . بكل ما في الرفقة من معنى ، ولئن أنا تزوجت يوما ، فلن أتزوج الا فتاة عربية وان فرانسواز لتعرف ذلك الآن ." (٢)

وتقف العوامل الاقتصادية سدا يحول دون استمرار ، بل قيام علاقة بين كريم وليليان ، فهي تقول له " اذا كنت تحبني حقا ، فيجب أن تتزوجني ، فانني فتاة أريد الزواج ." (٣) ويكون اعتذاره " اني طالب مفلس ، وأنتظر من أهلي الراتب لكي أتابع دراستي ولا أظنك ستوافقين على صداقتي ." (٤) ، كما تقف هذه العوامل سدا يحول دون استمرار العلاقة بين فؤاد ومادى ، ولكن الوضع الاقتصادى ، يكون متناقضا للوضع السابق . فان فؤادا ثرى ، ولكن أمر زواجه موكول الى والده ، وهو لا يستطيع أن يتنازل عن الثروة الطائلة ، ولذلك يرضخ لأمر والده مضطرا ." (٥)

---

١) شكيب الجابرى ، قوس قوح ، ص ٧٨

٢) سهيل ادريس ، الحي اللاتيني ، ص ١٥٨

٣) خضر نبوة ، الجوع ، ص ١١٣ ، ١١٤

٤) المصدر نفسه ، ص ١١٤

٥) صباح محي الدين ، خمر الشباب ، ص ٢٠٨ ، ٢٤٨ ، ٢٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما العوامل الحضارية، فهي قد تعني الاختلاف الشاسع بين طبيعة المجتمع العربي، وطبيعة المجتمع الغربي. ويكون هذا الاختلاف سببا يحول دون استمرار اللقاء. فلقد أتكأ بطل "الحي اللاتيني" على مثل هذا الاختلاف، لكي يبرر ما فعله مع جانين، واتكأ عليه عصام في "البرتقال المر"، لكي يبرر عدم استمرارية العلاقة بينه وبين هيلا. وقد تعني العوامل الحضارية، التضاد الحضاري بين الشرق والعربي والحضارة الغربية، بسبب طبيعة تكوين هذه الحضارة. فلقد أشار توفيق الحكيم في رسالته التي بعث بها بطله الى سوزي ديون، الى مثل ذلك فأشار الى القناع الذي يخفي حقيقة المرأة هناك، والى الأنانية التي تتميز بها، حين تستخدم من لا تحب وقودا لتدفئة قلبها، ومثل هذه الصفات قد تشير الى الطبيعة الاستعمارية وما فيها من استغلال وتمويه.

ولقد أشار محمد عيد في "المتميز" الى أن انفصام علاقة بطله بالمرأة الفرنسية يعود الى هذا التناقض الحضاري. وان جاء هذا الانفكاك على لسان المرأة الفرنسية. فهي تؤمن أن المخلوق الذي سينتج من لقائهما مخلوق مشوه، لأنه ولد في ظروف غير طبيعية. فمن الأفضل له ألا يولد. ولهذا غادر سامي - بطل الرواية - عائدا، لأن نقطة البداية تكون في الوطن، لا في المهجر.

ثانيا: هناك بعض الروايات التي لم أتناول ما فيها من نماذج نسائية. ويعود ذلك الى عدة أسباب، منها خلو بعض هذه الروايات من نماذج نسائية فاعلة، تؤثر علاقتها سلبا أو ايجابا في سير الرواية. كما في رواية سامي الجندي "أحداث في المنفى"، ومنها طغيان شخصية الرجل - البطل - على الرواية حتى لا نستطيع أن نتميز ملامح شخصية المرأة فيها، كما جاء في رواية حسن الحسيني "ذكريات صبا سياسي محترف". أما روايتا صباح محي الدين "خمر الشباب"، وعبد السلام العجيلي "رصيف المذراء السوداء"، فأحسب أنني تحدثت عنها في الفصل الثالث، حديثا لم أستطع أن أضيف اليه شيئا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً : انّ عدم استمرارية العلاقة بين البطل الروائي والمرأة الغربية ، مهما كانت الأسباب، يمثل ظاهرة عجيبة ، فاجماع الروائيين على تكريسها ، على الرغم من تنوع مشاربهم واختلاف طرائقهم ، مؤشر على طبيعة النظرة الحذرة الى الحضارة الغربية ، والى قيمها على وجه الخصوص. ففي رواية حسن جمال الحسيني " الاصدقاء" ، يتحدث القاص عن علاقة حب نمت جيدة بين جمال وكلود ، تنمو هذه العلاقة في ظروف صحية ، فقد قبل أهل جمال أن يتزوج منها ، وبارك والده مثل هذا الزواج ، ورضيت العائلة الفرنسية عن ذلك ، ولكن كلود ، ماتت قبل أن يتم الزواج ، في حادث اصطدام. فكأن القاص يرى أنّ اللقاء لن يتم حتى لو توافرت له كل المقومات.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل السـادس

"الشكل الفني في الروايـة العربيـة"

١- مقدمـة.
٢- أنواع الروايات:
أ- رواية التجربة الذاتية.
ب- رواية اليوميات والرسائل.
جـ- الرواية التعبيرية.
د- رواية الشخصيات.
هـ- الرواية التقليدية.
٣- الأركان الأساسية في الروايات.
أ - الشخصيات.
ب- الحبكـة.
جـ- الأسـلوب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١ - مقدمة :

تقف هذه الدراسة عند اثنتين وعشرين رواية ، هي نتاج لمشاركة ثمانية عشر روائيا . وهذا يعني ان السمات الفنية في هذا الحشد الروائي لن تكون متقاربة . فمن المعروف ان لكل رواية شكلها الخاص وسماتها الفنية والجمالية . ولذا فانّ دراسة هذه الظاهرة من الوجهة الفنية تعني دراسة لأشكال روائية عديدة تنتمي الى مدارس متعددة . وهذا يوقع الفصل في اشكالية " فنحن نزعم أن الشكل هو الذى يجمع بين الروايات كافة ، ونؤكد في الوقت نفسه أن لكل رواية هيئة خاصة ." (١) ، ومصدر الاشكال ينبع من ماهية الفن ، ومن طبيعة النظرة الى الابداع الفني ، ولكن محاولة الخلاص من هذا الاشكال تكمن في اعتبار الشكل " جماع التقنية و الاسلوب ، وبالتالي فانه يتألف من العناصر الواقعية المتواشجة التي يتحقق بها العمل الفني ." (٢) ، ومن المعروف أنّ الأشكال الروائية ، ليست قوالب جاهزة يستعير ها الروائي ليفرغ فيها مضمونه . لأنّ مضمون العمل هو الذى يفرض الشكل الفني الملائم . ولهذا لا يحاسب الروائي من الناحية الفنية ، على اختياره لشكل معين ، بالقدر الذى يحاسب فيه على مقدار نجاحه في استخدام هذا الشكل . كما أن التعامل مع الشكل تعاملا حرفيا يحيل الفن الروائي الى قوالب منطقية جافة . من هنا يميل الروائي للتنويع في التكنيك القصصي ، داخل الشكل الواحد . ولذا فانّ التصنيف الذى وضعناه يتميز بالعمومية ، ويأخذ أبرز الصفات الغالبة على الشكل الروائي .

---

(١) احمد كمال زكي ، قضية الشكل في الرواية ، الآداب ، العدد الثالث ، ١٩٦٣ ، ص ٢٧

(٢) خلدون الشمعة ، الشمس والعنقاء ، ص ٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينبغي أن ننبه الى أن مصطلح "الرواية" هنا يعني فقط الرواية العربيـــة موضوع الدرس، ولا ينسحب على غير ذلك من الروايات. ولما كان هذا الفصل دراسة فنية لأشكال روائية مختلفة، فقد حاول الباحث أن يقسم هذه الروايات الى عدة فئات هي :

أ - رواية التجربة الذاتية.

ب - رواية اليوميات والرسائل.

جـ - الرواية التعبيرية.

د - رواية الشخصيات.

هـ - الرواية التقليدية.

ولا يخفى أنّ الحديث عن رواية التجربة الذاتية، لا يميز الشكل الروائي المستخدم فيها، ولكنّ الباحث قدّم الحديث عن هذه الروايات، ليحاول أن يكشف عن مصادر التجربة الروائية، والعلاقة بين الروائي وأبطال روايته، وهـذا ضروري لبلورة موقف نقدي تجاه القضايا الفنية في هذه الروايات.

ومن الضروري أن أنبه الى أنني تناولت في رواية الرسائل واليوميات، ما ورد في هذه الروايات من يوميات أو رسائل، بغض النظر عن الشكل الروائي الذي تنتمي له هذه الرواية. وبغض النظر أيضا عن حجم استخدام هذه الوسيلة، ولعـــلّ ذلك يعود الى أن استخدام هذه الوسيلة في التكنيك الروائي، لفت للنظـــر دائما، فحاولت أن أدرس سرّ لجوء الروائي له، ومدى نجاحه أو فشله في ذلك.

ثم درس الباحث الشخصيات، والحبكة والأسلوب في هذه الروايات، ولـــم يكن هذا الافراد بقصد فصل القضايا الفنية عن مضمونها الذي طرحت عـــبره. ولكنه كان محاولة تسهل القاء الضوء على هذه القضايا الفنية مجتمعة لتبيـــان الخصائص الفنية بشكل عام.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- أنواع الروايات:

أ- رواية التجربة الذاتية:

يرى النقاد أنّ كل عمل قصصي أو روائي ناجح مستمد في أصوله الأولى من التجربة الانسانية التي خبرها الأديب، واستطاع أن يتمثلها تمثلا فنيا صحيحا.(١) فعندما يتجاوز القاص حدود تجربته، فإنه يقع في كثير من التجريد، وربما ينزلق الى تصورات خاطئة للبيئة المكانية التي يدور فيها عمله القصصي.(٢)

ومن الطبيعي أن يقال أنّ التجربة الذاتية لا تعني النقل الحرفي عن الواقع، فالفن عملية "تصفية واختيار وخلق."(٣)، ولكنّ قيمة التجربة الذاتية في مثل هذه الأعمال الروائية، جد كبيرة. فثمة فرق كبير بين الحديث عن الغرب من واقع التجربة، بكل ما في هذه التجربة من جديد، وبين الحديث عنه من خلال المعلومات العامة. فمعرفة الحضارة الغربية من الناحية الفكرية، قد لا تستدعي الذهاب الى الغرب. ولكن تأليف رواية تدور في اوروبا يستوجب مثل هذا الذهاب. ولذا يمكن وصف الظاهرة الروائية موضوع الدرس بأنها رواية تنبع من التجربة الذاتية في الاغلب.

يتحدث طه حسين عن مصادر تجربته الروائية في "أديب" قائلا: "صاحبي في الكتاب، شخصية حقيقية لن يفيدك ذكر اسمه بشيء. ولا أنصح بنشره، لأنّ أسرته ما زالت موجودة. لقد كان زميلي في الجامعة، ثم في

---

(١) محمد يوسف نجم، فن القصة، ص ٦٧ وما بعدها.

(٢) حصل هذا مع القاص محمود تيمور في "نداء المجهول"، انظر تفصيل ذلك في "فن القصة" ص ٦٩، وفي كتاب محمود السمرة "في النقد الادبي"، ص ١٩.

(٣) محمود السمرة، في النقد الأدبي، ص ١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السوربون ، وكان في غاية الذكاء والامتياز وقد انتهى نفس النهاية التي صورتها في الكتاب فجن أولا ، وما زال به مرضه حتى انتهى الى شلل عام ثم الوفاة."(١)

ويقول أيضا : "انّ الكتاب الذى أحبه وأوثره ، لا يعجب الناس ، وهو كتاب "أديب". واعجابي به يرجع الى أنني وصفت فيه كثيرا من شئون حياتي الخاصة ، وما كان يحيط بها في اوائل هذا القرن الذى نعيش فيه. لقد تحدثت فيه عن الجامعة القديمة ، وعن سفرى الى اوروبا وهي ذكريات أحبها واوثرها. صنعت هذا الكتاب على أنّ ما فيه تخيلات مما يخطر في مخيلات الكتاب. والحقيقة أنه ليس فيه شيء من التخيل بل هو مجموعة من الحقائق. ولكن الناس معجبون بكتاب الايام ، لا في البلاد العربية فقط بل في اوروبا أيضا."(٢)

ثم صرح طه حسين فيما بعد ، أنّ شخصية أديب هي شخصية جلال شعيب ، زميله في الجامعة الأهلية ، وفي فرنسا.(٣)

فطه حسين يصدر في "أديب" عن تجربة ذاتية ، تبدت في مضمون الرواية ، فثمة صوتان يترافقان في "أديب". هما صوت الراوى وصوت أديب. أو صوت طه حسين ، وجلال شعيب. وهذا يفسر تعلق طه حسين بهذا العمل ، فهو يمثل تجسيدا روائيا لذكرياته التي يحبها ويؤثرها ، ويمثل حياة صديق له انتهى نهاية محزنة.

ولكنّ طه حسين لم ينقل هذه التجربة عن الواقع نقلا حرفيا ، فانّ ذلك مخالف لطبيعة الفن عموما ، ولماهية الفن القصصي على وجه الخصوص. ولهذا تختلف "أديب" اختلافا نوعيا عن "الايام" ، فالأول رواية - رغم ما عليها من مآخذ - والثاني سيرة ذاتية. خلافا لما يرى بعض الباحثين. اذ يرى عبد المحسن بدر

---

(١) فؤاد دوارة ، عشرة أدباء يتحدثون ، ص ٢١

(٢) سامي الكيالي ، مع طه حسين ١/ ٦٥ ، ٦٦ وانظر نعمات احمد فؤاد ، قمم أدبية ، ص ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٣) حمدى السكوت ومارتن جونز ، أعلام الأدب المعاصر في مصر ، ص ٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنّ النظرة السطحية لكتاب " أديب" قد تحملنا على الفصل بينه وبين الاعمال الروائية التي تأثرت بالترجمة الذاتية . . . واعتباره أقرب الى الرواية التحليلية وذلك لأنه كما يظهر للوهلة الأولى يبدو أشبه بتحليل شخصية من الشخصيات الشاذة التي كان تيمور مولعا بتحليلها . ولكن النظرة المتعمقة تحملنا على تغيير رأينا ، وذلك لأننا نلمس طه حسين وحياته في الكتاب بصورة أكبر مما نلمس شخصية الأديب الذي يتحدث عنه ." (١) وهذا الرأي كما هو واضح يخلط بين مصادر التجربة الروائية ، وطريقة التعبير عنها ، فاذا كان طه حسين يتحدث عن حياته في مصر وفي فرنسا من خلال الرواية فهذا لا يعني أنّ الكتاب يشكل الجزء الثالث للأيام . (٢) فثمة فرق كبير بين طه حسين في " الأيام" ، وطه حسين في " أديب" . ذلك أن الروائي لا بد أن يجري كثيرا من التغييرات حتى تتلاءم الرواية بين يديه وتنسجم اجزاؤها " ولا بد له من التدخل بترتيبها والاضافة اليها بحيث يستطيع تبريرها فنيا وبحيث يقصد من وراء عرضها الى التعبير عن وجهة نظره في الحياة ." (٣)

وبعبارة أخرى فنحن لا نستطيع الاعتماد على " أديب" في استخراج صورة طه حسين ، لأنّ هذا الاعتماد " أمر يشوه الحقائق ، ويباعد بيننا وبين الصدق التاريخي ." (٤)

صحيح أنّ ثمة مآخذ عدة يمكن أن تؤخذ على الرواية ، ولكن اختيار أديب اسما لهذا العمل أمر له دلالته " فقد كان من الممكن أن يسجل الكاتب هذه الصفحات من حياته في جزء ثالث من أجزاء " الأيام" الذي جعله خالصا لترجمته الذاتية ." (٥)

ولعلّ خير مثال يجسد الفرق بين التجربة وبين التعبير عنها في العمل ، يكمن في نهاية الرواية . فقد صرح طه حسين أنّ صديقه انتهى الى الجنون ، فالشلل ، فالوفاة . ولكنّ أديبا في الرواية أصيب بالجنون ، ومات بعد ذلك .

---

١) عبد المحسن طه بدر ، تطور الرواية العربية الحديثة ، ص ٣١٢
٢) انظر تفصيل ذلك في : خالد الكركي ، طه حسين روائيا ، رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة ، ص ٧٤
٣) محمود السمرة ، في النقد الأدبي ، ص ١٩
٤) احسان عباس ، فن السيرة ، ص ٨٨
٥) أحمد هيكل ، الأدب القصصي والمسرحي في مصر ، ص ١٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد حذف طه حسين حادثة الشلل ، وسجل طه حسين في نهاية الرواية أن صاحبه ترك رسالة فيها "أدب رائع جزين صريح ، لا عهد للختنا بمثله فيما يكتبه ادباؤنا المحدثون." (١) وعندما سئل طه حسين عن ذلك أجاب" هذه الآثار الأدبية التي ذكرتها في خاتمة كتاب "أديب" آثار وهمية وهم تشير الى أشياء كنت أحب أن أكتبها أنا وأضيفها الى هذا الصديق الذي رحمه الله." (٢)

واذا كانت رواية طه حسين "أديب"، تمزج بين تجربتين متغايرتين فان رواية توفيق الحكيم "عصفور من الشرق"، تنبع من تجربة ذاتية واحدة. ولذا ربط بعض الباحثين بين "عودة الروح"، و "عصفور من الشرق"، "ويوميات نائب في الأرياف"، من ناحية، وبين حياة توفيق الحكيم من جهة أخرى. وحاولوا دراسة معالم شخصية توفيق الحكيم من هذه الأعمال باعتبارها لا تختلف اطلاقا عن شخصية المؤلف، أو شخصية النائب في هذه الروايات. والحق أن بعضنا في "عودة الروح" و "عصفور من الشرق"، يمثل كثيرا من توفيق الحكيم ولكنه لا يمثله ، "لأنك لا تستطيع أن تقف عند كل منظر في القصة وتتساءل :أحدث هذا على هذه الصورة التي يصفها الكاتب؟ أجرى هذا الحوار تماما كما جرى الواقع؟ أحقا أن الكاتب يستعيد مشاعره كما أحسها في تلك السن ؟" (٣)

---

١) طه حسين ، أديب، ص ١٨٢

٢) فؤاد دوارة ، عشرة أدباء يتحدثون ، ص ٢١

٣) احسان عباس، فن السيرة، ص ٨٨، وانظر علي الراعي ات في الرواية المصرية، ص ٩٨، ٩٩، وشوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، ص ٢٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يستمد الحكيم عناصر تجربته الروائية في "عصفور من الشرق"، من اقامته في باريس، فقد سافر الى فرنسا سنة ١٩٢٤م، لاكمال دراسته العليا في الحقوق، وأمضى هناك نحوا من أربع سنوات. ويكشف الحكيم في "زهرة العمر"، أصول هذه التجربة الذاتية، وكيفية صياغته لها صياغة روائية. فاذا كان محسن في الرواية خياليا، يعشق الخيال، ويهيم فيه، ويرى فيه تعويضا عن هموم الواقع، فانّ توفيق الحكيم كذلك، يحب الخيال ويهيم فيه."(١)

واذا كان محسن في الرواية يهدى حبيبته ببغاء في قفص، رافضا اقتراحات جرمين، باهدائها زجاجة عطر. فذلك راجع الى طبيعة الحكيم التي "تميل الى عدم الأخذ بما يأخذ به الناس جميعا من أوضاع، هربا من الوقوع في الابتذال وشغفا جنونيا بالتميز والاغراب" ففي لبسي لا أرتدى كما يرتدى الآخرون ولا أدخن لأن التدخين عادة عامة ... لا أهدى حبيبتي الأزهار الجميلة ولا العطور اللطيفة بل أهدى اليها ببغاء في قفص."(٢)

واذا كان كل من أندريه وجرمين يمثلان التضاد الفكرى لمحسن في الرواية فهما ماديان، وهو هائم بالروح، فهما في "زهرة العمر" يمثلان التضاد نفسه. أما ايفان فهو في الكتاب كما في الرواية يدعم ايمان محسن بنفسه وبالشرق في مواجهة الحضارة المادية."(٣)

---

١) توفيق الحكيم، زهرة العمر، ص ١٢، ص ٣٣

٢) المصدر نفسه، ص ٣٣

٣) المصدر نفسه، ص ٢٦، ص ٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما عن علاقته بالمرأة فهو لم يعرف " غير حياة شبه زوجية فاترة مع ساشا سوارتز، وحياة حب مع ايما دوران لم يدم هناؤه طويلا ."(١) ولكن الحكيم لم يتحدث الا عن علاقته بايما دوران ، ولم يشر الى علاقته الأولى ومن الطبيعي أن يقال ان الحكيم لم ينقل هذه العلاقة نقلا حرفيا ، فقد استخدم عناصر تجربته، وطورها حتى غدت العلاقة بين محسن وسوزى ديبون ، متوافقة مع رؤية توفيق الحكيم. يقول توفيق الحكيم :

" اني لم أزل أطالع رسالتك الماضية في اعجاب. انّ فيها أشياء اقرؤها ببطء فتؤثر في نفسي تأثيرا شديدا. ذلك أنها تجعلني أتصور أني لا زلت أقيم في حجرتي بشارع بلبور. واأسفاه ! يخيل اليّ أني نسيت رقم الحجرة في الطابق الخامس. أظنها كانت رقم "٤٨" لأنها " هي"، كانت تقطن الحجرة رقم "٣٨"، اني ان نسيت رقم حجرتي فلن أنسى مطلقا رقم حجرتها . أما البيضاء .. آه يا أندريه. ترى أين هو الآن ؟ أولم يزل يحمل اسمي كما كان ، فيظل بذلك اسمي يردد صداه على الأقل حتى يموت البيضاء."(٢)

ومن الواضح أن الحكيم يكشف في هذا الحديث عن تفصيلات استخدمها في عمله الروائي . فهو يشير الى رقم غرفتها في الفندق (٣) ، والى البيضاء الذى أهداه لها ، ولكّن ايما دوران أصبحت في "عصفور من الشرق" سوزى ديبون ، وصيغت بطريقة تكشف عن آراء الحكيم في علاقة الحب.

---

١) توفيق الحكيم، زهرة العمر، ص ٨١ وانظر مجلة الهلال ، ع ٥ ، س ٨٠ / ١٩٧٢، ص ٧٥

٢) المصدر نفسه، ص ٨٠ وانظر عصفور من الشرق ، ص ٧١، ص ٨٨، ص ٨٩

٣) انظر زهرة العمر، ص ١٨ وقارن بينها وبين ما ورد في الرواية، ص ١٣٢ يورد الحكيم رقم غرفتها في الرواية بأنها "٢٨" أهو نوع من التضليل ؟ أم نسي الحكيم ذلك حقا ؟

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تبقى بعد ذلك قضية جوهرية، وهي موقف كل من محسن والحكيم بالنسبة للشرق والغرب. فمن المعروف أن محسنا في "عصفور من الشرق"، كان شديد التعلق بروحانية الشرق، شديد الكراهية لمادية الغرب، يقدس السيدة زينب. في حين يتعلق توفيق الحكيم في "زهرة العمر"، بباريس. فقد أصبح توفيق الحكيم في مصر "ساكن الصحرا"، وصار على أندريه "أن يمده ببعض نفحات اوروبا المعاصرة"، وصار الغرب مصدرا للنور. (١) وضاق توفيق بحياة الوطن، ويئس "من أن بلدا كمصر يصبح في يوم قريب ذا حياة فكرية. لا حياة في مصر لمن يعيش للفكر." (٢)

ومن المعروف أن توفيق الحكيم أهدى الرواية "الى حاميتي الطاهرة السيدة زينب"، وأن محسنا شديد التعلق هو الآخر بها. الأمر الذى يوحد الأرضية الفكرية بين المؤلف وبطله، فقد سمى الحكيم "ابنته باسم زينب استجابة لهذه المحبة العميقة في نفسه للسيدة زينب ولما ترمز اليه من قوة روحية بالنسبة للحكيم وبالنسبة للشعب المصرى كله." (٣)

يرجع شكرى عياد ذلك التناقض البادى في الأحكام "الى ما فيها من تعميم والميل الى تعميم الأحكام مصاحب لكل تجربة جديدة. ولكن لا شك أيضا في أن هذه النظرة المزدوجة تعبر عن صراع بين نظامين حضاريين من القيم في لحظة تاريخية معينة." (٤) ولكن هذا التعليل - على وجاهته - لا يفسر لنا لماذا كان توفيق الحكيم في الرواية مع الشرق ؟ ولماذا صار في "زهرة العمر"

---

١) توفيق الحكيم، زهرة العمر، ص ٥٦، ص ٦٨

٢) المصدر نفسه، ص ٥٧

٣) رجاء النقاش، أدباء معاصرون، ص ٧٧، وانظر مجلة الهلال ع ٢، ١٩٦٨، ص ١٨١

٤) شكرى عياد، عالم الفكر، المجلد الثالث، العدد الثالث، ١٩٧٢، ص ١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مع الغرب؟

قد يقال ان الفترة الزمنية بين صدور كالكتابين جعلت الحكيم يعدل في آرائه.(١) وقد يقال انّ محسنا كان واقعا تحت تأثير حنين مرضي جعله يتعلق بالشرق هذا التعلق، ثم كان رجوعه ورؤيته للواقع كما هو، لا كما يحب أن يكون، عاملا من عوامل هذه الردة. وقد يقال انّ الحكيم في كل ما كتبه لا يصدر عن موقف واحد متماسك.(٢) ولكن يبقى أنّ ثمة فرقا بين النماذج الفنية، وبين الآراء المباشرة، فتوفيق الحكيم ليس مسؤولا عن آراء محسن. ولكنه مسؤول عن آرائه، فلعل هذا الاختلاف مرده الى الفرق بين زاوية الرؤية في الفكر، وزاوية الرؤية في العمل الفني(٣)، وقد عبر الحكيم عن ذلك خير تعبير عندما قال "الصلة بين "عودة الروح" و "عصفور من الشرق" وبيني، هي نفس الصلة المعتادة عند الروائيين جميعا، عندما يكتبون على أساس التجربة الشخصية مع التصرف الذي تفرضه الحبكة الروائية. وهذا لا يمنع من وجود بذور للتجربة الشخصية في الروايتين، التجربة التي حدثت للمؤلف. ولكنّ التأليف الروائي اقتضى بعض التغييرات والتعديلات التي تخرجها قليلا عن الترجمة الذاتية المباشرة. فأنا محسن في "عودة الروح" ولكن مع التصرف الروائي."(٤)

---

١) صدرت رواية "عصفور من الشرق" سنة ١٩٣٨، وصدر "زهرة العمر" سنة ١٩٤٣. وانظر مقابلة مع الحكيم أجراها غالي شكري في حوار، السنة الثالثة، العدد الثالث، ١٩٦٥، ص ٤٣

٢) جورج طرابيشي، لعبة الحلم والواقع، ص ٢٦

٣) يقول الحكيم في حوار أجراه معه غالي شكري ونشر في مجلة حوار، السنة الثالثة، العدد الثالث، ١٩٦٥، ص ٤٣ "أسمح: فكرة الشرق شرق، والغرب غرب هذه ليست صحيحة. تصور البعض أنّ الشرق كان وما يزال روحيا فقط، وأن الغرب كان وما يزال ماديا فقط تصور يتجاهل الحقيقة." وانظر زهرة العمر، ص ١٦٢

٤) مجلة حوار، السنة الثالثة، العدد الثالث، ١٩٦٥، ص ٣١. وانظر فؤاد دوارة عشرة أدباء يتحدثون، ص ص ٣٢-٣٥، و مجلة الهلال العدد الخامس السنة الثمانين، ١٩٧٢، ص ٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما رواية يحي حقي " قنديل أم هاشم"، فقد استفاد حقي فيها من تجربته الذاتية، استفادة تختلف في نوعيتها عن استفادة طه حسين وتوفيق الحكيم. ولذا أنتج حقي رواية مختلفة عن الروايتين السابقتين. ولعل هذا الفرق يكمن في تضخم الأنا في "أديب" و "عصفور من الشرق"، وضمورها في القنديل. فقد استطاع حقي أن يستفيد من تجربته، وتجارب الآخرين وأن يصوغها صياغة درامية مكثفة. فاذا كانت الروايات السابقة تتميز بطغيان الذات على الموضوع، فانّ رواية حقي تتميز بتفوق الموضوع على الذات. حتى يبدو للوهلة الأولى، أنه لا صلة بين الرواية وبين تجربة صاحبها، فرواية الحكيم على سبيل المثال تتحدث بشكل عام عن طالب يدرس الحقوق والآداب في فرنسا. وقد ذهب الحكيم الى باريس من أجل ذلك. أمّا رواية حقي فهي تتحدث عن طبيب يدعى اسماعيل، درس الطب في بريطانيا، وحقي لم يفعل ذلك. فالحق أن يحي حقي لم يذهب الى الغرب للدراسة، ولكنه ذهب الى هناك من خلال عمله في السلك الدبلوماسي المصري. فقد أمضى أربع سنوات في تركيا الكمالية، وخمس سنوات في روما (١٩٣٤ - ١٩٣٩) "في تلك السنوات بدأ اتصالي المباشر بالحضارة الاوروبية. وأخذت موقف التلميذ في الموسيقى والتصوير والمعارض والمتاحف والمسارح، واذا كانت الثقافة في روما وحركة التجديد والنشاط والابتكار لا تبلغ الذروة التي بلغتها في باريس فقد كانت تناسب شخصا مبتدئا مثلي، معالمها واضحة ملموسة وضجتها محدودة... ورغم ذلك فقد كنت أشعر دائما أنّ في داخلي شيئا صلبا لا يذوب بسهولة في تيار حضارة الغرب... عندي حضارة ان لم تفق فهي تماثل حضارتها وعندي دين هو نظام متكامل فيه الغنا." (١) وهو يقول:

---

(١) يحي حقي، قنديل أم هاشم، المقدمة، ص ٤٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" وأثناء اقامتي الطويلة في اوروبا كان أكثر ما أحن اليه في مصر هو احياؤها الشعبية القديمة التي اسمع في أزقتها كلمات مثل " أجرنها " أو " يادلعدى "، وأعايش تلك الروح الشعبية الحلوة الصابرة التي حاولت تصويرها في " قنديل أم هاشم ". "(١)

انّ حديث حقي يضعنا أمام الحقائق التالية:

١) لم يذهب حقي الى لندن ، رغم أن بطل روايته ذهب الى هناك وهذا قد يفسر لنا عدم اهتمام حقي بالمكان ، وبالتصوير الخارجي للأشياء. فهو مهتم برسم الملامح الداخلية لبطله من خلال لغة شعرية نابضة.

٢) انّ يحي حقي يصدر في الرواية عن موقف ايديولوجي جسده في الرواية. فقد وقف اسماعيل من مارى في البداية ، موقف التلميذ كما وقف حقي . ولكنّ هذا الموقف لم يكن الموقف النهائي ، فقد شعر اسماعيل ، كما شعر حقي بأنّ شيئا صلبا في داخله يستعصي على الذوبان . وكما أنّ مشاعر يحي حقي كانت نحو الفقراء والطبقات الشعبية فقد كانت مشاعر اسماعيل في المحصلة النهائية مع الطبقة نفسها ، كما كان هدفه حمل مصر على الاستيقاظ.

٣) انّ شخصية اسماعيل ، ليست شخصية حقي ، بل هي شخصية اسماعيل كامل ، " واسم اسماعيل . بطل " قنديل أم هاشم " أخذته من اسم صديق لي يدعى اسماعيل كامل ، كان آخر منصب شغله هو سفير مصر في الهند . فقد كان يمثل في نظري المؤاجهة

---

(١) يحي حقي ، قنديل أم هاشم ، المقدمة ، ص ٥٦ ، وانظر ص ٢٥ ، وانظر فؤاد دوارة ، عشرة أدباء يتحدثون ، ص ص ١٠٧ - ١٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بين الشرق والغرب." (١)

فاختيار حقي لهذه الشخصية، جاء لأنها تمثل محاولة التوفيق بين الشرق والغرب، وهذا ما جسده في شخصية الدكتور اسماعيل بطل الرواية.

انّ هذا يضفي على التجربة الذاتية طابع التفرد والأصالة، فانّ مصدر حقي الروائي يتمثل في مجموعة تجارب على صعيد البيئة، والعلاقة، والثقافة. ولكن هذه التجارب لا تكفي وحدها لابداع هذا العمل. ومن هنا تبرز قدرة حقي الفنية. فلم تكن التجربة الذاتية عاملا من عوامل انصرافه عن الاهتمام بالمحيط الذي يعيش فيه أو المجتمع الذي يعمل من أجله، أو الأهداف التي تسعى الجماعة الى تحقيقها، ولكنها كانت مصدرا لتفرد هذا العمل، حتى كاد حقي يضيق به "انّ اسمي لا يكاد يذكر الا ويذكر معه "قنديل أم هاشم"، كأني لم أكتب غيرها. وكنت أحيانا أضيق بذلك." (٢)

أما روايتا شكيب الجابري "قد يلهو"، و "قوس قزح"، فهما تجسيد للاعتقاد الذي يرى أنّ الأدب لا يكون أدبا الا اذا صدر عن تجارب الأديب الذاتية المباشرة. وسبب هذا الاعتقاد يرجع الى ما أشيع من أن الصدق في الأدب لا يتحقق الا اذا صدر الأثر عن تجربة واقعية حصلت في حياة الأديب. ولهذا فان الجابري يقول: "لا أستطيع أن أخرج رواياتي عن حياتي ... ففي حياتي الواقعية ما يكفي من المادة لتغذية خيالي، وأكسل في التفتيش عن مواضيع فان حياتي وفيم أفعل ؟" (٣)

---

١) يحي حقي، قنديل أم هاشم، المقدمة، ص ٤٣

٢) المصدر نفسه، ص ٤٣

٣) شاكر مصطفى، القصة في سورية، ص ٤٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انّ هذا القول الذى يبين مصدر تجربة شكيب الجابرى الروائية، والـــذى يبين طبيعة استخدامه لهذه التجارب، لا بد من أن يحمل في ثناياه سؤالا وهو : لماذا كتب الجابرى تجربته في رواية ولم يعبر عنها في اطار ســـيرة ذاتية؟ انّ محاولة الاجابة عن هذا السؤال تتلخص فيما يلي :

١) انّ التقاليد الاجتماعية في سوريا في الفترة الواقعة بين (١٩٣٩-١٩٤٦). لم تكن تسمح لأدب الاعترافات أن يتجاوز في جرأتـــه حدودا معينة. فروايته الأولى " نهم" التي تدور في جو غربـــي خالص، من حيث اسماء شخصياتها، ومفهوم الحب فيها، والـــتي وصفت بأنها " رواية غربية كتبت بالعربية." (١) هذه الروايـــة قوبلت بضجة كبرى (٢)، فاذا كانت شخصيات غربية تثير مثل هذه الضجـــة فكيف يكون الأمر لو أن الجابرى نسب هذا الكلام الى ذكرياته؟

٢) انّ شكيب الجابرى " هو أول روائي سورى وابرز كتاب المرحلة الأولى." (٣) فهو من الذين أسهموا في تمهيد الطريق، وارساء التقاليد الأدبية -على مستوى سوريا - فكانت استعانته بتجربته دلالة على محاولـــة تلمس الطريق. واذا عرفنا أن الجابرى بدأ في " كتابة الروايـــة وعمره تسعة عشر عاما." (٤) أدركنا أن استعانته بتجربته - أو اقتصاره عليها - أمر لا مفـــرّ منـــه.

---

١) حسام الخطيب، سبل المؤثرات الأجنبية في القصة السورية، ص ٤٦

٢) انظر شاكر مصطفى، القصة في سورية، ص ٤٠٣ وما بعدها.

٣) حسام الخطيب، سبل المؤثرات الأجنبية، ص ٤٦

٤) شاكر مصطفى، القصة في سورية، ص ٤٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣) انّ الجابري على ما يبدو يؤمن بأنّ له رسالة سياسية، ولما كان تحقيق هذه الرسالة يحتاج الى قوة شعبية، فقد فكر باللجوء الى الرواية "لأنّ الفن الروائي أقرب فنون الأدب الى قلوب الناس وأصلحها لنشر آراء الكاتب بينهم." (١) فتجاربه الذاتية هي مؤهله لاقتحام ميدان الرواية. وهو لا يود أن ينشر هذه التجارب لقيمتها فحسب، بل لأنه صاحب "آمال سياسية واجتماعية، أريد أن أدعو اليها بقوة، أن أقود وأجند الناس. كنت أحتاج الى جمهور فيجب اذن أن أبدأ بقوة. وما أردت من كتاب "نهم" سوى أن يخلق لي قراء وجمهورا. كنت أريده قنبلة تهز العالم العربي ليلتفت الي العدد الأكبر من كل قطر، لتؤمن بي النفوس الناشئة، فأسير بها في الفكر حيث أرجو." (٢)

٤) انّ الجابري من الكتاب الرومانسيين، والرومانسية تضخم من شأن الذات، والروائيون الرومانسيون، يؤكدون ذواتهم من خلال تجارب ذاتية تعرضوا لها هم أنفسهم، ويصبغون تجربتهم بصبغة الأسيان الشاكي، الثائر، المتوقد المشاعر، الذى يتجه بأسلوبه الى القلب لا الى العقل." (٣) فالجابري كان أسير ثقافته وقراءاته للمنفلوطي وروسو، ولامارتين، وشاتوبريان (٤)، مثلما كان أسير تجربته أيضا.

---

١) شاكر مصطفى، القصة في سورية، ص ٣٩٦

٢) المصدر نفسه، ص ٤٠٢

٣) محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية، ص ٢٠٦

٤) شاكر مصطفى، القصة في سورية، ص ٣٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تكشف ثنائية الجابرى أول ما تكشف عن فكر الجابرى، فثمة محاولة مقصودة يقوم بها الجابرى لكي يحظي بدلله علاء معتقداته الفكرية، فهما يؤمنان بأن العروبة هي مادة الاسلام. وبأن الاسلام هو الحقيقة الكبرى.(١)

ولهذا حق للكاتب أن يقول عن مضمون "قوس قزح" "انها نسيج قوى يحمل الكثير من أفكاره."(٢)

وتكشف الرواية بشكل مباشر عن كثير من تفصيلات حياة الجابرى. فهو ينحدر من أسرة ثرية "ولكنه لم يتمتع بغنى والده، لا بالسيارة ولا التلفون ولا الكهرباء، والبيان، ولا صالونات الرخام ... كل هذا البذخ الذى كان بدعا مدهشا حرمه الوليد لأن أباه طلق أمه يوم ولد وتركه مع اخوته في البيت العتيق وتزوج من امرأة اخرى."(٣)، وهو يكشف في "قدر يلهو" عن ذلك عندما يخاطب ايلزا "أنا مثلك يا آنستي من تلك الفئة من الناس التي ضنّ عليها القدر بالعطف الأبوى، فذهبت تخبط في معارج الحياة خبط الغريب يحس ببرد الوحدة، حيثما يضع قدمه. من تلك الفئة التي لم تكد ترى النور حتى تهدم ايمانها بالخير، وكان أول من أعمل معوله في ايماني الرجل الذى دنت له بالوجود. لقد عرفت قسوة الانسان، وخبرت أنانيته ولمست ما تجمع في خبايا نفسه من غرائزه الوحشية الأولى، وأنا لا أزال ألوى العود، غض الوجدان، لما أتجاوز وصيد البيت الى الشارع."(٤)، واذا صحّ ما صرّح به الجابرى عن علاقاته النسائية، فاننا نرى أن هذه العلاقات

---

١) شاكر مصطفى، القصة في سورية، ص ٣٩٦. وانظر قدر يلهو: ص ٥٧، ص ٨٤، ص ٨٥، ص ٩٥، ص ٩٦. وقوس قزح: ص ٦٥، ص ٧٨، ص ٨٢، ص ٨٥، ص ١٢٧.

٢) شاكر مصطفى، القصة في سورية، ص ٤٠٢

٣) المصدر نفسه، ص ٣٩٦

٤) شكيب الجابرى، قدر يلهو، ص ص ٤٠ - ٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد تجسدت في علاء على نحو واضح.[١] وكل ذلك لم يصرف الجابري عن السياسة حتى تراه يقول: "لقد شاركت في معظم حركات الشباب العربي في اوروبا. ووقفت لجابوتنسكي، الداعية الصهيونية. حيثما حل من ألمانيا فكنت حربا عليه."[٢]، فهو لم ينس أن يجسد هذه الوقفة في "قوس قزح"[٣] أيضا. واذا كان لم يرو هذه الوقفة بضمير المتكلم، ونسبها الى غيره، فذلك لاعتبارات فنية أراد منها أن يستخدم هذه الشخصية الثانوية لكي تقوم بتدريس ابنه محمد علي اللغة العربية.

أما ثقافة الجابري فهو حريص على الاشارة اليها. فهو يقع ضمن مرحلة تتباهى بالثقافة "ومعظم كتابها يتعمدون تضمين مؤلفاتهم القصصية اشارات الى المؤلفات المشهورة في عصرهم، وهذه الاشارات توضح نوع المؤلفات التي تأثر بها الكتاب، وان كان المرء لا يستطيع أن يفترض أنها قرئت واستوعبت استيعابا كافيا."[٤]

---

١) انظر شاكر مصطفى، القصة في سورية، ص ٤٠٠، ص ٤٠١، وانظر قدري يلهو، ص ٤٩، ٥١، ٥٢، ٥٨

٢) شاكر مصطفى، القصة في سورية، ص ٣٩٧

٣) شكيب الجابري، قوس قزح، ص ص ١٤٩ - ١٥٣. راجع حسام الخطيب ملامح في الأدب والثقافة واللغة، ص ص ٨٩ - ٩٠، فهو يقول: ان الجابري ذكر أن بعض قصصه المتعلقة بفلسطين تحمل تجاربه الخاصة.

٤) حسام الخطيب، سبل المؤثرات الأجنبية، ص ٤٦ وانظر الاشارات الثقافية في قوس قزح في الصفحات التالية: ١٧، ٢٧، ٤٣، ٨٢، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٠، ١٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما عيسى الناعورى فقد استفاد هو الآخر من تجربته الشخصيـــة، استفادة واضحة. واذا استثنينا لقاء سعيد بلوشيا، هذا اللقاء الـــذى اعتبره المؤلف خياليا - وهو يعني أنه لم يحدث - فانّ بقية الأفكار والأحـداث منتزعة من تجارب المؤلف وثقافته.

يقول الناعورى "وعلى الرغم من أنها بنيت على لقاء خيالي بين الرجل العربي والمرأة الايطالية. في حجرة قطار. فانّ الأحداث الواردة فيها من خـلال السياق قد انتزعت من واقع الحياة في الشرق والغرب، مما عرفته بنفسي هنـا وهناك."(١)، على أنّ الوصول الى مصادر التجربة الروائية ليس صعبـا. فسعيد بطل الرواية مسيحي، يتمثل في لحظة الضعف تجربة المســـيح في بستان الزيتون(٢)، وهو يتقن اللغة الايطالية اتقانا جيدا باعـــتراف الكاهن لوشيا(٣)، ويردد الاغنيات الايطالية ويحبها، ويردد كثيرا مـن ألفاظ هذه اللغة ومصطلحاتها(٤).

ويحفظ كلمات جبران خليل جبران وهو يناجي الليل.(٥) ولا يخفى أن ثمة تشابها بين المؤلف وبطله في هذه النواحي.

واذا كانت رحلة عيسى الناعورى الى ايطاليا قد "استغرقت ستة أشهر، من ايلول ١٩٦٠ الى آذار ١٩٦١"(٦)، فانّ رحلة سعيد استغرقت ســـتة

---

١) عيسى الناعورى، تجربتي في العمل الروائي والقصصي، أفكار، العدد التاسع والثلاثين، آذار، ١٩٧٨، ص ٣٧

٢) عيسى الناعورى، ليلة في قطار، ص

٣) المصدر نفسه، ص ٨٤، ص ٣٦

٤) المصدر نفسه، ص ٢٨، ٤٣، ٥٦، ٦٤، ٦٧، ٦٩، ٦٨، ٧٠، ٧٤، ١٠٤، ١١٩

٥) المصدر نفسه، ص ١٠٢

٦) عيسى الناعورى، تجربتي في العمل الروائي والقصصي، أفكار، العدد التاسع والثلاثين، ص ٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أشهر أيضا ، تجول في انحاء ايطاليا كلها . (١)

ولذا فانّ الناعوري يعتبر هذه الرحلة ، ممثلة لبداية الدور الثاني في حياته الروائية والقصصية لأنها فتحت له آفاقا جديدة " تعرفت بعدد كبير من أشهر ممثلي الأدب الايطالي ، وحصلت منهم شخصيا أو من ناشري كتبهم على العديد من أعمالهم الأدبية ، ولا سيما القصصية والروائية . ورحت أدرسها بنهم وبشوق الى المعرفة . وانفتحت عيناي على أشياء كانت مجهولة لدى جهلا مطلقا وكان لا بدّ لي من العودة الى نفسي أحاسبها حسابا عسيرا . " (٢) يقول سعيد للوشيا في معرض حديثه عن كراهيته للمطبخ الايطالي ، انه كان مضطرا الى تناول ما يقدم له من عجائن محكرونية" الا مرة واحدة دعاني فيها مستشرق ايطالي صديق في روما الى منزله . وهناك تناولت أطعمة شهية متعددة لم تخل طبعا من العجائن ، الا أنها كانت مطهوة بشكل يختلف عما عرفته في مطاعم ايطاليا . " (٣) ولعلّ في هذه الاشارة الواضحة ما يدل على كون هذه الرواية تنبع من تجربة المؤلف الشخصية بشكل صريح . حتى تغدو الاشارة الى المستشرق الايطالي واضحة لطبيعة هذه التجربة ، بشكل لم يعد فيه المؤلف قادرا على السيطرة على أبعاد هذه التجربة ، وعاجزا عن خلق نوع من التوازن بين التجربة الذاتية ، والتعبير عنها بشكل روائي .

---

١) عيسى الناعوري ، ليلة في قطار ، ص ١٣٦

٢) عيسى الناعوري ، تجربتي في العمل القصصي والروائي ، أفكار ، العدد التاسع ، والثلاثين ، ١٩٧٨ ، ص ٣٤

٣) سامي الجندي ، احداث في المنفى ، ص ٦ ، ص ٧ وانظر مقدمة مجموعته القصصية كسرة خبز ، ص ١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما "أحداث في المنفى" فثمة صلة بين تجربة مؤلفها وبين أحداثها فهو يقول : " سنتان والموت مني قاب قوسين أو أدنى لم أحسب له حسابا لا عن شجاعة، ولا تهورا وانما كنت مغدر الأعصاب. احساساتي احساسات منوم، كأني من عالم آخر، كنت شديد الخوف من أن أغدو قاتلا. أن أقتل قبل أن أقتل." (١)، واذا كان هذا الحديث يلخص عقدة القصة، فهل نقل الجندي تجربته نقلا حرفيا ؟ انّ ذلك يتنافى بطبيعة الحال مع الفن الروائي وان كانت الوثائق تحوزنا للمقارنة والاستنتاج.

أما رواية اللوزي "المهاجرون"، فهي تمثل تجربة الصحفي، وهذا يعني أنّ الرواية لم تكن مبنية على تجاربه فقط، وانما ترتكز على تجارب أناس من المهاجرين. ولكنّ الصحفي الذكي فيه استطاع أن يمد الجسور بين هذه التجارب، حتى غدت التجربة ذات وجه واحد. فهو يقول : " انّ هذه القصة واقعية في احداثها واشخاصها، وان تغيرت بعض الأسماء لأنه لم يكن في الامكان تغيير أسماء ينسب اليها عصر كامل من التاريخ العربي. كل دوري في هذه القصة أنني اكتشفت في أشخاص ابطالها نماذج للتيارات والصراعات والايديولوجيات السياسية والاجتماعية والطائفية التي صنعت احداث عالمنا خلال العشرين عاما الماضية." (٢)

انّ التجربة الذاتية في هاتين الروايتين هي أصل العمل الروائي ولكن الباحث لا يستطيع أن يتميز أبعاد تفصيلات هذه التجربة. والملاحظ أنّ اللوزي أكثر من الشخصيات، ولكنها كانت تميل الى الوحدة، رغم تنوعها، في حين

---

١) سامي الجندي، احداث في المنفى، ص ٦، ص ٧، وانظر مقدمة مجموعته القصصية كسرة خبز، ص ١٧

٢) سليم اللوزي، المهاجرون، ص ٨، ص ٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قلل الجندي من هذه الشخصيات حتى كاد يحصرها بنفسه.

أما الحجيلي فهو يقول "أبطال قصصنا هم نحن، جزء أو كلا، وأحداث تلك القصص جرت لنا حقا في الواقع أحيانا، وفي الخيال أحيانا. انّ الواقع والخيال عندي فيما أكتبه من قصص هو واحد في القوة. وفي القيمة، أحدهما منطلق الآخر، وأحدهما يتمم الآخر من الواقع ينبثق الخيال، ومن الخيال أرسم صورا وأصف أحداثا تصبح بقدرة الفن واقعا."(١) وهذا الذي يقوله الحجيلي صحيح، ولكننا لا نستطيع أن ندرس "رصيف العذراء السوداء" من هذا المنطلق لأنّ الوثائق تنقصنا.

أما فاضل السباعي فهو يقول: "وانّ ما أحب أن ألفت اليه أن ليس بين حوادث القصة وبين واقعي الشخصي أيما نسب، وان كان يخيل في الاغلب الى القراء أنها واقعة لمؤلفها. يوحي اليهم بذلك ايغال في الوصف والتحليل، وتتبع الشوارد. حتى لتأخذ القارئ يقين بأنها بنت الحقيقة، لا ريب في هذا، يضاف الى هذا أنها مروية بضمير المتكلم بمعنى أن بطلها هو الراوي."(٢)، فهذه الرواية تخالف الروايات السابقة، ولذا لا تتضح فيها الأبعاد المكانية، بل اننا لو غيرنا الأسماء الأجنبية ووضعنا بدلا منها اسماء عربية لما اختل البناء الروائي، فالمفروض أنّ الكاتب القصصي يعاني التجربة، ولكنه يخلقها خلقا موضوعيا في عالم خاص يخترعه ويجعلها تبدو لنا مقنعة."(٣)

---

١) عبد السلام الحجيلي، رؤية في القصة، الآداب، العدد الخامس، ١٩٧١، ص ص ١٨ - ٢٠

٢) فاضل السباعي، الآداب، العدد العاشر، السنة الثالثة والعشرون، ص ٥٩

٣) محمود السمرة، في النقد الأدبي، ص ١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب - رواية اليوميات والرسائل :

تعتمد رواية سلمى الكزبرى على اليوميات بشكل رئيسي ، كما تعتمد على الرسائل أيضا . أما اليوميات فهي للدكتور عصام ، الذى تخصص في جراحة القلب بعد اقامته ست سنوات ونصف في ولاية كليفلاند الأمريكية . وأما الرسائل فهي متبادلة بين عصام وسالم على نحو رئيسي ، وبين كل من عصام ونزار وهيلا على نحو بسيط .

يبدأ الدكتور عصام بتسجيل هذه اليوميات في كليفلاند ابتداء من ١٩٧٣/٣/٢ حتى ١٩٧٣/٤/٢٩م . ثم يستأنفها في ٧٣/١٠/١٧ ، لتكون مذكراته في هذه الفترة مرافقة لحرب تشرين . ومعنى هذا أن الفترة الزمنية التي امتدت قرابة شهرين كانت المحور الزماني لتدوين هذه اليوميات ، ولعلّ الرواية تهدف من وراء هذا التكثيف الى أن تجعل هذه اليوميات خلاصة لهذه التجارب التي مرّ بها عصام طيلة اقامته في الولايات المتحدة . ولكن هذا التكثيف هو أكثر ما يؤخذ على هذه اليوميات ، لأن عصاما كتب في هذه اليوميات (سواء أكان ما كتبه من مذكراته الشخصية ، أم من رسائل أصدقائه) ، في الفترة الواقعة بين ١٩٧٣/٣/٢ و ١٩٧٣/٣/٣١ ، سبعا وثمانين صفحة . وكتب ستا وخمسين صفحة في الفترة الواقعة بين ١٩٧٣/٤/٢ وحتى ٧٣/٤/٢٩ ، (١) واذا أضفنا الى ذلك تلك التقارير العلمية التي كان يكتبها بعد كل عملية ،

---

(١) سلمى الكزبرى ، البرتقال المرّ ، ص ٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدركنا أن عمل عصام الوحيد في هذين الشهرين كان الكتابة وتلقي الرسائل ، وحفظها والتعليق عليها .

من هنا سيطر الافتعال على هذه المذكرات، وخلت من الحرارة والصدق . فاذا كانت قصص الرسائل والمذكرات " تتجلى في اتاحتها للكاتب التعبير عن الأحاسيس والعواطف التي تعتمل في نفوس الشخصيات بحرية وانطلاق . "(١) فانّ هذه المذكرات ترسم لنا حالات ذهنية تطفح بالانتقادات، دون أن تكون هذه الأفكار، قادرة على انارة أعماق هذه الشخصيات فهي تخلو من تسجيل الصراعات النفسية والفكرية لهذه المواجهة مع الغرب، في حين يسمح بناؤها بتسجيل هذه الصراعات على نحو متدرج قد لا تستطيعه غيرها من الروايات.

تبدأ هذه المذكرات بعرض عام يتحدث فيه عصام عن نفسه ، وعن عائلته المكونة من أمه . وأخوته ، نبيل وبشار وهدى . ويروى كيفية مجيئه الى كليفلاند ، ويتحدث عن حنينه الى الوطن ، وعن خطر هجرة الأدمغة وعن زيارة أمه له في الولايات المتحدة ، وعن اعجابها بها . وينهي هذه المذكرات بالحديث عن عمته ، وابنتها (شقيقته في الرضاعة) ثم يقوم عصام في مذكراته بتوضيح بعض أبعاد الشخصيات التي تحدث عنها . ولكن سيادة العنصر الفكري في هذه اليوميات، حجب البيئة ، ومنع نمو الشخصيات باستثناء عصام وسالم - وظلت الشخصيات معروضة على المشرحة . لا تستطيع أن تدافع عن نفسها . مما أحال هذه الشخصيات رغم تكديس الأفكار الى أشباح باهتة.

واذا أضفنا الى ذلك سيطرة أسلوب المقالة وخلو الرواية - تقريبا - من

---

(١) محمد يوسف نجم ، فن القصة ، ص ٨٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللقطات التعبيرية الموحية، وحرص المؤلفة الزائد على "الأفكار" عرفنا سرّ الجهامة التي تسيطر على الرواية.

تقدم الرواية شخصياتها، عبر رؤية جامدة. حرمت هذه الشخصيات من النمو والتطور، مما صبغ الرواية بالجفاف، وحولها الى مجموعة مقالات ولعلّ ذلك يرجع الى عدم وجود نسيج روائي محكم، يجمع بين الشخصية والحدث، بالاضافة الى انعدام عنصر الحدث نفسه، ولذا كانت الرؤية الى الشخصيات تتم عبر مستويين. فهي اما شخصيات مثالية، وامّا شخصيات شريرة. فمنى ابنة عمته، متفوقة، وذكية، وقارئة، ومتعلقة بالوطن،(١) وسالم فيلسوف، امتاز بنظرته الثاقبة والفلسفية وهو رقيق الطبع، مولع بالمطالعة، بارع في الحديث(٢)، وزميله الياباني كيوشي من "أنبل الشباب والأصدقاء"(٣)، وهيللا "رائعة في كل شيء: في طباعها وذكائها، في روحها وجسمها. جمالها هادئ يدعوني الى التفاؤل والراحة، قامتها ممشوقة، وشعرها الذهبي مسترسل لماع."(٤)، أما الشخصيات المضادة، فهي مغرقة في الشر. فالدكتور فيشر فيه لؤم ووقاحة(٥)، وهو على العكس من الدكتور جاكسون الذي يملك "يدا سحرية ودماغا عبقريا."(٦)

---

١) سلمى الكزبرى، البرتقال المر، ص ١٨

٢) المصدر نفسه، ص ١٩، ٢١، ٢٢

٣) المصدر نفسه، ص ٢٤

٤) المصدر نفسه، ص ٣٠

٥) المصدر نفسه، ص ٢٥

٦) المصدر نفسه، ص ٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وزوج هيلا رجل شرير أخفى عنها قبل الزواج أنه يتعاطى المخدر، واستمر بعد ذلك حتى تم الانفصال.[١]، والمؤلفة لا تدع فرصة للأطراف الأخرى لكي تعبر عن وجهات نظرها، فهي متحيزة تحيزا واضحا للشخصيات الرئيسية. ولعلّ خير مثال يبين ذلك، هو حديث سالم عن هدى، أخت عصام، في احدى الرسائل التي بعث بها الى صديقه: فهو يقول: "تصور أنّ عزيزتنا هدى التي نجحت في الفرع العلمي للبكالويا بتفوق، وتسجلت في كلية التجارة قبل سفر أمك اليك. تصور أنها تفكر بهجر الدراسة نهائيا، وترغب في التفرغ للعبادة. يبدو أنها حضرت مع زميلات لها بعض الدروس الدينية، في أثناء غياب الوالدة، وتأثرت بها الى درجة جعلتها تتحجب من جديد، ... لا تخف يا صديقي سأقنعها مهما تطلب الأمر من جلسات معها، بأنّ الاسلام الصحيح لا يمنعها أبدا من طلب العلم ومن العمل والسعي نحو الأفضل."[٢]، فنحن لم نعرف رأي هدى، لأنّ المؤلفة لم تتح لها أن تعبر عن هذا الرأي في رسالة لأخيها؛ ولكنّ الهدف من هذه اللقطة ادانة أصحاب هذا الفكر وانتقادهم. واذا كانت المؤلفة تختلف معهم على المستوى الفكري، فينبغي أن يكون هذا الخلاف مبررا على المستوى الفني.

ومن الواضح أنّ أسلوب عرض هذه المذكرات، يكشف عن شخصية المؤلفة أكثر مما يكشف عن شخصية الأبطال. ولذا تكثر الاشارات الأدبية

---

١) سلمى الكزبري، البرتقال المر، ص ٣٤، ٣٥ وانظر ص ١٠٣

٢) المصدر نفسه، ص ٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتاريخية، واللغوية.[١]، صحيح أنّ هذه الاشارات الثقافية تمتاز بالعمومية، ولكنها بالمقابل لا تشير الى ميدان تخصص عصام، بل تنقله من ميدانه الى ميدان الأدب.

تعتمد رواية طه حسين "أديب" على الرسائل أيضا، ولكنها تختلف في اعتمادها عن رواية الكزبرى، فالرسائل لا تشكل الوسيلة الوحيدة، بل هي احدى الوسائل التي يلجأ اليها القاص لعرض الشخصية وتحليلها. في الرواية اثنتا عشرة رسالة، عشر منها وجهها أديب الى الراوية، وأخرى من أديب الى والده. وأما الثانية فهي لزوجته كتبها ولم يبعثها. وهاتان الرسالتان كتبتا في القاهرة. أما رسائله الى الراوية فكلها كتبت في باريس باستثناء الرسالة الأولى. يتحدث أديب في هذه الرسائل بضمير المتكلم، لكي يغوص في أعماق نفسه، وينبش ما فيها من مشاعر، ولكي يوضح موقف هذه الذات من العالم. ولهذا تنجح هذه الرسائل في الكشف عن نفسية أديب، وما فيها من صراع وتوتر، وما رافق هذه الشخصية من نمو وتحول وتغير، تبعا للمراحل الحضارية التي مرّت بها.

ولعلّ حياة أديب وما فيها من صراعات، هي التي جعلت لهذه الرسائل مثل هذا التأثير، فاذا كانت يوميات عصام، ورسائل سالم تعتمد على الأفكار، فانّ رسائل أديب تنطلق من داخل الذات. فهو يقول عن نفسه "فأنا أدرسها وأسرف في درسها وتحليلها."[٢]، ولعل هذا يجعل ذاته في موقف المتفحص، فتتحرك دخائل شعوره، وأفكاره، وتظهر عاطفته فيما يسرد من مواقف ووقائع.

---

١) سلمى الحفار، الكزبرى، البرتقال المر، ص ٤٩، ٥٠، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٧٨، ٨٠، ٨٤، ٩٠ - ٩٨، ١٣١.

٢) طه حسين، أديب، ص ١١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الرسالة الأولى يكشف أديب عن موقفه من البيئة، وإذا كان من عيوب هذه الرواية، حركتها الهامشية في اطار هذه البيئة، فانّ الكشف اللامتناهي عن هذا الموقف يعتبر من حسناتها. ويجيء هذا الكشف، لكي يجلّي عناصر التطور في الشخصية الروائية، ولكي يعلل هذا التطور أيضا. ولكنّ هذا الكشف يتم عبر أسلوب المقالة من هنا لا يأخذ سخط أديب بعدا دراميا، بالقدر الذى يبدو فيه ثورة عارمة على أشياء جامدة لا حس فيها ولا حياة. يقول: " هنالك رحلت الى الريف وليتني لم أفعل! فلم أكن أظن أنني سألقى في هذا الريف ما لقيت في حزن لاذع وألم ممض ويأس لا صبر معه ولا احتمال له. لا أصف لك جزع أمي ولا سخط أبي، فحسبك أن تعلم أنّ أمي لا تصيب من الطعام الّا ما يقيم الأود، وهي لا تصيبه الا بعد الحاح متصل. وأنها لا تذوق النوم الّا غرارا وأنها لا تمسك الدموع، وانما ترسلها ارسالا حتى تنقطع. وأنها تعتقد اعتقاد يقين أنها فقدت ابنها الذى كانت تحبه وتؤثره وتدخره للحوادث والنائبات." (١)

ولعلّ هذه الأسطر تكشف عن عدم اهتمام الكاتب بأى عنصر من العناصر الروائية، فهو يصف، ويعبر عما يراه بدقة، ولكنه غير مهتم بايجاد الروابط بين جزئيات ما يصف، ولذا يخلو الموقف من الحركة والحيوية والنمو. ولذا نراه يقول:

" في ذات يوم أصبحت ضيق الصدر، كئيب النفس، شديد الحرج، ممتلئا بهذا العجز الموئيس عن رضاء هذين الشيخين، كارها أشد الكره للدار وللقرية ومن فيها، فخرجت أهيم في الريف التمس راحة النفس في تعب الجسم، ولست أزعم أني خرجت أريد وجهة بعينها أو أسعى الى

---

(١) طه حسين، أديب، ص ٤٥، ٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غاية معروفة، وانما هو المشي، والابتعاد فيه، والخلوة الى النفس. والفرار من لوم اللائمين، وعذل العاذلين، والحاح الملحين."(١)

انّ هذا الموقف الذى يجسد ما يدور في نفس أديب من صراع مع والديه، ومع أهل بلده، ويعكس بالتالي غربة أديب عنهم، لم يأت من خلال قالب فني يكشف لنا سمات هؤلاء الناس، ومعالم هذه البيئة. بل جاء عبر اعتراف يأخذ شكل المقالة.

ولكنّ أديبا يتعامل مع هذه البيئة، باعتبارها الفردوس المفقود، ولذا يصبغها برؤية جمالية تنبع من ثقافته. فهو يقول عن احدى النزع التي ردمت بعد أن كانت تنساب من الابراهيمية الى القرية "لقد ماتت قناتنا أيها الصديق، ماتت ودفن فيها أو صرف عنها ذلك الاله الشاب من آلهة الأساطير، الذى كان ينطلق فيها فرحا مرحا هادئا وادعا مستبشرا يرسل البشر من حوليه جميلا يثير الجمال على جانبيه. مات هذا الاله الشاب فدفن في مجراه، أو طرد هذا الاله الشاب وردّ عن مجراه وفني في الابراهيمية ... فقد هدم معبد هذا الاله الشاب وماتت القناة فمات هو أو نفي من الأرض وأصبح حديثا كغيره من الآلهة الذين أصبحوا أحاديث."(٢) فهذا اللجوء الى الأساطير يكشف عن ثقافة اغريقية "فعلى نحو ما جعل هوميروس من نهر الاسكامندر في الاليادة الها يصارع البطل (أخيل)، نرى طه حسين يجعل من قناة بلدتهم الها شابا سرعان ما ينسى وينسينا أنه أسطورة أو اله خرافة ... واذا بالكاتب يمزج بين حياة هذا الشاب وحياة من حوله، ونفث فيه فيضا من العاطفة

---

١) طه حسين، أديب، ص ٤٧، ٤٨

٢) المصدر نفسه، ص ٥٤، ٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد بلغت من التأثير في نفس القارئ مبلغا ، ما كانت - الألفاظ - مهما رقتد بمستطيعة أن تصل اليه بغير هذا التشخيص." (١) واذا كان صحيحا أنّ هذا النثر يمتلئ عاطفة ، فانّ هذا المزج يظل غير قادر على التفاعل مع البيئة في اطار قصصي ، لاستعلائه عليها . وينطبق هذا على رسالته لزوجته ، صحيح أنها تمتاز بصدق العاطفة ، وتعبر تعبير صادقا عمّا يعانيه أديب من اضطراب وغربة ، فحميدة هذه التي رضيت به زوجها على قبحه ودمامته يكافئها بالطلاق ، يبعث لها برسالة - وهي أميّة - يتحدث فيها عما " يقوله بعض الناس من أصحاب التصوف حين يتحدثون عن امتزاج الظرف بالمظروف والعقل بالمعقول والفكر بموضوع التفكير." (٢) أما بقية الرسائل فهي تخلو من هذا الخطأ ، لأنّ الحوار بين أديب والراوية حوار متكافئ . ولكنّ هذه الرسائل مكتوبة باسلوب طه حسين واذا كان هذا الأسلوب يمتلئ بالموسيقى فان له عيوبا على المستوى القصصي " وأوضح تلك العيوب أمران :

١) عدم الدقة والتحديد الناتجين اما عن عدم اختيار اللفظ المعبر ، واما عن استعمال أشباه الجمل .

٢) الاسراف الذي نراه أوضح ما يكون في اشباع المعنى أو الاحساس ، أو في الصياغة اللفظية التي تلجأ الى المفاعيل المطلقة على نحو ملحوظ . وفي هذه العيوب ما يبعد به عن مشاكلة الواقع." (٣)

---

١) محمد مندور ، في الميزان الجديد ، ص ١٤

٢) طه حسين ، أديب ، ص ١٠٨

٣) محمد مندور ، في الميزان الجديد ، ص ٥٥ وانظر احمد هيكل ، الأدب القصصي والمسرحي في مصر ، ص ١١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما شكيب الجابرى فهو يستخدم في ثنائيته " قدر يلهو" و "قوس قزح" ، طريقتين . فهو في الرواية الأولى يعرض للحوادث من وجهة نظر علاء ، مروية بضمير المتكلم ، حيث يكشف الزمن التدريجي ، المصاغ بالطريقة التقليدية عن نمو الحدث . أما في " قوس قزح" ، فهو يعرض للأحداث نفسها من وجهة نظر ايلزا ، وهو بذلك يريد أن يتيح للقارئ الفرصة لادراك التقابل ، في درجات الاهتمام بالحدث نفسه، تفصح ايلزا عن وجهة نظرها عبر يومياتها ، هذه اليوميات التي استمرت من ٢٧ ايلول ١٩٢٦ ، وحتى ١٥ نيسان ١٩٢٨م .(١) والقارئ لهاتين الروايتين يدرك أنّ الجابرى قد نجح - من حيث الفكرة - عندما جعل ايلزا تتكلم عبر مذكراتها لعدة أسباب :

١) لم تكن ايلزا قادرة على توضيح وجهة نظرها في علاء ، من خلال الحوار المباشر ، فهو منشغل عنها بعالمه الذى اصطنعه لنفسه ، وبخاصة علاقاته النسائية المتعددة . ولا تمثل ايلزا في هذا العالم الاّ علاقة عابرة .

٢) انّ المذكرات أكثر قدرة على تجلية غوامض عالم المرأة ، وما يحيط به من سرية وغموض . فحرية ايلزا في البوح عن مكونات نفسها عبر هذه المذكرات ، تفوق قدرتها في الحديث المباشر عنها .

٣) استفاد الجابرى من هذه المذكرات لتعميق بعض الجوانب في الرواية الأولى . لأنّ علاء لا يستطيع الحديث عن بعض هذه

---

(١) تحمل آخر رسالة تبعثها ايلزا لعلاء في " قدر يلهو" تاريخ ١٥ تموز ١٩٢٧ ، أما في " قوس قزح" ، فانّ الناشر يقول انّ تاريخها الصحيح هو ١٥ نيسان ١٩٢٨ . ومعنى ذلك أن الفترة الزمنية لعلاقة الجابرى بايلزا حسب "قدر يلهو" استمرت ثمانية أشهر وبضعة عشر يوما . أما حسب التاريخ الآخر فقد استمرت سنة وسبعة أشهر . ولا يخفى أنّ هدف الجابرى هو المد في عمر هذه العلاقة لكي يمرر ما يريد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجوانب، لشبابه عنها أو لغيابها عنه ، فهو يجهل عالم ايلزا الداخلي ، ولا يعرف شيئا - بحكم عودته الى الوطن - عن ابنه محمد علي . فكان توضيح هذه الجوانب اضافة جديدة الى الرواية .

غير أنّ الجابري حرص عبر هذه المذكرات على صياغة ايلزا . كما يجب أن تكون . يقول الجابري عن " قوس قزح " مقارنا لها بـ " قدر يلهو " أما " قوس قزح " ، فهي ذات القصة ، لكنها كتبت بقلم البطلة . وبين الكتابتين يحس العربي أنه شيء رائع . وأن الغرب الآفل بحاجة الى شبابه ، وعنفوانه ، وما تحدر من الاجيال في دمائه الزكية من قوة الانبعاث ليخلفه في حمل الحضارة الى العالم القادم ، وقد نفخ في ماديته من روحانيته ، وعاد التراث الانساني بين يديه ، وهو أروع ما يكون لخلق الانسان خلقا جديدا . "(١)

وفي هذا القول قدر كبير من الصواب - فيما يخص نجاح المؤلف في التعبير عن قصده - وان كان قول المؤلف عن الرواية انها كتبت بقلم البطلة يحتاج الى بعض التوقف . لأنّ أسلوب كتابة هذه المذكرات لا يكاد يختلف عن أسلوب الجابري في " قدر يلهو " . وهذا يعني أنّ الجابري " ظل يتكلم في مذكرات ايلزا ، وفي اعترافاته على السواء وباللهجة نفسها . لم تستطع تجربته مع المرأة أن تتمثل طبيعة أخرى على قلمه ، ولا استطاع أن يكون ايلزا . "(٢)

---

١) شكيب الجابري ، مجلة الثقافة الدمشقية ، العدد الثامن ، ص ص ٣٩ - ٤٥

٢) شاكر مصطفى ، القصة في سورية ، ص ٤٣٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو على سبيل المثال يصف الجو الماطر الذى التقى فيه بايلزا :

"الشارع ، مقفر ، ووجه السماء لا يزداد الا عبوسا . ولست أرى العاصفة ممسكة قبل الصباح . فهل لي أن أضيفك الليلة . ففي غرفتي سعة وهنا سرير تأوين اليه . وأنام على الأريكة دون انزعاج ."(١)

وهي تنقل كلامه في مذكراتها على النحو التالي :

" أرى السماء ازدادت تجهما والشارع قفورا . ولا أجد لك خيرا من قضاء ليلتك ها هنا ، تنامين على السرير وأنام على المتكأ ان لم تجدى بأسا في أن تضمنا حجرة واحدة ."(٢)

صحيح أن ايلزا ، وعلاء يصفان موضوعا واحدا ، ولكن لغتها في هذه المذكرات لا تسمح بأن تكون هذه الروايات من روايات وجهات النظر ، لما فيها من تطابق مع أسلوب المؤلف . فالمفروض أن قدرا كبيرا من الاختلاف يفصل بين هاتين الشخصيتين ولا يصح أن تكون طرق تعبيرهما ، فضلا عن آرائهما متشابهة . ولذا كان تطرف الجابرى في ابراز شرقية ايلزا - لكي تكون ممثلة لفكرته - في أن الغرب الآفل بحاجة الى شباب وعنفوان الشرق - كبيرا . فقد بدت ايلزا "شرقية الملامح لحد كبير ، مواقفها الانسانية تشرب من مثلنا نحن ، بينما تنعكس في علاء بعض الملامح الغربية."(٣)

ولكن بداية هذه اليوميات تخضع لمفارقة رئيسية ، وهي القدرة السريعة على تدوين ايلزا لها . تحكي ايلزا عن هذه الحالة الجوع والتشرد التي تقاسي

---

١) شكيب الجابرى ، قدر يلهو ، ص ٩

٢) شكيب الجابرى ، قوس قزح ، ص ١١

٣) شاكر مصطفى ، القصة في سورية ، ص ٤٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فتقول : " البارحة بعد منتصف الليل ، بين الساعة الثانية والثالثة غادرت منزل البرشت هوسر غير عابئة بتوسله ولا بوعيده ." (١) والعجيب أنها صباح ذلك اليوم بدأت بتدوين المذكرات. واذا تجاوزنا عن امكانية تنفيذ ذلك، ورأينا المذكرات، عجبنا لما فيها من ترف فكري. فهي تقول صباحا عن البرشت انه " رجل كسائر الرجال لا شر من غيرك ولا خير، وانها لجبلّتكم التي فطرتم عليها ، فليس الذنب ذنبكم فيما تفعلون ." (٢) وتستدرك في المساء، وتستغفر الله لأنه منحنا العقل " لنميز به الخير من الشر، فان أفسدنا في الأرض فانما نحن وحدنا المذنبون ." (٣) ومن الواضح أنّ تلك الثورة، وهذا الاستدراك تؤكدان شيئا مهما يحرص المؤلف على اثباته. فهو حريص على هجاء الغرب، والتبشير بقرب تدهور حضارته. من خلال البرشت هوسر. وهو حريص على اثبات نقائه ومثاليته (نقاء الشرق ومثاليته أيضا . فقد أنقذ ايلزا وهي " ذاهبة الى قارعة الكورفرستندام حيث تكثر الموسمات." (٤) ولكن تدوين هذه المذكرات، يعتبر ضعفا من الناحية الفنية، وتأكيدا على رومانسية هذا العمل . لأنّ عناصر المأساة الرومانسية تتوفر فيه . فايلزا فتاة عاشت أيام طفولتها في نعيم وهناء، ثم ماتت أمها ، وعندما كبرت تزوج والدها وعاشت " جحيم الخالة"، فهربت وكادت تنتحر . ثم أنقذها علاء، وأحبته وحملت منه، وسافر الى بلده، وولدت له ابنا مات بالسل . ثم تلتقي

---

١) شكيب الجابري ، قوس قزح ، ص ٣

٢) المصدر نفسه ، ص ٦

٣) المصدر نفسه ، ص ٧

٤) المصدر نفسه ، ص ٧ ، ٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعـــلاء في بيروت، وتموت بالسل هي الأخرى.

ولكنّ ما يميز هذه اليوميات في "قوس قزح"، عن الرواية "قدر يلهو"، هـــو حضور البعد المكاني. فنحن في هذه اليوميات نتعرف الـــى اماكن كثيرة واذا كانت هذه الأماكن لا تشارك في صنع الحدث على نحو فاعل.(١)

فانها تنقذ نفسها وتنقذ الرواية "قدر يلهو" من الوقوع في التجريد. ولكنّ ذلك لا يعطي للمكان في الرواية خصوصية فنية متميزة، لأنها ظلّت اطارا عاما لحركة الشخصيات، ولأنّ التفاعل بين الطرفين كان معدوما أو شـــبه معدوم.

أما رواية سهيل أدريس "الحي اللاتيني"، فهي تعتمد علـى التنويع في بنائها، ولذا فهي تستخدم الرسائل والمذكرات، ولكنهـــا لا ترتكز عليها بشكل رئيسي، مع أن هذا الارتكاز على درجة كبيرة مـــن الدقة. تحتلّ رسائل الأم وجانين النصيب الأكبر في هذه الرســـائل. أما الرسائل الأخرى فهي عبارة عن رسالتين، واحدة لجانين من بطـــل الرواية، والثانية من فؤاد لهذا البطل. وينبغي أن نشير الى قضيـــة هامة وهي أنّ رسائل أمه وجانين أشبه بالنقائض. فثمة تضاد بين هاتين الشخصيتين انعكس في رسائلهما. كما أنّ هناك قضية أخرى ينبغي أن نشير اليها وهي أنّ رسائل أمه غير مكتملة الوجود من الناحية الفنية. فنحـــن لا نعثر على رسائل، بل نجد مجرد اقتباسات أو اشارات. ولكن ذلـــك لا يعتبر مأخذا من الناحية الفنية، فلم يقصد المؤلف من خلال الاشـــارة الى هذه الرسائل الا دفع الحدث الروائي بالاتجاه الذي خطط له. وهـــي

---

١) شكيب الجابري، قوس قزح، ص ٧، ١٠، ٦٢، ٧٤، ٨٣، ٢١ - ٢٧، ٩٥ - ١٠٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لذلك اشارات دالة على الأحداث قبل أن تكون صياغة شكلية .

تقف الأم في رسائلها عاملا يحول بين ابنها وبين الاندماج في المجتمع الجديد ، فكانت رسائلها بمثابة ضابط لسلوك البطل ، يسيطر عليه تارة ، ويثور عليه تارة أخرى . في الرسالة الأولى تقول له : " أعود فأحذرك يا بني من نساء باريس، وقاك الله شر بنات الحرام . " (١) وهو في هذه الفترة يقبل هذه المقولة ، ويأخذ بمناقشتها . ومن ثم تكون لحظة قبولها مؤشرا على عدم اندماجه في المجتمع الجديد .

أما الرسالة الثانية فقد جاءت في لحظة تغاير اللحظة الأولى تماما . فلم يكن طرحها نوعا من الافاضة والتكرار ، بل كان يدل على براعة المؤلف في استغلال الجزئيات ، لكي ترتسم خطوط النهاية بشكل طبيعي . فقد كانت أمه مريضة يوم التقى بجانين . وكان قد عزم على أن يبرق لذويه مستفسرا " ولكنه جعل يرجئ الكتابة اليها يوما بعد يوم ، ثم ها قد فاته أن يكتب ، وها هي ذى أمه الحبيبة عاتبة أن كلمة لم تبلغهم ذلك الأسبوع بينما كانوا يترقبون أن يوافيهم ، بدلا من رسالته الاسبوعية المعتادة ، باثنتين . " (٢)

فجانين صرفته ، لأنه غير قادر على ارضائها وارضاء أمه معا . ومن الواضح أن جانين لم تعمد الى خلق هذا التناقض ، ولكن وجودها خلقه بشكل آلي . وليس عجيبا بعد ذلك أن يشعر بالذعر " حين فض الرسالة فوقع نظره على خط أمه . " (٣) ، لأن هذا الشعور امتداد لتحذير

---

١) سهيل ادريس ، الحي اللاتيني ، ص ٧٧

٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٧

٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمه له من بنات الحرام، وها بنات الحرام قد صرفنه عنها. ولذلك جعل يكتب وهو ينتابه " شعور كشعور المذنب يسعى الى تبرير نفسه. "(١)، واضطر الى الكذب. ولذلك تلح عليه أمه في رسالة أخرى، مذكرة اياه بخوفها " أخشى يا بني أن يصرفك الضرب عنا. وأخشى فوق ذلك أن تسحرك امرأة من هناك فتقع في شباكها، وتخيب أمل أمك الصغيرة بك. "(٢)

انّ اقتصار المؤلف على ايراد هذه الفقرات من رسائل امه، سليم من الناحية الفنية. فهو يسهم في رسم سيكولوجية البطل وأمه على حد سواء، فهي لا تني تذكره بهذه الحقيقة، وهي أن تسحره نساء الغرب. كما أنها توضح طبيعة الموقف الايديولوجي والحضاري للكاتب في توزعه وحيرة انتمائه. ولكنّ عيب هذه الرسائل، أنها مكتوبة بلغة الرواية نفسها. فهي على قصرها، تظل تعكس أسلوب المؤلف بشكل واضح.

أما رسائل جانين، فقد جاءت مكتملة السمات من الناحية الفنية، فأسلوبها يتراوح بين الشاعرية والاخبارية، الأمر الذي يجعل هذه الرسائل تبدو وكأنها انتزعت من مذكرات صاحبتها. فهي في الرسالة الأولى، تنتهج النهج الاخباري، ولكنها تمزج الاخبارية هذه بمشاعرها الداخلية، فيختلط الماضي بالحاضر بالمستقبل " أكتب اليك هذه البطاقة من غرفتي، وأنا أتمثل القطار ماضيا بك الى مرسيليا. ومع ذلك، فأنت هنا قريب مني أسمعك في غرفتك تروح وتجيء، وتدمدم بعض أنغامك الشرقية الحزينة الرتيبة. "(٣)

---

(١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ١٢٧

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٦

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الرسالة الثانية، فيسيطر الفعل المضارع على لغتها، لأنّ جانين مهتمة بوصف واقعها في باريس، بعد غياب بطل الرواية عنها.

ولهذا نرى الأفعال أحاول، أعيش، تذهب، أسقط، أفتح، ألبث، انظر احمال، فتبرز، ألامس، أقلب، أفهم، تفكر، أصغي ويكشف تقصير الرسالة عن الاخبارية تلك فكل فقرة من هذه الفقرات تحمل في طياتها خبرا مستقلا.(١)

ولعلّ هذا الطابع يبدو شديد الوضوح في رسالتها الأخيرة،(٢) على الرغم مما تحمله الرسالة من قلق وصراع. ففيها تخبره أنها قابلت الطبيب وأخبرها أنها حامل، وتعلن استعدادها بأن تفعل ما يشاء.

أما رسالته فهي مصاغة بلغة قانونية حذرة، لا أثر لعلاقة الحب - أو أي علاقة طيبة - فيها. فاذا كانت رسالتها تعبر عن لحظة قلق، فانها تظل تعبر عن هذه اللحظة من داخل علاقة الحب، أما رسالته فهي اعلان للقطيعة. ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الرسالة كتبت تحت تأثير الأم، وأن الأم هي التي قامت بارسالها، وهذا يعلل ما فيها من قسوة.

انّ أهمية الرسائل تكمن في أنها مهدت لهذا الحدث الروائي الذي كان انعطافا حاسما في سير الرواية. ولكن المؤلف لم يبين لنا كيف استطاعت أمه أن تقرأ رسالة جانين، المصاغة بالفرنسية طبعا. فقد كانت رسائل جانين تخضع لمراقبة أمه الحاسمة، ولكن مسألة اللغة تظل اشكالا من الصعب تجاوزه.

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ص ٢١٧ - ٢٢٤

٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٠، وانظر ص ٢٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما رسالة فؤاد له، فهي امتداد لرسائل جانين، فهي تروى له ما حدث ولا تكاد تختلف عن تلك الرسائل الا في المتاب الذى أخذ صبغة قومية. أما عن المذكرات فثمة اشارة الى مذكرات بطل الرواية، ولكن هذه الاشارة دالة على مرحلة من مراحل التحول لا يصح اهمالها. فهو يتساءل "لم انقطع منذ أسابيع عن كتابة مذكراته؟ لقد آلى على نفسه أن يسطر يومياته بتفصيل، ويعبّر عن تأثراته وانفعالاته، ويصور مشاهداته كلها، ولكنه لم يفعل ذلك الا على الباخرة، بين بيروت ومرسيليا. أتكون الحياة في باريس قد استغرقته الى الحد الذى أنسته هذه الكراسة الأثيرة التي يحمّلها خوالجه."(١)

أنّ نية الكتابة عنده متوفرة، ولكنه لم يستطع تنفيذها، ذلك لأنه جاء الى باريس لكي يجرب، لا ليكتب، ولذا كتب في المرحلة الانتقالية ولكنه لم يستطع الكتابة في باريس. واذا كانت تجربته التي وصل اليها في تلك اللحظة، غير متماسكة، ولا جديرة بالتسجيل، فانّ ما كتبه يمثل انعكاسا حقيقيا لبعثرة هذه التجربة، فقد كتب:

"أمي الدفء. اخوتي. ناهدة. رسالة. الدراسة. برونتير. الدفء. البرودة. المطر. السقف. شكوك. تجربة تافهة. النعاس. برونتير. برونت ... أمي. أمي. أمي."(٢) ولعلّ هذه الألفاظ تحمل في طياتها معنى تعبيريا دالا، يصل الى درجة الرمز.

ولا يخفى أنّ افتتاح هذه المذكرات بكلمة "أمي"، وانهاؤها بها تلا شعرات

---

(١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ١٠٦

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مثالية. يدل على عدم خروج بطل الرواية من عالمه الذى كان يعيشه في الوطن، ويدل على سيطرة هذا العالم عليه. أما "اخوتي، ناهدة"، فهاتان الكلمتان امتداد لسيطرة ذلك العالم. فاخوته يمثلون عالم الماضي الذى يخنق حريته "أكان يستطيع أن يخفي على ذويه وعلى أمه خاصة أىّ سرّ صغير؟ ألم تكن حياته نهبا مشاعا لهم؟"(١) وكذلك تشكل "الدفء، البرودة، المطر، السقف" رابطا بين ماضيه وحاضره. فقد كانت التدفئة في غرفته سيئة، وعندما سمع المطر ينقر سقف غرفته "أحسّ قشعريرة تسرى في جسمه، وذكر غرفته في الوطن. هكذا كان هناك يسمع نقر المطر فيشعر بنشوة دافئة أين منها هذا الاحساس المقرور. ما كان له هناك أن يحس بالبرد، ولو ظلت الثلوج تتساقط أياما."(٢) فهو يمزج بين ايجابيات الماضي وسلبياته، وفي هذا دلالة على أنه لم يستطع أن يتخذ موقفا حاسما منه. أما "الدراسة وبرونتير"، فهما من هموم الحاضر، فقد جاء للحصول على الدكتوراه. ولعلّ كتابة نصف اسم برونتير تشير الى لحظة النعاس التي بدأت تسيطر عليه، وتجمل هذه الكلمات من صنع اللاوعي.

أما "شكوك، تجربة تافهة"، فهو عبر هذه الكلمات يشير الى ما في عالمه من النساء، فهذا الجزء من عالمه ما زال بلاسمات مميزة، تسيطر عليه تجارب تافهة مع ليليان، ومارغريت، وفتاة السينما، والموس.

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ١٢٨

٢) المصدر نفسه، ص ١٠٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انّ اختزال المؤلف لتجربته بهذه الألفاظ وتسريبها على شكل التداعي، يمثل قدرته على التعبير من خلال شحن الألفاظ، لاكسابها دلالة من داخل العمل الروائي نفسه.

أما مذكرات جانين التي أطلقت عليها اسم "مذكرات باريس"(١)، فلا تكشف الرواية الا عن القليل منها. ولكن هذا القليل الذي تكشف عنه يبيّن لنا الفرق بين ظاهر الشخصية الروائية، وباطنها. ويميط اللثام عن العالم الداخلي لجانين.

يمثر بطل الرواية على هذه المذكرات قبل عودته الأولى الى الوطن، وتشير هي اليها في احدى رسائلها له.(٢) ولكنّ المؤلف من خلال هذه المذكرات يتعقب هدفا واحدا يريد اثباته وهو مدى تعلق جانين به، وكونه هو ملاذا لها حتى في حالة رفضه لها. وهذا قد يتناقض مع ما عرفناه من عزة جانين وكبريائها. ولعلّ ذلك يبدو من خلال علاقتها بهنري. فقد خانها وألح بعد ذلك في طلب غفرانها، ولكنها رفضت ذلك باباء. فلماذا تفعل ذلك مع الحبيب العربي؟ انّ هذا قد يعني افتقار المذكرات الى الصدق. أو هي بالتالي كما قال أحد الدارسين "مختلفة، مصطنعة، مكتوبة، وغير صادرة عن تجربة معاشة... وهي بلا شك نقطة ضعف."(٣)

انّ السؤال الذي يطرح هنا هو: ما هي الأهمية الفنية لهذه الاعترافات؟

---

(١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ١٧٨

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٨، ٢٠٧

(٣) جورج طرابيشي، شرق وغرب، ص ١٠٢ وانظر نجيب سرور، نرجس في الحي اللاتيني، الآداب، العدد الثاني، ١٩٥٥، ص ص ٢٦ - ٣٩، ص ص ٥٣ - ٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهل تخسر الرواية شيئا لو حذفنا هذه الاعترافات؟ أنّ محاولة الاجابة تستدعي النظر في هذه المذكرات،

أول اعتراف وصل الينا كان يحمل تاريخ ٢٣ نيسان صباحا . زعم بطل الرواية أنه قرأه على عجلة . فقد فتح دفتر مذكرات جانين في غيابها وكانت تيريز خادمة الفندق تنظف غرفة جانين ، ثم قرأ الصفحة الأخيرة ونقلها حرفيا . والقارئ عند ما يعرف أن القراءة لم تستغرق أكثر من دقائق لا بد أن يتساءل كيف أثبت المؤلف في الرواية نص المذكرات حرفيا ؟ فاذا تجاوزنا عن هذه النقطة، وجدنا أن اعترافات جانين هنا ليست صادقة. فهي تدور حول أمرين :

الأول : التعلق بالحبيب العربي ، على نحو تصبح فكرة حبه أكثر أهمية من الحب نفسه" أصبحت أحب هذا الحب، وأحب نفسي التي تحبه ."(١) فقد تحبه كما تحب المرأة في الشرق لا تنتظر مقابلا !

الثاني : الخوف المبطن من المستقبل ، ومحاولة التغلب على هذا الخوف بالنظر الى لذائذ الحاضر .

انّ مجرد المقارنة بين هذا الحديث الواعي ، المنضبط، وبين سلوكها معه في ليلة الوداع، يشكك في تلك المقولات. فانّ جانين في السهرة الأخيرة - قبل العودة الاولى للوطن - كانت تتنبأ بمصيرها ، الذى لا يختلف عن مصير الموسمات، فهي تقول : " ما بدريك يا عزيزى . أن فتاة الاوبرا تلك . ليست هي ضحية حب؟ ضحية رجل أحبته ثم تركها ، ثم فقدت أملها في حبه ... ويومذاك هانت لديها الدنيا والسعادة والحب والرغيف وهكذا ... هكذا أصبحت فتاة ضائعة ."(٢) وقد يقال انّ جانين

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني ، ص ١٧٩

٢) المصدر نفسه، ص ١٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانتفاقدة لوعيها تحت تأثير الخمرة. وهذا صحيح . ولكن هذا لا يعني أن تكون هذه الاعترافات عقلانية منضبطة، لأنّ المفروض أن جانين تكتب لنفسها .

أما بقية المذكرات، فهي تمتاز بحضور الصراع فيها . ويحمل هذا الصراع طابع التمزق بين الجوع وبين الحب. ولهذا تقل أسطر هذه الاعترافات تبعا لسيطرة الجوع، وازدياد تحكمه. وهذا أمر سليم من الناحية الفنية. لأنّ المذكرات في هذه الحالة ترف لا يستطيعه صاحبها .(١) ومن الواضح أنّ الحاضر يسيطر سيطرة تامة، ويبرر ذلك من خلال سيطرة الفعل المضارع، الذي يمثل الحالة الراهنة. ولذا لا نجد تداعيا ولا فجائية في الانتقال . فتلتقي حركة الأسلوب، بحركة النفس. فالايقاع الحزين جعل الكتابة تميل نحو التكثيف والعاطفية، وأفرز كتابة ذات جمل سريعة تتراوح بين الشاعرية والاخبارية التي تجسد حضور المأساة .

واذا قارنا بين مذكرات ايلزا عند الجابري، وبين مذكرات جانين نجد أنّ ايلزا تحب علاء، وتخلص له لأنه صنعها وأنقذها وهي على وشك السقوط. أما جانين فهي تحب بطل الرواية لأنه أحبها وخلصها من ذكرى تجربة فاشلة. ونجد أن ايلزا تحب علاء، ويكاد هذا الحب يكون من طرف واحد . وهي تعرف ذلك وترضى به. أما علاقة الحب هنا فهي متبادلة.(٢) ونجد أنّ ايلزا تحمل من علاء وتخبره بحملها " وما كدت أفعل حتى تجهم واربدّ ، فكأني حملت له نعي ابن لا ولادة ابن .

---

١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني ، ص ص ٢٧٤ - ٢٧٧

٢) المصدر نفسه، ص ١٧٩ ، وشكيب الجابري قوس قزح ، ص ١٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهالني أن ينكشف الأمر حقا فيقضي علي بالتخلص من جنيني كما يفعل الشباب الآخرون ، فداروت وراوغت حتى محوت من نفسه كل شبهة ." (١)

أما جانين فتحمل وتخبر صاحبها ، فيتهمها ، ويتخلى عنها وتقوم باجهاض وهي تشعر بالأسى العميق " مايزيني أن ذلك الطفل الذي كنت سأنجبه لن يصبح يوما كفؤاد أو كأبيه يوم يستيقظ على امكانياته ." (٢)

ولكن الصادفة خلخلت البناء الروائي عند سهيل ادريس، مثلما فعلت أيضا عند الجابري ، فقد وصل الى باريس بعد أن غادرت جانين المستشفى دون أن تترك عنوانها . كما أنّ الجبرية في جعل مصير جانين ينتهي هذه النهاية كان واضحا . فقد أغلق كل السبل الأخرى أمامها . لكي يوصلها الى هذا الدرب.

وقد أشار شاكر مصطفى الى التشابه بين رسالتي ايلزا الى علاء ، ورسالة جانين الى صاحبها وقال عنه " ليس هذا اللقاء من قبيل الصدفة ، أو التقليد . ولكنه اللقاء الصميمي العفوي بين جميع الأفكار النضالية الشابة في الشرق العربي . على وحدة النضال ووحدة المصير ." (٣)

ولكنّ لغة يوميات ايلزا تمتاز بنبرة لغوية متكلفة ، في حين ظلت لغة مذكرات جانين أقرب الى المعقول . . . ولولا تلك القصدية في اظهار جانين على هذه الشاكلة ، لكانت جد ناجحة .

---

١) شكيب الجابري ، قوس قزح ، ص ٨١

٢) سهيل ادريس، الحي اللاتيني ، ص ٢٧٤

٣) شاكر مصطفى ، القصة في سورية ، ص ٤٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما رواية خضر نبوة " الجوع"، فهي تستخدم المذكرات، لكي تنوع في طرق العرض الروائي . غير أن المؤلف هو الذي يقوم بالكشف عن هذه المذكرات بشكل مباشر فهو يقول : " وفي ذات اليوم كتب في مذكراته."(١) ولكن هذه المذكرات جاءت في مكانها الطبيعي من حيث بناء الرواية . فقد جاءت بعد أن أغلق مطعم الجامعة لمدة اثني عشر يوما ، وسافر أصحاب كريم من اللبنانيين الى باريس لقضاء عطلة الربيع.

فأصبح كريم جائعا ، وحيدا ، فكانت كتابة المذكرات بوحا داخليا يهدف الى تعويض الفراغ الذي يشعر به كريم.

انّ عقدة اليوميات تكمن في الخوف من الجوع. واذا كان الخوف من الجوع عند جانين يحمل معه خشية السقوط. فانّ الخوف من الجوع هنا يحمل معه المرض، والموت، والاتهام بالجنون . ولذا يصبح الجوع مفتاحا للرؤية وللتعامل مع الأشياء ويصبح الخلاص منه غاية المنى . فهو خائف من صاحبة البيت، ومتألم لسلوكها معه، يتردد بين الماضي والحاضر، ويعاني من الشعور بالعزلة . " وهذا ما زادني في شعوري أني أعيش غريبا في مدينة غريبة ."(٢)

انّ زمن هذه المذكرات لا يتجاوز الاثني عشر يوما ، ولكن هذه الأيام، تمتص ذات كريم. وتغدو أبدية لا نهاية لها . فالزمن هنا ذاتي لا موضوعي ولكنّ المؤلف تمثر في صياغة هذه المذكرات، وجعلها غير معبرة عن حالة كريم. فالمفروض أن يكتب كريم مذكراته بلغة انفعالية، مشحونة بالقلق . ولكن

---

١) خضر نبوة ، الجوع، ص ١٤٧

٢) المصدر نفسه، ص ١٥٧، ١٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القارئ يفاجأ عندما يرى أنّ لغة المذكرات يسيطر عليها السرد المادي الجاف. فهو يقول: "تلاحظون أني أكتب مذكراتي بدون ترتيب، بدون تعمق، لأني جائع، مصقع، مستوحش، أكاد لا أتصور كيف أكتب. "أنني أكتب لأني متعب، تعس، شقي، لأني كل ذلك."(١) ومن الواضح أن هذه الصياغة اللغوية المكدودة في ميلها للتكرار، لا تعبر عن المعنى فقد كان من واجب المؤلف أن يشعر القارئ بتلك المشاعر على نحو فني. ولذا خلت المذكرات من الاستعضار، الأمر الذي يعكس قلة تجارب كريم الحياتية. وهو لذلك لم يستطع أن يوظف ما يقرأ، فأخذ ينتقد الرواية البوليسية.(١) ويتحدث عن الفن الروائي. وهذا الكلام يقلل من قدرة هذه المذكرات على اقناع القارئ بصحة الأزمة التي يمر بها كريم. ذلك أن المرء يحس أن كريما كتب ما كتب. وهو يتخذ صفة الناقد الذي يريد شرح ما هية الفن الروائي متناسيا مشكلته.

أمّا في رواية صباح محي الدين "خمر الشباب"، فانّ كلا من فؤاد ومادي يفزعان الى دفتري مذكراتهما، لكي يستغيضا في تحليل وسبر غور طبيعة الحب المتبادل بينهما. وقد نجح المؤلف في هذه اللفتة لما للمذكرات من أهمية وقيمة بالنسبة لهاتين الشخصيتين، ففؤاد يحب المطالعة والكتب، ويؤثر القراءة فيها على التعامل مع النساء، لأنه ضعيف الثقة بهن.(٢) ولذا عاد الى تدوين مذكراته. أما مادي فهي تكتب مذكراتها بانتظام. من هنا فانّ هذه المذكرات لا تكرس عزلة حياتية، ولكنها تأتي حارة، ضافية، لأنّ علاقة الحب بينهما قويت

---

١) خضر نبوة، الجوع، ص ص ١٤٩ - ١٥٠

٢) صباح محي الدين، خمر الشباب، ص ١٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعمقت.

وتمتاز هذه المذكرات بالصدق، وعمق النفاذ الى باطن فؤاد ومادى، وذلك لما فيها من صراحة عميقة واهتمام بالتفصيلات. ولعلّ طرافة هذه اليوميات تكمن في كونها تعرض للحادثة الواحدة من وجهة نظر فؤاد ومادى على حد سواء. وتكمن في أسلوبها المتدفق، المنساب، الذى يرسم جو شاعريا جميلا، عبر عدة صور تعبيرية. ترسم نشوء العلاقة، وتطورها وانتهاءها.(١)

ولكن الذى أضعف هذه اليوميات من الناحية الفنية هو كون المؤلف هو الذى كشف الستار عنها على نحو مباشر، دون أن يدع الرواية نفسها تكشف عن ذلك على نحو تلقائي.(٢)

أما رواية كوليت خورى " ليلة واحدة"، فيمكن اعتبارها رسالة طويلة بعثت بها رشا الى زوجها سليم، تعترف له بما حصل لها في غيابه غير أن توقف رشا في بداية الرسالة، جعل الكتابة قريبة من أدب الاعترافات فهي لا تطلب عفو زوجها، لأنّ عفوه لن يرضيها ولا تهتم بادانته لأنّ هذه الادانة لا تؤذيها. أهي تكتب له اذن أم تكتب لنفسها ؟

انّ هذه الحيرة واضحة في كتابة رشا. فهي توجه الحديث الى زوجها سليم، وتوضح له أنّ هذه الرسالة ستكون "آخر واحدة من سلسلة رسائل الزوجة، وأول واحدة من رسائل ودية، قد تمنعني كبريائي من ارسالها اليك."(٣)

واذا عرفنا أن رسائلها الى زوجها سليم كانت تكتب له " بصورة آلية، وتفهمها يدى دون أن يطيعها شعورى."(٤) وعرفنا أن في هذه الرسالة ودا يمنعه

---

١) صباح محي الدين، خمر الشباب، ص ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٥، ٢١٢

٢) المصدر نفسه، ص ١٨٦، ١٨٨

٣) كوليت خورى، ليلة واحدة، ص ١٥، ١٦

٤) المصدر نفسه، ص ١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بمنعه الكبرياء من أن يسفر عن وجهه، عرفنا أن هذه الرسالة أقرب في مضمونها الى أدب الاعتراف.

تنقسم الرسالة الى قسمين كبيرين :

القسم الأول : ويبدأ من الصفحة الثالثة عشرة، وينتهي بالصفحة الواحدة والأربعين. أما القسم الثاني فهو يبدأ من الصفحة الثانية والأربعين وينتهي بنهاية الرسالة.

ونحن ندرك أنّ المؤلفة مع ذلك قد قسمت الرواية الى أقسام تخالف ما اصطلحنا عليه، ولكن تقسيمنا يتناول الرواية من حيث هي رسالة افتتحتها المؤلفة بتاريخ " ٩ كانون الأول ١٩٥٩ - باريس. والقسم الأول ضعيف من الناحية الفنية، يبدو كأنه الصق الصاقا بالرواية، فهو لا يؤثر على نمو الحوادث وتطورها. وقد يقال انّ الحاضر هنا يسيطر على الماضي ويحاكمه، ولكن طريقة الصياغة جعلت هذا القسم مستقلا عن جسم الرواية. ولكن مضمون هذا القسم مزدحم بالصور والأحداث، وتحاول المؤلفة من خلال هذا الحشد المتراكم أن ترسم صورة للماضي، يسيطر عليها الكآبة والحزن. وقد كان من الممكن أن تبدأ المؤلفة بداية أخرى، كأن تجعل ذلك يتم من خلال رحلة القطار، والمراوحة بالتالي بين الحاضر والمستقبل. ولكنّ رشا توضح طبيعة العلاقة بينها وبين سليم، فهي كالعلاقة بين الجني والمارد، والمرأة في ألف ليلة وليلة يضعها في قمقم، فاذا غاب عنها مرة واحدة، انتقمت لكل سنوات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السجن الطويل . والملاحظ أنّ هذا القسم يخلو من الحوار خلوا تامـــا . ولهذا فانّ اللغة السائدة فيه، لغة تحاول أن تكون شاعرية. ولكنها تفشل في نقل التوترات الداخلية التي تتردد في أعماق رشا " ففي الأغلب تظهر الكاتبة ولعا بالكلمات الجميلة البليغة ، ذات الايحاءات المريضة، بدلا من المفردات ذات الدلالة النفسية المحددة ."(١) فهي تقول :

" ومرت السنون .
والفراغ يزدرد أيامي .
وفي السنوات الثلاث الأخيرات مللت
مللت كل شيء حتى القراءة .
مللت السهرات الرتيبة والأيام الباهته . . . مللت الرجال
مللت أصدقاءك الذين كانوا ينتظرون ايماءة مني كي
يخونوا العاطفة الصافية التي تربطهم اليك .
مللت صديقاتي وأحاديثهن التافهة .
مللت أهلي وتفكيرهم المادي .
مللـــت ."(٢)

انّ هذه الفقرة تصوير شعري لحالة رشا، يتضاءل فيها الجانب القصصـــي ، ويتضخم فيها الجانب العاطفي . ويكون التعبير عن الملل فيها بوصفـــه الدلالة المركزية لحياتها عن طريق تراكم الفعل " مللت"، ولكننا اذا نزعنـــا القشرة الخارجية ـ الشعرية، بدت لنا هذه المشاعر باردة. فهي تخلـــو

---

١) حسام الخطيب، حول الرواية النسائية في سوريا . المعرفة، العدد ١٦٨، ١٩٧٦م، ص ٥٤

٢) كوليت خوري، ليلة واحدة، ص ٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من التداعي على سبيل المثال ، حيث تمتزج الشخصية بمعاناتها بصدق . وتبدو الكاتبة " مهذرة في استخدام المفردات، وتترك لميولها الانشائية ... أن تقودها الى بلاغية لفظية ابرز مميزاتها : تكرار الكلمات والجمل ، تكرار الافكار بعبارات وصيغ مختلفة ، الاتكاء على جمل قصيرة يفترض أن تحمل معاني بعيدة جدا . تنوع الأسلوب بين صيغ الانشاء المختلفة : التعجب، الاستفهام، النهي ..."(١)

أما الجزء الثاني فهو الذى يحتلي الرواية ماهيتها ، لاعتماده على الحوار، ونمو الحدث. ولكن اسلوب القسم الأول ظل مسيطرا عليه " فالحوار يندرج تحت باب الشعر المنثور، بصورة تبتعد به عن القالب الروائي ، ومستلزماته التعبيرية ."(٢) فالاسلوب ظل أسير التقريرية، التي تجنح الى الصراخ في كثير من الأحيان . ولعل أفضل ما في الرواية من لقطات تعبيرية، تلك الرقصة التعبيرية التي رأتها في المسرح .(٣) فقد رأت امرأة تقف والملل باد في عينيها ، تنتظر زوجها . ولكن زوجها يستهتر بها فتدور على نفسها بعصبية وحزن ثم ترتمي على المقعد . ثم يدخل أحد الزنوج ، فتمد له الزوجة يديها بعفوية فيخاف، فتلحق به. وعندما يحاول أن يمسك بها تهرب. ثم تقوم برقصة يختلط فيها الاغراء بالخوف. ويقوم الرجل هو الآخر بالرقص، ثم تتمازج الرقصتان ، فتجد الزوجة نفسها بين ذراعي هذا المشيق : فقد جسدت هذه اللقطة التعبيرية رحلة رشا ، قبل أن تكتمل ، وتنبأت بمصيرها

---

١) حسام الخطيب، حول الرواية النسائية في سوريا ، المعرفة، العدد ١٦٨، ١٩٧٦م، ص ٥٤

٢) غالي شكرى ، ازمة الجنس في القصة العربية ، ص ٢٩٩

٣) كوليت خورى ، ليلة واحدة ، ص ص ١٦٥ - ١٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد دخل النهر ، وقتل العشيق ، ولم يقتل امرأته. وهذا ما حصل مع رشا ، لكن الزوجة هي التي قتلت هذه المرة ، لا العشيق . لأن العشيق لم يكن معها . انّ هذه اللقطة موفقة الى أبعد الحدود في اطارها العام. ولكن الذى يستوقفنا فيها ، الطابع التقريرى المنطقي لجملها ، والوصف المحايد ، ولذا تقول كأى مشاهدة أخرى :

" البرنامج جميل ." (١) وكذلك صورة الحلم ، فقد أبصرت رشا نفسها واقفة على ضفة بحر ، وفي منتصف البحر كان ينتصب صليب أسود مخيف ، وهي تريد الهرب ، ولكنها لا تستطيع. وقد فزعت عندما رأت ذلك الصليب الأسود الكبير لأنه يطابق ما رأته في الحلم. ولكن هذه اللقطات التعبيرية تظل خارج الحركة الروائية ، وتظل " تعبر عن التراجيديا الاوروبية ، الأمر الذى يفوت الفرصة على الكاتبة في استخدامها ." (٢)

ولكنّ الاشكال الرئيسي في هذه الرسالة ، هو كتابتها ، فقد بدأت في كتابة الرسالة في الساعة السادسة ، وانتهت بعد أربع ساعات " فمن يتصور أنّ قصة الخيانة بأدق تفصيلاتها ترويها البطلة لزوجها في رسالة طويلة تستغرق أكثر من أربعة أخماس الكتاب؟ والأعجب من ذلك أنها كتبتها اثر عودتها مباشرة. من أحضان شريكها في الخيانة . وعقب تلك الليلة الحافلة المرهقة ، مباشرة. والغريب بعد ذلك أن تأتي الرسالة مرتبة الأحداث ، واضحة العبارة ، شاعرية الاسلوب ." (٣)

---

١) كوليت خورى ، ليلة واحدة ، ص ١٦٧

٢) غالي شكرى ، أزمة الجنس في القصة العربية ، ص ٢٩٩

٣) فؤاد دوارة ، في الرواية المصرية ، ص ١٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ - الرواية التعبيرية :

تندرج رواية كوليت خوري " ليلة واحدة"، ورواية عيسى الناعوري "ليلة في القطار"، ضمن اطار الرواية التعبيرية. فعلى الرغم من الاختلاف الشاسع بينهما في القصد، الا أنّ التشابه بين الروايتين في الخطوط العريضة، يبرر تناولهما معا. فالروايتان تشتركان في العنوان على نحو يلفت النظر، وتشتركان في الاطار المكاني، فالمكان وهو القطار اطار مكاني ضيق، متحرك، يحدّ من حركة الرواية في المكان، ويكثفها في الزمان ويقلّل من عدد الشخصيات، ويوسّع من سيطرة الحوار وتشتركان في مطلق التجربة، فسعيد يواجه لوشيا، المرأة الايطالية، ورشا تواجه كميل الرجل الفرنسي - السوري.

واذا كانت التعبيرية هي " التعبير الصادق عن الانفعالات، والأحاسيس دون التقيد بأيّ شيء آخر." (١) حيث يريد الفنان أن " يشكل العالم من جديد بالرؤية، والحماسة المتوهجة للقيم المطلقة بالابداع الحر، بالروح الطليق والكلمة الحية المتمردة على الواقع." (٢) فانّ هاتين الروايتين تشتركان في حمل هذا التمرد فانّ" كوليت محتجة ورافضة لمفهومات العلاقة التقليدية والشكلية في المجتمع المتخلف." (٣) وعلاقتها بزوجها كانت علاقة رتيبة"، فتمردت عليها وحطمتها في ليلة واحدة. ولكنّ هذه الثورة " نزقة نسبيا ومبتدئة، لم تحلل ولم تتعمق ولم توغل." (٤)

---

١) محمود السمرة ، في النقد الأدبي، ص ٦٦

٢) عبد الغفار مكاوي، التعبيرية في الشعر والقصة والمسرح، ص ١٦

٣) حسام الخطيب، حول الرواية النسائية في سورية، المعرفة، ١٩٧٦، ١٦٨، ص ٥٠

٤) المصدر نفسه، ص ٥٠، ص ٣٧٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما "ليلة في قطار" فانّ ظاهر الرواية يوحي بأنّ سعيدا متمسك بالأخلاق الشرقية الموروثة. ولكن المؤلف هو الذى يفعل ذلك، لكي يتعمد اسقاط هذه الأخلاقيات، فهو يشترك مع كوليت في هذه النقطة بالنية على الاقل.

ثم انّ لوشيا وما تعمده المؤلف في رسمها من مبالغة، تمثل هي الاخرى ثورة ذات شقين: فهي في وجهها الأول تمثل نقيضا لسعيد بمفهومها "المادى الشهواني للأخلاق الذى يغاير كل ما ألفته في بلادى."(١)

وفي وجهها الثاني تمثل ثورة على مفاهيم الاخلاص، والوفاء الزوجي.

ولذا فانّ الروايتين تهتمان بالتحليل، أكثر من عنايتهما بالحدث نفسه، لأكثر من سبب. فانّ الروايتين تمثلان لونين من ألوان الصراع، والتجارب الانسانية، وهذا هو الحدث في عموميته الكبرى، والتوقف عند هذا الحدث دون الغوص فيه، يجعل هذه التجربة تافهة وعديمة القيمة. ولكن ثمة اختلاف في جوهر هذا الصراع: فهو عند كوليت يتعلق بالماضي الذى تحرص على الثورة عليه، ولذا فانّ رشا وكميل يتحدان في سبيل تحقيق هذه الثورة. أما عند الناعورى فانّ الصراع موجه الى الحاضر، حيث يغدو الماضي من أسباب الاستمرار في الصراع. أى أنه يغدو عاملا لتقوية هذا الصراع، يفزع اليه الحاضر دائما. ولهذا يختلف الحوار في الروايتين، لغة وتوجها، فهو عند كوليت شاعرى ينبع من رومانسيتها وبوازيها، وعند الناعورى خطوط مرسومة بدقة تمتلئ بالتفصيلات والتضاد الفكرى. ولهذا يعزل الناعورى بطله عن الناس في حجرة خاصة، وتلحق به لوشيا بعد ذلك، وتكون هذه العزلة مقصودة لابراز عنصر هذا الصراع، أما كوليت فهي تخلط رشا بالناس لكي

---

(١) عيسى الناعورى، ليلة في قطار، ص ٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تكون متميزة، ثم تنفرد بكميل لتحقيق هذا التميز ولتجسيده. وهنا تختلف الروايتان، فانّ شخصية سعيد لا تنمو، ولا تتغير، في حين تتغير شخصية رشا، ويكون هذا التغير انقلابا عاما. ولذا يدور المونولوج الداخلي في رواية الناعورى حول قضية واحدة تنبع منها كل القضايا الأخرى، وهي قضية جسد المرأة، وما يثيره من اغراء قوى، صحيح أنه يكشف بذلك عن المحتوى النفسي لشخصيته، ولكنه يقع في تكرار واضح. (١) ولذا فانّ شخصيته تستعصي على التحليل، لأنها في النهاية ذات بعد واحد، لا ترى الأشياء الا في حالة سكون. صحيح أنّ بناء شخصية سعيد يحاول التقيد بمعطيات علم النفس العامة، ولكن سرّ مأساته يكمن في هذا التقيد، فقد أصبح سعيد في النهاية دمية يحركها المؤلف كيف يشاء.

أما كوليت فانّ كون الرواية تأخذ شكل "الرسالة"، جعل البوح والاعتراف يختلطان بالمونولوج، ولكن هذا المونولوج هو الآخر محدود القضايا محروم من التنوع." (٢)

فهو يدور بين ثقل الماضي وروعة الحاضر، صحيح أن المؤلفة "أحسنت رصد التغيرات النفسية للبطلة، وكانت تضعها دائما بين قطبين من اكتشافها الجديد لمعنى الحياة، ومن ادراكها (لا معنى) حياتها السابقة." (٣)

ولكنّ اللغة التي استعملتها الكاتبة لا تتناسب مع التوتر العميق في داخل رشا. فما دامت تصر على أن تنتزع حريتها انتزاعا، فمن الضرورى أن تكون لغتها في الحوار والتحليل والبوح متناسبة مع هذا الغرض. ولذا فانّ رواية

---

١) عيسى الناعورى، ليلة في قطار، ص ٥١، ٥٥، ٥٦

٢) كوليت خورى، ليلة واحدة، ص ١٢٢، ١٤١، ١٤٣

٣) حسام الخطيب، المعرفة، العدد ١٦٨، ١٩٧٦، ص ٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الناعورى، تبدو أكثر انسجاما على مستوى البناء، فانّ عدم اهتمام الناعورى بتقسيم روايته الى فصول ينسجم مع المعمار الروائي الكلي في تسارع أحداثه، وتكثيفها في الزمن الحاضر المستمر.

أما رواية كوليت فهي في ميلها الى تقسيم الرواية تناقض نفسها مرتين، مرة لأنها تخلخل الزمن الروائي، وتتعسف في تقسيمه. ومرة لأنها "رسالة" كتبت على عجل، وهذا التقسيم والترتيب يتناقض مع اللهفة، والعجلة، وحرارة التجربة، التي ما زالت تمسك على البطلة أنفاسها.

وتشترك الروايتان كذلك في عدم الاهتمام بالأوصاف الخارجية، ومحاولة الغوص في داخل شخصياتها. وقد يبدو أنّ حديث رشا عن زوجها سليم يتناقض مع ذلك. ولكن الصحيح أن رشا لم تصف ملامحه، وانما ركزت على دمامته.(١) وواضح أنّ هذا الوصف داخلي، أكثر مما هو خارجي، لأنّ رشا تصف فيه مشاعرها ازاء هذه الكارثة الجديدة!

وثمة تشابه في النظرة الى الزمن، فانّ رواية الناعورى تسير ضمن خط زمني مستقيم، تتفرع منه خطوط ترتد الى الماضي، ولكنها لتقوى ذلك الخط المستقيم. فعند التقاء سعيد بلوشيا سارت الليلة سيرا زمنيا رصد فيه تحرك عقارب الساعة الثقيلة، ثم جاء الصباح حاملا معه تباشير الفرج. أما عن ارتداده الى ذكريات الماضي، فانّ هذه الذكريات تصب في الخط المستقيم نفسه. فهو يتذكر زوجته وأطفاله، ليصد أمام اغراء التجربة ويتذكر موقف بعض أصدقائه الطليان، ليبرر للوشيا مواقفها، وفي أثناء

---

١) كوليت خوري، ليلة واحدة، ص ٢٩ وما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك كان سعيد يدرك سير الزمن البطيء. فعندما جاءت لوشيا الى غرفته "كانت الساعة قد قاربت التاسعة والنصف ليلا."(١) ثم تذكر الوقت عندما "كانت عقارب الساعة تقفز متسارعة نحو الثانية عشرة."(٢) ثم ينتبه مرة أخرى عندما "كانت الساعة قد قاربت الواحدة بعد منتصف الليل."(٣) وينظر للساعة مرة أخرى "فاذا هي لا تزال تشير الى الثانية والنصف فقط."(٤) ثم يتفقدها "وقد تجاوزت الرابعة قليلا."(٥)

فالزمن الروائي يمتد حوالي سبع ساعات ونصف. أما الفترة الباقية من الرابعة حتى الخامسة والنصف فقد أمضتها لوشيا نائمة ولذلك لم يشعر بوطأتها. والملاحظ أنّ سعيد كان يشعر بثقل الزمن فهو يمرّ ببطء تام يخيفه ويربكه، ولذا كان يتفقد ساعته، وكانت هي تراوح في مكانها.

ويسير الزمن الروائي عند كوليت في خط مستقيم أيضا، ولكنه يختلف عن زمن سعيد في رواية الناعورى. فاذا كان الزمن عند سعيد يرتبط بالخوف من الوقوع في التجربة وهو بالتالي ثقيل بطيء، فانه عند رشا يمثل ما يسمى بالزمن المعاش "فمنذ البدء ينبئنا عنوان الرواية بأنّ (الليلة الواحدة)، هي (ليلة العمر) وخلاصة الحياة."(٦)

ولذلك فانّ الزمن الحاضر لا يحتاج للماضي، بل انّ هذا الماضي يتشكل في الذاكرة ويتداعى حسب رؤية الحاضر. ولذا يبدو تافها يخلو من أى احساس بالحياة. فرشا تبدأ الرحلة "في الساعة الثالثة وعشر دقائق تقريبا."(٧) وتسجل الوقت بدقة، وتلتفت الى الساعة وهي في "تمام السادسة

---

١) عيسى الناعورى، ليلة في قطار، ص ٣٩
٢) المصدر نفسه، ص ١٠٠
٣) المصدر نفسه، ص ١٢٨
٤) المصدر نفسه، ص ١٥٠
٥) المصدر نفسه، ص ١٧٢
٦) حسام الخطيب، المعرفة، العدد ١٦٨، ١٩٧٦، ص ٤٩
٧) كوليت خورى، ليلة واحدة، ص ٤٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنصف ولم نقطع بعد نصف المسافة."(١) ثم تسأل عن الساعة فتكون " العاشرة والنصف، أى أننا سنصل الى باريز بعد عشرين دقيقة."(٢) ولا يخفى أن أربع ساعات قد مرت على تعرفها بكميل لم تشعر بثقلها، بل شعرت كأنها مرت بسرعة. ثم تنظر اليها وهي " العاشرة والدقيقة الخمسون."(٣) وهـذا يمثل حرصها ولهفتها على الوصول. وهنا قد تشترك مع سعيد في الظاهر، لأن سعيدا في حرصه على بلوغ الساعة وقت الافتراق ينشد الراحة، ولكن الراحة عند رشا تتمثل في اللقاء. ثم تنتبه الى الساعة وهي " الثانية عشرة."(٤) وتنتبه لها " وقد و جاوزت الواحدة بقليل."(٥) ويسألها في " الثالثة الا ربعا."(٦) هل تعبت بتجيب بلا. ثم تقول : " لست أدرى كم من الوقت مرّ علينا ونحن شاردان في السكون الشفاف، ولكن دقات ساعة قريبة اعادتنا الى الواقع، لتخبرنا أن الساعة هي الخامسة، وأن الحلم قد ولّى."(٧) انّ رشا تحاول الامساك بالزمن، ولكنه يهرب منها ويتفلت وهذا أمر واضح الدلالة، فهي تريد الامساك بهذا الزمن الخاص، الذى لن يتكرر، ولكنّ الزمن المادى يستعيد سيطرته على السياق الروائي وينتهي كل شيء.

---

١) كوليت خورى، ليلة واحدة، ص ٦٢
٢) المصدر نفسه، ص ١١٦
٣) المصدر نفسه، ص ١٢١
٤) المصدر نفسه، ١٤٢
٥) المصدر نفسه، ص ١٦٢
٦) المصدر نفسه، ص ١٧٧
٧) المصدر نفسه، ص ١٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما يمكن أن تندرج رواية سامي الجندى "أحداث في المنفـــى" ضمن هذا التيار. فهي صورة مضخمة لهذا القلق الحياتي الذى يسيطر على عالم البطل فيها. ويدفعه هذا القلق الى العزلة، والتنكر باسماء مختلفة، والى الهرب والتنقل في أمكنة مختلفة. ولهذا فانّ المؤلف يبدو حريصا على تصوير هذا القلق كما ينبع من داخل الذات، وهو تبعا لذلك يهمل رسـم الشخصية رسما خارجيا، مثلما لا يهتم بذكر تفصيلات البيئة المكانية الـتي تتحرك فيها هذه الشخصيات، لأنّ هذه التفصيلات لا تعنيه. فبطل الرواية يسمي نفسه باسم مستعار، ويتداخل هو مع هذا الاسم في السياق الروائـي ومدام لاى ترفض اسمها رفضا قاطعا وتصر على أن تدعى بهيلين. لأنّ الاسم الأول يذكرها بحياة الزواج، وهي تريد أن تنعتق من هذه الذكريات وتتحرر منها.

ولذا تبلورت علاقات أحمد بالعالم عبر علاقته بشخصيات قليلة، كانت هذه الشخصيات تتشابه معه في حمل هم معين. فهي شخصيات تقف علـى حافة عالم مهدد بالدمار، وتحاول أن تكون هادئة المظهر. وثمة صلـة وثيقة بين رسم هذه الشخصيات، وأسلوب المؤلف، فالمؤلف يجنح في تعبيراته للمبالغة والتضخيم والشاعرية. فهو لا يصف الأشياء وصفا فوتوغرافيا، بـل يتجاوز ذلك الى شيء شبيه بالتجريد، فهو يمزج احساساته ومشاعره بالأشـياء ويرى عبر هذه الاحساسات والمشاعر.

تبدأ الرواية على الشكل التالي:

" - نعم يا مدام لاى.

وضعت قبضتيها على خاصرتيها وأقعت على كرسيها فحدقت الى وجهـي مهددة كضابط نازى اتهم باليهودية والشرر يتطاير من عينيها الصفراويـن.

قلت لك هيلين.

وضربت على الطاولة: هيلين ألم تفهم؟ كفاك تهذيبا لا معنى لـه،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بتنا صديقين يا أحمد بعي ."(١)

انّ هذه البداية الغامضة تثير كثيرا من الأسئلة. فلماذا غضبت مدام لاى كل هذا الغضب؟ وجنحت نحو هذه المبالغة في تعبيرها ؟ ولماذا تصر على أن تدعى هيلين ؟ ان نبش هذه الأسرار لا يتم الا عندما تتكامل الرواية في بنائها العام. فثمة تشابه بين أحمد ومدام لاى. انها تريد اسمها الحقيقي وهو يخفيه. ويتمسك باسم كان الأطفال ينادونه به، فهو هارب من اسمه الحقيقي ، وهي هاربة من اسمها الرسمي لما فيه من ذكريات. ومن الملاحظ أن مدام لاى لا تنسى أن تحتج على هذا الاسم دائما في كل حوار يدور بينهما .

ولأنّ رفضها جاء من خلال الحوار الذى يدور بينهما وبين أحمد ، فان هذا يعني أنّ أحمد ربط بينه وبينها على مستوى الحاضر. والملاحظ أنها لم تخطئ مرة في اسمها ، وأن أحمد كان كثيرا ما يخطئ، وكانت هي تحتج على ذلك حتى عندما جنّت.(٢)

ولا ريب أنّ اصرار أحمد يدل على تعمد يهدف الى تذكيرها بالماضي ، وتذكير نفسه أيضا . ولهذا يعبّر أحمد عن شخصية مدام لاى من الناحية الفنية ، عبر لوحة تعبيرية تتكامل هذه اللوحة في خطوطها وألوانها وما ترمز اليه في نهاية الرواية . فهو يربط بين مدام لاى وبين قطة أحضرها أخوه . وهذا الربط يحمل من الناحية التعبيرية نوعا من المبالغة التي تصل حد الرسومات الكاريكاتورية ، كما أنه يكشف عن منهج الروائي الذى يعتمد الكشف المتدرج عن شخصيتها فهو يقوم بوضعها أمام القارئ دفعة واحدة ، ثم يقوم بتوضيح أبعادها . فهو يقول : " ما أشبه مدام لاى بقطتنا التي

---

١) سامي الجندى ، احداث في المنفى ، ص ١١

٢) المصدر نفسه ، ص ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٩ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جاء بها أخي الصغير من الطريق : نفس النظرة ، نفس العين ، التي تحملق كمشدوه اذا جلسنا للطعام ، لا عن جوع . وانما في تأمل غبي . تتكلم مدام لاى كأنما تموء مثلها ."(١) ثم يقول : " لم أشك في أن مدام لاى كسول كقطتنا تحدق الى الكلمات كما تحدق تلك - وهي قابعة في النافذة - الى قطعة لحم ."(٢) ان هذه الصورة انبثقت في ذهن أحمد في هذه اللحظة دون أن تكون مشحونة الا بدلالات تشبيهية ، لأن أحمد لم يكن قد تعرّف الى مدام لاى بعد . فهذا الوصف يقوم على التضخيم والمبالغة في رسم الجوانب النفسية والشكلية على حد سواء . ثم يقول " كانت القطة أمام الآلة الكاتبة ويداها على الطاولة كمن يرقب فريسة ، كأن وبرها منتصب كأبر . جلست أتناول فنجانا من القهوة ، وأنظر اليها بين الفينة والفينة ."(٣) ان أحمد في هذه اللحظة يكشف عن أن ذلك الانبثاق لم يكن لمحة ذهنية جاءت وذهبت ، دون أن تكون موغلة في أعماقه . ولكنه يؤكد تجذر الصورة في أعماقه . ثم يقول : " جاء أخي بالقطة الى البيت ، قبل الغداء ضحى . كانت تموء جوعا . رأت أمي الا أن يعود بها الى حيث وجدها . غير أن الشمس كانت لاهبة . قال : "أعود بها عند العصر ." وأطعمها خبزا فانقطعت عن المواء ورقدت تهدّ فخذه . صاحت أمي : انها قذرة لوثت البساط وثيابك . حملها الى الماء فغسلها ، وتركها في الشمس ، ورجعت الى الغرفة نظيفة ، جميلة كعروس ، واقتربت من أمي ، فرفعت يدها كي تضربها

---

١) سامي الجندي ، أحداث في المنفى ، ص ١٩ ، ٢٠

٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠

٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧ ، ٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنها تراخت، رقّ قلبها لها فلطت حدّ فخذها وأمي تضحك. وأعجبنا هـا جميعا. كانت كل يوم تقوم بمعجزة. لم تدع فأرا في دارنا، وسلطت علـى العقارب فقتلتها. عينا مدام لاى صفراوان كعينيها." (١) انّ هذا التداعي يكشف عن منهج المؤلف. وعن طبيعة بطله على حد سواء. فقد اختـار أحمد أن يشبهها بالقطة، ثم بدأ من خلال الذكريات الماضية التي تأخـذ شكل التداعي، يوضح أبعاد صورتها، ويختار لحظات ارتباط القطة بالأسرة، وهي لحظات تشبه لحظة ارتباط مدام لاى به، ثم أنهى حديثه بربط لـون عيني القطة بلون عيني مدام لاى، مما يؤكد حضور هذا الترابط، ووعي البطـل به. ولذا تراه يقول: "ذات صباح ندى استيقظت مع الفجر. كان نـور القمر ما يزال يضيء التلة التي تقتعدها القرية فتبدو كتلة كبيرة من لجيـن. اجتمعت الدجاجات حلقة صامتة، مدت اعناقها الى أمام تحملق في مكان قريب من فراش أخي الصغير. اقتربت أرى. كان نائما تتحرك شفتاه عن حلم صغير. كان كل صباح يقص علي أحلامه. الفراشات الملونة تملأ نومه، تهوّم حواليـه، ويطير دائما معها، باجنحة فراشية تنبت على ذراعيه وقدميه اذا غفا. أقعـت القطة كمدام لاى أمام الآلة الكاتبة، يدها أمام أنفها أنشبت مخالبها وقريبا منها عقرب أسود توترت ابرته واصفرت سما. كان يتجه الى الرأس الصغـير الذى تسكنه اجنحة فراشات ذهبية وخضراء وزرقاء وحمراء وصفراء. تجمدت عيناى كعين دجاجة، وقفت مع الدجاجات كديك يهم بانشودة فجر فتسد حلقة حصاة وانسبلت يداى على جسمي وتلصتا كجناحين لا يطيران، والعقرب يتقدم قليـلا فتضربه فيتراجع ورأتني فكأنها أشارت الّي بألّا أتحرك. كان القمر يشحب قليلا ... وماءت القطة بصوت يليق بذئب ثم ضربت ضربتين سريعتين كأنهما واحدة فاذا ا

---

(١) سامي الجندى، أحداث في المنفى، ص ٢٩، ٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العقرب يترنّح ثم همّت به فتلوى ونفق ."(٢)

انّ هذه الصورة تتراوح بين الماضي والحاضر تراوحا تمتزج فيه الذكرى بالحاضر، والصورة بالصورة، والرمز بالواقع. . . ولهذا فهو يحمل طابع التنبوء. فانّ أحمد يكشف فيما بعد أنّ ما حصل بينه وبين مدام لاى، هو بالضبط ما حصل بين أخيه والقلة. فقد قامت القلة بحماية أخيه وقامت مدام لاى بحمايته أيضا. فقد أحكم القتلة الحصار من حوله، وكادوا يفتكون به ولكنها تعرفت على القاتل، ووقع في حبها، وتراجع عن نية القتل، وتاب الى الله . . .

ولهذا يكون ربط أحمد بين مدام لاى والقلة مستمرا. فهو يشفق عليهما، كما كانت أمه تشفق على قاتلهم وقد بلغت سن العجز، ولذا فهو يفاجأ عندما يرى سلوك مدام لاى غير المتوقع ويقارنه بسلوك قاتلهم. ويرى أنّ الاختلاف غير مهم."(٢)

فالحديث عن القتلة يمثل منهج المؤلف في التقاط الجزئيات المادية، ومن ثم تضخيمها، ليقوم من خلالها بالتعبير عما يصارع في نفسه. وهذا يفسر لجوء أحمد الى الحلم لكي يكشف عن مأساته وأزمته، فعندما تأتيه برقية من مدام لاى تتمنى له عيد ميلاد سعيدا، يعجب لأنه نسي هذا اليوم. في تلك الليلة " نمت حلمت بمدام لاى ترقص السماح في قافلة الحذارى البيض الثياب، تلبس قناعا، هو رأس ذئبة حية، تكشر فيسقلن رعبا على الأرض. يحاولن الفرار فما يستطعن وتختفي. ثم ترجع في قناع راهبة فتنشد أناشيد المثنوى، وأنا أحاول النهوض كي أرد الكيد عن الحذارى فلا أقدر على الحراك، وأريد أن أشترك في النشيد فيظل صوتي مخنوقا."(٣)

---

(١) سامي الجندي، احداث في المنفى، ص ١١، ١٢، ١٣، ١٩، ٤٧، ٥٠، ٥١، ٦٠، ٦٥، ٦٩

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٠، ٦٤

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انّ من الضروري الكشف عن عناصر هذا الحلم قبل محاولة تحليله. فهو قد حلم بمدام لاى لا بهيلين. مع أنّ برقيتها كانت موقعة باسم هيلين. وهو عندما يردها الى مدام لاى فانه يعيد لها القناع الذى تريد أن تخلصه عن نفسها. وهنا يتداخل الزمان والمكان والمعنى واللا معنى والمنطلق واللا منطلق. فمكان الحلم غير محدد، الا أنه واضح أنه يتم في الشام. والزمان فيه مختلط، فانّ تداخل مدام لاى بالعذارى يوحي بحرصها على الرجوع الى الوراء. والظهور بمظهر الشابات (وقد تبين ذلك من خلال حرصها على أن تحمل، ولذلك فهي تذهب الى قونية حيث يوجد مولانا جلال الدين وتستشفعه لكي يرد اليها قدرتها على الانجاب)، فتلبس رأس ذئبة، ثم تعود في لباس راهبة تنشد أناشيد التصوف وهو عاجز عن حماية العذراوات، كما أنه عاجز عن الانشاد. ففي هذا الحلم يختلط الحاضر بالماضي بالمستقبل، ويفقد المكان ملامحه المحددة، كما تتسق اللغة مع هذا الحلم، لتبرز مستويات متعددة للشخصيات، يحاول أحمد أن يكشف الستار عنها. انّ أحمد يبدو عاجزا هنا وفي الحديث عن العقرب، ويبدو حائرا في تحديد طبيعة مدام لاى ولا يزال غير قادر على الكشف القناع عنها. ولذا يمتزج أحمد مع الطبيعة امتزاجا عنيفا، واحتمائه بها يجيء ليكشف عن صراعه الداخلي، فالبحر في كونشرتو أداسي "كثعبان يتمرغ على عشب ربيعي."(١) وهذا يبيّن مدى الخوف والحذر في نفسه. من هنا كان التصوف رمزا وأداة فنية، ونافذة لجأت اليها

---

١) سامي الجندى، احداث في المنفى، ص ٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشخصيات لكي تهرب من حدة واقعها. فكلها تهيم بالتصوف، وتحج الى قبر مولانا جلال الدين في قونية، وتفهم التصوف فهما يتطابق مع تجربتها، ان هيلين تريد الانجاب وهي لا تطمع من جلال الدين الا أن يعيد لها قدرتها على ذلك، وخالد القاتل المأجور يريد أن يتطهر، وجان بول الفرنسي هارب من واقع الغرب المادي، معجب بروعة التصوف وأحمد يرى في التصوف ـ انطلاقا من تجربته ـ الجمال في اليأس. ولذا فانّ هيلين وأحمد وجان بول يعودون الى قونية، صحيح أن هذه العودة متباينة الأسباب ولكنها تؤكد ان التصوف باب مفتوح لا يغلق.

انّ سامي الجندي يوزع على مختلف شخصيات الرواية، أزمة بطله، فهو لا يهتم بالحدث أو بالشخصية الا اذا كانت تعمق الاحساس بهذه الأزمة. ولذا فانّ الزمن في الرواية ليس زمنا موضوعيا، بل هو ينبع من احساسات الشخصيات بهذا الزمن. واذا كانت تجربة المتصوفة تركز على الوصول ولا تهتم بالزمن، فان أحمد وباقي الشخصيات تريد الخلاص حتى لو خالفت سير الزمن الطبيعي، كما فعلت مدام لاى التي أرادت أن ترجع صبية.

ويمكن أن تندرج رواية محمد عيد "المتميز" ضمن هذا التيار، فهي تتخذ من الحياة الداخلية لسامي وما فيها من قلق عميق واضطراب وصراع محورا لبنائها الروائي. انّ مفتاح شخصية سامي تكمن في تلك الهوة التي تفصل بينه وبين العالم. فهو يعاني في بلده من التخلف الحضاري ومن غياب الحرية التي أوصلته الى حافة اليأس. ولذا فكر بالهجرة الى المانيا.

تتوزع الرواية في بنائها بين السرد المتسلسل، وبين الغوص في ذات البطل، ذلك الغوص القادر على التقاط الذبذبات المتوترة، وتجسيد المتناقضات على

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صعيد الفكر والشعور، ولذا تتداخل الأبعاد وتتقاطع الشخصيات وتختزن الأزمان.

يمكن تقسيم الرواية الى قسمين تبعا للبعد المكاني : فالقسم الأول يجري في المانيا، والقسم الثاني يجري في الوطن. واذا كان القسم الذي يجري في المانيا، يتميز عن القسم الثاني من الناحية الفنية، فيغدو أكثر تماسكا، وقدرة على التعبير، فانّ القسم الثاني ضعيف من الناحية الفنية، لأنّ فيه شيئا غير قليل من الافتعال، وبالتالي فانّ من الممكن أن يعتبر القسم الأول رواية مستقلة.

تبدأ الرواية بلحظة استيقاظ خشنة، تنبئ عما في عالم سامي من قسوة، وعما في حياته من بؤس " كان وجهي يلتصق بالجدار حينما سمعت طرقا على الباب، كان الطارق مزعجا، فصرخت لقد صحوت." (١)

انّ اختيار المؤلف للحظة الصحو هذه، لتكون بداية الحديث عن الشخصية يكشف عن طبيعة بطله، هذا الذي لا يصحو الا مجبرا، وعندما يستيقظ تكون بداية صلة بالعالم عن طريق الصراخ، كما يكشف ذلك عن طبيعة البناء الروائي، فهو بمثابة تجسيد لخطوط الصراع ضمن ايقاع روائي مكثف ولذا كان حديثه في لحظة الصحو يتم عن طريق الفعل المضارع والماضي معا، فهو حديث صارم " وقمت عيناى على جدران الغرفة. عارية من أى رتوش. اكتشفت ذلك الآن فقط. مكتب صغير يقوم في الركن عليه الكثير من الأوراق، وبعض الكتب وأقلام. ومنفضتا سجائر. جلت بعيني في أرض الغرفة. قمع لفافات، ومدفأة

---

(١) محمد عيد، المتميز، ص ٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صغيرة صافأة، مكتبة ومقعدان ... كيف أمكن أن تتسع هـــذه الغرفة لمقعدين وسرير ومكتبة وطاولة للكتابة؟ ذلك الحاجز الذي قام بيني وبين أشيائي فجأة، هو نفس الاحساس الذي تدور عليه حياتي منذ أن أدركت العالم." (١) انّ البطل لا يتأمل غرفته بعين هادئة، بل يتأملها بما يشبه الصراخ، لأنّ داخله ملئ بالحزن واليأس "كنت ساكنا كمستنقع، صامتا كحجر." (٢) ولهذا لا يحتفل المؤلف للزمن بابعاده الموضوعية، فهو ضيق به يريد أن يتخطاه، لأنه مشغول بمواجهة الغرب، ولأنه على المستوى الفني يستبعد الصورة ذات الأبعاد الخارجية لما فيها من عنصر وصفي. "استغرقت الرحلة عشر ساعات. كنت خلالها استعجل الوقت." (٣) ولكنه في الغرب لا أسير هذا الزمن الذي هرب منه، وهذا "شغلني عن رؤية مدينة مونستر، المدينة التي أنا فيها الآن، وكان قد مضى على وصولي شهران. ولا شيء في ذهني أنوى عمله." (٤) فالزمن هنا احساس نفسي، لا يعبر عنه المؤلف باحداث ووصف، ولكنه يلجأ الى التقاط الصور المناسبة. يقول:

"رأيت المدينة للمرة الأولى. رأيت امرأة تجر الفلا في عربة. وقد بدا على الاثنين آثار التغذية الجيدة. فدهشت. أحسست أني جائع منذ زمن طويل. دخلت مطعما واجهني، أخذت أشياء بالاشارة أكلت كثيرا، وشربت أيضا الكثير. وحينما أردت الوقوف على قدمي لم

---

١) محمد عيد، المتميز، ص ٥
٢) المصدر نفسه، ص ٥
٣) المصدر نفسه، ص ١٠
٤) المصدر نفسه، ص ١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أستلع، أحضروا عربة وأوصلتني الى البيت تمددت على السرير وعجزت عن النوم." (١)

انّ العناصر الحسية في هذه الصورة التي اختارها وهي (المرأة ، الطفل في العربة، التغذية الجيدة) ، على ما فيها من بساطة تمثل لحظة حضور الوعي . اذ يمتزج فيها الماضي بالحاضر، فيفرز وضعا هو عليه منهما . . . فاحساسه بالجوع، اشارة واضحة الى ما في ماضيه من بؤس، ودخوله المطعم اشارة واضحة الى الحسم وحب التخلّص من ذلك الماضي ، و " أخذت أشياء " بالاشارة"، دلالة على عدم التكيف مع المجتمع الجديد ، وعدم القدرة على فهم أبعاد العلاقة فيه، ممثلا بجهل اللغة، أهم وسيلة للاندماج والتكيف.

أمّا " أكلت كثيرا وشربت كثيرا"، فتشير الى محاولة التعويض. . . وتكون النتيجة صراعا لم يستطع على اثره النوم.

ولهذا فانّ الشخصيات في الرواية بمثابة نقطة ارتكاز يحاول المؤلف أن يوضح أبعاد سامي من خلالها . فحسن وزوجته ، وميرا ، ايرماترود ، يورجن، رولف، والبرت . كلها شخصيات غير محددة الملامح والهوية، توهن ثم تتلاشى . ولكنها تعكس الاضطراب والفوضى والقلق في حياة سامي . وقد وقف الروائي عند علاقة سامي بأندريه ونوال . وكان صياغته الفنية لهاتين الشخصيتين توحي بأنّ نوالا وأندريه هما وجهان لعملة واحدة . . . فقد أحبته نوال ، وأندريه، وهو لم يستطع أن يتزوج

---

(١) محمد عيد ، المتميز، ص ١١، ١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوالا في البداية. ولم يستطع أن يتزوج أندريه. وقد حطت منه أندريه، ثم أصرت على التخلص من حطها، وحطت منه نوالا بعد عودته. ثم ماتت. فالنتيجة رغم الاختلاف في التفصيلات متشابهة. وهذا يعني أن المزج بين نوال وأندريه كان مقصودا. ولكن هذا الامتزاج كان على حساب بناء الشخصيات من الناحية الفنية. فقد كان من الضروري أن تكون شخصية أندريه متكاملة الأبعاد، وأن تكون شخصية نوال كذلك. ولكن المؤلف اكتفى باثارتهما كقطبتين دالتين دون أن يتعمق في جوهرهما. ولولا مجموعة المصادفات التي رافقت الجزء الثاني، ومحاولة دفع الأحداث للوصول الى الذروة، لكانت الرواية قادرة على تجسيد هذا التضاد الحضاري.

ويمكن أن تندرج رواية يحي حقي "قنديل أم هاشم"، ضمن هذا التيار. فهي لا تهتم برسم الشخصيات من الخارج، وتخلو من الحوادث، لأن مؤلفها ضيق الصدر بالسرد وتتابع الحوادث ويحب أن يصل بسرعة الى المغزى والدلالة (١)، ولهذا نحى الروائي "نفسه جانبا ليتيح للشخصية أن تعبر عن نفسها، وتكشف عن جوهرها بأحاديثها وتصرفاتها الخاصة." (٢) فكانت العلاقة بالتالي جدلية بين الشخصيات والحدث. وفي هذه الرواية لا نكاد نعثر على سمات شكلية خارجية تميز الشخصيات فيها. فاسماعيل، وفاطمة وماري وهي الشخصيات الرئيسية في الرواية لا تتضح لنا معالمها الخارجية

---

١) فؤاد دوارة، عشرة أدباء يتحدثون، ص ١١٣

٢) ادوين موير، بناء الرواية، ص ٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسماتها الشكلية . بل يبدو الكاتب مشغولا برسم الأبعاد الداخلية لهذه الشخصيات، فيبين أحوالها الروحية والفكرية والنفسية وما ينتج عن هذه الأبعاد من سلوك. فهو يقدم الشخصيات على نحو مفاجئ . دون أن يمهد لذلك التقديم بالسرد والشرح الخارجي عن الشخصية التي يريد تقديمها ، يقول عن اسماعيل " أصبح وهم لم يزل صبيا ، لا ينادى الا ب (سي اسماعيل) أو اسماعيل أفندى ، ولا يعامل الا معاملة الرجال . له أطيب ما في الطعام أو الفاكهة . اذا جلس للمذاكرة خفت صوت الأب، وهو يتلو أوراده . . . ومشت الأم على أطراف أصابعها ، حتى فاطمة النبوية بنت عمه ، اليتيمة أبا وأما - تعلمت كيف تكف عن ثرثرتها وتسكن أمامها في جلستها صامته كأنها أمه وهو سيدها ."(١)

انّ منهج الروائي يبدو واضحا في رسم هذه الشخصيات. فهذا النص يخلو من تحديد أى سمة شكلية خارجية ، لأى شخصية من الشخصيات التي تحدث عنها الروائي . ولا فرق في ذلك بين الشخصيات الرئيسية والشخصيات الثانوية . فماذا نعرف مثلا من ملامح اسماعيل الخارجية بعد قراءة هذا النص ؟ اننا نغوص الى داخله فنتبين بعض معالمها الاجتماعية ، ونرى انعكاس أثر الاهتمام عليه ، كما نتعرف الى بيئته . ولكن القاص يبتعد عن الوصف الفوتوغرافي ، ولذا تكون الأب والأم وفاطمة أبعادا وجدت لتضيء ملامح هذه الشخصية وتثيرها .

---

(١) فؤاد دوارة ، عشرة أدباء يتحدثون ، ص ١١٢

(١) يحي حقي ، قنديل أم هاشم، ص ٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثمّ انّ هذه الشخصيات تظهر في واقت واحد ، لكي يكون تأثيرها في بعضها بعضا مؤشرا على تتبع وسبر ملامح التجربة العامة . ولذا فانّ مارى لا توجد في الرواية كأمرأة لها حضورها الانثوى ، بالقدر الذى تغدو فيه اداة تعبيرية يستخدمها القاص لتجسيد الصراع . . . فالشخصيات الرئيسية فيها كالرمز الشفاف تشير الى أبعاد فكرية واضحة ، ولذا فانّ حقي يلتقط الجزئيات المادية ، ويصوغها لكي تعبر عن الكليات المجردة . ولنتوقف عند هذا المنظر " وداع الأسرة ، وما أمره ! في الدار وسط النحيب والبكاء ، والمحطة ، والقطار ثم الميناء وحركته ، والباخرة المجهولة وصفيرها . انني أتخيله صاعدا سلم الباخرة شابا عليه وقار الشيوخ بطيء الحركة ، غزير النظرة ، أكرش ، ساذجا ، كل ما فيه ينبيء أنه قروى مستوحش في المدينة . أقسم لي عمي اسماعيل فيما بعد أنه كان يحمل في أمتعته قبقابا . فقد سمع الشيخ رجب أن الوضوء في اوروبا متعذر لاعتياد الناس لبس الأحذية في البيوت . كما وصف لي وهو يبتسم سراويله وطولها وعرضها ، وتكتها المحلاوى . وكان معه أيضا سلة ملأى بالكعك و (المنين) من عمل أمه وفاطمة النبوية . وسافرت الباخرة . "(١)

انّ التكثيف الذى يستخدمه الكاتب في حشد كثير من المناظر واللوحات الفنية ، يكشف عن قدرته عن استخدام تلك الجزئيات المادية لكي تعبر عن لحظات روحية . فوداع الأسرة يكشف عن مدى الحب الذى يكنونه لاسماعيل ووصف اسماعيل الكاريكاتورى ، يبين مقدار التطور والانقلاب في شخصيته

---

(١) يحي حقي ، قنديل أم هاشم ، ص ٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عندما يعود وهو " الشاب السمهرى القامة ، المرفوع الرأس ، المتألق الوجه . "(١) فهذا التضاد بين الحالتين يكشف عن التضاد أيضا بين الشرق والغرب . ثم أن القبقاب يدل على اهتمام بيئة اسماعيل بالدين وبالوضوء ، والسراويل تدل على تجذر الحياة الشعبية في داخله . كما أن جميع عناصر الرواية التي ستحدد الصراع وتحسمه في المستقبل موجودة هنا ، فاسماعيل ، وفاطمة ، وكل تراث مصر تتمثل في جزئيات هذه اللوحة . واذا كان بعض النقاد يعيب على الرواية خلوها من الحوادث ، فذلك راجع الى امتزاج " الفكرة بالشخصيات والأحداث ، فتؤثر فيها وتتأثر بها ، ويتبادلان المواقف ، أو مراكز التجربة ، فينتج عن ذلك كل مركب جديد غاية الجدة ، يعلو كثيرا فوق الفكرة بمفردها والشخصيات بمفردها والأحداث بمفردها . "(٢)

ولهذا مال حقي نحو التكثيف ، وهذا التكثيف أسهم في ابراز عنصر التقابل الفني ، والتضاد ، كما أسهم في بلورة شاعرية الأسلوب . فمال حقي نحو التعبير بالصورة ، كما مال نحو التركيز والاختزال . واستخدم كذلك التعليق " واتخذ أشكالا . لريفة متنوعة ، فتارة يقوم به راوى القصة بطريقة غير ملحوظة تجعله - أى التعليق - جزءا من القصة نفسها ... وأحيانا يتجه الراوى بتعليقه الى جمهور القراء مباشرة ... وأحيانا ثالثة يأتي التعليق على شكل كورس هو أشبه الأشياء بالكورس المعروف في المسرحية اليونانية القديمة . "(٣) أما عن حركة الرواية فان هذه

---

١) يحي حقي ، قنديل أم هاشم ، ص ٨٣

٢) غالي شكرى ، ثورة المتزل ، دراسة في أدب توفيق الحكيم ، ص ٢١٦

٣) علي الراعي ، دراسات في الرواية المصرية ، ص ص ١٨٥ - ١٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحركة واضحة أشد الوضوح في الزمن الحاضر، المستمر، بامتداد في المكان. فانّ القاص يعبّر عن سبع سنوات مرت في انجلترا قائلا "ومرت سبع سنوات وعادت الباخرة." (١) واذا تذكرنا أنّ الجملة التي قبلها انتهت بـ "سافرت الباخرة" أدركنا مدى التكثيف في البعد الزماني. ولعلّ ذلك يعود الى انشغال الروائي بتجسيد التناقض والتضاد الحضاري، ومن ثم المصالحة الحضارية. دون أن تعنيه أية أبعاد أخرى. وهذا يعني "أنّ مضمون العمل الفني هو الذي يحدد شكله ووسائله." (٢)

---

١) يحيى حقي، قنديل أم هاشم، ص ٨٣

٢) علي الراعي، دراسات في الرواية المصرية، ص ١٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د - رواية الشخصيات:

تكوّن الشخصيات في هذه الروايات العنصر الرئيسي الفعال في بنائها " فالشخصيات لا تفهم على أنها جزء من الحبكة، بل لها على العكس من ذلك وجود مستقل والحدث تابع لها. "(١) ولذا فإنّ ثمة خصائص لهذه الشخصيات على الصعيد الفني، ومن هذه الخصائص، لا تحتكر البطولة في هذه الروايات شخصية روائية واحدة، بل تتوزع البطولة بين مختلف شخصيات الرواية. ولذا فان هذه الشخصيات تتمتع باستقلال عن الحدث، ويغدو الحدث تابعا لها. فرواية صباح محي الدين" خمر الشباب" تتوزع بطولتها بين فؤاد، ووليد، وتتوزع بقية الشخصيات بين هذين القطبين. وتطرح هاتان الشخصيتان على أساس ما بينهما من تضاد. ويظل هذا التضاد عنصرا من عناصر سير الحركة الروائية، فقد حدد القاص موقع فؤاد في مكان معين، ووضع وليدا في الموقع المقابل، وسارت الحوادث تؤيد هذا التقسيم. وينطبق هذا بطبيعة الحال على بقية الشخصيات الأخرى. فكلّها شخصيات تامة الانجاز، مسبقة الصنع ولذا فهي تطرح في حركة تواز مستمر. ففؤاد يطرح في الرواية على أساس أنه قارئ محترف والكتب غذاؤه وأفيونه، فهو مثالي، ووليد قليل الكلام سريع العمل(٢)، وهذا يعني أنه نموذج واقعي عملي، يغاير النموذج السابق. وهذا الطرح يميز الشخصيات بالكمال وعدم التطور

---

١) ادوين موير، بناء الرواية، ص ١٨

٢) صباح محي الدين، خمر الشباب، ص ٨، ١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتجيء أحداث الرواية لكي تكشف صحة هذه الأبعاد .

تروى الرواية بضمير الغائب، وذلك ليتمكن الكاتب من رسم الأبعاد المختلفة لشخصياته التي يتحدث عنها . ولذا تكون هذه الشخصيات ذات أبعاد محددة ملموسة، لها أسماؤها، وأبعادها الجسمية والاجتماعية والنفسية، ففؤاد ووليد أبناء عمومة، ولكنهما من وسطين اجتماعيين مختلفين، ولهما نفسيتان مختلفتان. ففؤاد ابن لرجل ثرى (١)، يملك مصانع صابون ضخمة في حلب. أما وليد فهو فقير نسبيا والروائي يحدد الأبعاد الجسمية لشخصياته، ويوضح طبيعة المجتمع الذى أنشأ هذه الشخصيات.

فوليد " على العكس من فؤاد، فارع الطول، رياضي البنيان، أسمر البشرة مشوبها بحمرة لطيفة وشاربه الأسود يفيض عليه رجولة وفحولة." (٢)

ومادى " في الثامنة عشرة من عمرها، وجهها أزهر، قريب الى أن يكون مربعا وعيناها فيهما تحد عنيف، وفمها في شكل ٨، فيه طل ودلال . . . فم طفل على أسنان قرش نهمة ومتحفزة لالتهام الحياة، ومع ذلك جميلة." (٣)

ويوضح المؤلف كذلك الأبعاد الجسمية لكل من كريستين وماريان وكارولاين (٤).

ومن الطبيعي أن يحقق المؤلف أبعاد الشخصيات المحورية، ويكشف عن تجاربها في الماضي والحاضر. (٥)

---

١) ثمة تناقض في اسم والد فؤاد فهو في بداية الرواية الحاج محمد انظر ص ١٠، وفي نهايتها الحاج مصطفى انظر ص ٢٥٥

٢) صباح محي الدين، خمر الشباب، ص ٩

٣) المصدر نفسه، ص ١٩

٤) المصدر نفسه، ص ١٦٠، ١٦٢-١٦٤، ص ١٠٣، ص ص ١١٨-١٢٥، ص ص ١٧١-١٨٣

٥)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتسلسل الأحداث في الرواية تسلسلا زمنيا منتظما ، فالمؤلف يبدأ روايته من نقطة الصفر، ثم يوصلها الى الذروة ، ولذا تتسارع الأحداث وتنمو في الرواية نموا متلاحقا . فالزمن الحاضر هو الزمن الأساسي ، أما التفريعات الأخرى كالرجوع الى الماضي ، فهي لا تتداخل مع زمن الرواية الحاضر، وانما تشكل رافدا له. فالرواية لا تستغل الذكريات الا على نحو مجمّد غير فاعل ، ولعل تقسيم الرواية يكشف عن ذلك، فقد تسارعت حركة الزمن في الفصول الأخيرة . في حين كانت في الفصول الأولى بطيئة كشفت أبعاد الشخصيات. ولذا لا غرابة أن تكون الأفعال في بداية معظم الفصول تتم من طريق الفعل الماضي (خرج فؤاد ، سار وليد ، خرج فؤاد ، دخل الأربعة ، فتح فؤاد عينيه، لم ينم فؤاد ، نام فؤاد ، منذ ذلك المساء أحس فؤاد ، أقلعت طائرة مادى ، أفاق فؤاد ، نظر فؤاد)[1] . ولكن الحوادث تدور كلها في الحاضر ولهذا أسرع المؤلف الى انهاء الأحداث بسرعة غير طبيعية ابتداء من الفصل العاشر. لكي يتخلص من أعباء نمو الحدث. فالفصل العاشر في الرواية هو :

" أقلعت طائرة مادى في اليوم التالي ، وكان فؤاد يغط في نوم عميق "[2]

انّ هذا الخبر لا يستحق أن يفرد في فصل ، فقد كان بامكان المؤلف أن يخبرنا به من خلال حركة الرواية . ولكن يبدو أن اعطاء اسم فصل

---

١) هذه الافعال هي بداية فصول الرواية كلها .

٢) صباح محي الدين ، خمر الشباب، ص ٢٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يهدف الى جعله نقطة فاصلة في حدود الرواية. واذا كان سفر مادى قد غير كثيرا في مضمون الرواية، فانّ هذا السفر ظل عاجزا عن التأثير في بنائها الفني. وينطبق هذا الكلام على الفصل الثاني عشر، فهو يتكون من عدة أسطر. وهذا يعني أن المؤلف أجهض نمو الرواية بتسارع الأحداث فيها على هذا النحو.

والمعروف أن "العالم الخيالي للرواية الدرامية يقع في "الزمان". والعالم الخيالي لرواية الشخصية يقع في "المكان". ففي الأولى، باختصار شديد يقدم لنا الكاتب تحديدا عابرا للمكان ويبني حدثه في نطاق الزمان. وفي الثانية يفترض الزمان فيكون الحدث اطارا زمنيا ثابتا، يوزع دائما، ويعدل مرة بعد أخرى في نطاق المكان."(١) ولذا نتعرف في الرواية على كثير من معالم لندن، فنعرف شقة فؤاد الواقعة في لانكستر جيت، وتتعرف على محطة لسترسكوير، وشارع تشيرنج كروس، ومكتبة فويل، وحي سوهو، وساحة الطرف الأغر، وكنيسة سان مارتان، وشارع ستراند، وضفة نهر التايمس، ومستان دفكتوريا، وقاعة فستغال هول، وملهى النسر الأبيض، والمعلم الهندي في كيمبردج، وجسر واترلو، وجسر وستمنستر، والبرلمان، وبغ بن، ومعلم بيار.(٢) ومن الواضح أنّ القاص استغل المكان للكشف عن جوانب الشخصيات، ولذا بدت لندن محببة الى أبنائها، ولم يشعروا فيها بالغربة... وتكاد الشخصيات هنا تتوحد بالمكان، ففؤاد ومادى في لحظة وجد "سارا يتنقلان من شارع الى

---

١) ادوين موير، بناء الرواية، ص ٦٢

٢) صباح محي الدين، خمر الشباب، ص ٥، ٩، ١٥، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٥٢، ٦٢، ٧١، ٨٦، ٩٠، ٩٢، ٩٥، ١٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شارع، وكأنهما في دنيا غريبة، ليست من لندن التجارة والصناعة والعدو وراء الرزق في شيء." (١) ووليد يرى أن اقامة بضعة أشهر في لندن تعني العيش "في الليالي الدافئات." (٢) واذا تذكرنا أن نهاية العلاقة بين مادى - وفؤاد جاءت ومادى في سويسرا، أدركنا أن المكان لندن - كان بمثابة التعويذة التي تحتمي بها هذه الشخصيات، ولا سيما فؤاد فهو هارب من سيطرة أبيه المطلقة، ولذا كان وجوده في لندن حماية مؤقتة من هذه السيطرة. فشخصيات الرواية هي التي حركت الأحداث، وحسمتها على هذا النحو. وان كان في هذا الحسم ضعف أثر على بناء الرواية.

أما رواية حسن جمال الحسيني "الأصدقاء"، فهي تتشابه مع الرواية السابقة في عدة نقاط. فان بطولتها هي الأخرى ليست حكرا على شخصية روائية واحدة. ولكنها موزعة بين جمال وصديقته كلود من جهة، وبين علي وما يدور في فلكه من شخصيات أخرى مثل مينا، فيرا، جانين من جهة أخرى. ويأخذ جمال وعلي الأبعاد التي يأخذها فؤاد ووليد. فقد "كان الصديقان متناقضين في كثير من مظاهر حياتهما. لقد كانت لعلي ميول عديدة رغم أنه كان يدرس القانون، وقد كان يكره الاستقرار، ويقول بأن الاستقرار ما هو الا خمول واستكانة، وينادى بالثورة التي تعني التقدم والرغبة في الوصول الى الأفضل. كان علي ثوريا بطبيعته، متألما من مهازل التاريخ، ساخطا على الفوارق

---

١) صباح محي الدين، خمر الشباب، ص ٣٢
٢) المصدر نفسه، ص ٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطبيعية. ثائرا حتى على مواد القانون التي يدرسها . . . أما جمال فكان قد اختار لمستقبله طريقا عرف حدودها ومجالها ومشى عليها بخطى أكيدة. ورغم أنّ جمال كان يسعى الى الكمال هو الآخر، الا أنه كان لا يرى الكمال الا في فنه ولا يسعى الى شيء سواه."(١) واذا تمعّنا في الوصف السابق سنجد ما يلي :

١) التناقض الجوهري بين الشخصيتين، وهذا التناقض لا سبيل الى ازالته، وهو يعني أن كل شخصية من هاتين الشخصيتين ستظل تتحلى بالثبات.

٢) انّ علي وجمالا صديقان، والصداقة هنا ضرورة لاستمرارية الرواية، لأنها تعيش على الجمع بين هذين المتناقضين.

٣) انّ المتأمل في هذه الصفات، يجد أنها تختصر صفات هذه الشخصيات وتقدمها على نحو جاهز، ومن ثم تكون أحداث الرواية توكيدا لهذه الأحكام التقريرية، وتعميقا لها، وكشفا لأبعادها.

ولذا يحرص المؤلف على توضيح كامل أبعاد شخصياته، سواء أكانت هذه الأبعاد جسمية أم نفسية أم اجتماعية. فعلي "وسيم الملامح طويل القامة، قوى البنية، ذا سمرة جذابة."(٢) وهو من أسرة فقيرة، وجمال ابن رجل ثري، مثالي النزعة. فهو يستأجر شقة ويطلب من علي

---

١) حسن الحسيني، الأصدقاء، ص ١٥، ١٦

٢) المصدر نفسه، ص ١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن يسكن معه بدون مقابل ، ثم يأخذ مقدارا بسيطا من الأجرة بعد الحاح علي . وهو اذا أحب فانما يحب كلود الفتاة المذراء ، وتظل علاقتهما عذرية لفترة طويلة ، وعندما تموت كلود يفزع الى الموسيقى التي يرى فيها عزاءه . ولا ريب أن فهم المؤلف للمثالية جعل هذه النماذج جامدة تقف في وجه بعضها بعض ، دون أن تنمو وتتطور . فجمال وكلود يظلان ممثلين للبراءة والانسانية ، ودريد وفؤاد يمثلان الشذوذ والانحراف ، والتمسك بقشور الحضارة الغربية . أما علي فهو يمثل النموذج العملي . وعندما يدير المؤلف الصراع في داخله ، يأبى الا أن يكون الصراع رومانسيا يمثل التمزق بين الحب والارادة . أو بين الرجولة والانوثة . وهذا الصراع يؤكد نمطية الحوادث .

أما زمن الرواية فهو السنة الأخيرة من دراسة جمال في المعهد الموسيقي ، وتركيز جمال على هذه السنة نابع من كونه يأمل في الحصول على الجائزة الأولى في العزف . ولذا فان الحوادث تدور في الحاضر ، ويكاد الماضي لولا اشارات قليلة غير فاعلة ، أن يختفي تماما . على أن مراعاة التسلسل الزمني في الحوادث ظل يسير بدقة صارمة .

أما البعد المكاني في الرواية ، فان حركة الرواية تدور في باريس ، ولكن هذه الحركة لا تكسب الرواية خصوصية معينة ، صحيح أن الرواية تذكر شارع ستوكهولم ، ومحطة سان لازار ، وسان روفائيل ، ومعهد الكونسرفتوار ، وكثيرا من المطاعم ، وقاعات الاحتفالات الموسيقية . (١) ولكن هذه الامكنة لا تتوحد مع حركة الشخصيات بل تظل معالم باهتة . ويعود ذلك لأمرين :

---

(١) حسن الحسيني ، الأصدقاء ، ص ٥٠٢ ، ٥٠٦ ، ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا : طبيعة هذه الشخصيات وما بينها من تضاد ، فعلي لا يهمه من صديقه مينا أوفيرا أو جانين الا اللقاء ، وهذا اللقاء يتم على الوجه المطلوب في مكان مغلق . وجمال وكلود يميلان الى مثل هذه اللقاءات أيضا .

ثانيا : النظرة الجمالية الى باريس، التي تنبع من كون باريس محل الفن فهي تمثل " المدينة الخالدة التي احتضنت ليست، وشوبان ، وحنت على ديموسيه ورافيل ، وتقبلت الرسامين الانطباعيين ، وما تلاهم من فرق ومذاهب . ومن هوائها استنشق فولتير وهيجو، وفيها حلم رودان الرخام ليخلق منه آيات الفن ." (١) وهذه النظرة الجمالية تنتهي بالمؤلف الى نوع من التجريد الفني .

ولعلنا اذا تتبعنا فصول الرواية نجد أن الفصل الأول مثلا يدور في منزل جمال وعلي ، والثاني في بيت الاستاذ نايت أستاذ الموسيقى والرابع والخامس في شقة جمال وعلي ، والسادس في القطار المسافر الى جنوب فرنسا ، والسابع في منزل أهل كلود في باريس ... الخ . ولعل هذه الأماكن المغلقة أسهمت في تكريس عزلة واضحة بين الأبطال وبين الوسط الاجتماعي الذي يعيشون فيه ، مع أنها عمقت العلاقات فيما بينهم .

أما رواية سليم اللوزي " المهاجرون " فهي تتوزع بين سعيد الطرابلسي ، وسامي الشريف، وعلي الشيخ ، وخليل الأزرق ، وسلمى

---

(١) حسن الحسيني ، الأصدقاء ، ص ٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشيخ ، وراشد أبو المنى ، وريتا ، وغيرهم من الشخصيات. وتغدو الرواية عرضا لنماذج مختلفة من الحيوات المتداخلة ، المتشابكة ، المتعارضة في كثير من الأحيان . واذا كان التقسيم في الروايتين السابقتين ينبع من التضاد ، فانّه في رواية اللوزى ينبع من توحد الصورة لا من تضادها . فعلى الرغم من التداخل والتشابك بين شخصيات الرواية ، الا أنهم مهاجرون تربط بينهم الهجرة ، ومقت الأنظمة السياسية الثورية في العالم العربي . ولذا يلتقي المجرم والضحية في بلاد الغربة ، ويتعاونان فاذا كان على الشيخ يحقق مع سامي الشريف ، ويشرف عليه في السجن فان سامي الشريف هو الذى يشرف في المنفى على استثمار أموال علي الشيخ . وهذا يعني أن المؤلف قام بتوزيع الأدوار ، كما قام بتوزيع أبطاله على البلدان العربية (سوريا ، لبنان ، مصر ، فلسطين) ، وذلك لكي يعبر عن فكرته . فهذه الشخصيات رموز تعبر عن فكر المؤلف ولكنّ حركة الرواية تتم عبر مستويين ، هما حركة التداعي لنبش الماضي والتسلسل الزمني لمعرفة الحاضر ، والحركة الكلية تكشف طبيعة الشخصيات وأبعادها ، وتوحد بين الماضي والحاضر ، وتجعل الحاضر نتاجا لذلك الماضي . كما أنّ تنويع الضمائر بين المتكلم ، والغائب ، والمخاطب ، يجعل الرواية لا تعبر عن آراء المؤلف فحسب ، وانما وسيلة لالتقاط الحدث من زوايا متعددة ، وهذا يعني أن رواية اللوزى متقدمة من الناحية الفنية عن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الروايتين السابقتين ، فهي تكاد تخلو من التقريرية والأوصاف الجاهزة . ولكنها مع ذلك تشترك معهما في تقديم شخصيات جاهزة غير قابلة للنمو ، فسامي الشريف يقف ضد النظم الثورية في الوطن العربي ، ويظل على هذا الموقف لبلة الرواية . صحيح أن سامي يروى بضمير المتكلم ذكرياتـــه المريرة ، ولكن هذه الذكريات لا تجعل سامي شخصية نامية ، فشخصيته لم تتأثر بحوادث القصة ، لأنها مرسومة على نحو مكتمل لا يمكن أن يتطور . ويظل خليل الأزرق يمثل الانتهازية ، مع أن ملامح صورته مبالغ في رسمها الى حد بعيد . وقد يكون هذا النموذج موجودا على الصعيد الحياتي ، ولكنه في صياغته الفنية ضعيف " انه رجل مذهل الذكاء ، ضامر لدرجة الجنون ، شخصيته من الشخصيات النادرة . "(١) وهو " شاب غير عادى من الصعب تحديد جنسيته من ملامحه ، فهو أحمر البشرة ، كأنه من بلاد اسكندينافيا . شعره مجعد كأنه افريقي ، وعيونه الزرق توحي بأن فيـــه دما تركيا . طويل ، أنيق ، مجامل ، لبق ، محدث يتقن عدة لغات."(٢) ولا ريب أن مثل هذا الوصف لا يرسم لنا ملامح هذه الشخصية ، ولا يزيدنا اقناعا بوجودها ، ولعل ذلك يعود الى أن خليل الأزرق كان غائبـــا في الرواية ، وأن هذا الكلام هو آراء الشخصيات فيه . ولكن هذا لا يمنع من القول أن شخصيته ظلت محرومة من النمو . أما محمد أحمد ، وفاروق الشوربجي (٣) ، فهما يمثلان البطل الضحية الذى يعذب ، أو يمـــوت (على الترتيب) بسبب اخطاء لم يرتكبها . وهما شخصيتان ثانويتـــان لم يهتم المؤلف الا بالفكرة التي يمكن أن يطرحها عبرهما .

---

١) سليم اللوزى ، المهاجرون ، ص ١٠٣
٢) المصدر نفسه ، ص ١١٨
٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ ، وص ص ١٥٤ - ١٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل أكثر الشخصيات تطورا في الرواية هي شخصية علي الشيخ وابنته سلمى ، فقد تطور علي الشيخ من انتهازي الى قاتل لأسباب وطنية أما سلمى فمع أنها ترمز الى فكرة التحدي والانتقام، الا أن المؤلف نجح في جعل حياتها تدور ضمن هذه العقدة. كما كانت أكثر الشخصيات تعبيرا عن القلق والصراع الداخلي. ويحاول راشد أبو المنى أن يكون بمثابة الضمير لكل هؤلاء الشخصيات، فانّ تحذيره لعلي الشيخ هو الذي عالف بالرواية هذه الانحطاطة. أما ريتا فهي تجسيد للشر فهي يهودية أحسنت التستر والخداع... ولذا فانّ سعيد الدرابلسي " رغم حياديته بل وتمرده الظاهر على أنماط الآخرين النفسية والاقتصادية هو وبه من وجوه سامي الشريف وعلي الشيخ وسلمى وريتا. "(١)

أما زمن الرواية الرئيسي في الحاضر، فالشخصيات الرئيسية تجتمع لأنها تعيش محنة محاكمة علي الشيخ على أثر اتهامه بقتل شريكه. فالتسلسل الزمني في كشف أبعاد هذه المحظلة، يوحد بين الشخصيات ويفرق بينها في الوقت نفسه. فالزمن الحاضر لا يتجاوز عشرة أيام، ولكنه يتداخل مع الزمن الماضي. فنرى أنه يمتد الى " ذات ليلة من صيف عام ١٩٦٣ ، في ملجم " الشاندليه" في جنيف."(٢) في هذه الفترة كان سامي الشريف يحاول اغراء الدرابلسي لكي يغير خطة الفكرى،

---

(١) سليم بركات، عندما أقفل سليم اللوزي الباب على مهاجريه نسي نفسه وسواهم، الحوادث، العدد ٩٢١، سنة ١٩٧٤.

(٢) سليم اللوزي، المهاجرون، ص ١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان يغريه بالمال. وكان يرى الطرابلسي أن الشريف " نقابية برجوازية لفظتها حركة الثورة في بلده، كان يبدو له مجرد فرد حاقد."(١) ولكن الزمن هو الذي كشف خطأ هذه النظرة "أما اليوم وبعد تسع سنوات، فيبدو كأن سامي الشريف هو الذي انتصر."(٢) ومن الواضح أن الزمن الحاضر هو الذي يقوم بدور البطولة، لأنه هو الذي يكشف صدق الفكر الذي ينتمي اليه كل طرف.

ومن الملاحظ أن كل شخصية من هذه الشخصيات أسيرة زمنها على المستوى الخاص، ولكن هذا لا يمنع من التقاطع والتداخل بين أزمان هذه الشخصيات.(٣)

أما عن حضور الرواية في المكان. فانّ هذا الحضور يتم عبر مستويين: مستوى الماضي: فنجد سجن المزة، وزنزانة أبو ريحة، ومعتقل القلعة.(٤) وهذه الأمكنة تكشف الوضع السياسي والاجتماعي لهذه الشخصيات. فهي أمكنة مغلقة ويكون اللجوء اليها تعبيرا عن الضيق التام بحياة الوطن وبالأنظمة السياسية فيه.

ومستوى الحاضر: فنجد الرواية تتحدث عن مونت كارلو، وجنيف، ونهر الرون، وبحيرة ليمان، وحي شامونيكس، وملهى جيمي، والترافي موندي، وهامبورغ، وباريس، وفرانكفورت.(٥) وهذه الأماكن ترمز الى الحرية المطلقة التي تقف نقيضا للماضي. وهذا دفع بسامي الشريف الى عدم

---

١) سليم اللوزي، المهاجرون، ص ١٣٧
٢) المصدر نفسه، ص ١٣٧
٣) المصدر نفسه، ص ٦٧، ١٠٧، ١٠٩، ١٢٧، ٢٠٦، ٢١١، ٢٤٥
٤) المصدر نفسه، ص ٤١، ٥٨، ٦٨، ٢٠٤
٥) المصدر نفسه، ص ١١، ١٦، ٢٤، ٣٦، ٥٥، ٥٦، ٦٨، ٩٤، ٩٧، ٩٩، ١٠١، ١٠٩، ١٢٥، ٢٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وضع مفتاح لأبواب يفتحه لأن "أفظع عمل وحشي اخترعه الانسان هو اغلاق الباب على انسان آخر بالمفتاح ثم الانصراف."(١) وهذا يعني أن حالة سامي الشريف النفسية التي تشكلت نتيجة حقده على الماضي دفعت به الى طلب التحرر، ورفض كل الأماكن المغلقة.

أما رواية ومرّ صيف" فهي موزعة بين سهير والدكتور يوسف وجين وايتالو. وهذا التوزيع يهدف الى تجسيد عنصري التقابل والتضاد. فالدكتور يوسف يقابله ايتالو، وسهير تقابلها جين. ولا يخفى أن هذا التوزيع كان مقصودا، يهدف الى تجسيد هدف المؤلفة في كتابة "قصة عالمية من الممكن أن تحدث في أي زمان وفي أي مكان من العالم."(٢) فهذا التعليق يكشف عن تلك القصدية التي أشرنا اليها. وهذه القصدية ليست عيبا من حيث المطلق، ولكنها تصبح عيبا اذا تحكمت في سير أحداث الرواية، وتحريك الشخصيات. الأمر الذي يجعل هذه الشخصيات تتصرف وفقا لفكرة الكاتبة، لا تبعا لتكوينها الخاص.

ترسم المؤلفة ملامح شخصياتها بتقريرية حاسمة، فتقول:

"الدكتور يوسف الأسواني. دكتور في الاقتصاد. مثقف. جدي، تتجاذب عمره الاربعون والخمسون. مشوق القامة. أسمر، في عينيه ود. وعلى شفتيه العريضتين حزم وفي تحول وجهه تصميم."(٣)

---

١) سليم اللوزي، المهاجرون، ص ٥٧

٢) كوليت خوري، ومرّ صيف، ص ١٢

٣) المصدر نفسه، ص ١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما جين فهي " فتاة لندنية في الخامسة والعشرين من عمرها ، ناعمة الملامح ، مشرقة الابتسامة ، تذكرعيناها الخضراوان الجميلتان بأصياف تلك البلاد المرمية على الساحل . . . "(١)

أما سهير فهي " نحيلة يتوج رأسها شعر كستنائي قصير جدا ، يتدلى على جبينها بشكل فوضوي ، وتلوح تحت خصلاته عينان عسليتان لامعتان . شكلها لا يوحي بالجمال ، ولا يثير الشهوة . . . "(٢)

انّ هذا الوصف لا يحقق احساس القارئ بهذه الشخصيات ، فضلا عن أنه لا يصفها لأنه يدور في عمومية شديدة . فنحن لا نكاد نجد ما يميز هذه الشخصيات ، لأنّ الكاتبة لا تتعمق باطن هذه الشخصيات ولذا فانّ هذه الشخصيات طرحت في الرواية مكتملة البناء غير قابلة للنمو . وهذا أمر طبيعي يتوافق مع الغاية التي تهدف الكاتبة لها . فهي تبحث عن شخصيات جاهزة لا تثقل عليها . واذا كان قد تم بعض التطور في جين وايتالو بسبب علاقتهما بيوسف وسهير ، فانّ هذا لا يعني انّ هذه الشخصيات نامية . لأنّ خصائص الشخصيات الجاهزة " أن يحدث التغير في علاقتها بالشخصيات الأخرى فحسب ، أما تصرفاتها فلها دائما طابع واحد . "(٣)

انّ أكبر ضعف في بناء هذه الشخصيات ، يكمن في كونها لا تتحرك من تلقاء نفسها ، وانما تتحرك من خلال أصابع المؤلفة . ولذا فانّ حركة

---

١) كوليت خوري ، ومر صيف ، ص ٢٢ ، ٢٣

٢) المصدر نفسه ، ص ٣٦

٣) عز الدين اسماعيل ، الأدب وفنونه ، ص ١٦٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التقابل والصراع بين هذه الشخصيات تبدو مفتعلة، لأن الحوادث تأخذ دائما نمطيا. فصراع سهير - يوسف نابع لأن " كل امرأة تعرف اليها في حياته فرض عليها حمايته فارتاحت لهذه الحماية، كل امرأة ما عدا سهير."(١)

أما سهير فسبب صراعها معه يكمن في أنه " فارس هاجمه المرض فرفض أن يرضخ للعدو القوى. رفض أن ينزل من على صهوة جواده ليبكي على صدر امرأة. انه يؤثر أن يخسر المعركة، ولكنه يخسرها وهو راكب على جواده، وبين ذراعيه امرأة تبكي على صدره."(٢)

فالحركة تنبع من موقف رومانسي، يرى في لحظات الحب والمرض ضعفا ويرى في هذا الضعف عارا يجب على الانسان أن لا يمر به.

أما من حركة الرواية في المكان فان لندن تبدو من خلال مستويين:

المستشفى: وهو بيئة مكانية مغلقة تتحكم بالشخصية الروائية فيها، قوانين الطب، وحالات الضعف، وقد كان من المفروض أن تطلق الكاتبة المجال لذهن يوسف أن يتحرك في الزمان، كما كان من المفروض أن تلون رؤيته تبعا لهذا الجو. ولكن الرواية تغلو من رصد جزئيات المكان، كما تغلو من رصد الحالات النفسية المطابقة لها. فهو يقول: " ابدا هو ليس خائفا، أبدا لن يعترف بأنه خائف... أبدا لن يقول بضعف، فهو يأبى أن يعترف ولو لنفسه بأنه يضعف وبأنه خائف."(٣)

---

١) كوليت خوري، ومر صيف، ص ١٧٤

٢) المصدر نفسه، ص ١٦٦

٣) المصدر نفسه، ص ٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اننا نتساءل لماذا لا يريد أن يضعف؟ أن هذا الاضرار يؤكد تعثر المؤلفة في صياغة النماذج الفنية على هذه الشاكلة. أما الحركة الأخرى فهي حركة بقية الشخصيات، فجين مثل ترسم صورة زاهية للندن، وسهير تتراوح بين الشعور بالغربة والحزن، لأنها مربوطة الى حد ذلك المكان المغلق، وبين محاولة الاندماج مع الشاب الايطالي ايتالو... ولكن السمة الغالبة على هذا الجزء أيضا وقوعه في التجريد.

أما رواية توفيق الحكيم "عصفور من الشرق" فهي تمزج بين الشخصيات والفكرة، فالحكيم يقدم لنا شخصياته جاهزة، ولكنه يقدمها لنا لتكون معبرة عن فكرة يحرص الحكيم على عرضها.

تستقصي هذه الرواية أحوال شخصية محورية واحدة هي شخصية محسن، وتخضع بقية الشخصيات الأخرى لها، ويكون دور هذه الشخصيات يتمثل في اضاءة الشخصية المحورية وتوضيح أبعادها المختلفة، وسلوكاتها. يقدم الحكيم في الرواية عدة شخصيات، شخصية محسن، وأندريه وزوجته جرمين، والعامل الروسي ايفان، وسوزي ديبون، ويكشف الحكيم عن هذه الشخصيات على نحو متدرج، ولكنها تظل شخصيات ثابتة لا تنمو بل تحتفظ كل شخصية بموقعها حتى اللحظة الأخيرة. فالحكيم يفتتح روايته بالرعام يضع محسنا في البيئة الجديدة. لا ليجعله مندمجا بها، ولكن ليميزه عنها. فالمطر الغزير ألجأ الناس الى المظلات. ولكن محسنا هو الذي ظل يتأمل النافورة. "هذا الآدمي فتى نحيل الجسم، أسود الثياب، على رأسه قبعة سوداء عريضة الاطار، في قمتها فجوة غائرة. كابق الحساء. قد امتلأت بماء المطر. وفرغ الفتى من تأمل النافورة فغادرها الى جانب آخر من الميدان يقوم فيه تمثال الشاعر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"دي موسيه" وهو يستوحي عروس الشعر. فوقف الفتى ينظر اليه." (١)

ثم يقول :

"واذا صوت خلف ظهره يصيح به :

- أراهن بمائة فرانك، أن لا مخلوق يقف هكذا أمام هذا التمثال الا أنت.

فاستدار الفتى سريعا :

- أندريه

- قبل كل كلام، انج بي وبنفسك من هذا المكان، ليس هذا وقت النظر الى التماثيل.

- بل وقته، تأمل يا أندريه، هذه الدموع في عيني الشاعر.

- لو لم يكن هذا الشاعر من رخام، لولى الساعة هاربا، هو وعروسه الى أقرب قهوة، وتركاك وحدك وسط هذه المياه." (٢)

ان الحكيم يحدد في ذلك الحوار الملامح الشكلية والنفسية لمحسن. فهو يلبس لباسا يشبه لباس الفنانين، وهو حريص عبر هذا اللباس على اظهار تميزه. وهو يتأمل تمثال ألفريد موسيه، شاعر الحب ويعجب كيف فطن هذا الشاعر الى أنه "لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم." فهو ينتقي تمثالا لشاعر. أي يقف عند الجوانب الفنية في حضارة الغرب. ثم يجيء بأندريه النقيض التام لمحسن. فاذا كان محسن يمثل الروح،

---

١) توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص ١٤

٢) المصدر نفسه، ص ١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فانّ أندريه يمثل المادة. وهو يفتتح حديثه بالمراهنة على مئة سنن الفرنكات، ويسخر من محسن ومن مشاعره الفنية على نحو حاد. ويظلّ كل واحد منهما في موقعه. فاذا أحب محسن، فانه يخفي على من يحب تصورات مثالية في حين يدله أندريه على أقرب الطرق العملية لتحقيق صبواته، وتقنعه جيرمين بأن يهدي بها زجاجة عطر، أو باقة زهر. أما سوزى دبيون فهي وسيلة فنية يستخدمها الحكيم لكي يثبت مادية الغرب. "وهذه الفكرة كانت همه في القصة كلّها، ومن ثم ألحت عنده على كل شيء فلم يعد يحفل ببائعة التذاكر، ولو أن القصة كانت مقنعة متوخية الفن القصصي وحده لتتبع حياة هذه الفتاة الى النهاية واتخذ منها مادة للاضافة في الحوض والتشويق. ولكنه كان ممتلئ النفس والواعية بفكرة سيطرت عليه فسخر العمل الفني كله حتى لم يعد كل شيء الا وسيلة لها."(١) أما ايفان فقد اختاره الحكيم ليدافع عن الشرق، وليهاجم حضارة الغرب. وهذا الاختيار موفق من حيث الاطار العام، "فهو أولا رجل شأنه أن يكون مادى النزعة، فدفاعه عن النزعة الروحية يأتي ذا قيمة كبيرة، لأن الفضل ما شهدت به الأعداء". وهو ثانيا ليس شرقيا مطلقا ولا غربيا مطلقا ومن هنا يمكن أن يكون وجدانه منطقة حياد تلتقي فيها انعكاسات الحضارتين ويعبر عنهما بانصاف."(٢)

---

١) نعمات أحمد فؤاد، قمم أدبية، ص ٢٧٤

٢) أحمد هيكل، الأدب القصصي والمسرحي في مصر، ص ١٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن المؤلف تدخل كثيرا في صياغة أفكار أندريه، وترتيبها حتى بـــان أن الحكيم هو صاحب هذه الآراء والخواطر.

ولذا فإن بناء الرواية بشكل عام بدا مغتلا تبعا لسيطرة الأفكار على هذا النحو، حتى بدا أن لا علاقة للجزء الثاني، بالجزء الأول وبدت " الفكرة مفروضة على الأحداث والمواقف ومفصولة عنها، كما بدت شخصية ايفـــان مجرد وسيلة يلجأ اليها المؤلف لعرض فكرته." (١) ونتج عن سيطرة الفكرة " قلة الأحداث، وكثرة الوصف. كما نجد كذلك ضآلة الشخصيات. ووفرة الحديث. حتى لنرى الكلام يطول على لسان بعض الشخصيات طولا يقرب من الخطب المبسوطة." (٢)

كما نتج عن ذلك حشد واسع لأسماء كثيرة في عالم الفكر والفن والثقافـــة، فنجد في الرواية ذكرا لـ دموسيه، والسيدة زينب، ونيتون فالان، والجاحظ ونيتشه، واسحق الموصلي، وكارمن، وأناتول فرانس، وكارل ماركس، ومحمد، والحباب بن المنذر، وتوماس مور. كامبانيلا، فوريللي، أناكريون، وعمـــر الخيام، ماما دوفا، حافظ الشيرازي، بيتهوفن، فاجنر، المسيح، الـدوس داكسلي، جان كوكتو، هاندل، موزار، هايدن، جان سباستيان باخ، ميكل انج، رفاييل، ومبرارنت، باسكال، سان توماس، كوبرنيـــك، جاليليه، دانتي. (٣) ولعلّ هذا يقلل من خصوصية تجربة محسن، نظـــرا لاعتماد محسن الواسع على هذه الأسماء وما تثيره في ذهن القارئ مـــن أثـــر.

---

١) عبد المحسن بدر، تطور الرواية العربية، ص ٣٩٦

٢) أحمد هيكل، الأدب القصصي والمسرحي في مصر، ص ١٨١، ١٨٢

٣) توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص ١٤، ١٦، ٣١، ٦٠، ٦٢، ٦٤، ٦٧، ٧٣، ٧٧، ٨٢، ٨٣، ٩٤، ١٠٦، ١٠٩، ١٢٤، ١٢٨، ١٣٣، ١٤١، ١٤٢، ١٥٠، ١٥٥، ١٦٠، ١٦١، ١٦٧، ١٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما زمن الرواية فهو الزمن الحاضر، أما عن الرجوع للماضي فيتم لاضاءة الزمن الحاضر، وهذا الرجوع محدد وقليل. أما عن المكان، فالمعروف أن محور الرواية المكاني هو باريس. ولكن الحكيم، لا يهتم بحركة الرواية في المكان، ولا يستخدم تفصيلات المكان لانارة جزئيات الرواية. ولكنه يستخدمه للدلالة على مادية الحضارة الغربية، وتقدمها التكنولوجي

هذه الملاحظة على الرواية، باستثناء مكان عمل سوزي دييون. فلم يكن من قبيل المصادفة أن يختار لها الحكيم، أن تكون قاعة تذاكر، فهي بالتالي في مكان مغلق، تنظر الى الناس، ولا يستطيع محسن أن يقترب منها الا اقترابا محددا... وهذا أهم سبب في قيام العلاقة بينهما.

فالحكيم يحرص على أن تبقى مسافة بين محسن وسوزي لكي تستمر العلاقة، ويكون تجاوز هذه المسافة ايذانا بانتهائها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د ـ الرواية التقليدية :

تجتمع هذه الروايات في الاطار العام ولكنها تختلف من حيث التفصيلات. فالذى يجمع بينها هو كونها تبدأ البداية التقليدية، فتطرح عقدة معينة، ثم تعرض للصراع الذى تثيره هذه العقدة، وتنتهي بحل معين. ولكن الاختلاف حاد في تفصيلات هذا الطرح، مثلما هو حاد في مستواه الفني.

تمزج رواية جمعة حماد "بدوى في اوروبا" بين الحدث والشخصية مزجا ناجحا وموفقا. فقد نجح المؤلف في رسم ملامح وأبعاد هذه الشخصية، فجاءت تعبيراتها، ونظرتها ولغتها متوافقة مع مستواها الثقافي. كما نجح في جعل الأحداث المتلاحقة تثير كثيرا من الدهشة عند سويلم، ولكنها لم تفلح في حملها نحو التغير والتطور. فظلت شخصية سويلم محرومة من النمو والتطور. ولكن يبدو لي أن المؤلف استعاض عن التغير في الشخصية، بتغير البيئة. ففي الرواية بيئتان :

احداهما جامدة ذات شخوص لهم طابع النمط ولتصرفاتهم طابع الثبات المطلق، وأخرى متحركة تثير دهشة البيئة الأولى واستغرابها. وكان سويلم بمثابة الوسيط بين هاتين البيئتين. ولكنه وسيط يحافظ على شرف اللعبة "يرود الطارح بنفسه"، ليعرفه ليس الا. ولذا فان الحدث هو الذى يدفع الشخصية ويحركها. فتعلم اللباس الجديد، وركوب الطائرة، وتناول الطعام، وقضاء الحاجة، والنزول في الفندق، وبقية الأعمال الأخرى ... كل هذه الأحداث تجعل سويلم في دور المتلقي المنفعل الذى يحاول أن يحدد موقفه من هذه الأحداث بعد وقوعها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما من زاوية البناء الفني ، فانّ الرواية تخلط بين أسلوب الراوى وحديث المؤلف. فالحديث عن سويلم في الرواية بشكل عام يتم عن طريق الفعل الماضي . ويبدو أن جملة " كان سويلم" من أكثر الجمل ورودا في سياق السرد الروائي . ولا يخفى أنّ هذه الطريقة تتوزع بين أسلوب السرد الروائي من جهة ، وأسلوب الحكاية الشعبية من جهة أخرى . ولا يخفى أنّ استخدام هذا المنهج يؤكد محاولة الكاتب المستمرة لتبيان كيف تطورت الأمور حتى وصلت الى الذروة . ولكنّ الحديث عن سويلم يشكل أيضا مأخذا من الناحية الفنية . فاذا كان المؤلف قد نجح في الحديث عن سويلم ، فقد ألغى الحوار الذاتي كثيرا ، ولعلّ جهل سويلم باللغة الألمانية ، يشكل عذرا وجيها للمؤلف ، ولكن ما لا عذر للمؤلف فيه هو غياب الحوار بين سويلم وعبد الله على نحو ملفت للنظر . وهذا لا يعني أنهما لم يتحدثا مع بعضهما بعضا ، ولكن حديثهما جاء في سياق السرد عن طريق الفعل الماضي . ولهذا تراوح البناء الفني بين سير الرواية التقليدية وبين الحكاية (الحدوتة) التي تبغي الامتاع . . . فعندما يقول المؤلف " تركنا سويلم أمس يمشي وراء عبد الله بعد أن ملأته الدهشة من تصرف الرجل . . . تركنا سويلم يقلب فكره في عادات القوم وتصرفاتهم ." (١) يشير الى أنه يستخدم النهج القصصي المستخدم في الحكايات الشعبية . ولذا ليس عجيبا أن تبدأ كل فصول الرواية بفعل ماض لأنّ الحكاية تروى ولا تحدث . ولكن هذا الشكل كان ناجحا بالقياس الى طبيعة شخصية سويلم ، فاستخدام الأسلوب

---

(١) جمعة حماد ، بدوى في اوروبا ، ص ٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السردي يلائم بساطة هذه الشخصية. كما أن التركيز على الحركة الخارجية للشخصية، يتلاءم مع الطبيعة سويلم البسيطة. ولذا يمكن اعتبار سويلم نموذجا فنيا ناجحا لأنه يتشاكل مع واقعه في تصرفاته المختلفة.

أما "السنفونية الناقصة" لصباح محي الدين و "رصيف العذراء السوداء" لعبد السلام العجيلي، فهما من زاوية البناء الفني تقليديتان ولكنهما أكثر تطورا من بناء الرواية السابقة. ويعود ذلك الى اختلاف العقدة الروائية، كما يرجع الى اختلاف مستوى الأبطال الثقافي. تلتقي روايتان الروايتان في العقدة الروائية، وهذه العقدة تتلخص في اللقاء العابر بين البطلين وامرأتين غريبتين، وأثر هذا اللقاء العابر على مجرى الرواية العام. فلقاء بطل "السنفونية الناقصة" بماشكا، كان عابرا ولكنه أثر تأثيرا كبيرا بماشكا. ولقاء عباس - ماريا غير كل واحد منهما تغييرا جذريا. وهذا يعني أن العلاقة بين الحدث والشخصية علاقة جدلية، فالحدث يحرك الشخصية، والشخصية تسهم في بلورته. كما أن تراكم الأحداث الفرعية، واتصالها يشكل الحدث الرئيسي. فاللقاء مع المرأة هو الحدث العام. ولكن تفصيلات هذا اللقاء هي التي تشكل مضمون الرواية الذي يجمع بين الموقف والشخصية. على أن ثمة فرقا بينهما يكمن في الأسلوب. ففي الوقت الذي يروي فيه العجيلي قصته بضمير الغائب، يروي صباح محي الدين القصة بضمير المتكلم. ولكن استخدام العجيلي لضمير الغائب يظل قريبا الى ضمير المتكلم، لأن المؤلف لا يتناول الحدث بموضوعية صارمة تلغي مشاعر الأبطال. أما صباح محي الدين فإن استخدام بطله لضمير المتكلم أكسبا حديثه نوعا من الصدق يشبه صدق الاعترافات. كما أنه يؤكد الحضور المطلق لبطل الرواية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لأنه يتيح له فحص مشاعره ومشاعر الشخصيات الأخـــرى.
وتشترك الروايتان أيضا في التسلسل الزمني الصارم لأحداثهما فلا يوجد في بنائهما أي عودة للماضي، بل يسيطر الحاضر عليهما سيطرة تامة. ولكن هذا لم يقلل من عنصر التشويـــق. فقد بلغ العنصر ذروته في "السنفونية الناقصة"، لأنّ البطـــل يقوم عن سبق الاصرار بمحاولة واضحة للحصول على ماشـــكا الجسد. وهذا الوضوح في الهدف جعله يهتم بكل الطرق الفنية والجمالية اللازمة لتحقيق غايته. أما في "رصيـــف العذراء السوداء" فالمؤلف يبدأ بداية وصفية، تموت فيها الحركة، وهذا في الغالب يقلل من التشويق، ولكن المؤلـف استطاع تصعيد الأحداث ودفعها نحو الذروة. فاللقـــاء الجسدي بين عباس وماريالينا غير كافة التوقعـات.
ولكن نقطة الاختلاف بينهما تكمن في بناء الشخصيات. فصباح محي الدين يجنح الى الشخصية الثابتة، ذات المستويات المتعددة من السلوك، في حين يمزج المجيلي بين الفكرة والشخصية النامية. فعباس يرى أنّ الله معرفة، وماريـــا ترى أن الله محبة، ثم يسير كل منهما الى مواقع صاحبـــه. فمضمون القصة يتراوح بين الواقع وبين الرمز. فعباس بدوي مادي. وماريالينا سويدية كاثوليكية واللقاء بينهما لقـــاء بين حضارتين مختلفتين. فاللقاء بينهما هو لقاء رمزي يعبـــر عن لقاء الشرق بالغرب، ولكن الرمز لم يندمج بمستوى الرواية، وانما ظل بعدا عاما يمكن استنتاجه من عموميتها الكلية لا مـــن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تفصيلاتها . مع أنّ " من صفات الرمز الناجح أنه يؤدي وظيفة على مستويين على الأقل ، المستوى الطبيعي حيث يمثل الرمز نفسه ، والمستوى الرمزي حيث يمثل الرمز التجربة الأوسع والأعمق دون تناقض بين المستويين . ولكن حتى يكون الرمز فعالا فلا بدّ من شد مستمر باتجاه البعد الثاني ، بمعنى عدم كفاية البعد الأول لاحتواء المعاني الممكنة من ناحية ، ووجود اشارات والماحات الى أن شيئا آخر يحاول الانفلات والتكشف . "(١)

ولكنّ القصتين تلتقيان في النهاية الاحباطية . فاذا كان بطل " السنفونية الناقصة" قد حصل على ماشكا الجسد ، فان هذه النهاية قد أحبطت ماشكا الى حد بعيد ، فاختفت من حياته نهائيا . وهي التي اعتقدت أن سلوك بطل الرواية معها غير فكرتها عن الشرقيين الذين يخرجون مع المرأة لغاية واحدة فقط . واذا كان عباس قد حصل على ماريا لينا الجسد ، فقد هربت منه هي الأخرى ، وسجلت بهروبها احباطا جديدا يتشابه مع احباط البطل السابق . . . ويختلف معه في أنّ عباسا أحب ماريالينا . ولكنّ اللقاء الثاني أكد تلك النهاية الاحباطية ، كما أكد أن ما كان بين عباس وماريالينا من علاقة ليست الا لقاء عابرا .

---

(١) محمد عصفور ، تحليل لقصة جبرا المفنون في الظلال ، أفكار ، العدد الحادي والأربعين ، ١٩٧٨ ، ص ١٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا رواية فاضل السباعي "الظمأ والينبوع"، فهي رواية ذات بناء تقليدي. تعتمد على اللقاء بين هيلغا وسامي في غرفة مغلقة، وتحشد كافة العناصر الروائية لهذا اللقاء. فالرواية رواية حدث، وهذا الحدث انعكس من خلال سامي وهيلغا، وقام برواية هذا الحدث والتعبير عنه. ففعل سامي ذلك من خلال ضمير المتكلم، وهذا أمر طبيعي لأن البطل كان يروي تجربة، وضمير المتكلم يزيد هنا من مصداقية هذه التجربة ومن قدرتها على الاقناع. ولكنّ الواضح أنّ انفعال هاتين الشخصيتين بالحدث كان انفعالا عاطفيا سطحيا، فكان اللقاء بين سامي - هيلغا يحمل قدرا من العمومية، أضعاف ما فيه من الخصوصية. فظلّ مجرد لقاء رجل بامرأة، دون أن يكون له ظلال حضارية. فمن الممكن أن يحدث هذا اللقاء في القاهرة أو بكين. وهذا يعني أنّ المؤلف لم يستطع أن يدمج الخاص بالعام، وانما اكتفى بمعالجة الأمر من زاوية شديدة العمومية. ولهذا ظلت شخصيات الرواية ثابتة لا تتغير فظل سامي كما هو، وظلت هيلغا كما هي. ولعلّ هذا أبرز ما يؤخذ على المؤلف، ويصادر زهو المؤلف بقوة التحليل والصراع فيها. فالحدث في الرواية لا ينمو على نحو مخطط له، بل ينمو بطريقة ذهنية، وهذا أفقد الحركة الوحدة والاتساق، وجنح بها الى رؤية ذهنية خارجية بعيدة عن الرؤية الدرامية المتنامية. أما سير الرواية فهي تجمع بين نوعين من السير ولكنه على نحو منفصل. فهي من الوجهة العامة لا تسير سيرا زمنيا متسلسلا، دائما تجمع بين الماضي والحاضر. ولكن هذا الجمع يتم بشكل منفصل. فالفصل الأول مخصص للحديث عن اللقاء الذي تم بين سامي واوتوميلر - زوج هيلغا - في حلب، وكيف أقنع أوتوميلر ساميا بالذهاب الى ألمانيا. صحيح أن هذا الفصل تم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بطريقة التذكر، ولكنه تم باسلوب اخبارى لا تتوافر فيه عناصر الحركة والتشويق. ويمكن ببساطة أن نحذف هذا التذكر التقليدى، ليستحيل البناء الروائي سردا تقليديا عاديا. صحيح أن ثمة عودة للحديث عن ندى كتضاد لهيلفا، ولكن هذه العودة ذهنية أيضا تخلو من الحياة لأن ندى فيها تبدو الخير المطلق، وهذا جعلها بدون ملامح فنية على الاطلاق. كما أن هذه العودة ظلت خارج الحدث الروائي الأصيل، ولم تسهم في تعميقه، وانما جاءت هامشا عليه.

وقد مال المؤلف في الرواية نحو التكثيف، فحوادث القصة تجرى في ساعات قلائل، وذلك لكي تتم السيطرة على الحدث، وتعميقه وابرازه "فقد عمدت الى التكثيف في "الظمأ والينبوع"، حيث تجرى حوادث القصة البالغة نحوا من (١٤٠) صفحة في سويعات من يوم واحد."(١)

ولكن اللافت للنظر في الرواية هو نهايتها. فقد سارت الرواية من العقدة الى الصراع، ولكنها لم تنته نهاية حاسمة، وقد يقال أنه ليس من الضرورى أن تكون كل النهاية حاسمة، ولكن انطلاق الرواية من نقطة محددة، كان يبشر بنهاية محددة وحاسمة، ولكن عدم وضوح الخط الروائي للمؤلف هو الذى جعل النهاية تتم على هذا النحو من عدم الوضوح.

---

(١) عدنان بن ذريل، فاضل السباعي روائيا، أفكار، ع (١١)، ١٩٦٧، ص ٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما رواية عبد الحميد السحار "جسر الشيطان" فهي تحكي قصة مهندس مصري ذهب الى ألمانيا لاستلام سفينة تبنى لحساب مصر في هامبورغ. فالتقى بفنانية ألمانية وحاول هدايتها ونجح في ذلك. وهذا التلخيص يعني أن الحدث في الرواية هو الأساس، فاللقاء بين علي - آني هو أساس الحركة الروائية هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فان تكوين هاتين الشخصيتين أسهم في دفع الحدث باتجاه معين. فقد بنيت هاتان الشخصيتان من زاوية التضاد. فعلي المهندس يمثل الروح، وآني تمثل المادة، وهذا التشكيل الحاسم في بناء الشخصية جعل الهدف الروائي محددا. كما حدد أيضا طريقة التوصل اليه. ولهذا ثبّت المؤلف شخصية علي في الاطار الأيديولوجي، وحركها في الاطار العاطفي، أما شخصية آني فقد جعلها قابلة للنمو والتطور من خلال قابليتها للاقناع. واذا جرّدنا الشخصيات من دلالتها الرمزية. فانّ حركتها تسير بشكل متوازنة، وبشكل متقاطع تارة أخرى ... اذ يبدو أنّ عليا هو التضاد لآني، ولكن علاقته لها "كانت مزيجا من شهوته لها، واحترامه لانسانيتها. وهاتان دعامتان تبدوان متعارضتين بحيث أن تحقق احداهما يتوقف على عدم تحقق الأخرى."(١) ولذا فانّ نقطة اللقاء الأولى بينهما تشكل ضعفا من الناحية الفنية. فهي تبرز عنصر الصادفة بشكل حاسم. ولكنها من الناحية الأيديولوجية نقطة حتمية، ينبثق عنها تطور الأحداث،

---

١) يوسف الشاروني، في الرواية المصرية المعاصرة، ص ٦٩، ٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتطور دلالاتها أيضا . ولذا اضطر المؤلف لكي يتوصل الى هـــذه النقطة أن يجعل بطله يستعرض حي ريمريان بأكمله، ويدخل كثيرا مـن المطاعم، والنوادي الليلة، ويراقص الفتيات، ويدخل في مسابقة الأزياء ليلف الثوب حول جسم آني العاري." (١) ومثل هذه البداية الحركية يتوفر فيها عنصر التشويق " ولكنه مع ذلك أطول مما ينبغي بالقياس الى بناء الرواية من الناحية الفنية، بحيث يمكن حذفه، أو مختصره، دون أن يصيبها أي نقص، بل على العكس تصبح أكثر تماسكا وقيمة." (٢)

ويمكن أن ينسحب هذا على بناء الرواية بشكل عام، فالمؤلف فيهـــا يؤثر التفصيل، والاطناب." (٣) كما أنه يمارس ضغطا على الشخصيات ليستنطقها ما يريده هو. فما يتردد في الحوار والصراع الداخلـــي من أفكار وملاحظات تأتي في غالبيتها من الموقف الايديولوجي الجاهز. وهذا يعني أن الحوار ليس وليد العلاقة بين الشخصيات، بالقـــدر الذي يكون مفروضا على الشخصيات من الخارج ... وهو في أكـــثر الحالات يعكس ترفا فكريا . فمن يصدق أن عليا يحفظ الكثير مـــن أسفار التوراة والانجيل والقرآن ... ثم يكون صراعه الداخلي بيـــن الغريزة والعقيدة، متمثلا فيما يحفظه من نشيد الأنشاد، ونصائـــح الجامعة بن داود . يقول :

" ولم تهدأ الثورة العارمة الموارة بين جنباته، بل زادا وارها تلـــك المشادة الحجيبة التي نشبت في صدره بين رجلين كامنين فيـــه، أحدهما يشدو نشيد الانشاد في اغراء، والآخر يتلو نصائح الجامعة

---

١) عبد الحميد السحار، جسر الشيطان، ص ص ٥ - ٣٤
٢) فؤاد دوارة، في الرواية المصرية، ص ٥٨
٣) عبد الحميد السحار، جسر الشيطان، انظر ص ص ٣٥ - ٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بن داود في تحذيره.

- ليقبلني بقبلات فمه، لأنّ ثغره أطيب من الخمر، ها أنت جميلة يا حبيبتي ها أنت جميلة، عيناك حمامتان.

- أمرّ من الموت المرأة التي في شباكه، وقلبها أشراك، ويداها قيود الصالح ينجيه الله منها والخاطئ يؤخذ بها ..الخ" (١)

ولهذا يروى السحار الرواية بضمير الغائب، ليكشف بذلك عن الصرامة المطلقة في تعامله مع الشخصيات، وليكشف أيضا عن سيطرته على تطور الحدث، من خلال الحوار والحلول الجاهزة.

أما الزمن الروائي فهو زمن مكثف، فزيارته لألمانيا زيارة عمل سريعة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فانّ التكثيف أمر ضروري، لأنّ طبيعة العلاقة بين علي وآني لا تحتمل التطويل ... ولهذا دارت الرواية في الزمن الحاضر المستمر، وهي اذا لجأت للماضي، فانّ هذا اللجوء قد تم عبر مستويين:

أما المستوى الأول فهو ماضي علي وآني الشخصي. وقد أشار اليه عدة مرات، وكان علي يهدف من هذه الاشارة تذكير نفسه وتذكير آني بأنّ العلاقة لا يصح أن تخرج عن الحدود المرسومة لها. كما كانت تهدف الى وضع نفسها أمامه بشكل واضح، وهذه الاشارات على المستوى الفني نوع من الذكريات ولكنها لا تمس الزمن الحادي الذي تتحرك فيه الرواية.

---

١) عبد الحميد السحار، جسر الشيطان، ص ص ١٠٦ - ١٠٨، وانظر ص ص ٢٠٨ - ٢٠٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما المستوى الثاني ، فهو الماضي البعيد بأبعاده ودلالاته ويكثر هذا في الرواية . فنرى الحديث عن نشيد الأنشاد ، والجامعة ، وقصة يوسف ، وآدم . ومريم المجدلية ، وسالومي . وقيمة هذه الاشارات تكمن في توضيح لجوء المؤلف الى الأفكار المسبقة . ولكن تفكيك هذه الاشارات يوضح أنها ظلت تطفو على سطح العمل الروائي ولم تستطع الاندماج في تفصيلاته .

ولذا لم يترك المؤلف لعلي وآني فرصة عرض الصراع الداخلي ، بل تدخل هو ليرينا هذا الصراع ، ويصوره على أنه صراع بين علي وبين الرجل الآخر الذي في داخله . " وهذا الأسلوب في عرض الصراعات النفسية الداخلية أسلوب مفتعل تتضح فيه الصنعة والمهارة فتفسد صدقه ، ويزيد من احساس القارئ بافتعاله تكراره كثيرا في الرواية بالنسبة للبدائل والبدالة ." (١)

ولذا تجاذب علي مستويان : مستوى واقعي ومستوى رمزي . . . ولكن العلاقة بين هذين المستويين ، علاقة صراع ، وليست علاقة بناء فني متكامل . فعلي مهندس ، ولكنه يحفظ هذه النصوص من الكتب السماوية وهو متدين ولكنه يذهب بنفسه الى أماكن الخواية ، ويرقص مع الفتيات . . . ومثل هذا التناقض في البناء الفني لا يفسره الا كون العمل يتلخم حدود الرمزية . . . فعلي يمثل الشرق الذي يريد أن يرد الغرب الى الايمان بالروح . . . ولكن مثل هذه الفكرة ، تضيع ولا شك اذا لم تعرض عبر نموذج فني متكامل البناء .

---

(١) فؤاد دوارة ، في الرواية المصرية ، ص ٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما رواية حسن الحسيني " ذكريات صبا سياسي محترف"، فهي رواية طويلة، متعددة الشخصيات، والحوادث، والصور، تتنقل في الزمان والمكان بسعة وحرية. وهي في تفصيلاتها تقرب من الرواية التسجيلية، فهي تتبع حياة بطلها رزق الله زرتوت من المنبع الى المصب تقريبا. والروائي يسلط الأضواء بشكل رئيسي على هذه الشخصية ويقوم من ثم بتوزيع بقية الأضواء على الشخصيات الأخرى تبعا لدرجة علاقتها بالبطل، ولكن هذا لا يعني أن شخصية رزق نامية، متطورة، فالحق أن هذه الشخصية ظلت تعاني من النمطية والثبات، ولكن هذا الثبات لم يحرمها من التنوع. لأن الأحداث كانت تدفع بالشخصية الى مواقف جديدة باستمرار.

قسم المؤلف روايته الى قسمين، كل قسم يتكون من ثمانية عشر فصلا، يستعرض في الأول حياة بطله من أيام طفولته، ويتدرج في الحديث عن هذه الحياة عبر مراحل الدراسة المختلفة. ويكون القسم الثاني بوصوله الثمانية عشرة حديثا عن رزق في لندن. وقارئ الرواية يدرك أن الفصول الأولى منفصلة تماما عن الفصول الأخيرة، فكل ما في تلك الفصول من شخصيات وأحداث تتلاشى بمجرد ذهابه الى لندن. ولولا أن المؤلف أطلق على الرواية اسم " ذكريات"، لكان يمكن حذف هذه الفصول بدون أن يختل البناء الروائي. وهذا يعني أن الحبكة في الرواية " تسلسل مخلخل لبعض الأحداث التي يرتبط بعضها ببعض عن طريق تسلسل

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خارجي صارم، هو الزمن كما يدركه العقل الانساني."[١] فالصلة بين الأحداث والشخصيات في الأطر الزمانية والمكانية المختلفة لا تفسر الا من خلال شخصية رزق الله، ولكن وجود الشخصيات في القسم الأول وجود هامشي. لأن المؤلف لم يتح لهذه الشخصيات أن تعرض نفسها بشكل مستقل. فالأب والأم، والست زعرورة، وسليمان الوادي، وسليمه، والسيدة سارة، والسيدة سلمى، والأستاذ فريد، والاستاذ منير، والسيد راكان وزوجته وجدان، ويوسف، وأنيس، وكلارا. كل هذه الشخصيات لا ملامح لها من الناحية الفنية، بل وجدت لكي يستطيع رزق أن يعرض أبعاد شخصيته عبرها، واذا كان هذا يصح في ميدان السيرة الذاتية، فلا يصح في الرواية، لأن من شرائط العمل الروائي الناجح أن يتوفر "لكل شخصية كيانها المستقل، وما يمر وجودها وتصرفاتها، ووجهة نظراتها، والحجج المتعارضة هي التي تمنح كل شخصية وجودها. وانعدام هذه الحجج يسلب تلك الشخصيات وجودها، ويحيلها اشباحا باهته تتصارع في معركة لا تكافؤ فيها."[٢] ولعل سيطرة ضمير المتكلم على الرواية، هو الذي أدى الى مثل هذه النتيجة. لأن رزق الله كان يروى الأحداث، ويرى الشخصيات ويرسمها من خلال رؤيته لها، وهي رؤية تشعر بالتميز والاستعلاء، كما أنها رؤية ميكافيللية في كثير من الأحيان، وتبرز هذه الروح في علاقته بزوجة

---

١) ادوين موير، بناء الرواية، ص ١٠٤

٢) يوسف الشاروني، الرواية المصرية المعاصرة، ص ٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مد يزه ،

أما القسم الثاني فهو مؤلف كما قلنا من ثمانية عشر فصلا ، ولا يخفى أن المؤلف في هذا التقسيم يريد أن يقيم نوعا من التساوى بين أجزاء الرواية . واذا كان المؤلف في القسم الأول يميل نحو السرد فانه في القسم الثاني يميل نحو الحوار . وهذا الحوار أضفى على الرواية الكثير من الحياة . لانه سمح للشخصيات الأخرى أن تقف على قدميها ، وأن يسرى فيها بعض الحياة .

ومما يميز الحوار في هذا الجزء أن المؤلف يثبت نص الحوار الذى يدور بينه وبين الشخصيات الغربية بالانجليزية والعربية ، وهذا يعني عدة أشياء . فهو قد يعني أن المؤلف سجل مذكراته باللغة الانجليزية وعندما أراد كتابتها باللغة العربية أثبت الحوار الأصيل والمترجم ، لأنه من غير المنطقي أن تكتب الرواية بالعربية ثم يترجم حوارها . لأن القارئ الغربي لن يستفيد من الرواية في وضعها الحالي ، فهو لا يستطيع قراءة الجزء الأول ، ولا يستطيع قراءة السرد في الجزء الثاني . وقد يعني ذلك أن المؤلف يريد أن يسبغ على الحوار نوعا من المصداقية . ومثل هذا التمويه الفني مقبول . ولكن الحوار لا يكتسب مثل هذه القدرة على الاقناع من خلال وجود اللغة الانجليزية بجانبه . بل يكتسبه من خلال قدرته على الاقناع عبر اللغة التي كتب بها .

واذا كان هذا الحوار يصف الشخصيات في حركاتها وملامحها وتصرفاتها فانه يظل عاجزا عن رسم الأبعاد الجوانية لهذه الشخصيات .

أما شخصية رزق الله فان رسم المؤلف لها يتراوح بين البناء الايجابي والبناء السلبي . فعلى الصعيد الايجابي يبدو رزق صريحا ، يتحدث

عن نفسه بصدق، فيكشف نقاط الضعف في نفسه وأهمها "لا توجد عندي في الحقيقة، أية وجهة نظر أومن بها في أي موضوع كان."(١) وعلى الصعيد السلبي فانّ شخصية رزق لا تتطور ولا تتكامل بل تعرض بأسلوب تقريري يخلو من الفنية. فاذا كان رزق يريد أن يصور لنا نفسيته من خلال علاقته بالزعيم الذي زار لندن، فهو لم يفلح في ادخال شخصية هذا الزعيم في اطار البناء الروائي، بل اكتفى بالاشارة.

تمتد الرواية فترة زمنية تقرب من ربع قرن، وفي مثل هذه الروايات يكون الزمن هو البديل الحقيقي، لأنه هو الذي يكشف عن الشخصيات عبر تطورها الزمني. ولكن أهم مأخذ يؤخذ على الرواية في جزئها الأول هو خلوها من الاشارة الى البعد المكاني. فالأحداث فيها تدور في فراغ، والشخصيات تتحرك في مكان مبهم، وهذا لا يغتفر في رواية كتلك، لأنّ الأحداث لا تتعمق الاّ من خلال البعد المكاني الذي تدور فيه. كما أنّ خلو الرواية من الاشارة الى المجتمع وما فيه من أحداث، يعتبر خطأ ثانيا. لأنّ التركيز على حياة رزق لا يعني الغاء المجتمع الذي يتحرك فيه، ولأنّ هذا الالغاء يسلب كل الملامح المميزة للشخصية والرواية معا. صحيح أنّ في الرواية اشارات الى النكبة الفلسطينية والحرب العالمية الثانية، ومعاهدة بورتسموث، وحريق القاهرة.(٢) الا أنّ هذه الاشارات ذات دلالات تقريرية عابرة لا تندمج في السياق الروائي. ولذا فقدت الرواية الملامح والسمات التي كان يجب أن توجد فيها.

---

١) حسن الحسيني، ذكريات صبا سياسي محترف، ص ٢٣٤

٢) المصدر نفسه، ص ٧٩، ١٦٤، ٤٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ - الأركان الأساسية في الروايات:

لم يكن أفراد الأركان الأساسية في الروايات بالحديث، الا محاولة لتسهيل دراستها ، والقاء الضوء على أبرز القضايا فيها بشكل شمولي . ولذا توقفنا عند الشخصيات، والحبكة، والأسلوب لكي تتم دراستها من منطلق الشمول والرؤية العامة .

أ - الشخصيات:

تقدم لنا هذه الروايات شخصيات مثقفة، واذا استثنينا شخصية سويلم في رواية جمعة حماد "بدوي في اوروبا"، فانّ بقية الشخصيات الروائية تنتمي الى طبقة المثقفين . فأديب ذاهب لاكمال دراسته العليا في فرنسا ، ومحسن بطل رواية الحكيم جاء الى فرنسا ليدرس الحقوق والآداب، واسماعيل بطل رواية حقي تخصص في طب العيون في انجلترا . وبطل رواية سهيل ادريس، شاعر حصل على الدكتوراة في الأدب العربي من السوربون . وملاّ بطل رواية الجابري حصل على شهادة الطب من المانيا ، وسامي بطل رواية السماني ، حصل على شهادة الهندسة الميكانيكية من ألمانيا ، وعلي "الأصدقاء" يدرس الحقوق ، وصديقه جمال في الرواية نفسها حصل على الجائزة الأولى في المعهد الموسيقي ، وعصام بطل رواية الكزبري ، تخصص في جراحة القلب في ولاية كليفلاند ، وكريم في رواية "الجوع" جاء ليدرس الهندسة الزراعية في مونبيليه . وسامي بطل "المتميز" التحق بالجامعة في المانيا وحاول الدراسة . وبطل "السنفونية الناقصة" طالب يدرس الكيمياء في باريس، وعباس بطل رواية تنقل بين الهندسة وطب الأسنان والحقوق ، ورزق الله يدرس في جامعة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لندن ... وينطبق هذا على الشخصيات الأخرى التي لم تذهب للدراسة، فعلي بطل السحار مهندس مثقف ثقافة دينية واسعة، وسعيد بطل الناعوري يجيد اللغة الايطالية، ويعرف آدابها، وآداب العربية، وأبطال اللوزي فيهم الضابط والمحقق والمهندس والمحامي، ورشا في "ليلة واحدة" قارئة ومثقفة، وسهير في "ومر صيف" صحفية مشهورة، والدكتور يوسف في الرواية نفسها دكتور في الاقتصاد.

ولا ريب أنّ قصر قضية المواجهة على المثقفين، جعل المضامين الروائية تتلاقى في الاطار الواسع، كما جعل الروايات تنطلق من موقف ذي دلالة محددة. فكلها تحاول تصوير العلاقة عبر شخصيات قادرة على استيعاب وتجسيد الأبعاد الحضارية. كما أنّ هذا التخصيص يشكل ضرورة حضارية لأنّ اتقان اللغة الأجنبية، ضرورة من ضرورات الحوار مع هذه الحضارات، ولأنّ هذا الاتقان من جهة ثانية، يقتضي الاهتمام بالعلم وقضايا الثقافة المتشعبة.

ويهتم الروائيون أيضا بالبعد الاجتماعي لشخصياتهم. ومرد هذا الاهتمام، يرجع الى محاولة تفسير سلوك الشخصيات الروائية، في مواجهة الحضارة الغربية. والى تبيان الفرق الشاسع بين البيئة التي ينحدر منها بطل الرواية وبين البيئة التي يواجهها. فأديب ينحدر من بيئة ريفية ومحسن ينحدر من وسط شعبي في حي السيدة زينب، واسماعيل ينحدر من الوسط نفسه. ومن الطبيعي أن تتفاوت هذه الروايات في القدرة على تعميق العلاقة بين البيئة والبطل تفاوتا ملحوظا. فأديب يحن الى الريف وهو بعيد عنه، ثم يثور عليه وهو فيه، ومحسن لا يعني انتماءه الى حي السيدة زينب الا تعميقا للجوانب الروحية في نفسه، أما اسماعيل فانّ انحداره من حي السيدة زينب يشكل علامة فارقة في حياته، وهي علامة ذات خطر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعيد . لأنها هي التي شكلت رؤيته الحضارية: لا علم بلا ايمان .
وينحدر كريم بطل "الجوع" من أسرة فقيرة ، ويكاد الفقر في هذه الرواية أن يشكل ملامح كريم الرئيسية . واذا كان محسن واسماعيل ينتميان الى الوسط الشعبي ، فهما قادران على تلبية مطالب الحضارة الغربية . من الناحية المادية . أما كريم فهو عاجز على نحو مطلق . وقد أدى هذا العجز الى وفاته . . . ولكن ما يؤخذ على هذه الروايات أنها قصرت في اقامة الجسور بين حاتين البيئتين ولذا ظلت الاشارة الى البيئة التي ينحدر منها البطل ، ذات مدلولات نظرية ، لا تتداخل في تشكيل أسلوب المواجهة مع الحضارة الغربية أو مع الوطن ، الا بشكل بسيط .

وبالمقابل فانّ ثمة شخصيات تنحدر من وسط ثري ، فجمال في "الأصدقاء" ينحدر من أسرة غنية تشتغل بالتجارة . ولذا كانت قادرة على توفير كل متطلبات دراسته الى حد الترف . وفؤاد ابن صاحب مصنع صابون ، جاء الى لندن ليتعرف الى أساليب تطوير هذه الصناعة ، وعاش هو الآخر عيشة مترفة . وعباس الشاب الثري يتنقل من دراسة الى أخرى ، ويفشل في كل دراسة . ورشا زوجة رجل ثري يعمل بالتجارة يصحبها الى باريس للعلاج . . . والملاحظ أنّ طابعا مثاليا على نحو ما سيطر على هذه الشخصيات ، فجمال جنح نحو الفن وذاب في قيمه المطلقة ، وفؤاد جنح نحو الحب العذري ، وعباس جنح نحو التأملات الفكرية ، ورشا اندفعت نحو الحب بشكل رومانسي .

ويمكن من الناحية الفنية أن نقسم هذه الشخصيات الى قسمين :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شخصيات نامية Round Charater وشخصيات مسطحة Flat Characters

" والشخصيات النامية تتكشف لنا تدريجيا خلال القصة بتطور حوادثها ويكون تطورها نتيجة لتفاعلها المستمر مع الحوادث." (١)

ومن الشخصيات النامية في هذه الروايات:

شخصية اسماعيل في " قنديل أم هاشم"، فقد تطورت شخصية اسماعيل، باتجاهات مختلفة، وكانت قادرة على التجاوز باستمرار، ولكن تطور شخصية اسماعيل كان تطورا ايجابيا، يختلف عن تطور شخصية أديب. فقد تطورت هذه الشخصية على نحو سلبي حتى انتهت الى المرض فالجنون فالوفاة. ولكن القارئ يلاحظ أنّ تغيير اسماعيل كان تغييرا مبررا ومنطقيا. أما عند أديب فغير مبرر. (٢)

وتعتبر شخصية بطل " الحي اللاتيني " من الشخصيات النامية. فقد استطاع المؤلف أن يتغلغل داخل شخصية بطله، وأن يبين انفعالاته، وأن يمزج بين الحركة الداخلية والحركة الخارجية. بالتنقل بين ضمير الغائب وضمير المتكلم. ومن الجدير بالذكر أن تطور هذه الشخصية كان تطورا ايجابيا على الصعيد الذاتي والحضاري معا.

ويمكن اعتبار شخصية عباس في " رصيف الذرائ السوداء" شخصية نامية بانتقالها من موقع الى آخر، وباستشعارها صراعا داخليا بين الحياة اليوميية، وحياة الروح.

ويمكن اعتبار شخصية رشا شخصية نامية، رغم المآخذ الفنية العديدة التي يمكن أن تقلل من قيمة هذا النموذج. ولكن أهم ما يميزها هو التنقل بين أزمان مختلفة، واثارة الصراع بين هذه الأزمان. فالماضي يمثل

١) محمود السمرة، في النقد الأدبي، ص ٢٤

٢) أشارت سهير القلماوي في كتابها " ذكرى طه حسين" الى مثل هذا الرأي وان كانت ترى أنه " في أديب" ينتحر البطل غير المسمى لأنه جبن"، ص ١٣٤، والصحيح أنّ أديبا لم ينتحر وانما مات بعد أن يئس الأطباء من شفائه، انظر أديب، ص ١٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذكريات، والحاضر يمثل احساس الشخصية بالعالم، والتردد بين هذين العالمين يكشف الابعاد المختلفة للشخصية. كما يمكن اعتبار كل من ماريالينا في "رصيف العذراء السوداء"، وجانين في "الحي اللاتيني" وايلزا في "قوس قزح"، وماشكا في "السنفونية الناقصة" وأندريه في "المتميز"، وآني في "جسر الشيطان"، ومدام لاى في "أحداث في المنفى"، شخصيات نامية لأنها تتكشف لنا تدريجيا، بتفاعلها المستمر مع الحوادث.

أما الشخصيات المسطحة فهي شخصيات "لا تؤثر فيها حوادث القصة فالكاتب يرسمها لنا من البداية، وقد اكتملت وأصبحت غير قابلة للتطور."(١) فشخصية محسن في "عصفور من الشرق" وعلاء في "قدر يلهو"، وسامي في "الظمأ والينبوع"، وجمال وعلي في "الأصدقاء" وفؤاد ووليد في "الأصدقاء"، وسعيد في "ليلة في قطار"، ورزق الله في "ذكريات صبا سياسي محترف"، وعصام في "البرتقال المر"، كل هذه الشخصيات تمتاز بالثبات. ورغم انفتاح هذه الشخصيات على العالم الخارجي، وتعاطفها معه، فان هذا الانفتاح يظل ظاهريا غير قادر على زحزحة الشخصية عن مواقفها.

ويهتم الروائيون في هذه الروايات، بالأبعاد المختلفة لشخصياتهم كالبعد الاجتماعي، والنفسي، والجسمي. فكل الشخصيات الرئيسية لها أسماء باستثناء بطل الرواية "الحي اللاتيني"، وبطل "السنفونية الناقصة".

---

(١) محمود السمرة، في النقد الأدبي، ص ٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهي في الأغلب شخصيات عادية، باستثناء بعض الشخصيات الشاذة. كشخصية أديب، التي تجمع بين قبح الشكل الخارجي، وغرابة التصرفات. وشخصية سعيد بدال "ليلة في قطار"، خجولة الى حد غير معقول. كما أن لبعض هذه الشخصيات مدلولات رمزية، كاسماعيل، والقنديل وماري، وفاطمة في "قنديل أم هاشم"، فاسماعيل يحاول أن يوفق بين ماري (الغرب) وفاطمة (مصر) ويكون القنديل (روح مصر) ولب العيون (حضارة اوروبا). وسوزي ديبون في "عصفور من الشرق" تمثل الحضارة الغربية، كما أن آني في "جسر الشيطان" تمثل الحضارة الغربية أيضا، مثلما يمثل علي في الرواية نفسها روحانية الشرق. وتمثل جانين الحضارة الغربية أيضا في "الحي اللاتيني"، كما يرمز فؤاد في الرواية نفسها الى الانبعاث القومي، وايلزا في ثنائية شكيب الجابري تمثل الغرب المنهار في حين يمثل علاء الشرق العربي وهو يصحو، وينطبق هذا على بدال "الحي اللاتيني."

ب- الحبكة:

الحبكة في الرواية "هي الجانب المنطقي الذهني منها، ومن مستلزماتها فنيا هذا الغموض الذي يتكشف لنا تدريجيا بما يلقيه الكاتب من شعاع من النور الكاشف هنا وهناك، بالطريقة التي يراها مؤثرة أكثر من غيرها."(١)

---

١) محمود السمرة، في النقد الأدبي، ص ٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقسم النقاد هذه الحبكة الى حبكة مفككة Loose وحبكة عضوية متماسكة Organic كما يقسمونها الى حبكة بسيطة ومركبة.(١)

والنظرة التحليلية لهذه الروايات تدل على أن الحبكة المتماسكة موجودة في "عصفور من الشرق"، و "السنفونية الناقصة"، و "رصيف المذراء السوداء"، و "الظمأ والينموع"، و "الحي اللاتيني"، و "الجوع"، و"جسر الشيطان"، و "بدوي في اوروبا"، و "أحداث في المنفى"، أما الحبكة المفككة فهي موجودة في "قدر يلهو"، و "قوس قزح"، و "أديب" و "الأصدقاء"، و"خمر الشباب" و "ذكريات صبا سياسي محترف"، و"المتميز" و "المهاجرون"، و "مرصيف"، أما في رواية "قنديل أم هاشم"، و "ليلة في قطار"، و "ليلة واحدة"، فالحبكة فيها مركزة شديدة التكثيف.

وفي الروايات ذات الحبكة المتماسكة، تقوم الرواية على "حوادث مترابطة يأخذ بعضها برقاب بعض وتسير في خط مستقيم حتى تبلغ مستقرها".(٢) فمحسن في الرواية يتحدث عن حياته في باريس، وما في حياته من حوادث، من خلال حبكة متماسكة. وقد حاول المؤلف أن يجعل حبكته مركبة، فوضع حكايته مع سوزي دبيون، موازية لحكايته مع ايفان، ولكنه لم يستطع أن يظهر تأثير احداهما على الأخرى. أما الحبكة في "السنفونية الناقصة"، فتظهر قدرة صباح محي الدين على سرد الحوادث ببراعة وتسلسل، دون حشو أو استطراد. وربما كانت المتعة والتشويق والخداع، من أهم خصائص هذه القصة، ويعود

---

١) انظر محمود السمرة في النقد الأدبي، ص ٢٨، وانظر محمد يوسف نجم في فن القصة، ص ٧٣، ٧٥

٢) محمد يوسف نجم، فن القصة، ص ٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك الى كون الحدث هو الشيء الرئيسي فيها ، والى كون اسلوبها يجمع بين الايجاز والاتحاد .

وينسحب هذا على بقية الروايات ، مع الفرق في الأسلوب وطريقة التعبير . أما الروايات ذات الحبكة المفككة فان " وحدة العمل القصصي فيها لا تعتمد على تسلسل الحوادث ، ولكن على البيئة التي تتحرك فيها القصة ، أو على الشخصية العامة ، أو على النتيجة العامة التي تنتظم الحوادث والشخصيات جميعا . "(١)

فرواية " قد يلهو " تعتمد على الشخصية العامة ، لأن الحوادث فيها لا تتحرك في بيئة واحدة ، وانما تنتقل من بيئة الى أخرى . ومثلها رواية " ذكريات " صبا سياسي محترف " ، و " المتميز " ، و " أديب " .

أما في " الأصدقاء " و " خمر الشباب " فقد مال المؤلفان فيهما الى الحبكة المركبة فالرواية " مركبة من حكايتين أو اكثر ، ووحدة العمل والتأثير في القصة ، تتطلب تداخل الحكايات المختلفة واندماج بعضها في البعض الآخر . "(٢) ولكن هذا التداخل والتأثير المتبادل كان أكثر في رواية " الأصدقاء " ، لأن التضاد في " خمر الشباب " خلق نوعا من التوازي والتقابل .

أما في " قنديل أم هاشم " ، و " ليلة واحدة " ، و " ليلة في قطار " ، فليست ثمة صلة بين الشخصية والحبكة ، فلا تكون الشخصيات فيها جزءا من الحركة الآلية للحبكة ، ولا تكون الحبكة اطارا بدائيا يحيط بالشخصيات

---

١) محمد يوسف نجم ، فن القصة ، ص ٧٣
٢) المصدر نفسه ، ص ٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بل تلتحم كلتاهما معا في نسيج لا ينفصم.(١)

ومن الملاحظ أن الحبكة (العقدة) الرئيسية في هذه الشخصيات تبنى على العلاقة بين العربي وبين المرأة الغربية. فجانين، ولوشيا وايلزا، وماشكا، وماريالينا، وهيلغا، وأندريه، وكلود، وهيلا، وسوزى دبيون، وآني، وكل هذه الشخصيات النسائية، هي محور الحبكة الأساسي ولأن المحور المكاني لهذه الروايات، يدور في اوروبا، فان المرأة كانت محورا على الصعيد الفني والحضاري. وكلما كانت شخصية المرأة مليئة بالصدق والعمق، امتلأت الرواية بالحيوية وتحركت "الحبكة بطريقة خالية من الصدفة والافتعال... وبطريقة مقبولة مقنعة لا نشعر فيها بآلية العمل القصصي."(٢)

جـ - الأسلوب:

كان من الطبيعي أن يتباين أسلوب هذه الروايات، ويختلف تبعا لاختلاف مؤلفيها: لأنهم لا يصدرون عن مدرسة فنية واحدة، ولأنهم ينتمون الى فترات أدبية متباعدة.

ولذا فاننا سنتوقف في الحديث عن الأسلوب عند ابرز القضايا التي تشكل معالم الأسلوب الروائي.

تشكل اللغة أهم عناصر الأسلوب فهي "الشكل المادى الذى تكتسب به القصة وجودا واقعيا."(٣) وهذا الشكل يتضمن الحوار والسرد.

---

١) انظر: ادوين موير، بناء الرواية، ص ٣٧
٢) محمد يوسف نجم، فن القصة، ص ٧٥
٣) محمود السمرة، في النقد الأدبي، ص ٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الملاحظ أنّ اللغة في هذه الروايات، تجنح نحو اللغة العربية الفصحى، وهذا أمر طبيعي، مع أنّ الحوار بين ابطال الروائي العربي، وبين الشخصيات الغربية يتم باللغات الاوروبية (الانجليزية، الفرنسية، الألمانية، الايطالية) ويفسر أحمد هيكل ذلك في معرض حديثه عن رواية الحكيم "عصفور من الشرق" بأنّ "اللغة الفصحى هي وحدها التي تستطيع أن تنقل المعاني والدلالات التي تجرى بين الشخصيات الفرنسية. ولم يكن من المستطاع أن يجرى حديث بعض الشخصيات البسيطة بالعامية، لأنّ للعامية ظلالا محلية شعبية، تشد تلك الشخصيات من مجالها الأجنبي الفرنسي الى المجال المصري المحلي، الأمر الذى لا يكون مع اللغة الفصحى، حيث أنها لا تحمل تلك الظلال المحلية الشعبية، وليست الا ادوات لنقل الأفكار والدلالات، حتى ليصح اجراؤها على لسان الشخصيات الأجنبية في مجال الأعمال المترجمة والأعمال المؤلفة على السواء."(١) ولكن الحوار الذى يدور بالفصحى، يجب أن يكون متناسبا مع مستوى الشخصيات فلا يصح أن يكون موغلا في التقعر والتكلف، كما لا يصح أن ركيكا. بل ينبغي أن يكون دالا على امتمامات الشخصية ومستواها الاجتماعي. ففي رواية طه حسين "أديب" يرسل بطل الرواية رسالة الى زوجته، ولكنّ لغة هذه الرسالة لا تتشاكل مع واقع زوجته الثقافي. فهي أميّة، وهو يتحدث عن قضايا فكرية لا تستطيع استيعابها. فاللغة هنا ترتفع

---

١) أحمد هيكل، الأدب القصصي والمسرحي في مصر، ص ١٨٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فوق مستوى الشخصية وتوحي بأن الكاتب لا البطل هو الذي يتكلم. أما في ثنائية شكيب الجابري " قدر يلهو"، و " قوس قزح"، فاننا نلاحظ ميل المؤلف للتعبيرات القديمة التي يضطر لتفسير بعضها في الهامش. فهو يقول على سبيل المثال :

" الريح تنفخ قارسة، " السماء متجلببة بأمطار سود ندية"، " لا أحب اليّ من الخبط ليلا اذا ما جنت الريح جنونها، وفجرت السماء عيونها".(١)

ولذا كانت شخصيات الجابري تتكلم كلّها بمستوى لغوي واحد، حتى غدا الحوار دالا على شخصية الجابري أكثر من دلالته على طبيعة شخصياته. ولم يستطع الحوار أن يؤدي وظيفته في التخفيف من رتابة السرد، وبتقريب الشخصيات من القارئ وتجسيمها، وجعلها أكثر حضورا. فنرى ايلزا تستخدم لغة مغرقة في التفاصح، لا يمكن أن تصدر عنها، فهي تقول على سبيل المثال : " أأبت لو نظرت في سويداء قلبي لما رأيت صورة غير صورتك، ولما سمعت غير الوجيب اللاهج بايثارك وحبك، واحنان عليك والصفح عنك."(٢)

كما نرى في الرواية الكثير من المفردات القاموسية كالحانوت، والصارغ، والغلمان، والأشجار الموقرة.(٣)

---

١) شكيب الجابري، قدر يلهو، ص ٣، ٥

٢) المصدر نفسه، ص ٢٣، وانظر ص ١٨، ٧١

٣) المصدر نفسه، ص ٦، ٨١، ١٢٠، ١٥٨، ٢١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي رواية فاضل السباعي نلاحظ ميل الروائي نحو التأنق واختيار الألفاظ بفصاحة متناهية. كما نلاحظ ميله نحو التشبيه والاستعارة، والعبارات الجاهزة. فهو يجانس حين يقول: "وآه من تلك الأيام ما كان أعذبها وأشد عذابها."(١) ويقول: "وضعت الحرب أوزارها."(٢) و "غدت قاب قوسين أو أدنى."(٣) ويقول: "وتعاورتني ضروب من الحيرة."، و "أدناها الى فمه ينقع بها غلته."، و "رغم وقدة الهجير." و "أن تشد في باكر غد رحالك الى ألمانيا."، و "قد فرش لي الدرب بالأزاهير وأوقد في قلبي شموع الأمل."(٤) فاللجوء الى هذا الأسلوب يسلب الرواية حيويتها، لأن ميل المؤلف للعبارات الجاهزة يعني أنه يعتمد على محفوظه اللغوي، لا على التجربة الروائية نفسها، فيستخدم اللفظة بغض النظر عن مدى ملاءمتها في السرد أو في الحوار. ولذا رأينا بعض المؤلفين يستشهدون بأبيات من الشعر العربي(٥) وربما بدت محاولة الكزبري أكثر المحاولات توفيقا في الاستشهاد، لأن بناء الرواية - المذكرات والرسائل - لا يتناقض مع طبيعة الاستشهاد. ولكن هذه الاستشهادات تخلو من التوفيق اذا نظرنا اليها من واقع الشخصيات نفسها. فهي استشهادات ملصقة بالشخصية ولا تنبعث من داخلها. أما الشعر في البقية - باستثناء رواية الناعوري - فهو يأتي على شكل

(١) فاضل السباعي، الظمأ والينبوع، ص ١٤
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦
(٣) المصدر نفسه، ص ٣١
(٤) فاضل السباعي، الظمأ والينبوع، ص ١٤، ١٨، ٣١، ٤٦
(٥) سلمى الحفار الكزبري، ص ٥٩، ٨٤، ١٣١، عيسى الناعوري، ليلة في قارا، ص ٨٧، جمعة حماد، بدوي في اوروبا، ص ٧١، صباح محي الدين، خمر الشباب، ص ٨٠، كوليت خوري، ومر صيف، ص ٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حوار داخلي ، في حين يأتي في رواية الناعوري من خلال حوار سعيد مع لوشيا . مما يشكل نشوزا في الحوار.

وبالمقابل فانّ الروايات تستخدم كثيرا من الكلمات، والمصطلحات الأجنبية . (١) وهذا ليس غريبا لأنّ الجو الذي تدور فيه هذه الروايات هو جو غربي خالص.

والملاحظ أنّ الروايات تختلف في استخدام الضمائر فقد استخدم ضمير الغائب في "عصفور من الشرق"، و "قنديل أم هاشم" و "السنفونية الناقصة"، و "قدر يلهو" و "الجوع"، و "الأصدقاء"، و "ذكريات صبا سياسي معترف"، و "خمر الشباب"، و "موصيف"، و "أحداث في المنفى"، و "بدوي في اوروبا"، و "رصيف الحذراء السوداء"، ومن الطبيعي أن ضمير المتكلم استخدم في هذه الروايات على لسان المتحاورين . أما "المهاجرون" و "أديب" فقد استخدمت ضمير الغائب والمتكلم معا . أما "المتميز" ، و "ليلة واحدة" و "ليلة في قطار" و "الظمأ والينبوع". فقد اقتصرت على ضمير المتكلم. في حين استخدمت رواية "الحي اللاتيني" الضمائر الثلاثة : ضمير المتكلم حينا ، والمخاطب حينا ، والغائب حينا آخر. "والمعتاد أنّ القصة تبدأ وتنتهي باستخدام

---

(١) سهيل ادريس، الحي اللاتيني، ص ٦٤ - ٧٨، ٧٩، ٨٢، ١٩٠، ٢١٦
الناعوري، ليلة في قطار، ص ٢٨، ٤٣، ٥٦، ٨٠، ٦٤، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧٤، ١٠٤، ١١٩
سلمى الكزبري، البرتقال المر، ص ٧٨، ٧٩، ٩٦، ٩٧
صباح محي الدين، خمر الشباب، ص ٦٦، ٢١٣، ٢٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ضمير واحد ، الا اذا كان هناك حدث مباشر فانه يأتي على لسان المتحاورين بضمير المتكلم بطبيعة الحال . ولكن تستخدم الضمائر الثلاثة لالتقاط الحدث من أكثر من زاوية ومع ذلك فان هذه الضمائر الثلاثة ليست الا ضمير البطل في النهاية . فحتى عندما يستخدم ضمير الغائب فانه لا يعبّر عن وجهة نظر المؤلف الخالق العالم بما لا يعلمه البطل ، بل لا يزال الضمير هنا ملتصقا بالبطل معبرا عن آرائه وانفعالاته .(١)

فالأحداث تتداخل في رواية سهيل ادريس، بين الغائب والمتكلم والمخاطب، فهو عن طريق ضمير المتكلم يعترف، وعن طريق ضمير المخاطب يحاسب نفسه، وعن طريق ضمير الغائب، يعبّر عن ذاته المستلبة . وينتج عن هذا الكشف عن عالم البطل الداخلي والخارجي ، وتقديمه للقارئ بشكل صريح وقد تنوعت أساليب هذه الروايات من حيث التفصيل ، او الايجاز والتكثيف، فقد مالت بعض الروايات الى التفصيل ، مثل " الأصدقاء " و " عصفور من الشرق"، و " ذكريات صبا سياسي محترف"، ومال بعضها نحو التكثيف مثل " قنديل أم هاشم"، و " أحداث في المنفى"، والملاحظ أن بعض الروايات جمع بين الايجاز والتفصيل كرواية " عمر الشباب " ، فهي تجنح نحو التفصيل في بدايتها ، وتجنح نحو الايجاز المخل في النهاية . ولذا تميز أسلوب بعض الروايات بالشاعرية، وخير رواية تمثل هذا الأسلوب، هي رواية " قنديل أم هاشم"، في ميلها للتعبير بالصورة ، ورسم العوالم الداخلية للشخصيات، وبروز التعليق بمختلف أشكاله، الذي

---

(١) يوسف الشاروني ، دراسات في الرواية والقصة القصيرة ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ينمي الخنائية في الرواية ويجعل الحديث قريبا من الشعر.(١) ويختلف أسلوب الروايات في كيفية التعامل مع الأحداث ، فبعض الروايات تلتزم التسلسل الزمني والمكاني في سرد الأحداث، وبعضها لا يتقيد بهذا التسلسل . وهذه الروايات تحاول أن تستفيد من تكنيك القصة السيكولوجية باستخدام المونولوج الداخلي ، والاسترجاع Flash back، واستخدام الأحلام للكشف عن بواطن الشخصية . فالمونولوج الداخلي هو " ذلك التكنيك المستخدم في القصص بغية تقديم المحتوى النفسي للشخصية ، والعمليات النفسية لديها - دون التكلم بذلك على نحو كلي أو جزئي - في اللحظة التي توجد فيها هذه العمليات في المستويات المختلفة للانضباط الواعي قبل أن تتشكل للتعبير عنها بالكلام على نحو مقصود."(٢) ويكثر هذا المونولوج في رواية سهيل ادريس " الحي اللاتيني "(٣) والمؤلف يستخدمه للغوص في أعماق بطله ، وللكشف عن سرّ الأزمات التي كان يعيشها والملاحظ أن استخدام المؤلف للمونولوج في القسم الأول يفوق بقية أقسام الرواية ، ولعلّ ذلك يعود الى كون البطل ما زال غير مندمج في المجتمع الجديد ، وكان يشعر بالوحدة ويكثر بالتالي من الغوص في أعماق نفسه . فكان المونولوج ضرورة فنية لأنه يتضمن مشكلات حقيقية تثير الحياة في الرواية ، وتبتعد بالرواية عن رسم الشخصية بطريقة سكونية . ونجد استعمالا للمونولوج الداخلي في رواية الناعورى ، وهو يعبر

---

١) علي الراعي ، في الرواية المصرية ، ص ص ١٨٢ - ١٨٧

٢) روبرت همفرى ، تيار الوعي في الرواية الحديثة ، ترجمة محمود الربيعي ، ص ٤٤

٣) انظر سهيل ادريس، الحي اللاتيني ، ص ١٢ ، ١٤ ، ١٩ ، ٢٢ ... الخ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن الصراع الداخلي في أعماق سعيد ، بين الرغبة وبين القيم.(١) ولكن ما يضعف قيمة هذا المونولوج ، تكراره، ونمطيته ، فهو يدور في العموميات، ولا يكشف لنا أعماق سعيد . والمونولوج الداخلي في رواية كوليت "ليلة واحدة"، ورواية السحار "جسر الشيطان" يفشل في أداء وظيفته بسبب طبيعة الأسلوب الذي يسيطر على الروايتين . فاسلوب كوليت مجنح ولا يعمق الحدث، وأسلوب السحار فيه قدر كبير من الاغتعال والصنعة والصراع فيه جاهز لا ينبع من داخل العمل الروائي ، وانما يفرض عليه. واذا كنّا نجد شيئا يشبه المونولوج الداخلي في "قد يلهو" فان المونولوج وما فيه من تحليل يبقى "صورا منفصلة ، غير مندمجة في جو الرواية ولا متفاعلة معه. وقد تتراكم ولا سيما في النصف الثاني من الكتاب، صفحات من التحليل الذاتي ، لا عمل لها سوى التفريغ العصبي ، كأن الكتابة انما كانت عملية تطهير نفسي."(٢)

أما الاسترجاع فهو قطع للتسلسل في الرواية بايراد أحداث حدثت في زمن سابق. ونجد مثل ذلك في "أديب"، و "ليلة واحدة"، و "عصفور من الشرق"، و "الحي اللاتيني"، و "المهاجرون"، و "المتميز"، و "أحداث في المنفى"، و "بدوي في اوربا"، و "خمر الشباب"، و "الظمأ والينبوع" والملاحظ أن الاسترجاع في هذه الروايات يقسم الى قسمين من حيث الطريقة : فقسم يتم الاسترجاع فيه عن طريق البطل، والقسم الآخر يتم الاسترجاع فيه عن طريق الشخصيات الأخرى. والفرق بين الطريقتين أن البطل يسترجع الأحداث برغبته، وفي الثانية يسترجعها مجبرا . والغالب

---

١) عيسى الناعوري، ليلة في قطار، ص ٢٠، ٨٤، ٨٥، ٩٠، ٩١
٢) شاكر مصطفى ، القصة في سورية، ص ٤٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على الطريقة الاسترجاع أن تتعامل مع الزمنين: الماضي والحاضر، ويكون الحاضر مدخلا لنبش الماضي، كما تتسلسل ذكريات الماضي تسلسلا طبيعيا منطقيا. ولكن في القسمين يتم الاسترجاع عن طريق الاشارة.

ويمكن اعتبار رواية "المهاجرون" من أكثر الروايات التي تعاملت مع الاسترجاع كحيلة فنية لابراز التضاد بين الماضي والحاضر (١)، ولكن ما يؤخذ عليها "أن عمليات التداعي لا تتم بهذه الطريقة الدقيقة وعندما نتذكر فاننا لا نتذكر كل التفاصيل (المكتب، التلفون، الأقلام، آنية الزهور) بل نتذكر وجها واحدا، ملامح معينة، في حين أن "ميكانيزم" التذكر يتم في قصة "المهاجرون" بشكل دقيق جدا. فجاءت عملية تقطيع الحركة لتسد هذه الثغرات، بحيث بدا أن عملية التداعي هي تقطيع للحركة والأحداث." (٢)

وتستخدم بعض الروايات الأحلام، للتعبير عن الجانب غير المنطقي في حياة الشخصية (٣) فالحلم عند سامي الجندي تتداخل فيه الشخصيات الصوفية، بالشر، في حين يبرز الموت عند كوليت ليكون باعث تهديد، أما عند خضر نبوة فهو لهفة للحصول على المال بتخيل مالم يقع، وهو عند اللوزي مزج للموقف السياسي بالموقف الشخصي، ليتركب بعد ذلك أشخاص تتداخل ملامحهم وتختلف مواقعهم.

---

١) سليم اللوزي، المهاجرون، ص ص ٢٩ - ٤٥، ٦٣ - ٦٦

٢) سليم بركات، الحوادث، س ١٨، العدد ٩٢١، ١٩٧٤.

٣) سامي الجندي، احداث في المنفى، ص ٣٨، كوليت خوري، ليلة واحدة، ص ١٧٨، خضر نبوة، الجوع، ص ١٦٤، سليم اللوزي، المهاجرون، ص ٦٠، ٦٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خاتمـــــــــــة

لهذا البحث على ما بين رواياته من تشعب ، وحدة عامـــــــة تنتظمه كلّـــه ، ولهذه الوحدة دعائم ترتكز عليها وتقوم بها .

(١)

اختار الباحث ظاهرة حاول أن يدرسها ، ويحللها . وهذه الظاهـــرة هي علاقة الشرق العربي بالحضارة الغربية . ولا يخفى أنّ هذه العلاقة تشكل قضية من أخطر القضايا في الوقت الحاضر . ولكنّ البحث وقف عنـــد هذه العلاقة كما ظهرت في الرواية العربية المعاصرة . فاختيار الروايـــة لهذا الموضوع، جاء لأنها أقدر الفنون على رصد هذه العلاقة ، وتجسيدها فالرواية في نهاية الأمر فن قومي ، لما تحمله من قضايا ، وشخصيات، وقيم تعتبر دالة على مرحلة حضارية في تاريخ البلد الذي تنتمي اليه .
حدد الباحث في هذا البحث الزمان والمكان . فقد بدأ برواية طـــه حسين " أديب" ، الصادرة سنة ١٩٣٥م، وانتهى برواية محمد عيـــد " المتميز" ، الصادرة سنة ١٩٧٨م. واقتصر على الروايات الصادرة فـــي مصر وبلاد الشام. ولكنّ هذا التحديد لا يعني أنّ الباحث اســـتطاع أن يحصر كل الروايات الصادرة في هذه الأقطار ، وان كانت المادة التي جمعها والمؤلفة من اثنتين وعشرين رواية تعطي فكرة شاملة عن الموضوع.

(٢)

قسم الباحث دراسته الى ستة فصول :
وقد كان من الطبيعي أن يخصص الحديث في الفصل الأول عن رحلـــتي الطهطاوي والشدياق ، لما في هاتين الرحلتين من سبق وجدة ، علـــى صعيد المواجهة مع الحضارة الغربية . فمن المعروف أنّ تخليص الابريـــز

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في تلخيص باريز"، و "كشف المخبا عن فنون اوروبا" من الكتب الرائدة التي يجد فيها القارئ انطباعات دقيقة ومبكرة عن الحضارة الغربية. ولذا فانّ الباحث يعتقد أنّ هاتين الرحلتين تشكلان حلقة من حلقات المواجهة، التي ينبغي أن نقف عندها.

أما الفصل الثاني فقد كان الحديث فيه عن بواعث الرحلة الى الغرب في الرواية العربية. وقد تبين أنّ هذه البواعث ترجع الى : طلب العلم، والسياحة، والهجرة الى الغرب. وكان هذا الفصل بمثابة عرض عام لهذه الروايات من وجهة النظر هذه. لأنّ بواعث الرحلة تترك أثرا واضحا على سير أحداث الرواية، وعلى نتيجتها، وعلى طبيعة العلاقة مع الحضارة الغربية. فمعرفة البواعث تساعد في تعليل كثير من الأمور المتعلقة بطبيعة هذه المواجهة.

أما الفصل الثالث فهو دراسة للشخصيات الروائية وهي تواجه الحضارة الغربية، وهو يشكل جوهر هذه الظاهرة. ولذا احتل الفصل مساحة كبيرة من الرسالة، لأنه يحوي في طياته جماع مسألة المواجهة هذه. وقد وقف الباحث في مقدمة هذا الفصل عند التصور المسبق للحضارة الغربية في ذهن البطل الروائي، وبين أثره في تشكيل سلوك البطل الروائي. كما وقف عند لحظة المواجهة مع الحضارة الغربية، وما فيها من مشاعر، لأنّ هذه اللحظة خليط من مشاعر متنوعة، لم يتمكن بطل الرواية بعد من فرزها، وابداء الرأي فيها. ولأنّ هذه اللحظة عفوية ليس فيها تخطيط أو افتعال. لعدم استقرار البطل الروائي في المكان، ولعدم نسيانه الماضي، ولذا تباينت مشاعر هذه اللحظة واختلفت في طبيعتها عن مشاعر البطل الروائي بعد الاستقرار.

ثم درس الباحث بعد ذلك سلوك هذه الشخصيات وانتهى الى أن هذه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشخصيات الروائية عبرت عن نفسها عبر الأطر التالية :

١- العزلـــــة ٢- الازدواج ٣- المثالية ٤- التـــــوازن
٥- التحرر والانطلاق ٦- القلق والشعور بالغربة ٧- عدم التوازن والاختلال

أما الفصل الرابع فقد وقف عنده الباحث عند الانتماء . وقد خصص الباحث هذا الفصل لدراسة هذه القضية، فدرس الشخصيات الروائية اللامنتمية ثم درس الشخصيات الروائية المنتمية، وبعد ذلك تحدث عن قضية فلسطين كما برزت في هذه الروايات، باعتبار فلسطين محورا من محاور الانتماء . وقد تباينت صور هذا الانتماء تبعا لاختلاف مواقف الكتاب، وتبعـــا لتنوع زوايا الرؤية عندهم .

وقد حاول الباحث أن يدرس الانتماء في تطوره، ولكنه لم يستطع لأن الانتاج الروائي ، ليس لقاص واحد ، وهذا يعني أن من غير الممكن العثور على خيط التطور . ولأن ثمة فرقا واضحا في درجات هذا الانتاج ، فرواية الحكيم "عصفور من الشرق"، تعتبر من بدايات الحكيم، ورواية "الحـي اللاتيني"، تنتمي الى بدايات سهيل ادريس تقريبا ، ولكن الفـــرق شاسع في الملامح والسمات التي يصدر عنها القاصان . وهذا يعـــني أنه لم يكن بد من التناول العام الذي يركز على السمات العامـــة .

أما الفصل الخامس فقد وقف الباحث فيه عند صورة المرأة الغربيـــة . كما ظهرت في هذه الروايات . . . وقد درس الباحث في هذا الفصل التصور المسبق عن العربي في ذهنها ، لأن صورة المرأة الغربية كانت تطلق على البطل الروائي لبه قبل السفر وبعده .

ولذلك فان المرأة الغربية كانت حلما ، يحرص البطل على أن يتحقق . ثم درس الباحث بعد ذلك مراحل العلاقة ، وقسمها الى ثلاثة أقســـام :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١- مرحلة البحث عن مطلق المرأة، وهي مرحلة اللاانتقاء، فالمرأة لا تعني بالنسبة للبطل الروائي الا أنثى. يحتاجها الذكر الكامن فيه لتفريغ طاقته الجنسية.

٢- مرحلة الاصطياد: وهذه المرحلة تالية للمرحلة الأولى، ومنبثقة عنها، فانّ الرى والشبع من تلك العلاقات، يجعل البطل الروائي يتفنن في اختيار العلاقة. ولكن هذه المرحلة أيضا تخلو من المشاعر الانسانية، لانّ الرجل يصبح صيادا والمرأة تصبح طريدة.

٣- مرحلة الحب: وقد وقفنا عند أنماط متنوعة من هذا الحب، وبينا خصوصية كل علاقة على حدة، لانّ علاقات الحب وان تشابهت في الاطار العام، الا أنها تملك من الخصوصية قدرا كبيرا. وبعد ذلك وقفنا عند علاقات الحب ذات الأبعاد الحضارية، وبيّنا كيف تغدو المرأة في هذه العلاقة رمزا ذا أبعاد حضارية متنوعة.

أما الفصل السادس فقد وقف فيه الباحث عند أبرز القضايا الفنية في هذه الروايات، فدرسها في البداية دراسة عامة، مبرزا أهم الملامح فيها. ثم وقف عند بعض القضايا الفنية على وجه التخصيص.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثبت المصـــادر والمراجع

١ - المصـــادر.

٢ - المراجع العربية.

٣ - المراجع المترجمة.

٤ - المراجع الأجنبية.

٥ - الـدوريات.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١- المصادر:

١- احمد فارس الشدياق ،كشف المخبا عن فنون اوربا ، تونس، مطبعة الدولة التونسية، ١٢٨٣هـ.

٢- توفيق الحكيم ،عصفور من الشرق ، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٤،

٣- جمعة حماد ، بدوي في اوربا ، عمان ،المؤسسة الصحفية الاردنية، ١٩٧٧م.

٤- حسن جمال الحسيني ،الأصدقاء ،بيروت، المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر، بلا . ت.

٥- حسن جمال الحسيني ، ذكريات صبا سياسي محترف، بيروت، مطبعة سليم، بلا .ت.

٦- خضر نبوة ، الجوع ، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، ١٩٦١.

٧- رفاعة الطهطاوي ، تخليص الابريز، في تلخيص باريز، ج ٢ ،تحقيق محمد عمارة، بيروت ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣،

٨- رفاعة الطهطاوي ، تخليص الابريز في تلخيص باريز، تحقيق أحمد أحمد بدوي وآخرين ، القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد والقومي، ١٩٥٨.

٩- سامي الجندي ، أحداث في المنفى ، بيروت، ١٩٧١.

١٠- سلمى الحفار الكزبري ، البرتقال المر، بيروت، دار النهار، ١٩٧٤.

١١- سليم اللوزي ، المهاجرون، بيروت، دار الشروق ،بلا .

١٢- سهيل ادريس، الحي اللاتيني ، بيروت، دار الآداب، الطبعة السادسة، ١٩٧٣.

١٣- شكيب الجابري ، قدر يلهو، دمشق ،المطبعة الهاشمية ،الطبعة الثانية، بلا .ت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٤- شكيب الجابري، قوس قزح، دمشق، دار اليقظة العربية، ١٩٤٦.

١٥- صباح محي الدين، خمر الشباب، بيروت، مطبعة ممتوق اخـــوان، بلا.ت.

١٦- صباح محي الدين، السمفونية الناقصة، بيروت، دار مكتبة الحياة، الطبعة الثانية، بلا.ت.

١٧- طه حسين، أديب، القاهرة، دار المعارف، الطبعة السابعة، ١٩٧١.

١٨- عبد الحميد جودة السحار، جسر الشيطان، القاهرة، مكتبة مصـــر، بلا.ت.

١٩- عبد السلام العجيلي، رصيف المذراء السوداء، بيروت، دار الطليعـــة، ١٩٦٠.

٢٠- عيسى الناعوري، ليلة في قطار، عمان، دار فيلادلفيا، ١٩٧٤.

٢١- فاضل السباعي، الظمأ والينبوع، بيروت، دار الآداب، ط٢، ١٩٦٤.

٢٢- كوليت خوري، ليلة واحدة، بيروت، منشورات زهير بعلبكي، ١٩٧٠.

٢٣- كوليت خوري، ومر صيف، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٧٥.

٢٤- محمد عيد، المتميز، عمان، مطبعة الشرق ومكتبتها، ١٩٧٨.

٢٥- يحي حقي، قنديل أم هاشم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- المراجع العربيـــة :

١- احسان عباس، فن السيرة، بيروت، دار الثقافة، ط٢، بلا . ت.

٢- احسان عباس، محمد يوسف نجم، الشعر العربي في المهجـــر، بيروت، دار صادر، ط٢، ١٩٦٧.

٣- احمد أحمد بدوي، أحمد فارس الشدياق، القاهرة، لجنة البيان العربي، ١٩٥٩.

٤- أحمد فارس الشدياق، الساق على الساق فيما هو الفارياق، القاهرة، المكتبة التجارية، بلا . ت.

٥- أحمد فارس الشدياق، الواسطة في معرفة أحوال مالطة، القسطنطينية، مطبعة الجوائب، ط٢، ١٢٩٩هـ.

٦- أحمد هيكل، الأدب القصصي والمسرحي في مصر، من اعقاب ثـــورة ١٩١٩ الى قيام الحرب الكبرى الثانية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠.

٧- الياس خوري، تجربة البحث عن أفق، بيروت، مركز الابحاث، ١٩٧٤.

٨- توفيق الحكيم، زهرة العمر، القاهرة، دار الهلال، ١٩٧٥.

٩- الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ٣ج، بيروت، دار الفارس، بلا . ت.

١٠- جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٠.

١١- جورج سالم، المغامرة الروائية، دراسات في الرواية العربية، دمشـــق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٧٣.

١٢- جورج طرابيشي، الأدب من الداخل، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٨.

١٣- جورج طرابيشي، شرق وغرب، رجولة وأنوثة، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٤- جورج طرابيشي ، لعبة الحلم والواقع، دراسة في أدب توفيق الحكيم، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٢.

١٥- جورج طعمة، المغتربون العرب في امريكا الشمالية، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٦٥.

١٦- جورجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق، ٢ج، بيروت، دار مكتبة الحياة، بلا.ت.

١٧- حسام الخطيب، ملامح في الأدب والثقافة واللغة، دمشق، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٧٧.

١٨- حسام الخطيب، سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية، دمشق، ١٩٧٤.

١٩- حمدي السكوت، مارتن جونز، اعلام الأدب العربي المعاصر في مصر، طه حسين، القاهرة، قسم النشر بالجامعة الاميركية بالقاهرة، ١٩٧٥.

٢٠- حسن السندوبي، أعيان البيان، القاهرة، مطبعة الجمالية، ١٩١٤.

٢١- حسين فوزي النجار، رفاعة الطهطاوي، رائد فكر وامام نهضة، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، بلا.ت.

٢٢- خالد الكركي، طه حسين روائيا، رسالة ماجستير باشراف الدكتور محمود السمرة، مطبوعة على الآلة الكاتبة.

٢٣- خالدة سعيد، حركية الابداع، دراسات في الأدب العربي الحديث، بيروت، دار العودة، ١٩٧٩.

٢٤- خلدون الشمعة، الشمس والمنقاة، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٧٤.

٢٥- رئيف خوري، الفكر العربي الحديث، بيروت، دار المكشوف، ١٩٧٣.

٢٦- رجاء النقاش، أدباء معاصرون، القاهرة، دار الهلال، ١٩٧١.

٢٧- رفاعة الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، تحقيق محمد عمارة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، ١٩٧٣.

٢٨- زكريا ابراهيم، مشكلة الحب، القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٩- زكي نجيب محمود ، شروق من الغرب، القاهرة ، الانجلو مصرية ،بلا ت

٣٠- سامي الجندى ،كسرة خبز، بيروت،دار النهار، ١٩٦٩ .

٣١- سامي الكيالي ،الحركة الأدبية في حلب، القاهرة،معهد الدراسات العربية، ١٩٥٧ .

٣٢- سامي الكيالي ،مع طه حسين،ج ١، القاهرة، دار المعارف،ط ١ ،بلا ت

٣٣- سعاد محمد خضر،الأدب الجزائرى المعاصر، دراسة ادبية نقدية، بيروت، - صيدا ، المكتبة العصرية، ١٩٦٧ .

٣٤- سهير القلماوى، ذكرى طه حسين، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٤ .

٣٥- سهيل ادريس، القصة في لبنان ، القاهرة، معهد الدراسات العربية، ١٩٥٧ .

٣٦- شاكر مصطفى ، محاضرات عن القصة في سورية، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٨ .

٣٧- شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر،ط ٥، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٤ .

٣٨- صادق جلال العظم،في الحب والحب العذرى، بيروت،دار العودة، ١٩٧٤ .

٣٩- طنوس الشدياق ، أخبار الأعيان في جبل لبنان ،تحقيق فؤاد البستاني ، بيروت، الجامعة اللبنانية، ١٩٧٠ .

٤٠- طه وادى ، مدخل الى تاريخ الرواية المصرية، القاهرة،مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٢ .

٤١- طه وادى ، صورة المرأة في الرواية المصرية ،القاهرة ، مركز كتب الشرق الأوسط، ١٩٧٣ .

٤٢- عاطف وصفي ،الثقافة والشخصية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧ .

٤٣- عبد الرحمن الرافعي ،عصر محمد علي ،القاهرة،مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٥١م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٤- عبد الغفار مكاوى، التعبيرية في الشعر والقصة والمسرح، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١.

٤٥- عبد المحسن بدر، تطور الرواية العربية الحديثة، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٦٨.

٤٦- عدنان بن ذريل، الرواية العربية السورية، دراسة نفسية، دمشق، مطبعة الآداب والعلوم، ١٩٧٣.

٤٧- عدنان يوسف سكيك، النزعة الانسانية في أدب جبران، القاهرة، الهيئة العامة للتأليف، ١٩٧٠.

٤٨- عزالدين اسماعيل، الأدب وفنونه، دراسة ونقد، القاهرة، دار النشر المصرية، ١٩٥٥.

٤٩- عفيف فراج، الحرية في أدب المرأة، بيروت، دار الفارابي، ١٩٧٥.

٥٠- علي الراعي، دراسات في الرواية المصرية، القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٦٤.

٥١- علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، القاهرة، المطبعة الكبرى ببولاق، ١٣٠٦هـ.

٥٢- عمر الدسوقي، في الادب الحديث، ج ١، دار الفكر، ط٨، ١٩٧٣.

٥٣- عيسى الناعوري، الشريط الأسود، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٣.

٥٤- غالي شكري، المنتمي، دراسة في أدب نجيب محفوظ، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٩.

٥٥- غالي شكري، الرواية العربية في رحلة العذاب، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٦- غالي شكرى، أزمة الجنس في القصة العربية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١.

٥٧- غالي شكرى، ثورة المعتزل، دراسة في أدب توفيق الحكيم، القاهرة، الانجلو مصرية، ١٩٦٦.

٥٨- فؤاد دوارة، عشرة أدباء يتحدثون، القاهرة، دار الهلال، ١٩٦٥.

٥٩- فؤاد دوارة، في الرواية المصرية، القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨.

٦٠- كمال اليازجي، رواد النهضة الأدبية، بيروت، مكتبة راس بيروت، ١٩٦٢.

٦١- لويس عوض، تاريخ الفكر المصرى، ٢ج، القاهرة، دار الهلال، ١٩٦٩.

٦٢- مارون عبود، صقر لبنان، بيروت، دار المكشوف، ١٩٥٠.

٦٣- محمد أحمد خلف الله، أحمد فارس الشدياق، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٥.

٦٤- محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الازهر، بيروت، الدار العلمية، ١٩٧٢.

٦٥- محمد عبد الرحمن البرج، دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٤.

٦٦- محمد عبد الغني حسن، حسن العطار، القاهرة، دار المعارف، بلا .ت.

٦٧- محمد عبد الغني حسن، أحمد فارس الشدياق، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، بلا .ت.

٦٨- محمد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى، ج ١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الاولى، ١٩٧٣.

٦٩- محمد فؤاد شكرى، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة، دار الفكر العربي، بلا .ت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧٠- محمد غنيمي هلال ،الرومانتيكية،بيروت، دار الثقافة، دار العودة، ١٩٧٣.

٧١- محمد كامل الخطيب،المغامرة المعقدة، دمشق ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٧٦.

٧٢- محمد كرد علي ، غرائب الغرب، دمشق ، مطبعة المقتبس، ١٩١٠.

٧٣- محمد مندور، في الميزان الجديد ، القاهرة ،دار نهضة مصر، ١٩٧٣.

٧٤- محمد يوسف نجم. فن القصة ،بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٤.

٧٥- محمد يوسف نجم، القصة في الأدب العربي ،بيروت، دار الثقافة.

٧٦- محمد يوسف نجم، المسرحية في الأدب العربي الحديث،بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧.

٧٧- محمود الربيعي ،قراءة الرواية،نماذج من نجيب محفوظ،القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٤.

٧٨- محمود السمرة،في النقد الادبي ، بيروت،الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٤.

٧٩- محمود السمرة، فلسطين الفكر والكلمة، بيروت،الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٤.

٨٠- محي الدين صبحي ،عوالم من التخييل ، دمشق ،وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٧٤.

٨١- ميخائيل نعيمة، الأعمال الكاملة ،بيروت، دار العلم للملايين ، ١٩٧١.

٨٢- نصرت عبد الرحمن ، في النقد الحديث، عمان ، مكتبة الأقصى ١٩٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨٣- نصمات أحمد فؤاد ، قمم أدبية ، القاهرة ، عالم الفكر ، ١٩٦٦ .

٨٤- يوسف أسعد داغر ، مصادر الدراسة الأدبية ، بيروت ، الجامعة اللبنانية ، ١٩٧٢ .

٨٥- يوسف الشاروني ، الرواية المصرية المعاصرة ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٧٣ .

٨٦- يوسف الشاروني ، دراسات في الرواية والقصة القصيرة ، القاهرة ، مكتبة الانجلو مصرية ، ١٩٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- المراجع المترجمة :

١- بيرك ، جاك : العرب تاريخ ومستقبل ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١ .

٢- جيمس وكونراد وآخرون ، نظرية الرواية في الأدب الانجليزي الحديث ، ترجمة انجيل بطرس سمعان ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١ .

٣- جرييه . (الآن روب) ، نحو رواية جديدة ، ترجمة مصطفى ابراهيم مصطفى ، القاهرة ، دار المعارف ، بلا . ت .

٤- مور ، ادوين ، بناء الرواية ، ترجمة ابراهيم الصيرفي ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥ .

٥- فورستر ، أ . م : أركان القصة ، ترجمة كمال عياد ، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع ، ١٩٦٠ م .

٦- البير يس ، ر . م : تاريخ الرواية الحديثة ، ترجمة جورج سالم ، بيروت ، منشورات عويدات ، ١٩٦٧ .

٧- هنري ، روبرت ، تيار الوعي في الرواية الحديثة ، ترجمة محمود الربيعي ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥ .

٨- ايدل ، ليون ، القصة السيكولوجية ، ترجمة محمود السمرة ، بيروت ، المكتبة الأهلية ، ١٩٥٩ م .

٤- المراجع الاجنبية :

Hilary Kil partric, The Modern Egyption Novel, London, Tho Middle East Centre, 1974.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥- الدوريات:

الآداب، العدد الرابع، ١٩٥٤، (بيروت)
الآداب، العدد الثاني، ١٩٥٥، (بيروت)
الآداب، العدد الثالث، ١٩٦٣، (بيروت)
الآداب، العدد الخامس، ١٩٦٥، (بيروت)
الآداب، العدد الثالث، ١٩٦٥، (بيروت)
الآداب، العدد الخامس، ١٩٧١، (بيروت)
الآداب، العدد الخامس، ١٩٧٥، (بيروت)
أفكار، العدد الحادي عشر، ١٩٦٧، (عمان)
أفكار، العدد الواحد والاربعون، ١٩٧٨، (عمان)
أفكار، العدد التاسع والثلاثون، ١٩٧٨، (عمان)
الثقافة الدمشقية، السنة الاولى، العدد الثامن، (دمشق)
الجديد، السنة الأولى، العدد الرابع، (القاهرة)
الحوادث، العدد (٩٢١) لسنة ١٩٧٤، (بيروت)
حوار، العدد الأول، ١٩٦٤، (بيروت)
حوار، السنة الثالثة، العدد الثالث، ١٩٦٥ (بيروت)
عالم الفكر، المجلد الثالث، العدد الثالث، ١٩٧٢، (الكويت)
مجلة كلية الآداب، العدد الأول، ١٩٦٩ (الجامعة الاردنية)
المشرق، المجلد الأول، (بيروت)
المعرفة، عدد ١٤٩ سنة ١٩٧٤، (دمشق)
المعرفة، عدد ١٥٣، ١٩٧٤، (دمشق)
المعرفة، عدد ١٦٨، ١٩٧٦، (دمشق)
المعرفة، عدد ٢٠١، ١٩٧٨، (دمشق)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعرفة، عدد (١٩١ - ١٩٢)، ١٩٧٨، (دمشق)
الموقف الأدبي، العدد السادس، ١٩٧٥، (دمشق)
الموقف الأدبي، العدد (١ - ٢)، ١٩٧٥، (دمشق)
الهلال، العدد الثاني، ١٩٧٠، (القاهرة).
الهلال، السنة الخامسة والثمانون، ١٩٧٧، (القاهرة)
الهلال، العدد الخامس، ١٩٧٢، (القاهرة)

جريدة الرأي الأردنية، العدد رقم ٢١٢٣ (عمان)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

The Arab Protagonist Vis - a - Vis Western Civilization: A Study of the Novel in Egypt and Syria Proper (1935 - 1978)

Khalil M. Al-Shiekh

Supervisor

Professor M. D. Samra
Prof. of Literary Criticism
and Rhetorics
Vice President for Academic
Affairs
University of Jordan

The Date of Defence

" Submitted in partial fulfilment of the requirements for the de gree of Master of Arts in Arabic Language and Literature, Faculty of Arts, University oF Jordan."

٢٦٢٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

This thesis, consisting of six chapters, has been intended to scrutinize the interrelationship between the Arabs in the Middle East and the West during the period from 1935 throught 1978, an era which was marked by so many drastic changes in all aspects of life. Choosing to observe all this in the spectrum of the Modern Arabic Novel in Egypt and Bilad Al - Sham (Historical Syria) was because the novel as a genre is one of the most effective literary forms to pin - point these changes and expose them.

In the first chapter the researcher tried to observe the impact of the Western Civilization on two pioneers of the Modern Arabic Renaissance :Rifaah al - Tahtawi and Ahemad Faris al- Shidiaq. The former spent almost five years in Paris from 1826 to 1830, while the latter visited London in 1848 and then moved to many other European cities. "Takhlis Al- Ibriz Fi Talkhis Bariz" by Tahtawi and "Kashf Al-Mukhabba" an Funoon Aurubba"By Shidiaq were carefully studied in this chapter.

The motives of travelling to the West as shown in the Arabic Novel were discussed in the second chapter. They were:

1. Seeking knowledge.
2. Tourism.
3. Immigration to Western Countries.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Confronting the Western Civilization, the characters were studied in the third chapter. Their speculations about the West and the way they responded to the challenges of the Western Civilization were verified. Their responses were varied as follows:

1. Loneliness and Isolation.
2. Duality of Behaviour.
3. Idealism.
4. Balance of Behaviour.
5. Liberality.
6. Lack of Balance.
7. Uneasiness and Alienation.

The sense of belonging in these characters as well as the impact of the Palistinian Question on each of them were discussed in the fourth chapter. Much of the effort in this chapter was dedicated to the characters both as belonging and non-belonging.a like.

In the fifth chapter the researcher tried to depict the image of the western woman as seen in the Arabic Novel. H e started discussing her preliminary notions about an Arab and then classified the various forms of relationship between her and the Arabic protagonist as follows:

1. H aphazard seeking for a female.
2. Hunting for the female.
3. Love.
4. Civilized Relationships.

The sixth chapter was an attempt to analyse these novels from the artistic point of view. In this final chapter the various forms of the novel were discussed as well as some of the artistic issues relating to the structure of the novel.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit